أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

١٣٠١ - ١٤٠٠هـ
١٨٨٣ - ١٩٨٠م

الجزء الثاني

محمد علي مغربي

بسم الله الرحمن الرحيم

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

المقدمة

الحمد لله الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى ارسله ربه رحمة وهدى فاخرج البشرية كلها من ظلمات الجهالة الى نور العرفان ، ومن ضلالات الوثنية الى عبادة الواحد الديَّان ، وبعد فهذا هو الجزء الثانى من اعلام الحجاز وقد اشتمل على تراجم بعض العلماء والادباء والمؤرخين والشعراء وكلهم عَلَمٌ فى فنه ومجاله . ولقد كان حديثي عنهم بحثا فى الآثار التى تركوها والتى ظهرت فى حياتهم أو استخرجت مما خلفوه مخطوطا فى اوراقهم ، وقد اتخذ الحديث عنهم طابع الاسهاب لأني رأيت من الخير تلخيص بعض هذه الآثار التى تضمها الكتب الكبيرة فى صفحاتها ، ليسهل على الناس قراءتها والاحاطة بها ، وخاصة ما يتعلق منها بتاريخ مضى وعهد انقضى ، وليكون هذا الحديث دافعا لمن رغب الاستزادة للرجوع الى الاصل الذى منه استقيت ، والمورد الذى منه نهلت ، واني لأرجو ان يجد فيها القارىء بعض الفائدة والامتاع .

ان اعلام الحجاز الذين يستحقون أن يترجم لهم أكثر من أن يحيط بهم كتاب ، وإنى باذل الجهد فى جمع كلما يتيسر لي من أخبارهم والاطلاع على ماتركوا من آثار وتقديمه للقارىء بالاسلوب الذى اتبعه فى هذا الكتاب وفى الكتاب الأول الذى سبقه ، متوخيا الصدق فى الرواية ، والبعد عن المطاعن مظهرا للحسنات ، عملا بالحديث الشريف «اذكروا محاسن موتاكم» متجاوزا عن النقص الذى لايخلو منه انسان .

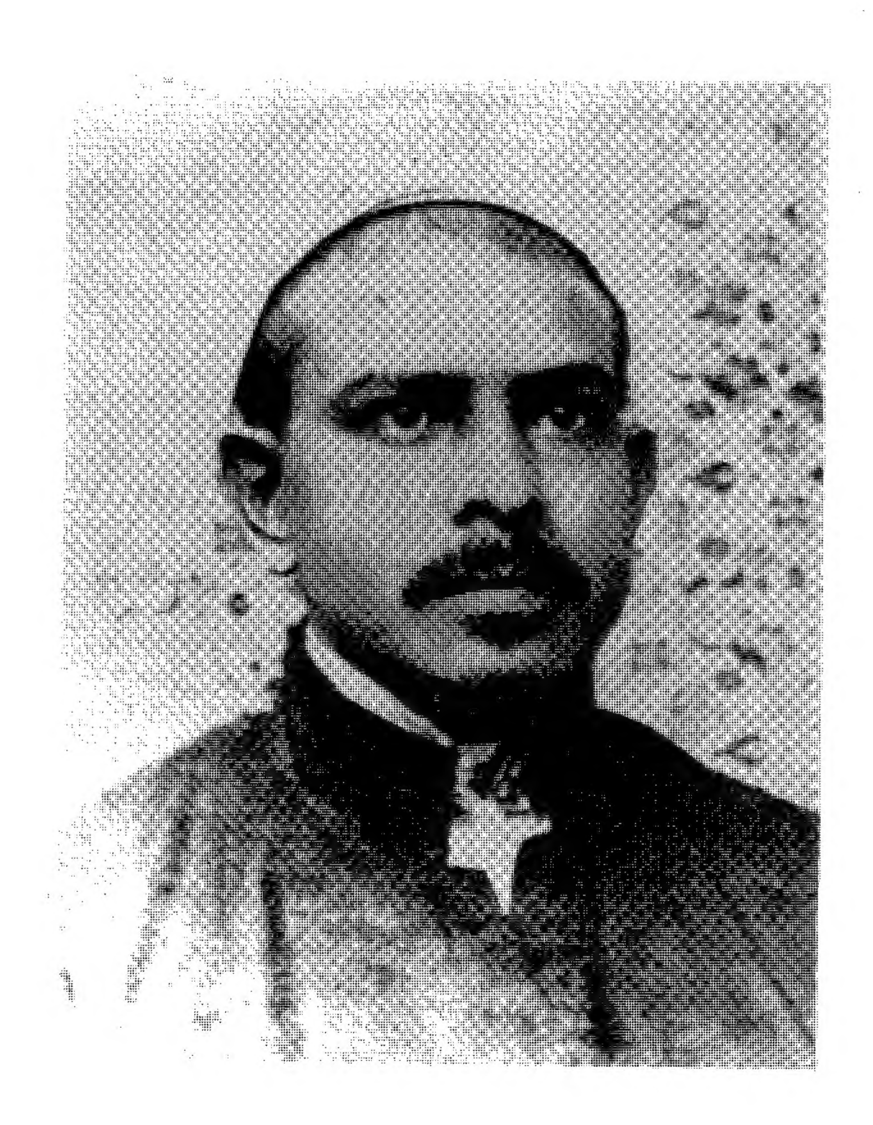
وبعد فلقد ظن بعض الناس أن أعلام الحجاز هم أعيانه وسراته ووجهاؤه

فاخذوا عليَّ أني أغفلت الحديث عن كثير من الرجال الذين قرنت أسماؤ هم بالمال والجاه، أو الذين تقلدوا المناصب وحظوا بالالقاب، وأنى أكرر هنا ما سبق أن ذكرته للاخوة العاتبين والسادة اللائمين أني أكتب عن الرجال الذين تميزت حياتهم بما بذلوه من جهد مادي أومعنوي فى خدمة المجتمع الذى عاشوا فيه فتركوا هذه الحياة وبقيت آثارهم شاهدة عليهم مشيرة إلى النافع من أعمالهم، وحسابهم أولا واخيرا على الله المطلع على السرائر والذى لايضيع عمل العاملين. . ومرة أخرى فان هذه التراجم هى لرجال فارقوا هذه الحياة الدنيا الى رحاب الله تعالى فالحديث عنهم هو للعبرة والذكرى إحياء للعمل الطيب، وتسجيلا للذكر الحسن ورغبة فى اعتبار الاحياء لاتباع القدوة الحسنة ممن سبق من الآباء والاجداد.

وقبل أن اختم الحديث أود أن اقول أن أي عمل لايخلو من نقص فإن رأى القارىء نقصا يستطيع أن يكمله فلا يبخل علي بذلك، فلست ادعى الكمال الذى لايصل إليه بشر، وأسأل الله تعالى أن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم خالية من العجب والرياء، كما أسأله تعالى أن يوفقنى إلى الحديث عن طائفة أخرى من الأعلام فى كتاب لاحق إن كان فى العمر بقية والحمد لله أولا وآخرا ومنه أستمد العون والسداد. .

محمد علي مغربي

الشيخ أحمد بن عبد الله القاري



بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ أحمد بن عبدالله القاري

اسمر اللون يميل إلى الصفرة معتدل القامة متوسط الجسم واسع العينين، أقنى الأنف مسبل اللحية والشارب، حليق العارضين، عرفته فى النصف الأول من الأربعينات يرتدى الجبة والعمامة الالفي الحجازية ومن تحتها الشاية وهو زيّ العلماء فى ذلك الزمان، ثم تحول الى العباءة والغترة بدون عقال وهوزي رجال الدين فى العهد السعودى، انيق الملبس، يكسووجهه الوقار وتلوح مخايل الذكاء بين عينيه.

ولد بمكة عام ١٣٠٩ هجرية وحفظ القرآن الكريم وجوده على يدى والده شيخ القراء الشيخ عبدالله القارىء والتحق بالمدرسة الصولتية بمكة المكرمة وتلقى علومه بها اضافة الى مواظبته الحضور لتلقى الدروس بالمسجد الحرام، وكان من انبغ الطلاب بالمدرسة الصولتية كما توضح ذلك الترجمة المسهبة التى اوردها الاستاذ الدكتور عبدالوهاب ابراهيم ابو سليمان والاستاذ الدكتور إبراهيم احمد على (١) وقد كان لهذا النبوغ المبكر تأثيره الحسن فى نفوس أساتذته فانضم إلى سلك المدرسيين بالمدرسة وهو طالب بها وكان هذا التقليد من الوسائل التشجيعية التى تتبعها المدرسة الصولتية مع تلاميذها النابهين.

---

١ ـ انظر ترجمة المؤلف فى مجلة الاحكام الشرعية صفحة ٦٤ ـ ٦٧

وحصل الشيخ أحمد القارى على أجازة التدريس بالمسجد الحرام بتفوق عظيم وقد وصف العلامة الشيخ حسن المشاط الكيفية التى تم بها اختيار الشيخ أحمد القاري فقال:

كانت هيئة الامتحان مكونة من اربعة علماء يطرح كل واحد منهم سؤ اله فى مختلف العلوم ويناقشون المتقدم مناقشة قوية مفحمة قَلَّ من يستطيع النجاح فيها، وكان الأمر بالنسبة للشيخ أحمد القاري إنه إذا طرح عليه السؤ ال يسهب فى الاجابة بطريقة تحليلية عجيبة فاذا ما اراد احد العلماء الممتحنين مقاطعته قال له به ـ على رسلك فالكلام إلى نهايته ـ واستطاع باسلوبه وقوة عارضته وعلمه الغزير أن يمتلك إعجاب الممتحنين والحاضرين، وعلى أثر ذلك إستحق بجدارة ان يكون من مدرسي المسجد الحرام (١)

وهكذا أثمر هذا النبوغ المبكر ثمرته فاقتعد استاذنا الشيخ أحمد القاري مقعده فى رحاب المسجد الحرام فى حصوة باب ابراهيم فى هذه السن المبكرة وكان الطلاب الذين يجلسون بين يديه يكبر ونه سنا، ويكبرهم هو مقاما وعلما.

تقلد الشيخ أحمد القارى وظائف علمية كثيرة الى جانب استمراره فى التدريس فى المسجد الحرام والمدرسة الصولتية فى عام ١٣٣٤ هـ.

وفى عام ١٣٣٦ هـ انتخب معاونا لأمين الفتوى بمكة المكرمة.

وفى عام ١٣٣٩ هـ عين عضوا بهيئة التدقيقات الشرعية الى جانب عمله السابق. وانتقل الى جدة فى عام ١٣٤٥ هـ ليتولى القضاء بها، فى أوائل العهد السعودى.

كما تولى التدريس والدعوة والامامة بمسجد عكاش بجدة وفى هذه الفترة عين مدرسا بمدرسة الفلاح بجده للعلوم الدينية حيث إتصلت أسباب كاتب هذه السطور به استاذا بالمدرسة المذكورة كما سنوضح ذلك بعد، وفى عام ١٣٤٩ هـ عين الشيخ أحمد القارى عضوا بمجلس الشورى فى مكة المكرمة .وفى عام ١٣٥٠هـ

---

١ ـ انظر ترجمة المؤلف فى مجلة الأحكام الشرعية صفحة ٦٥

عين رئيسا للمحكمة الشرعية الكبر ى بمكة المكرمة فعاد إلى مركزه الطبيعى فى سلك القضاء

وقد استمر الشيخ أحمد القاري فى هذا المنصب الى ان عين عضوا فى رئاسة القضاء ـ هيئة تمييز الاحكام حاليا ـ فى عام ١٣٥٧ هـ وكان رئيس القضاء هو الشيخ عبدالله بن حسن إمام وخطيب المسجد الحرام وهووالد الشيخ حسن آل الشيخ وزير التعليم العالي حاليا.

وقد بقى الشيخ أحمد القاري فى هذا المنصب الى ان توفاه الله تعالى فى عام ١٣٥٩ هـ كما سيأتى تفصيله بعد. وينحدر الشيخ أحمد القارى من أسرة تشتغل بالعلم والتعليم فوالده الشيخ عبدالله القارى كان شيخ القراء بمكة المكرمة الى جانب اشتغاله بطلب العلم فى المسجد الحرام والمدرسة الصوليته فكان استاذا لمئات التلاميذ فى مكة المكرمة وعمه الشيخ عبدالرحمن بن محمد القاري كان كذلك من العلماء المشهود لهم بالفضل وكان مدرسا بالمدرسةالصوليتة كذلك ،ثم سافر الى الهند لنشر علم القراءات والتجويد فمكث بها طيلة حياته واخواه حامد بن عبدالله القارى والشيخ محمود بن عبدالله القاري وهما كذلك من رجال التعليم وقد أورد الاستاذان الدكتور عبدالوهاب ابوسليمان والدكتور محمد ابراهيم أحمد علي تراجم وافية عن هذه الأسرة الكريمة فليرجع إليها من شاء (١)

عرفت المرحوم الشيخ أحمد القاري أستاذا لنا بمدرسة الفلاح بجدة فى النصف الأول من الأربعينات وفى أوائل العهد السعودي وكان يدرس العلوم الدينية بالفصول العليا من المدرسة والتى كانت تسمى الفصول العلمية وتبدأ من السنة السابعة إلى السنة التاسعة وقد رأينا فى أستاذنا الجديد نمطا فريدا بين أساتذتنا ومعلمينا، كان الرجل ذكيا لماحا، وكان فى نفس الوقت متمكنا من العلم الذى يلقيه إلينا، وكان مهيبا لايجرأ الطلبة على ازعاجه بما تعود بعضهم أن يفعله من ضوضاء وشغب وكان إلى جانب هذا وذاك شخصية محببة تجمع بين الوقار واللطف

---

١ ـ مجلة الاحكام الشرعية صفحة ٦٤ ـ ٧١

ولا اذكر أنه عاقب أحدا من الطلبة حتى ولابكلمة قاسية، وكانت له كلمة لطيفة يرددها أثناء الدرس وكلما انتهى من الشرح فيقول متسائلا مفهوم يامشايخ؟ فنجيب فى أدب مفهوم يامولانا.

وكان المعروف عن أستاذنا أنه كان يتولى القضاء ثم حدث ماصرفه عنه فعين استاذا للصفوف العليا بالمدرسة، وكان يعلمنا الأصول والتفسير وأذكر أنه كان يدرس لنا تفسير القرآن للامام النسفي وهومن أجل التفاسير للكتاب الكريم، كما أنه كان الاستاذ الوحيد فى المدرسة الذي يتقن علم الجبر، وكان يلقى دروسه علينا فيه فى تؤدة يحاول ان يشرح لنا معمياته، وهو على اي حال كان من الدروس الصعبة لا بالنسبة لي وانما لكافة زملائى فى الصف.

وكنا نشعر أن أستاذنا له شخصية مستقلة فلم نره يخلط نفسه ببقية أساتذة المدرسة وإنما كان يصل إلى المدرسة فى مواعيد الحصة الأولى ويأخذ طريقه الى الصف الذى يلقى فيه درسه، فاذا انتهى الدرس جلس وحيدا فى غرفة الانتظار أو مع كبار معلمي المدرسة، وكنت تلمح دائما أمارات الاتزان فى حركاته وحديثه، فى غير اعتداد بالنفس أو تعالٍ على الاخرين..

وكان الشيخ احمد القارى يتقاضى مرتبا ضخما من مدرسة الفلاح فى ذلك الزمان خمسة عشر جنيها ذهبا فى كل شهر ولعل هذا كان أعلى مرتب تصرفه مدرسة الفلاح لكل أساتذتها بما فيهم نائب مدير المدرسة الذى كان يتقاضى عشرة جنيهات فحسب، وكان الشيخ أحمد يستحق ذلك دون شك فالرجل عالم متمكن من علمه وقد ولي القضاء فى العهد الهاشمي كما وليه فى العهد السعودى.

لكن ظروف المدرسة مالبثت ان تغيرت،كانت المدرسة تتلقى مصروفاتها من مؤسسها الحاج محمد على زينل رضا الذى كان من أغنى الأغنياء وكان يتجر فى اللآلي ثم ظهر اللؤلؤ الصناعي فانهارت تجارة اللؤلؤ الأصلي وتعرض مؤسس الفلاح لازمة اقتصادية عظيمة اضطر معها الى التخلي عن الصرف على مدارس الفلاح كما اسلفنا بيان ذلك فى الجزء الأول من اعلام الحجاز (١)

١ - انظر الحلقة الخاصة بالحاج محمد علي زينل رضا فى كتابنا اعلام الحجاز صفحة ٢٧٨/٢٩٢ الجزء الأول.

لما ظهرت بوادر هذه الازمة اضطرت المدرسة ان تطلع الشيخ أحمد القارى رحمه الله على الظـروف السيئـة التى تعرضت لها، والتى اضطرت معها الى ان تستغني عن خدمـاتـه لانها لاتستطيع الاستمرار فى صرف المرتب الضخم الذى يتقاضاه فى هذه الظـروف، ولم يكن من أستـاذنـا رحمـه الله إلا أنـه أصرَّ على البقاء فى المدرسة والعمل فيها بدون مرتب، لم يقبل منهم أن يدفعوا له مايدفع لزملائه الآخرين، ولم يقـل أنـه يقنـع ببعض الـراتب، وانما أصر على أن يعمل بلا مقابل على الاطلاق وهكذا كان.

ولم يكن الشيخ أحمد غنيا ولاصاحب تجارة أو عمل، وإنما كان رجل علم وهب حياته للعلم وسلخ مامضى من حياته طالب علم ومدرس علم ثم تدرج فى وظائف المحاكم الشرعية حتى وصل الى القضاء بين الناس ولقد كان صاحب أسرة ولكنه كان عظيم الثقة بالله تعالى، وانه لن يضيع أجر من أحسن عملا، لهذا آثر البقاء بين طلابه فى مدرسة الفلاح بجدة يقوم بأشرف عمل فى هذه الحياة ابتغاء مرضاة الله تعـالى حتى يجعـل الله له وللمـدرسـة فرجـا ومخـرجا. ولقد طلب الشيخ أحمد القارى بعد ذلك للعمل مرة أخرى فى مجلس الشورى ثم فى سلك القضاء فى مكة المكـرمـة وانتقـل اليهـا كما قرأنـا فى صدر هذه الـترجمة. هذا ولقد كان استاذنا محباً لتلاميذه حفيا بأمرهم.

حدث أني تركت المدرسة بعد نهاية العطلة المدرسية وحين بداية العام الجديد، اذ رأى أهـلي أن من الخـير لهم أن اعمـل فى إحدى الوظائف بدلا من الاستمرار فى الدراسة، وكـان المتخـرجون من الفلاح يعملون فى الوظائف الكتابية الحكومية أو الأهليـة، ولم ير أهـلي مايـوجب استمـرارى عامـين آخـرين للانتقـال من سلك الـدارسـين الى سلك المـوظفـين، فالحقـوني بمالية جدة بوظيفة ملازم، والملازم هو المـوظف الـذى يلازم الـدائرة التى يلتحق بها ليتمرن على العمل الوظيفى إلى أن تخلو وظيفة فيعين بها بعد ان يكون قد اكتسب من الخبرة مايؤ هله لذلك، وبعد ان يكون قد اتيح لرؤ سائه ان يطلعوا على مبلغ مايحسنه من الكتابة أو الحساب.

وقضيت مايقرب من شهر فى وظيفة ملازم بمالية جدة وكان رئيسها المرحوم السيد

هاشم سلطـان ، وذات يوم لقيت استـاذنـا الشيخ أحمد القاري وهو فى طريقه الى مدرسة الفلاح وانا فى طريقي الى مالية جدة وكانت فى مبنى الخزنة ، وكان هذا المبنى يقـع امـام باب جديد فى مواجهة ميدان البيعة الحالي وكان يضم قائم مقامية جدة وادارة المالية والمحكمة الشرعية وقد ازيل هذا المبنى بعد ان اصبح خربا وآل الى السقوط.

وكـان الشيـخ أحمـد رحمـه الله يسكن فى حارة الشـام فى مواجهـة مبنى الخـزنـة المـذكـورة. لقيت الشيـخ فوقفت اسلم عليـه فسألني لماذا انقطعت عن الـدراسـة فاخبرته أن أهلي رغبوا لي أن أتوظف قال وماهى الوظيفة التى عملت بها قلت أني لا زلت ملازمـاً ـ والمـلازم لا يتقـاضى أي راتب ـ وقـد يبقى بلا عمل إن لم يهتم به أحد من الموظفين أو يوصي عليه.

قال الشيـخ حسنـا، وقـابلتـه مرة اخـرى فاستوقفني وقال لي انه وجد لى وظيفة حسنـة وراتبهـا اربعـمائـة قرش ذهب وهى وظيفـة معاون مأمور الحوالات والطرود بادارة بريد جدة وقال لي اذهب الى هناك وقابل الشيخ سالم ناظر مأمور الحوالات والطرود فقد حدثته فى امرك وهو محتاج الى معاون له، شكرت الشيخ وقلت اني لابد لي الرجوع الى والدي وخالي فى الأمر فقال على بركة الله.

وهكذا اوجد لى الشيخ رحمه الله اول وظيفة عملت بها وانا دون الخامسة عشرة وكانت فى وقتها تعتبر احسن مايمكن ان يبدأ به موظف صغير مثلي، وهكذا اظهر الشيخ اهتمامه بتلميذ من تلاميذه يرحمه الله.

مجلة الاحكام الشرعية

هذا ولقد فوجئت كما فوجيء غيرى من الناس بالمرجع الشرعي الضخم الذى كرس الشيخ أحمد رحمه الله حياته لتأليفه، والذى قام على مراجعته وتحقيقه وشرح مايتعلق به فى الهـوامش الضخمـة كل من الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان، والدكتور محمد إبراهيم أحمد علي الاستاذين المشاركين بجامعة أم القرى. وقامت ـ

تهامة مشكورة باصداره فى طباعة جيدة واخراج حسن.

ان مجلة الاحكام الشرعية ليست كما يتصور القارىء مجلة من المجلات الدورية التى تصدر فى كل اسبوع أو كل شهر أوفى كل بضعة شهور وانما هو اصطلاح سبقت اليه الحكومة العثمانية حينما اصدرت مجلة الاحكام العدلية فى عام ١٢٠٣ هـ وهو كتاب يشتمل على المعاملات الفقهية ووسائل الدعاوى واحكام القضاء كما اوضح العالمان الفاضلان اللذين قاما بمراجعة المجلة المذكور واخراجها للناس.

وهو علم الغرض منه وضع الاحكام الشرعية فى صيغة قانونية اذا صح هذا الوصف، لتكون مرجعا لذوي العلاقة من العلماء والقضاة وطلاب العلم والمحامين واصحاب القضايا وقد كانت الحكومة العثمانية وضعت هذه المجلة على اساس مذهب الامام ابي حنيفة النعمان الذى كان المذهب الرسمي لدولة الخلافة العثمانية.

وقد تفرغ الشيخ احمد القارى رحمه الله لوضع الاحكام الشرعية على مذهب الامام أحمد بن حنبل فى هذه المجلة التى اعطاها نفس الاسم الذى سبق ان اعطي للمجلة التى ظهرت فى العهد العثمانى باعتبار ان هذا الاصطلاح اصبح علما على هذا الامر.

وليس هنا مجال البحث فى هذه المجلة الشرعية التى كرس استاذنا الشيخ أحمد القارى رحمه الله حياته لجمع احكامها وتبويبها وترتيبها فهذا شأن المتخصصين من أرباب هذا العلم، وهم احق بالحديث عنه مني ومن امثالي. ولكني استطيع ان اقول ان هذا العمل العظيم يضطلع به فى العادة جماعة من أفاضل العلماء، يتفرغ كل منهم على ناحية من النواحى فيجمع احكامها ويراجعها ويبوبها ويرتبها، ويعلق عليها، كأن يتفرغ واحد منهم مثلا لشئون البيع وانواعه وامور التجارة ومايجوز منها وما لايجوز، ويتفرغ الآخر مثلا لاحكام الشركات وانواعها ومايتعلق بهما ومايتفرع عنهما. ويتفرغ الثالث لاحكام العقار وما اليه وربما اختص كل واحد

منهم بنوع من انواع الاحكام الشرعية، وهكذا حتى تستكمل هذه الجماعة جميع الاحكام الشرعية التى تتعلق بحياة الناس وامورهم. اما ان يقوم فرد واحد بعبء هذا العمل العظيم كله فهو الاعجوبة التى تنحني لها الرؤوس اجلالا وتقديراً.

ولقد ذكر العالمان الفاضلان اللذان قاما بتحقيق هذه المجلة الشرعية إن جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله اعتزم تأليف لجنة من خيار العلماء المتخصصين لوضع مجلة للاحكام الشرعية تستقى الاحكام من جميع المذاهب الشرعية بما تراه فى صالح المسلمين مدعما باقوى الحجج ولكن جلالته تيقن ان هذا الامر يقتضي الوقت الطويل والجهد الكبير فاكتفى بتعيين المراجع الشرعية التى يرجع اليها فى القضاء بين الناس.(١)

واني لانقل هنا ماكتبه الاستاذان الفاضلان اللذان قاما بدراسة وتحقيق هذا الكتاب العظيم تحت عنوان تقويم المجلة.

تعتبر هذه المجلة أول عمل علمي حديث فى الفقه الحنبلي سبق غيره من الأعمال فى هذا المجال وقد ساعد القاضي أحمد تأليفها واخراجها فى هذا الثوب الفقهى الجديد تكوينه العلمي ووضعه الوظيفى ذلك انه يعتبر من كبار فقهاء الحنفية فى البلد الحرام، وقد مارس المذهب الحنفي تعلما وتدريسا فهو على معرفة والفة تامة بالمذهب الفقهى لمجلة الاحكام العدلية العثمانية فسهل هذا عليه هضم منهجها والاسلوب الذى صيغت فيه احكام ذلك المذهب.

اما معرفته بالفقه الحنبلي فهى معرفة عميقة لانه عايشه قضاء ولسنين عديدة فلا عجب ان تكون هذه المجلة التى نقدمها للباحثين والدارسين ثمرة تلك الروافد الصافية والملكة الفقهية الاصيلة (٢). وجاء كذلك فى تقويم المجلة مايلى:

استطاع المؤلف فى كثير من المواد والاحكام صياغتها وحبك عبارتها فى صورة يمكن اعتبارها قاعدة وقانونا فاصلا فى موضوعها. ومنها:

اظهر المؤلف رحمه الله تعالى جانبا مشرقا من ملكته الفقهية فقد ذكر فى كتاب

---

١ - انظر صفحة ٢٩ مجلة الاحكام الشرعية. ٢ - مجلة الاحكام الشرعية صفحة ٥٢ باب تقويم المجلة.

الـوقف قضـايـا واقعية مأخوذة من سجلات المحاكم الشرعية مستشهدا بها لتطبيق علمي لحكم المـادة، ولـو قدر للمؤلف سعـة فى عمـره لذيل كل مادة فقهية بقضية شرعية مناسبة لها خصوصا وهويعمل فى القضاء ويعتبر هذا الاسلوب فكرة متطورة سبق بها زمانه .

وختم الاستاذان الفاضلان حديثهما عن تقويم المجلة بما يلى :

ان هذه المجلة بما لها وماعليهـا تجربـة رائدة فى المذهب الحنبلى وعمل جليل فى الفقـه الاسـلامى يتطلب من البـاحثـين متـابعة هذا المنهج والمثابرة عليه نحوكتب تراث الفقـه الاسـلامي حتى تسهل الاستفادة منه، ويكسر الحاجز الذى حال بين المسلمين وبين ورود منابعه الصافية فى وقت هم أحوج مايكونون إلى ذخائره وكنوزه[1]

هذا والمجلة سفر ضخم يتكون من ستمائة وتسعة وسبعين صفحة ويحتوى على واحـد وعشـرين كتابا شملت الاحكام الشرعية للبيع واحكامه وانواعه والاجارات وانـواعهـا وفى العارية والوديعة وفى الغصب والاتلاف والحجر والاكراه وفى الشفعة والصفـح والابـراء وفى الشـركات وأنواعها وفى القضاء والبينات والشهادة وخلافها وكـل كتـاب من هذا الكتب يحتـوى على فصول كثيرة صيغت فيها مواد الأحكام الشرعية فى تفصيل وتحقيق عظيمين وبلغ مجموع المواد التى صيغت فيها الأحكام الفين وثلاثمائة واثنين وثمانين مادة .

ولقـد بقيت المجلة الشـرعيـة التى الفهـا استـاذنا الشيخ أحمد القارى رحمه الله حبيسة خزانة الشيخ حتى توفاه الله تعالى فقام اخوه العالم الفاضل الشيخ حامد بن عبـدالله القـارى بحفظهـا والمحافظة عليها حتى اذن الله تعالى لها بالظهور بعد ان علم بها العـالمـان الفـاضـلان الاستـاذ الـدكتـور عبـدالـوهـــاب إبـراهـــيم أبـوســليمان والأستـاذ الـدكتـور محمـد إبـراهيم أحمد على الأستـاذان المشـاركـان بجـامعة أم القرى فقاما بعبء مراجعتها وتحقيقها والتعليق

---

١ - مجلة الاحكام الشرعية صفحة ٥٣ ، ٥٤ باب تقويم المجلة .

عليهـا وإخـراجهـا للنـاس فى هذا السفـر الضخم العظيم الذي يتألف من حوالي سبعمائة صفحة. وقامت تهامة مشكورة بطبعها واخراجها للناس عملا رائعا عظيما ينتفـع به النـاس فى كل زمـان ومكان. ولقـد لاحظت ان مجلة الاحكـام الشـرعية لم تتعـرض لاحكـام الـزواج والطـلاق والأرث، ولم يورد المحققـان الفاضلان تعليلا لذلـك، ولكن هذا لايطعن بحـال من الأحـوال فى قيمـة العمـل العظيم والجهـد الكبـير الـذى بذلـه المؤلف الفـاضـل فى تدوين أحكـام المجلة وأرجـو أن يقـوم من علمائنـا الأفـاضـل من يستكمـل وضـع الاحكـام التى لم ترد فى المجلة لتكـون استكمالا لهذا العمل العظيم الذى بدأه استاذنا الكبير رحمه الله.

إنها صدقة جارية ادخرها الله تعالى لشيخنا الجليل الأستاذ أحمد لتظهر بعد أن مضى عليه مايزيد على ثلاث وأربعين سنة وهو في رحاب الله تعالى فخرجت إلى الناس بريئة من العجب والادلال لان صاحبها قد غادر هذه الحياة الدنيا الى دار الجزاء والحساب. سليمة من الفخر وتقبل الثناء لأنَّ ماعند الله ابقى واجزل مثوبة.

وقـد توفى الشيـخ أحمـد رحمـه الله فى عام ١٣٥٩ هـ بمدينة الطائف بعد مرض طويل ودفن فى المقبرة الملاصقة لمسجد ابن العباس بعد الصلاة عليه فى المسجد المذكور.

رحم الله استـاذنـا الشيخ أحمد القاري بقدر ما أسدى للعلم وأهله وأحسن جزاءه فى جنـات عدن وشكـر الله للاستـاذين الفاضلين الذين قاما على مراجعة هذا العمل العظيم وتبويبه وترتيبه والتعليق عليه واخراجه الى النور لينتفع به الناس، وشكر الله لتهامة ماتقوم به من عمل طيب متواصل فى نشر روائع العلم والادب بين الناس.

محمد علي مغربي

حسين عبدالله باسلامة



حسين عبدالله باسلامة

معتـدل القـامة ، حنطي اللون واسع العينين ، كبير الأنف معتدل الجسم تزين وجهه لحية غلب البياض فيها على السواد يرتدي العباءة العربية ويضع على رأسه عقـالاً ابيض وهـو زي اتخذه بعض العلماء اما معظم رجال الدين فيكتفون بالغترة البيضاء على رؤوسهم ، ولقد كان الشيخ محمد حسين نصيف كبير جدة فى القرن المـاضى اذا لبس العقـال لبس عقـالا ابيض كهـذا الـذى وصفناه فى لباس الشيخ حسـين باسـلامـة وعلى ذكر الشيخ محمد نصيف او الافندى نصيف كما كان يطلق عليـه اهـل جدة فهو صديق حميم للشيخ حسين باسلامة وقد كتب له ترجمة مسهبة نشرت كتعريف له فى كتابه تاريخ عمارة المسجد الحرام الذى سنتحدث عنه بعد ، وقد استندنا الى هذه الترجمة فى التعريف به ونختصرها فيما يلى :

ولادته وتعليمـــــه

ولـد حسـين بن عبـدالله بن محمد باسلامه آل باداس الكندي الحضرمي المكي بمكـة المكـرمـة فى غرة شهـر صفـر من عام ١٢٩٩ هـ ، وتعلم على ايدى اساتذة مختلفين فى الكتاتيب البسيطة التى كانت سائدة فى ذلك الزمان ثم انتقل مع والده

الى مدينـة الطـائف فالتحق بالمـدرسـة الـرشدية لمدة عامين ولم يكمل تعليمه بها ، والمـدرسـة الـرشـديـة او المكتب الـرشدى كما ذكره الشيخ محمد نصيف هو المدرسة الرسمية الابتدائية للتعليم فى العهد العثمانى وكانت هذه المدارس موجودة فى مكة وجده والمدينة والطائف(١) .

ثم قرأ بعض كتب الفقـه ومبـادىء التفسـير على يد الشيخ يوسف اليمانى امام مسجد الهادى بالطائف .

ولكن طالب العلم حسـين باسـلامـة اضطـر للانقطاع عن الدراسة لوفاة والده فاشتغل بالتجارة ليعول نفسه واسرته .

بيد ان الرغبة الشديدة للدراسة لم تفتر فى نفس حسين باسلامه فكان يجمع بين العمل والطلب كلما لاحت له الفرصة يقول الشيخ محمد نصيف .

تعرف المؤلف فى عام ١٣٢٠ هـ بحضرة محمد عبدالله افندى الذى كان مبعوثا لآيدين بمجلس المبعوثان العثمانى درس عليه فن الجغرافيا ومبادىء التاريخ وشيئا من فن الحساب ومبادىء علم الفلك ولازمه ملازمة تامة الى ١٣٢٣ فتلقى عنه كثيرا من العلوم العصرية المتعلقة بالسياسة والاجتماع وما اشبه ذلك .

وكـما اتصلت أسبـاب حسـين باسلامة بمن اخذ عنه بعض العلوم العصرية فى زمـانـه فقد اتصلت اسبابه كذلك بعلامة المغرب الأقصى المحدث النابغة اللغوي الحـافـظ كما يصفـه الشيـخ محمـد حسين نصيف وهو الشيخ محمد شعيب المغربى فتلقى عنـه مصطلح الحـديث وعلم التفسـير وشيئـا من أصول الفقه كما درس فن الحديث والتراجم على المرحوم الشيخ محمد الفا هاشم الفلاته التكرونى وكذلك درس فن الأدب على المـرحـوم الشيخ عبدالجليل براده امام الأدب فى الحجاز حال اقامته بمكة من عام ١٣٢٣ الى عام ١٣٢٦ هـ .

ودرس العلوم الـدينيـة فقها وتفسيرا للقرآن الكريم ولعلم الحديث وعلم اللغة

---

١ ـ انظر ماكتبناه عن ماضى التعليم فى الحجاز فى كتابنا اعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة فى تراجم السيد محمد طاهر الدباغ والحاج محمد على زينل رضا .

على علامة مكة الفقيه المحدث السيد حسين بن محمد الحبشى مفتى الشافعية لمكة وطالت ملازمته له نحوا من عشر سنين حتى توفي السيد حسين بمكة فى شوال من عام ١٣٣١ هـ.

وهكذا تتجلى صورة طالب العلم حسين باسلامة الحريص على طلب العلم مع السعي فى هذه الحياة للقيام على شؤون نفسه واسرته.

كان يقيم بمكة وكانت مكة كما لاتزال مهوى لأفئدة الناس، يؤمها العلماء من كافة اقطار الأرض لاغراض شتى فكان صاحبنا يسعى الى هؤلاء الرجال ليتلقى عنهم مايتقنون من علوم الدين والدنيا حتى تزود بحصيلة طيبة من العلم والمعرفة فى ذلك الزمان.

وكان موسم الحج يجمع الكثير من علماء المسلمين وأدبائهم فكان الشيخ حسين باسلامه يسعى إلى مقابلة هؤلاء الأعلام الوافدين للحج يبحث معهم قضايا العصر وشؤون العلم فأفاد واستفاد وباحث وناظر وتعرف على هؤلاء الأعلام من الرجال، ثم أكمل ثقافته بالرحلة إلى مصر وسوريا اكثر من مرة واجتمع إلى كثير من مشاهير العلماء فى البلدين وخاصة من سبق له الوفود إلى مكة، كما اتصل فى هذه الرحلات بأرباب الصحف والمجلات العربية فى الاستانة ومصر وسوريا وكتب ونشر كثيرا من المباحث الاجتماعية والعلمية والسياسية كما نشر فى الصحف الحجازية بعضا مما كتب وهكذا كان الرجل حركة دائبة فى طلب العلم ونشره والاتصال بأهله فى كل مكان يصل إليه.

وظائفـــــــه

اشتغل حسين باسلامه بالتدريس فكان أستاذا للجغرافيا والتاريخ فى عام ١٣٢٧ بالمدرسة الخيرية التى انشأها الاستاذ العلامة الشيخ محمد حسين خياط رحمه الله.

أما أول وظيفة باشرها فهى سكرتير مجلس الشيوخ فى حكومة الملك

الشريف الحسين بن على فى عام ١٣٣٥ هجرية.

وحينما تولى المرحوم الملك عبدالعزيز آل سعود ملك الحجاز اختير الشيخ حسين باسلامه عضوا فى المجلس التأسيسى الذى شكل آنذاك لوضع النظام الأساسى لحكومة الملك عبدالعزيز وذلك فى عام ١٣٤٤ ثم انتخب عضوا فى اللجنة التى شكلت لوضع التعليمات الأساسية، كما انتخب عضوا فى المجلس التشكيلى الذى شكل بجده لترتيب دوائر الحكومة السعودية ثم انتخب عضوا فى المجلس الأستشارى فى عام ١٣٤٥ تم تأسيس مجلس الشورى وانتخب الشيخ حسين باسلامه عضوا فيه، كما عين عضوا فى لجنة الحج فى بداية تأسيسها وعين كذلك عضوا فى هيئة الأمر بالمعروف حين تأسيسها.

ويبدو أن عضوية بعض المجالس كانت تتم بالانتخاب فاعيد انتخاب الشيخ حسين باسلامة فى عام ١٣٤٩ مرة ثانية فى لجنة الحج كما أعيد انتخابه للمرة الثانية فى مجلس الشورى وكذلك ثم انتخابه عضوا فى مجلس المعارف وفى عام ١٣٥٤ أنتخب عضوا فى هيئة المطالبة بأوقاف الحرمين الشريفين.

هذا ماجاء فى الترجمة الوافية التى كتبها الشيخ محمد نصيف عن الوظائف والأعمال التى تقلدها الشيخ حسين باسلامه.

مؤلفاته

ألف الشيخ باسلامه كثيراً من الكتب لايزال القسم الأكبر منها مخطوطا لم يظهر إلى النور، وربما يكون الكثير منها قد فقد أو تلف مع تطاول السنين وسنذكر اسماء هذه الكتاب كما وردت فى الترجمة التى كتبها الشيخ محمد نصيف بعد.

أما القسم الآخر الذى تم طبعه فبعضه نفذ وسنذكره كذلك بعد، ولكن القسم المطبوع الذى وصل الينا هو الذى سنتخدث عنه فى هذه الترجمة واهم ماوصل إلى يدى من مؤلفات الشيخ باسلامه كتاب.

تاريخ عمارة المسجد الحرام

صدرت الطبعـة الأولى من هذا الكتـاب فى عام ١٣٥٤ للهجرة ثم اعيد طبعه مرة ثانية بعد عشرين عاما من وفاة المؤلف بتحقيق الأستاذ عمر بعدالجبار ومراجعة الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى مع اضافة فصول جديدة اليه ولم اطلع على هذه الطبعة، وقامت دار تهامة للنشر باعادة طبع المطبوعة الأولى من تاريخ عمارة المسجد الحـرام فى عام ١٤٠٠ هجـريـة وحرصت على اصدار هذه الطبعة الثالثة بالشكل الطبـاعى الـذى صدرت به الطبعـة فى عام ١٣٥٤ اى قبـل ستة واربعين عاما من تاريخ الطبعة الثالثة.

وكتـاب تاريـخ عمارة المسجـد الحـرام يمكن وصفه بأنه أول كتاب من نوعه فهو يتحدث أولا عن صفة المسجد الحرام قبل الأسلام ثم يتحدث عن الزيادة الأولى التى احدثها الخليفة الراشد امير المؤمنين عمر بن الخطاب ثم زيادة امير المؤمنين عثمان بن عفـان فزيـادة عبـدالله بن الـزبـير والـزيـادة الـرابعـة فى عهد الوليد بن عبدالملك فزيادة الخليفـة العبـاسى ابـوجعفـر المنصـور ثم زيـادة الخليفة المهدى فزيـادات الخلفـاء العباسين المعتضد والمقتدر موضحا مقدار الزيادات التى زيدت فيها مساحة المسجد فى كل عهد من العهود ومقدار ماانفق على ذلك من الأموال فى تفصيل دقيق.

وكما يتحدث المؤلف عن الزيادات التى زيدت فى المسجد الحرام فانه يتحدث كذلك عن العمارات التى احدثت فى المسجد عبر القرون واصفا ماتم فى كل عمارة من اصلاح وما أدخل على المسجد من تحسين اوزخرفة مبتدئا بالعمارة التى تمت فى عهـد الخليفـة الأمـوى عبـدالملك بن مروان ثم عهـود الخلفـاء العبـاسـين فملوك الجراكسة فسـلاطين آل عثمان بدءا بالسلطان سليمان وانتهاءا بالسلطان مراد كل ذلـك فى تفصيـل شائق ودقيق، فاذا كنت ممن يهتمـون بالتـاريخ فان الكتاب يقدم اليك قصة شائقة تتسلسل احداثها عبر مئات القرون ولكنها قصة حقيقة من واقع الـزمـان وليست من نسـج الخيـال، ولااكتم القـارىء انى حينما قلبت الصفحات

الأولى من كتـاب تاريـخ عمارة المسجـد الحرام لم اكن اقدر ان الكتاب سيستهوينى الى حد اكمال جميع صفحاته كنت اقدر اننى ساقرأ بعض الفصول قراءة تامة ، وأمُرّ ببعضها مرورا عابرا ولكنى لم استطع الانفكاك من تأثيره علي .

عمـارة المســـــجد عبر التاريخ

ولعل من المفيد ان نذكر فى ايجاز الادوار التاريخية لعمارة المسجد الحرام كما وردت فى كتاب الشيخ حسين باسلامة .

ان العـمايـر التى تمت فى المسجـد الحـرام عبر التـاريخ كان معظمها يتم لظهور الحاجة اليها ولقد كانت مساحة المسجد الحرام محددة منذ ان بنى قصي بن كلاب الذى وحد قبيلة قريش منذ ان بنى البيوت حول الكعبة اذ كانت الكعبة فى المكان الذى بناها فيه الخليل ابراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل وكان ماحولها فضاءايخلو من البناء فكان الناس يطوفون حول الكعبة وكانت قبائل قريش تسكن بعيدا عنها ، فلما آل حكم مكـة الى قصي بان كلاب بنى الـدور حول الكعبـة وبهـذا تحددت المساحة المحيطة بالكعبة بهذه الدور لاول مرة فى التاريخ .

وأول توسعـة تمت للمطـاف كانت فى عهـد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب فى العـام السـابـع عشـر للهجـرة الذى رأى ضيق المطاف بعد ان ازداد عدد المسلمين فاشـتر ى الـدور المحيطـة بالمسجد ووسع المطاف وجعل له ابوابا لدخول الطائفين اليـه ، وتبعـه فى ذلـك الخليفـة الراشد عثمان بن عفان وزاد على الزيادة فى مساحة المطـاف بنـاء رواق مسقـوف فى المسجـد للغرض الذى اجريت توسعة المطاف من اجله وهـو زيـادة المسـاحة للمصلين والطائفين وتمت هذه الزيادة فى العام السادس والعشرين للهجرة .

ثم جاء عبدالله بن الزبير فى سنة ٦٤ للهجرة فزاد فى المسجد زيادة عظيمة من جهاته الشرقية والجنوبية والشمالية واشتر ى دورا كثيرة بذل فيها مالا كثيرا وادخلها فى المسجـد الحـرام كما سقف المسجـد وجعل فيه اعمدة الرخام وبلغت المساحة فى

عمارة ابن الزبير اثنين وثلاثين الفا وربعمائة ذراع معماری.

وفی سنــة ٧٥ للهجـرة اجـرى الخليفـة الأمـوى عبـدالملك بن مروان عمارة فى المسجد الحرام الا انه لم يزد فى مساحته ولكن ابنه الوليد بن عبدالملك أجرى عمارة عظيمـة فى المسجـد الحـرام استـورد لها أسـاطـين الـرخام من مصر والشام وزاد فى مساحته رواقا واحدا دائرا على حافة المسجد الحرام وذلك فى سنة واحد وتسعين للهجرة.

وفى سنـة مائـة وثـلاثـين للهجـرة امر الخليفة المنصور العباسى عامله على مكة بتوسيع المسجد الحرام فتم شراء دوركثيرةوزاد فيه فى جهته الشمالية والغربية،وكانت زيـادة المنصـور رواقـا واحـدا دائـرا على صحن المسجـد الحـرام بحيث اصبحت مساحة المسجد الحرام بعد هذه الزيادة ضعف ماكانت عليه قبلها، وتمت العمارة فى ستة مائة واربعين للهجرة.

وفى خلافـة المهـدي العبـاسي جرت للمسجـد الحرام عمارتان عظيمتان الأولى اكمـل بها عمارة ابيـه الخليفـة المنصـور والثـانية لما قدم للحج ورأى ان العمارة التى حدثت لم تجعـل المسجـد مربعـا بحيث تظهر الكعبة المشرفة فى وسطه تماما وقد انفق الخليفة المهدى الاموال العظيمة فى العمارتين وأصبحت مساحة المسجد الحرام بعـد هاتـين العـمارتين ستة افدنة ونصف وربع ، الفدان عشرة آلاف ذراع بذراع العمل المستعمل فى البناء بمصر وهو ثلاثة اشبار تقريبا.

وفى سنـة ٢٨١ ادخـل الخليفـة المعتضـد العبـاسى دار النـدوة بعـد ان تخربت ادخلهـا فى المسجـد الحـرام وكـانت مسجدا مستقلا عن المسجد وهذه الزيادة هى التى ينسب اليها باب الزيادة المعروف بمكة اوعلى الاصح الذى كان معروفا بها قبل العمارة السعودية.

وزاد الخليفـة المقتـدر بالله العبـاسى فى سنـة ٣٠٦ زيـادة سميت بباب ابراهيم وكان هناك ساحة بين بابين من أبواب المسجد الحرام احدهما يسمى باب الخياطين اوباب الحـزورة والثـانى باب بنى جمح وكـانت هذه السـاحة امام دارين لزبيدة ام

الخليفة الامين فادخلت هذه الساحة فى المسجد الحرام .

وفى سنة ٨٠٣ للهجرة شب حريق عظيم فى لمسجد الحرام اتى على الجانب الغربى من المسجد الى ان وصل الى الجانب الشمالي واستمر الحريق فى هذا الجانب وهو يلتهم سقوف المسجد واعمدته الرخامية الى ان وصل الحريق الى اسطوانتين هدمهما السيل العظيم واسقط ماعليهما من الاعمدة والسقوف فى باب الباسطية فتوقف الحريق ، وقد قام السلطان ابي السعادات زين الدين فرج برقوق بتعمير ما اتلفه الحريق من سقوف المسجد واعمدته ولم تحدث فى هذه العمارة زيادة فى مساحة المسجد الحرام .

أما عمارة السلطان سليم فى سنة ٩٨١/ ٩٨٤ فقد كانت شاملة للمسجد الحرام كله بعد ان ظهر الخراب فى بعض اروقة المسجد وبرزت رؤوس اخشاب السقوف من مواضعها فجرت للمسجد عمارة عظيمة ابدلت فيها السقوف الخشبية بالقباب الموجودة حاليا فى العمارة العثمانية للمسجد والقائمة على دعامات قوية من الحجر أو أساطين الرخام ـ وقدتوفى السلطان سليم قبل إكمال العمارة فاتمها ابنه السلطان مراد خان قد استمرت هذه العمارة أربعة أعوام وكانت تجديدا كاملا للمسجد الحرام منذ عمارة الخليفة المهدى العباسى التى انتهت فى سنة ١٦٤ للهجرة ولكن مساحة المسجد الحرام قد بقيت على حالها دون زيادة باستثناء الزيادتين اللتين تمتا فى باب الزيادة وباب ابراهيم والتى اسلفنا الحديث عنهما قبل .

هذه خلاصة وجيزة للادوار التاريخية ا التى مرت بها عمارة المسجد الحرام ، وهناك عمارة اخرى تتصل بالمسجد وان كانت لاتدخل ضمن مساحته فقد أنشاء سلطان مصر الجركسي قايتباى فى سنة ٨٨٢ للهجرة اول مدرسة تدرس فيها المذاهب الأربعة كما أنشأ الخلاوى المعروفة فى المسجد فاستبدل بعض الأربطة المجاورة للمسجد كما اشتر ى بعض الدور فبنى فيها مجمعا كبيرا مشرفا على المسجد الحرام وعلى المسعى ومكتبا ومنارة كما بنى فيها اثنين وسبعين خلوة وصير المجمع المذكور مدرسة تدرس فيها علوم الدين على المذاهب الأربعة

وحبس عليهـا الاوقـاف فى مصـر وفى مكة نفسها وقرر فيها أربعة مدرسين وأربعين طالبـا وقـد تم بنـاء هذه المـدرسـة بالـرخام المكوف وسقفها بسقف مذهب وارسل السلطـان قايتبـاى لها خزانـة كتب وضعها فى المدرسة واوقفها على طلبة العلم وقد بلغت إيراد غلة هذا الوقف الفي دينار ذهبي خلاف غلات القرى والضياع الموقوفة عليه بمصر يقول القطب الحنفي بعد ذكر ماتقدم وذلك باق إلى الآن ألا ان الأكلة قد استـولت على تلك الاوقـاف وضعفت جدا وهى آيلة الى الخـراب وصـارت المدرسة سكنا لأمراء الحاج فى ايام الموسم وسكنا لغيرهم من الامراء اذا وصلوا الى مكة فى وسط السنة وصارت أوقافها مأكلة .

وسأوجز للقارىء بعض المعلومات التاريخية الهامة والطريفة التى يشتمل عليها هذا الكتاب الفريد وسنبدأ بالاوليات فى هذه المجال .

أوليات فى المسجد الحرام

١ ـ أول من بنى الدور حول الكعبة قصي بن كلاب .

٢ ـ أول من هدم الـدور المنشأة حول المسجـد الحـرام وادخلهـا توسعـة للمطـاف وأحاط المطاف بسور له ابواب هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وتبعه فى ذلك أمير المؤمنين عثمان بن عفان .

٣ ـ أول من بنى السد لتحويل مجرى السيل لئلا يدخل المسجد الحرام هو كذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

٤ ـ أول من أحدث الأروقة وسقف المسجد أمير المؤمنين عثمان بن عفان .

٥ ـ أول من جلب أساطين الرخام واقامها فى المسجد هو عبدالله بن الزبير وتبعه فى ذلك الخلفاء .

٦ ـ أول من أدار الصفـوف حول الكعبـة خالـد بن عبدالله القسرى فى خلافة عبد الملك بن مروان .

٧ ـ أول من سقف المسجد بخشب الساج وهو امتن انواع الخشب ورفع جدار المسجد وزين رؤوس الاساطين فى المسجد بالذهب عبدالملك بن مروان.

٨ ـ أول من أزّر داخل المسجد الحرام بالرخام وجعل له شرفات وجعل فى حوائطه العقود وزين واجهة هذه العقود بالفسيفساء الوليد بن عبدالملك وكذلك هو أول من جعل السرادقات فى الحصوة ليستظل بها المصلون حينما يكثر الحجاج.

٩ ـ أول من البس جدار حجر اسماعيل الرخام هو الخليفة أبوجعفر المنصور.

١٠ ـ أول من ربع المسجد الحرام لتكون الكعبة المعظمة فى وسطه هو الخليفة العباسى المهدى وقد امر المهندسين بتمثيل ذلك له وصعد على جبل ابي قبيس ليرى الدور التى ستدخل فى المسجد وقد نصبت عليها الرماح ورأى ماسيهدم من البيوت ومايكون مجرى للسيل ومحلا للسعى لكي تكون الكعبة المعظمة فى قلب المسجد الحرام.

١١ ـ أول من شيد المنائر فى المسجد الحرام الخليفة المنصور ثم الخليفة المهدى.

١٢ ـ أول من وضع مصباحاً للطائفين بالمسجد الحرام عقبة بن الازرق بن عمرو الغساني وكانت داره لاصقة بالمسجد من ناحية وجه الكعبة فكان يضع مصباحا على داره وكانت مساحة المسجد صغيرة فيضيء للطائفين وأول من وضع القناديل فى المسجد لاضائته معاوية بن ابي سفيان.

١٣ ـ أول من اضاء المسجد الحرام بالكهرباء هو الملك الشريف الحسين بن علي ثم الملك عبدالعزيز آل سعود رحمهما الله.

١٤ ـ أول من خطب على منبر فى المسجد الحرام معاوية بن ابي سفيان.

١٥ ـ أول من عمل مظلة فى شارع المسعى للساعين بين الصفاء والمروة الملك الشريف الحسين بن علي فى عام ١٣٣٩ هجرية(١).

١٦ ـ أول من رصف شارع المسعى بالحجر الصوان الملك عبدالعزيز بن سعود

---

١ ـ ٢٩١ ـ ٢٩٤ تاريخ عمارة المسجد الحرام.

وذلك فى عام ١٣٤٥ للهجرة وكانت ارض المسعى موحلة وكان هذا اول شارع تم رصفه فى مكة المكرمة (١) وبهده المناسبة فان مساحة المسعى فى ذلك العهد كما ذرعها المؤلف بلغت ثلاثمائة واربع وتسعين مترا وخمسة وثلاثين سنتما.

هذه بعض الاوليات التى استخلصتها من الكتاب وهى فى غاية الايجاز ، فمن اراد الاستزادة من هذا المنهل العذب فليرجع الى هذا الكتاب الثمين ليجد فيه مايشفى الغلة فالكتاب يتميز بالتفصيل الدقيق المستند الى مصادر تاريخية كثيرة . . وقد ناقش المؤلف ماكتبه المؤرخون السابقون مناقشة العالم المتمكن من فنه وقام بعد ذلك بتحقيق بعض الامور بنفسه مثل قيامه بذرع المسجد الحرام من جميع جوانبه وتفسير ما قد يكون ظاهرا من أسباب اختلاف المؤرخين فى ذلك ونورد هنا على سبيل المثال بعض المعلومات التى اوردها المؤلف بالنسبة لذرع المسجد الحرام فى اختصار شديد.

مساحة المسجد الحرام

١ ـ كانت مساحة المسجد الحرام بعد الزيادة الأولى التى احدثها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لاتتجاوز حدود المقامات الأربعة وسنتحدث عن هذه المقامات بعد.

٢ ـ بلغت مساحة المسجد الحرام بعد الزيادة التى احدثها عبدالله بن الزبير رضى الله تعالى عنه اثنين وثلاثين الف واربعمائة ذراع.

٣ ـ بلغت مساحة المسجد الحرام بعد زيادة الخليفة ابي جعفر المنصور ضعف ماكانت عليه مساحة المسجد بعد زيادة ابن الزبير والوليد بن عبدالملك ـ أما زيادة الوليد بن عبدالملك فقد كانت رواقا واحدا من الجهة الشرقية.

٤ ـ زادت مساحة المسجد الحرام بعد الزيادتين اللتين ادخلهما الخليفة المهدى

---

١ ـ ٢٩٥ ـ ٢٩٨ نفس المصدر

٥ ـ قام المؤلف بذرع المسجد الحرام قبيل تأليف كتابه الذى نتحدث عنه وبعد العمارتين اللتين احدثتا فيه من قبل السلطان سليم والسلطان مراد خان العثمانيين فبلغ ذرعه ثمانية وعشرين الفا وثلاثة امتار وهذه المساحة هى التى بقيت الى ان تمت التوسعة العظيمة للمسجد فى عهد المغفور له جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود واستمرت بعد وفاته الى ان تمت فى عده ابنائه الملك سعود والملك فيصل رحمهما

أبواب المسجد الحرام

ومن امتع فصول الكتاب الفصل الخاص بأبواب المسجد الحرام ولعل مما يجدر ذكره أن أول من فتح الأبواب فى المسجد الحرام هو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فلقد كانت البيوت تحيط بالكعبة ويخرج الناس من بيوتهم اليها فلما نزع ملكية بعض الدور لتوسعة المطاف جعل لهذه التوسعة سورا وفتح فيها ابوابا يدخل الناس الى المسجد منها، وقد بلغت ابواب المسجد بعد توسعة الخليفة العباسي المهدى تسعة عشر بابا، ثم توالت الزيادات فى الأبواب حتى بلغت فى عصر المؤلف فى عام ١٣٥٤ هـ ستة وعشرين بابا، وقد ذكر مواضع هذه الأبواب من جهات المسجد الأربعة بابا بابا وتحدث عن تاريخ احداث هذه الأبواب وماكتب عليها كما تحدث عن اسماء هذه الأبواب فى تسلسل تاريخى ممتع مع محاولة تعليل هذه التسميات وأوردهنا بعض المعلومات الخاصة بأبواب المسجد الحرام كمثال على مايحتويه الكتاب من معلومات ثمينة قيمة.

١ ـ باب اجياد الصغير ذكره بهذه الاسم ابن ظهيرة وقطب الدين فى الاعلام وابن جبير فى رحلته وسماه ابن جبير ايضا باب الخلفيين وعرفه الازرقي بباب بنى مخزوم، احدثه وانشأه أمير المؤمنين محمد المهدى فى عمارته الثانية سنة ١٦٤ وقد جددت عمارته سنة ٩٨٤ التى أجريت بأمر السلطان مراد خان ابن السلطان سليم خان وعليه ١٩ شرفة وله منفذان وله كذلك باب خشبي قوى بمصراعين ويعلوعن

أرض الرواق بتسع درجات وقد كتب عليه نقرا على الحجارة بالخط البارز.

«بسم الله الرحمن الرحيم ، ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه اواب اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال اني احببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب».

٢ ـ باب النبي سمى بذلك لان النبى صلوات الله وسلامه عليه كان يدخل المسجد ويخرج منه من تلك الجهة حيث كانت فى تلك الجهة دار زوجه خديجة رضوان الله تعالى عليها، يقول المؤلف ويقال لهذا الباب باب الجنائز والظاهر من تسميته بهذا الاسم ان الجنائز كانت تخرج منه فى ذلك العصر حيث انها تخرج الآن من باب السلام غالبا، ويقال له ايضا باب الحريريين لانه كان يباع الحرير فى الدكاكين التى بجواره من الخارج ، ويقال له ايضا باب القفص لان الصاغه كانوا يقطنون قديما تلك الجهة ويضعون الحلي فى اقفاص بقرب الباب المذكور ويقول المؤلف ولايزالون لحد الآن نحو الباب المشار اليه وقد احدثه الخليفة المهدي فى عمارته، وهذا الباب يعلو عن ارض المسجد الحرام بثمان درجات ولم يجدد بناؤه فى العمارة الاخيرة التى وقعت فى سنة ٩٨٤ حيث انه كان قويا بحكم البناء وانما جددت الشرفات التى عليه وعددها (٢٤) شرفه وقد عمره الملك الأشرف برسباي احد سلاطين مصر وهو لايزال على تلك العمارة الى الآن ـ هذا بطبيعة الحال قبل التوسعة السعودية العظيمة ـ وقد كتب نقرا على الحجارة داخل دائرة مستطيلة على علو الباب المذكور بالخط البارز.

«بسم الله الرحمن الرحيم، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله.واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة».

امر بتجديد الباب الشريف للنبي ﴿ﷺ﴾ سيدنا ومولانا المقام الشريف السلطان الملك الأشرف ابو النصر برسباي خادم الحرم الشريف وأمير المؤمنين اللهم اعز نصره على يد الفقير الى الله تعالى الوزير المقدم مقبل القديدى المكي الاشرفي بتاريخ ذى القعدة الحرام احد شهور سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، وهذه

الكتابة قديمة من عهد عمارة الباب المذكور ثم فى سنة ١٣١٤هـ جرت عمارة فى المسجد الحرام ومرمات وكتب تاريخها على هذا الباب، وكتب اسم السلطان عبدالحميد خان بن السلطان عبدالمجيد خان ضمن طرة سلطانية بالذهب وكتب باسفلها تاريخ العمارة بالرقم وهي سنة ١٣١٤ هـ حيث جرت بأمر السلطان عبدالحميد خان العثمانى المذكور وهذا الباب يفتح على منفذين ولكل منفذ باب خشبي قوى بمصراعين.

هذا مثال لما ورد فى الفصل الخاص بأبواب المسجد الحرام وهو كما يرى القارىء حشد من المعلومات التاريخية والطريفة فى آن واحد جمعها المؤلف من المصادر المختلفة وحقق فيها وعلل مسمياتها المتعددة وهو جهد عظيم مشكور.

الخطبة والمنبر فى المسجد الحرام

وفى الكتاب معلومات هامة عن الخطبة فى المسجد الحرام بل عن المنابر والخطباء نوجز بعضها فيما يلى :-

كان الخلفاء الراشدون وولاة مكة يخطبون قياما على اقدامهم فى المسجد تجاه الكعبة المعظمة فلما ولي معاوية بن ابي سفيان الخلافة وكان جسيما وضع له منبر صغير ذو ثلاث درجات قدم به من الشام وذلك لما قدم للحج فكان هو أول من خطب على منبر فى المسجد الحرام، وقد بقي هذا المنبر يخطب عليه الخلفاء كلما قدموا للحج، كما يخطب عليه ولاة مكة الى ان حج الخليفة هارون الرشيد فخطب على منبر منقوش عظيم له تسع درجات اهدى إليه من عامله على مصر موسى بن عيسى فبقي هذا المنبر فى مكة ونقل منبر معاوية الى عرفات ثم أصبح الخلفاء والملوك يتنافسون فى إنشاء المنابر العظيمة لا فى مكة وحدها ولكن فى مكة وعرفة ومنى فأرسل الخليفة العباسي الواثق منابر ثلاثة لمكة وعرفة ومنى ولما حج الخليفة المنتصر ابن المتوكل جعل له منبراً عظيماً خطب عليه بمكة وخلفه بها ، وكانت المنابر والخطابة فى المسجد الحرام تعكس الحالة السياسية للبلاد الاسلامية فى تلك

العصور فقد عمل وزير المقتدى العباسي منبراً هائلاً استقام كما يقول المؤلف بالف دينار وبعثه الى مكة ليخطب عليه باسم الخليفة المقتدى العباسي فمنع المصريون ذلك واحرقوا المنبر ولم يبد أمير مكة محمد بن جعفر إعتراضا على ذلك وخطبوا للمستنصر العبيدى صاحب مصر وقد حذا ملوك مصر من الجراكسة لما اشتد ساعدهم حذو الخلفاء من بنى العباسي فارسل الملك الاشرف فى عام ٧٦٦ منبرا خطب له عليه كما ارسل الملك الظاهر برقوق منبرا فى عام ٧٩٧ وكذلك فعل الملك المؤيد فى موسم عام ٨١٨ يقول المؤلف فخطب عليه فى سبع ذى الحجة وجرت الخطبة على المنبر الذى كان قبله وكان خطب على منبر الملك الاشرف واحداً وثلاثين سنة .

يقول المؤلف لما احرق المصريون المنبر الذى ارسله وزير الخليفة المقتدى العباسي وخطبوا للمستنصر العبيدى لم يبد امير مكة محمد بن جعفر اعتراضا ،وكان هذا الأمير هو أول من قطع الخطبة لملوك مصر وخطب لملوك بنى العباسي بعد ان قطعت الخطبة لهم نحو مائة سنة ، وابى أهل مصر الا ان تكون الخطبة للمستنصر العبيدى صاحب مصر فخطب له ، ثم كان بعد ذلك يخطب حينا لبني العباس وحينا لملوك مصر، يقدم منهم من يجزل له العطاء .

وقد تتابع ارسال المنابر الى مكة من مصر وكان يحرص مرسلوها على ان يخطب عليها فى موسم الحج وقد استقر الأمر بالنسبة للمنابر بالمنبر الرخامى الذى بعث به السلطان العثمانى سليمان ابن سليم فى سنة ٩٦٦ وهذا المنبر تحفة معمارية فريدة

وهو موجود حتى هذا اليوم بالمسجد الحرام وقد مضى على وجوده حتى الآن أربعمائة وستة وثلاثين عاما وقد خطب عليه للخلفاء العثمانيين وغيرهم على تتابع

العصور الى أن ابطلت حكومة الملك عبدالعزيز رحمه الله الخطبة للملوك باسمائهم وجعل الدعاء بنصر الاسلام والمسلمين وإعلاء كلمة الدين فسلم المسجد من ضوضاء السياسة ووعثاء الساسه فجزاه الله خير الجزاء .

موكب الخطيب

وقـد اورد المؤلف وصفـا شائقـا لموكب الخطيب اذا صح هذا التعبـير فى مختلف العصور ننقل منه مايلى . فى يوم الجمعة يلصق المنبر الى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجـر الأسـود والـركن العراقي ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم ، فإذا خرج الخطيب اقبل لابسا ثوبا اسود معتما بعمامة سوداء وعليه طيلسان اسود، وكل ذلـك من كسـوة الملك النـاصـر ، وعليـه الـوقـار والسكينـة وهويتهادى بين رايتين سوداوين يتمسكهـما رجـلان من المؤ ذنـين وبـين يديـه احد القدمة فى يده الفرقعة مفتـول ينفضـه فى الهـواء فيسمع له صوت عال يسمع داخل الحرم وخارجه فيكون إعلانا بخروج الخطيب ولايزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر فيقبل الحجر الأسود ويـدعـو عنـده ثم يقصـد المنبر ورئيس المؤ ذنين بين يديه لابسا السواد وعلى عاتقه السيف ممسكـا له بيـده ، وتـركز الرايتان على جانبي المنبر فإذا صعد أول درجة من درج المنـبر قلده المؤ ذن السيف فيضـرب بنعل السيف ضربة على الدرج يسمعها الحـاضـرون وهكـذا على سائـر الـدرج فإذا استوى عليه استقبل الناس وسلم عليهم ثم يقعـد ويؤ ذن المؤ ذن على قبـة زمزم فإذا فرغ من خطبته صلى وانصرف على الوضعية التى أتى بها ثم يعاد المنبر إلى مكانه إزاء المقام ـ إنتهى .

أقول هذا ما أورده المؤلف لموكب الخطيب نقلا عن رحلة ابن جبير وهووصف لما كانت عليـه مراسم خطبـة الجمعـة فى عهد الملك الناصر فى سنة ٥٧٨ فى القرن السادس للهجرة .

وأورد المؤلف كذلك وصفا شيقا لموكب الخطيب فى العصور العثمانية ننقل عنه مايلى :

يصـل الخطيب يوم الجمعـة عنـد الـزوال إلى المسجـد الحـرام فيدخل المدرسة الـواقعـة بين باب بازان وبـاب علي المسماة بقبـة السـاعات حيث وضعت فى ذلك العصر ساعتان كبيرتان للتوقيت .

فيصـلي فيهـا ركعتـين ومن عادة الخطيب فى ذلـك العصـر أن يرتـدى جبة واسعة

الاكمام تسمى الفرجية ويعتم بعمامة من الشاش الأبيض على كفية هندية مصنوعة من القماش الحرير الملون ومبطنة بالخيزران اللطيف وتلف العمامة الشاش عليها لفا منتظما متراصا بعض الطيات على بعض وتسمى تلك اللفة بالمدرج (١) ثم يأتى المرقي الى المدرسة المذكورة يحمل الطيلسان والعصا التى يعتنز عليها الخطيب حال صعوده المنبر ، وهذه العصاة داخلها سلاح من نوع السلاح الأبيض رفيع السلة اشبه بسنان الرمح يسمى (بالغدارة) وهذا المرقي هو من ضمن المبلغين بالمسجد الحرام قد تخصص لهذه الوظيفة فيضع المرقي الطيلسان على رأس الخطيب فوق العمامة فيلتف به الخطيب ويخرج من المدرسة المذكورة ميمماً نحو المنبر ، فإذا بلغ الحصوة الموالية لرواق المدرسة التى كان بها وجد هناك بيرقين من الحرير الاحمر ، ونفرين من أغوات الحرم ونفرين من مشدية الحرم فاذا وصلوا اليهم ساروا جميعا امام الخطيب يتقدمهم المرقي حامل عصا الخطيب ، ثم يتبعه حاملا البيرقين ثم اغوات الحرم ، ثم المشدية ، ويسيرون على هذه الحالة الى ان يصلوا المنبر فاذا وصلوه ركزت الرايتان على باب المنبر ووقف الاغوات عند باب المنبر أيضا ثم ترفع الستارة الخضراء المزركشة باسلاك الفضة المموهة بالذهب الموضوعة على باب المنبر ويسلم المرقي العصا الى الخطيب فيصعد الخطيب على درج المنبر وخلفه المرقي فاذا وصل الخطيب أعلى المنبر جلس على مسطبته وقام المرقي فى وسط درج المنبر ، واذن اذان الجمعة الثانى تابعا فى ذلك رئيس المبلغين من قبة زمزم ، فاذا تم الاذان قام الخطيب وشرع فى الخطبة الأولى فاذا أتمها جلس ، فيقوم المرقي ويصلى على النبى ﴿ﷺ﴾ رافعا بها صوته فمتى أتمها قام الخطيب وألقى الخطبة الثانية حتى اذا بلغ فيها ذكر النبى ﴿ﷺ﴾ جهر المرقي بالصلاة على النبى ﴿ﷺ﴾ ثم اذا بلغ الخطيب ذكر اصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ جهر المرقي بالترضى عنهم فإذا ذكر الخطيب اسم الخليفة أو السلطان أو الملك جهر المرقي بالدعاء له بالنصر والظفر والتأييد ، يقول المؤلف وكان من ادركتهم من سلاطين آل عثمان هما

١ ـ هذا الوصف مطابق لوصف العمامة الحجازية انظر ماكتبناه عنها فى فصل الملابس والازياء فى كتابنا ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة.

السلطـان عبـدالحميـد خان الثانى والسلطان محمد رشاد الخامس وكان يدعى لهما بالخـلافـة . وهـذا الـوصف كما هو واضح لما كان عليه الحال فى أواخر عهد الخلافة العثمانية حيث عاصر المؤلف ذلك .

ولم يختلف موكب الخطيب فى العهــد الهـاشمي عما كان عليـه الحـال فى أواخـر العهد العثمانى إلا إن الرايتين أصبح لونهما اخضر وكانتا كذلك مزركشتين بإسلاك الفضة المموهة بالذهب .

وحينـما استـولى الملك عبـدالعزيز رحمه الله على الحجاز ابطل كل هذه المراسم والمواكب فعادت الأمور الى بساطتها الأولى وأصبح الخطيب يأتي من بيته القريب من الحرم فيرقى الى المنبر فيجد اثنين من اغوات الحرم الشريف واقفين عند باب المنـبر فيحمـل العصا المعتادة للخطابة ويصعد درجات المنبر فإذا بلغ اعلاه جلس على مسطبته وقام المؤذن على قبة زمزم فى اذان الجمعة الثانى فإذا فرغ من الآذان قام الخطيب والقى خطبـة الجمعـة أمـا ملابس الخطيب فهى لاتختلف عن ملابس امثاله من العلماء ورجال الدين(١)

كثرة الخطباء والائمة فى المسجد الحرام

هذا ولم تكن الخطابة ولا الامامة مقصورة على شخص أو اثنين كما هو الحال فى العصر الحاضر وإنما كانت كما يقول المؤلف على المذاهب الأربعة ومشاعة فى كثير من أهـل مكـة المكـرمـة على اختلاف أجناسهم فمنهم آل ميرداد والعجيمي وآل خوقـير ، وآل الـريس ، وآل الكتبي ، وآل شطـا ، وبيت المـال من آل عبدالشكور ، وآل الـزواوي ، وآل الكـردى ، وآلى الحـريـرى ، وآل جمل الليـل ، وآل تقي ، وآل المفتى ، وآل كمال ، وآل المــالكي ، وآل بن حميـد ، وآل صديق ، وآل الفقيـه ، وآل حجي وآل البسيـوني وآل القلعي ، وآل دحــلان ، وآل الحبشي ، وآل بابصيــل ، وغيرهم كما يقول المؤلف ممن لم تحضرني اسماؤ هم ، وكان من بعض هذه العوائل الخطيب والخطيبين واكثر ، والامام والامامين واكثر وقد بلغ من تسجلت اسماؤ هم

---

١ ـ ٢٠٦ ـ ٢١٢ تاريخ عمارة المسجد الحرام .

من الخطباء فى مديرية الأوقاف وشيخ الخطباء نحو الخمسين خطيبا ومن تسجل من الأئمة عشرين إماما فى المذاهب الأربعة(١).

المقامـــات الأربعـة

ومن امتع فصول الكتاب الفصل الذى عقده المؤلف عن المقامات الأربعة وهذه المقامات منسوبة الى المذاهب الأربعة فلقد كان الناس قبل العهد السعودى يصلون جماعات أربعة بل كانوا يصلون فى بعض العهود خمس جماعات باضافة المذهب الزيدى كما وصفه ابن جبير فى حج عام ٥٨٨ هـ.

يقول المؤلف نقلا عن ابن جبير ، وللحرم أربعة ائمة سنية وخامس لفرقة تسمى الزيدية واشراف هذه البلدة على مذهبهم وهم يزيدون فى الاذان - حي على خير العمل - أثر قول المؤذن حي على الفلاح، ولايجمعون مع الناس انما يصلون ظهرا اربعا ويصلون بعد فراغ الأئمة من صلاتها.

فأول الائمة السنية الشافعى وهو يصلي خلف مقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ثم المالكي وهو يصلي قبالة الركن اليمانى ، وله محراب يشبه محاريب الطرق الموضوعة فيها، ثم الحنفي وصلاته قبالة الميزاب تحت حطيم مصنوع له وهو اعظم الائمة ابهة وافخرهم آلة من الشمع وسواها. وسبب ذلك ان الدول الأعجمية كلها على مذهبه، ثم الحنبلي وصلاته مع صلاة المالكي فى حين واحد، وموضع صلاته يقابل مابين الحجر الأسود والركن اليمانى وله حطيم معطل هو قريب من حطيم الحنفي وللشافعى مقام بازاء المقام - حطيم حفيل وصفة الحطيم خشبتان موصول بينهما باذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على تلك الصفة قد عقدت هذه الخشبة على رجلين من الجص غير بائنة الارتفاع واعترض فى اعلا الخشب خشبة فيها خطاطيف حديد فيها قناديل معلقة من الزجاج.

هذا ماوصف به ابن حبير المقامات الأربعة فى حجته التى اشرنا اليها فى القرن

---

١ - ٢١٠ تاريخ عمارة المسجد الحرام.

السادس الهجرى وقد تتبع المؤلف ماطرأ على هذه المقامات من كتب الرحلات والمؤرخين الى العصر الذى عاش والف كتابه فيه، وليس مايهمنا هوذكر هذه التطورات وانما الذى يهمنا هو وصف كيفية الصلاة للائمة الأربعة سواء فى أوقات متتابعة أوفى وقت واحد كما هو الحال فى صلاة المغرب لضيق وقتها وماينتج عن قراءة الائمة الأربعة وتبليغ المبلغين عنهم فى الركوع والسجود من اختلاط وتشويش على الناس فى ركوعهم وسجودهم.

يقول ابن بطوطة فمن عاداتهم ـ أهل مكة ـ ان يصلي أول الأئمة أمام الشافعية وهو المقدم من قبل أولى الأمر وصلاته خلف المقام الكريم ـ مقام إبراهيم ـ وجمهور الناس بمكة على مذهبه فإذا صلى الأمام الشافعى صلى بعده إمام المالكية، ويصلى معه إمام الحنبلية فى وقت واحد، ثم يصلى إمام الحنفية الى أن يقول وترتيبهم هكذا فى الصلوات الأربع، واما صلاة المغرب فانهم يصلونها فى وقت واحد كل امام يصلي بطائفته ويدخل الناس من ذلك سهو وتخليط فربما ركع المالكي بركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي وتراهم مصيخين كل واحد الى صوت المؤذن الذى يُسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو.

ولقد كان تقدم ائمة المذاهب فى الصلاة قبل غيرهم مرتبط بالحالة السياسية فى تلك العصور فما نقلناه عن ابن حبيران إمام الشافعية كان المقدم عليهم تغير عام ٦٩٠ واصبح المقدم إمام الحنفية وهكذا، ولقد كان بعض العلماء والوافدين فى المواسم يعترضون على هذه الفوضى وصدرت بعض الفتاوي بكراهية تعدد الجماعات فى المسجد الحرام ووصل الامر الى ملك مصر الناصر برقوق الجركسي فبرز امره فى ذلك العام ان يصلى إمام الشافعية المغرب وحده واستمر الناس يصلون المغرب فى جماعة واحدة الى ان تولى الملك المؤيد فاصدر مرسوما بإن يعود الائمة الثلاثة الى صلاة المغرب كما كانوا قبل ذلك.

وقد انتهى تحقيق المؤلف ان حدوث هذه البدعة وقع فى القرون الوسطى على اختلاف اقوال المؤرخين فى ذلك فمنهم من ذكرها فى عام ٤٩٧ ومن ذكرها فى عام

٥٤٠ و ٥٥١ وقد تحدث عنها ابن جبير فى القرن السادس كما تحدث عنها التقي الفاسي بعده بمائة عام وقد استمرت هذه البدعة رغم اعتراض ائمة علماء المسلمين عليها طيلة هذه القرون حتى ابطلها المغفور له الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله بعد استيلائه على الحجاز فوحَّد الصلاة فى المسجد الحرام وفى غيره من المساجد بإمام واحد فى عام ١٣٤٣ للهجرة فجزاه الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء(١)

معلومـــات عددية

ونواصل حديثنا عن كتاب عمارة المسجد الحرام بالمعلومات العدديه التى وردت فيه :ـ

١ ـ بلغ عدد الاساطين الرخام فى المسجد الحرام التى أحصاها المؤلف ثلاثمائة واحدى عشرة اسطوانة رخامية وستةعشرة اسطوانة من الحجر الصوان المنحوت.

٢ ـ كما بلغ عدد الدعائم المبنية من الحجر الشميسي أو الحجر الصوان مائتين وثمانية وسبعين عمودا وكان المتبع فى بناء هذه الاعمدة ان يكون سفلها اللاصق بالأرض من الحجر الصوان الى ثلث العمود ثم يبنى بقية العمود بالحجر الشميسى المنحوت على أربعة الوان اسود واحمر قاتم ـ وأصفر بلون البرتقال ، ورمادى (٢).

٣ ـ وبلغ عدد العقود المطوية فى المسجد الحرام تسعمائة واربعة وثمانين عقدا وهذه العقود هى التى تقوم على الاعمدة والاساطين الحاملة للسقوف، اما العقود الكبيرة فى الاماكن المختلفة من المسجد فتبلغ واحدا وثمانين عقدا (٣)

٤ ـ وبلغ عدد القبب فى المسجد الحرام مائتين وسبع وعشرين قبة (٤).

٥ ـ كانت قناديل الزيت تضىء المسجد الحرام الى عام ١٣٣٥ هجرية وبلغ

---

١ ـ ٢٢٤ ـ ٢٤٠ تاريخ عمارة المسجد الحرام . . .

٢ ـ ١٠١ ـ ١٠٦ تاريخ عمارة المسجد الحرام /٣ ـ ١٠٦ ـ ١٠٩ نفس المصدر

٤ ـ ١١٠ نفس المصدر /

عددهـا الفـا واربعـمائـة واثنـين وعشـرين قنـديـلا خلاف ماكان يضيء المنائر من القناديل (١)

٦ ـ جرى استبـدال قنـاديـل الـزيت بالكهرباء والاتاريك الغازية الكبيرة اللوكس واستمر زيادة القوة الكهربائية حتى بلغت فى عام **١٣٥٤** هجرية مايساوى عشرين ضعفا فى قوة الاضاءة عما كانت عليه حين كانت الاستصباح بالقناديل (٢)

ونختتم الحديث عن كتاب عمارة المسجد الحرام بنبذة عن أهم الاحداث التى وقعت فى المسجد كما وردت فى الكتاب.

أحداث هامة فى المسجد

١ ـ فى السنة السابعة عشرة للهجرة فى خلافة الفاروق رضوان الله تعالى عليه جاء الى مكـة سيـل عظيم يسمى سيـل أم نهشـل فدخل إلى المسجد الحرام من أعلى مكة من ناحية المدعى فاقتلع مقام الخليل ابراهيم عليه الصلاة السلام من موضعه وذهب به الى اسفل مكة فلما جف السيل وجد المقام باسفل مكة فجيء به والصق بالكعبـة وربـط بها، ومـا ان علم الفـاروق رضى الله تعالى عنه بالامر حتى خف مسرعا الى مكة فقدمها واعاد المقام الى مكانه وحول مجرى السيل ووضع المطاف فى حديث طويل مبسوط فى موضعه من الكتاب (٣)

٢ ـ فى سنة ثمانمائة واثنتين للهجرة ظهرت نار في رباط يدعى رامشت الواقع بين باب إبـراهيم وبـاب الـوداع فى الجهـة الغربية من المسجد الحرام فاتصلت النار بسقف المسجـد الحـرام فالتهمت النـار اسقف المسجـد من الجهـة الغـربية وبدأت تلتهم سقـوفـه من الجهة الشمالية ولم يقف الحريق الا بعد ان وصل الى موضع كانت فيه اسطـوانـات مهدمة بفعل السيل الذى دخل المسجد فى ذلك العام، وصار ماتجمع

١ـ ٢٥٠ / ٢٥٤ نفس المصدر ٢ ـ ٢٥٦ ـ ٢٦٠ نفس المصدر. ٣ـ ١١ ـ ١٥ نفس المصدر

من آثار الحريق يمنع رؤية الكعبة المعظمة لعظم ذلك كما منعت الصلاة فى ذلك الجانب من المسجد الحرام وقد بلغ عدد الأعمدة الرخامية التى احترقت فى هذا الحريق مائة وثلاثين عمودا تحولت كلها الى كلس فلما بلغ ذلك ملك مصر الناصر لدين الله بعث الامير بيسق الظاهرى لعمارة المسجد الحرام وقد استمرت العمارة من عام ثمانمائة وثلاثة للهجرة الى ان انتهت فى عام ثمانمائة وسبعة للهجرة(١)

٣ ـ فى سنة تسعمائة وتسعة وسبعين للهجرة ظهر الخراب فى المسجد الحرام وبدى الرواق الشرقي للمسجد مائلا الى جهة الكعبة المعظمة حتى برزت اخشاب السقوف من اماكنها وظهر أن الخراب كان عظيما بحيث لايجدي فيه الاصلاح ولا الترميم فاسندت السقوف باخشاب تمنعها من السقوط ثم صدر امر السلطان العثماني سليم خان بالمبادرة ببناء المسجد الحرام جميعه وتقرر البدء بهدم البناء القديم وبدأت المعاول تهدم فى جدران المسجد وشرفاته فى منتصف ربيع الأول سنة تسعمائة وثمانين وانتهت العمارة فى آخر عام تسعمائة واربع وثمانين فى عهد السلطان مراد خان ابن السلطان سليم خان (٢)

وهناك مرمات كثيرة وتحسينات ادخلت على المسجد الحرام وعلى مقام إبراهيم وبئر زمزم وعلى المدارس التى انشئت فى المسجد وغيرها وهى مبسوطة فى ثنايا هذا الكتاب الثمين.

لقد طال بنا الحديث عن كتاب تاريخ عمارة المسجد الحرام وآن لنا ان نقول الكلمة الاخيرة فيه ـ ان الميزة التى يمتاز بها الكتاب تتلخص فى ان المؤلف قد حشد كلما توفر لديه من سجل الأحداث والمعلومات المتعلقة بالمسجد الحرام في كتاب واحد

وكانت هذه الحوادث متفرقة فى كتب كثيرة، فالتاريخ لايكتبه المؤرخون انشاءاً من عندياتهم، وانما يتتبعون اخباره ويتحرونها من مصادرها والمصادر هى الكتب والوثائق والرواة الذين شاهدوا هذه الحوادث او سمعوا اخبارها ممن شهدها ويأتى

---

١ ـ ٦٩ ـ ٧٥ عمارة المسجد الحرام ـ ٢/ ٨٢ ـ ٩٦ عمارة المسجد الحرام.

بعد ذلك تمحيص هذه الاخبار سواء كانت مروية أو مكتوبة وترجيح الراجح منها ، والاشارة الى المشكوك فيه ، وتحقيق ما فى الوسع تحقيقه ، ولقد كان الشيخ حسين باسلامه مؤرخا أمينا لأنه أجهد نفسه فى استخلاص هذه الحوادث والاخبار من مصادرها الكثيرة المتفرقة ثم فى تحقيقها والتعليق عليها ، كما قام بعمل مشكور فى بعض هذه التحقيقات الخاصة بذرع المسجد الحرام وذرع شارع المسعي وغيرهما ، ولااكتم القارىء انني مولع بهذه المباحث التاريخية وخاصة مايتعلق منها بالمسجد الحرام والكعبة المعظمة والمسجد النبوي الشريف والمشاعر العظيمة التى خص الله تعالى بلادنا بها ، وكثيرا ماكنت اسجل المعلومات التى اصل اليها في قراءاتى ، لهذا فان سرورى بكتاب تاريخ عمارة المسجد الحرام وهو بالصفة التى ذكرتها لا يعدله له سرور.

ان الشيخ حسين باسلامه قد سد فراغا عظيما بكتابه القيم هذا وحبذا لو توفر من المؤرخين من يقوم باكمال ما بدأ به فيؤرخ لعمارة المسجد الحرام والكعبة المعظمة من منتصف القرن الرابع عشر الهجرى حيث تمت العمارة السعودية العظيمة للمسجد الحرام والترميم للكعبة المعظمة فى السبعينات والثمانينات من هذا القرن ليكتمل تاريخ عمارة اقدس بيت على وجه الكرة الأرضية منذ بدء الخليقة وحتى آخر أيام الزمان.

ولايفوتنى ان اذكر ان الكتاب مزين بالصور الفوتوغرافية وبعض هذه الصور بل معظمها اصبح نادرا لأنَّ التغيير الذى احدثته العمارة السعودية ابدل الصور القديمة بصور حديثة وحبذا لو أن العناية بهذه الصور كانت افضل مما ظهرت عليه ، كما ان الكتاب يخلو من الخريطة او الخرائط التى توضح تطور الزيادة فى مساحة المسجد الحرام ، وكان المؤلف دائما يرجع القارىء اليها ولكن الطبعة التى بين يدى كانت خالية من هذه الخريطة ، وعلى اى حال فهذه الأمور فى الوسع تداركها ليكون العمل تاما وسبحان من تفرد بالكمال.

العمارة السّعوديّة

مقدمة البحث

كنت حريصا بعد الحديث عن عمارة المسجد الحرام فى العهود المختلفة كما وردت فى كتاب الشيخ حسين باسلامة ان اكتب عن العمارة السعودية ولو بصورة موجزة ليكون تاريخ عمارة المسجد الحرام تاما امام القارىء ولقد سعيت للحصول على المعلومات الخاصة بهذه العمارة ولقد وفقنى الله تعالى فى هذا السعى فقدم إلي سعادة الأخ الأستاذ محمد أمين العطاس وكيل وزارة الحج والأوقاف لشئون الأوقاف الذى كتبت اليه أستعين به قدم لي ثلاث مجلدات أصدرتها وزارة المالية والاقتصاد الوطني وقام باعدادها وطبعها اتحاد المهندسين الاستشاريين الذي اشرفوا على عمارة المسجد الحرام لمدة عشر سنوات منذ عام ١٣٨٥ للهجرة وحتى نهاية العمارة السعودية فى عام ١٣٩٦ هـ.

وقد ضمت هذه المجلدات معلومات وافية ومفصلة عن هذه العمارة واطوارها كما ضمت العديد من الصور والوثائق والخرائط ومن هذه المجلدات الثلاثة استقينا المعلومات التى نوجزها للقارىء فى الصحفات التالية :ـ

بقى المسجد الحرام مايقرب من اربعة قرون بعد عمارة السلطانيين سليم ومراد العثمانيين فى عام ٩٨٤ الى ان بدأت العمارة السعودية فى عام ١٣٧٥ وكان السبب الأول لهذه العمارة هو التكاثر المتصاعد فى جموع الحجاج الوافدين الى مكة المكرمة

لاداء فريضة الحج، وقد اورد الكتاب الذى اصدره اتحاد المهندسين الاستشاريين الباكستانيين فى عمارة المسجد الحرام بيانا لاعداد الحجاج الاجانب القادمين الى مكة خلال خمسين عامنا نستطيع ان نستخلص منه الحقائق الآتية :

كان تعدداد الحجاج الاجانب خلال السنوات ١٣٤٦ ـ ١٣٦٨ اقل من مائة الف حاج واعلى الأرقام كان فى الاعوام ١٣٤٦ ـ ١٣٤٨ حيث كان تعداد الوافدين على التوالى :

٩٦٢١٢ سنة ٤٦

٩٠٧٦٤ سنة ٤٧

٨١٦٦٦ سنة ٤٨

ثم هبط الرقم الى اقل من النصف خلال السنوات ١٣٥٠ ـ ١٣٥٤ اما عام ١٣٥٩ فقد سجل ادنى رقم وهو ٩٠٢٤ وذلك باسباب الحرب العالمية الثانية.

ومنذ عام ١٣٦٩ تجاوزت اعداد الوافدين مائة الف حاج واستمر التصاعد الى ان واصل الى ذروته فى عام ١٣٧٤ حيث بلغ تعداد الوافدين ٢٣٢٩٧١ حاجا.

وبهذا التصاعد الذى بدا انه سيستمر كانت الحاجة ماسة الى توسعة المسجد الحرام توسعة كبيرة تستوعب هذه الاعداد المتزايدة بعشرات الألوف بل ومئاتها فى قابل الاعوام.

وكانت عمارة المسجد الحرام من اغلى اماني جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله وخاصة بعد ان وفقه الله تعالى الى عمارة المسجد النبوى الشريف لهذا فقد اقترنت هذه الامنية العظيمة مع الحاجة الداعية الى توسعة المسجد الحرام، فصدر الأمر الملكي الى المعلم محمد بن لادن بنقل المعدات التى استعملت فى عمارة المسجد النبوي الشريف الى مكة المكرمة استعداد للشروع فى عمارة الحرم المكي الشريف، وقد بدأ المعلم محمد بن لادن باختيار المهندسين الذي يقومون بعمل التصميم اللازم للعمارة الجديدة واسند هذا العمل فى بداية الامر الى المهندس مصطفى مؤمن وكان من المتخصصين فى العمارة الاسلامية فقدم تصميما

دائـريـا للمسجـد الحـرام باعتبار ان القبلة هي الكعبة وان المصلين يدورون حولها ولكن هذا التصميم لم يحز القبول .

التصميـــــــــــم

فاسنـد الشيـخ محمـد بن لادن هذا العمـل الى المهنـدس طاهر الجوينى فقدم تصميما مثمنا يقتضى ازالة المسجد العثمانى القائم ازالة تامة وتخفيض مساحة الجزء المكشـوف الى النصف ثم جرى تعـديل هذا التصميم بحيث يزال القسم الغربي من المسجد العثماني فحسب ولكن المرحوم الملك فيصل ابن عبدالعزيز ابدى رغبته فى الاحتفاظ بالمسجد العثمانى كاملاً وهذا هو الذى تم بالفعل

وبـدأ العمـل فى الـرابـع من شهـر ربيع الثانى **١٣٧٥** من جهة المسعى واجياد وحـول طريق القشاشية وتم نزع ملكية العقارات الكثيرة التى كانت قائمة فى هذه المنـاطق والتى كانت تحيـط بالمسجـد الحرام احاطة السوار بالمعصم وكان الساعون بين الصفـا والمـروة يؤدون نسكهم فى شارع تقـوم الحـوانيت المتصلة على جانبيـه وتعتلى فوقهـا الـدور فهدمت هذه الدور والدكاكين واصبح مكانها فضاء استعدادا للعمل الذى وضع الملك سعود بن عبدالعزيز حجره الاساسي فى شهر شعبان من سنة **١٣٧٥** هـ .

ثم بدأ العمل فى العمارة على مراحل :

المـرحلة الأولى : تم فيها بنـاء القسم الخـاص بالسعى بين الصفـا والمروة وايصاله بالمسجد الحرام .

المـرحلة الثـانيـة : تم فيها توسيع منطقة المطاف الى شكلها الحالى كما اقيمت السلالم الحالية لبئر زمزم .

ولقـد كان المطـاف حول الكعبـة بيضاوي الشكل بمحاور كبيرة وصغيرة وكان موضعه فى مواجهة الكعبة يشكل عنق زجاجة تسبب ازدحام الطائفين كما كانت قبة زمـزم التى يعتليهـا المؤ ذنـون تواجه باب الكعبة والركن الذى به الحجر الأسود وقد

ازيـل المبنى الخشبي للمقـام وابـدل بالصنـدوق الزجاجى الذى وضع به المقام فى موضعـه السـابق امـا قبـة زمـزم فقـد ازيلت تماما وجرى تأخير مدخلها الى مابعد منطقـة الطـواف وعمـل للبئر مدخـل من الصحن ينـزل اليـه بسـلالم كثيرة ، اما المؤذنـون فقـد بنى لهم مبنى خاص على حدود المطـاف ووسـع هذا المبنى بحيث اصبـح يشمـل قسـما خاصـا للاذان والبث التلفـزيـونى . وقد تم عمل البدروم فى شارع المسعى على عمق اربعة امتار لان اساسات التحميل وجدت على هذا العمق .

ثم تم تجديـد الحـرم القـديم وشطفت اركـانه لتسمح بانشاء البوابات الرئيسية الثـلاثـة وشقت الطـرق المحيطـة بالحـرم الشـريف كما انشئت الميادين المحيطة به وكذلك الدكاكين .

وقـد استخلصنـا البيـانـات الآتيـة للمعارة السعودية وهى تبين مساحة المسجد قديما وحديثا ومقدار استيعابه للمصلين والطائفين فى الأوقات المختلفة .

كانت مسـاحـة المبنى القـديم للمسجد الحرام ككل ٢٩١٠٠ مترا مربعا وكان المسقوف منها ١١٤٥٠ مترا مربعا .

اما العمارة السعودية الجديدة فقد اضافت الى المبنى السابق المساحات الآتية :ـ

٤٦١٠٠ المساحة المغطاة داخل الحرم والمتصلة بالأبواب .

٤٦١٠٠ المساحة المغطاة فى الدور العلوى .

١٣٢٥٠ المناطق المكشوفة المبلطة حول الحرم الشريف

٣١٢٠٠ مسـاحـة البـدروم وفيـه امـاكن فسيحـة للصـلاة علاوة على ما مائتين وخمسين غرفة للخدمات وللزمازمة .

———

١٣٦٦٥٠

ويـرتفـع الـدور الأول عن الـدور الأرضى حوالى اثنى عشـر مترا يرقى اليهـا

بواسطة ثلاثة عشر سلما كبيرا. ويرتفع جدار مبنى الحرم للدورين أربعة وعشرين مترا.

اما مقدار استيعاب المسجد الحرام للمصلين فقد قدره تقرير مكتب الخبراء الاستشاريين الذى ننقل عنه هذه المعلومات كما يلى:

عدد المصلين

١١٤٥٠ مساحة المبنى القديم للحرم المسقوف.

٩٦٦٥٠ مساحة المبنى الجديد للحرم فى الدوريين المسقوفين.

٢٣٣٥٠ صحن المسجد والمناطق المحيطة به.

١٣١٤٥٠

وقد قدرت اعداد المصلين على اساس حجم سجادة الصلاة العادية اذا مافرشت فى المسجد ولكن الحرم يتسع فى المواسم الدينية مثل شهر رمضان ومواسم العمرة الى مائتى ألف مصل، أما فى زمن الحج فان عدد المصلين داخل المسجد والأرصفة المحيطة به يصل الى ٣٣٠ الف بل الى أربعمائة الف مصل فى وقت واحد - كما يقول تقرير الاستشاريين الباكستانيين.

عدد الطائفين

تبلغ سعة المطاف الحالي ٣٠٥٨ مترا مربعا حول الكعبة ويتسع المطاف لحوالي ثمانية آلاف وخمسمائة طائف.

اما فى وقت الحج فان المطاف يتسع لاربعة عشر ألف طائف حيث يستعمل الطائفون الممرين المؤديان الى المطاف وسعتها ٤١٥٤ مترا.

الرخام

ونورد فيما يلى بعض المعلومات الخاصة بالرخام الذى استعمل فى فرش المسجد وجدارنه واعمدته.

١ - يغطى الرخام المستعمل فى الارضيات ما مساحته ١١٥٤٥٠ مترا مربعا كما يغطى ستين الف مترا مربعا من الجدران والاعمدة وحواجز السطح والشرفات والسلالم البالغ عددها ثمانية وستين سلما وكذلك الجزء السفلي من جدران المآذن السبع ، كما يغطى ثمانية آلاف مترا من المناطق المكشوفة حول الحرم وبذلك يبلغ مجموع الرخام المستعمل فى العمارة الجديدة ١٨٣٥٥٠ مترا مربعا ويستخرج الرخام من محاجر فى وادى فاطمة قرب مكة المكرمة ، ومن محاجر المدركة وفرسان فى الشواطىء الجنوبية للمملكة العربية السعودية ويتم نقله الى جدة حيث يقطع ويلمع تحت اشراف خبير ايطالى وفنيين مصريين .. اما الحجر الصناعى فتستخدم فى صبه الاحجار المحلية ويقوم بهذا العمل صناع مصريون وسوريون .

صحن المسجد

يبلغ طول صحن المسجد مائة وستة امتار وعرضه مائة وثلاثة وستين مترا .

المسعى

يبلغ طول المسعى ٣٩٣ مترا وعرضه عشرون مترا وهومكون من دورين ويبلغ ارتفاع المسعى ١١,٢٥ احدى عشر مترا وربع المتر . .

ابواب المسعى

وللمسعى ستة عشر بابا منها خمسة ابواب فى الجانب الغربى بعد باب السلام واحد عشر بابا فى الجانب الشرقي فى مواجهة شارع القشاشيه .

ابواب المسجد

اما ابواب المسجد الحرام الرئيسية فهي ثلاثة باب السلام فى الجانب الشمالي ومنه يصل الداخل الى الركن العراقي للكعبة المشرفة وباب العمرة فى الجانب

الغـربى وهـو يفضي الى الـركن الشامى للكعبة، وباب الملك عبدالعزيز فى الجهة الجنوبية وهو يفضى الى محور الركن اليماني للكعبة ويقابل الحجر الاسود كما يقابل القبة على الصفا.

صناعـة الأبــواب

وقـد تم صنـع هذه الأبـواب الرئيسية الثلاث فى مصر كما صنع فيها باب صغير واحد اما بقية الأبواب فقد صنعت فى ايطاليا خلال الفترة من عام ١٣٨٦ - ١٣٩٠.

والأبواب مصنوعة من هيكل من الصلب مغطى بالنحاس المزخرف اما الجواجز فمصنوعة من الالمنيوم المؤكسد.

وتبلغ مسـاحـة سطـح الأبواب المعدنية اكثر من ستة الاف وستمائة متر مربع كما تبلغ مسـاحـة الحـواجـز على واجهـات الابواب الخارجية والدربزينات والفواصل خمسة آلاف واربعمائة متر مربع.

المــآذن

وللمسجـد الحـرام سبعـة مآذن، مئـذنتـان عنـد كل باب من الأبواب الرئيسية الثـلاثـة والمأذنة السابعة عند باب الصفا، وقد بنيت هذه المآذن بالخرسانة المسلحة وكسيت بالرخام وبالحجر الصناعى ويبلغ ارتفاع المئذنة الواحدة ستة وتسعين مترا عن سطـح الأرض، وتمثـل هذه المـآذن معـالم بارزة لقـاصـدى المسجـد الحرام من مسـافـات بعيدة علاوة على ماترمز اليه من المعانى الروحية حيث تنقل الاذان الى مسامع المسلمين.

الخطوط والذهب

بخـط كوفى واضـح ظاهـر فى القشـرة الـذهبيـة على ارضية بيضاء تتكرر رسوم خطيـة فى كل انحـاء المبنى الجديد للحرم وقد وضع فوق كل مدخل اطار مستطيل

كتبت فيه البسملة ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ وفى قاعة الصلاة الفسيحة كتبت كلمة ـ الله ـ لا اله الا الله محمد رسول الله .

اما فى قبة الصفا فتوجد آيات قرآنية مذهبة على شريط متواصل متداخل . وقد استعملت قشرة ذهبية فى كتابة الآيات كما استعمل الذهب فى تغطية الأهلّة فى أعلى المآذن فهي مغطاة بقشرة من الذهب كما كسيت قاعدة القبة الزجاجية لمقام إبراهيم بطبقة سميكة من الذهب .

المـــــواد

وقد بلغت الكميات المستعملة من الاسمنت العادى فى المبنى الجديد مائة الف وسبعمائة طن كما استعملت كميات كبيرة من الاسمنت الأبيض فى صناعة الحجر الصناعى واعمال التبليط والموزاييك .

اما كمية الحصى الذى استعمل فى الخراسانات فقد بلغت مائتين واحدى عشر الفا وثلاثمائة متر مكعب .

كما بلغت كميات الحديد الذى استعمل فى البناء سبعة عشر الف وثلاثمائة طن .

عـــدد العمال

وكان يعمل فى عمارة المسجد الحرام خلال الاعوام ١٣٧٥ ـ ١٣٧٧ مابين الف ومائة الى الفين وخمسمائة عامل يوميا بينهم حوالى خمسمائة من العمال المهرة .

وقـد نقص هذا العـدد الى النصف خلال الاعـوام ١٣٧٨ ـ ١٣٩٢ نصفهم تقريبا من العمال المهرة والفنين . اما فى الاعوام الثلاثة الاخيرة للمشروع فكان عدد العمال نحوا من مائتى عامل نصفهم من الفنيين والعمال المهرة .

تكاليف العمارة الجديدة

بلغت التكاليف الاجمالية للعمارة الجديدة ستمائة وواحد وعشرين مليونا وستمائة

واثنـين واربعـين الف ريـال منها ثلاثمائة وثمانية وخمسين مليونا وتسعمائة وخمسة عشر الف ريـال قيمـة ملكيـات العقـار المنـزوع ومـائتـين واثنـين وستين مليونا وسبعمائة وعشرين الف ريال تكاليف العمارة .

اصلاح الكعبة المشرفة

وقـد جرى اصـلاح الكعبـة المشـرفة بعد عامين من بدء العمل فى العمارة حيث كانت الاخشـاب الحـاملة لسقفى البيت العتيق قد تآكلت بفعـل القـدم وتقلبات الجو، بعد ان مضى على آخر اصلاح لسقف الكعبة ثلاثمائة وثمانية وثلاثين عاما .
وقـد تم ازالـة سقف الكعبـة المصنـوع من الخشب وصنع بدله سقف من الخرسانة المسلحة وكذلك تم اصلاح الكمر الخشبى الذى يقع تحت السقف العلوى بمقدار ١,٣٥ وهذا الكمر الخشبى فى الواقع هو السقف الثانى للكعبة وكذلك تم اصلاح الجـدران الـداخلية وواجهاتها الرخامية وبدأ الاصلاح فى يوم الثامن عشر من شهر رجب وانتهى فى الحادى عشر من شهر شعبان عام ١٣٧٧ للهجرة .

تاريخ بدء العمل ونهايته

استغـرق العمـل فى العمارة السعـودية للمسجد الحرام عشرين عاما حيث بدأ العمـل الفعلى فى الـرابـع والعشـرين من شهـر ربيـع الثـانى سنة ١٣٧٥ هـ وتم الانتهاء من هذه العمارة المباركة العظيمة فى شهر رجب من سنة ١٣٩٦ للهجرة .
ان العـمارة السعـوديـة للمسجـد الحـرام هى من أعظم المـآثـر التـاريخية للدولة السعـوديـة ممثلة فى مؤسسها العظيم المغفور له الملك عبدالعزيز وابنائه الملك سعود والملك فيصـل والملك خالـد رحمهم الله جميعـا وجـزاهم خير الجـزاء على عملهم الطيب انه على ما يشاء قدير.
واود ان اذكر ان يد الاصلاح والعناية لاتزال ممتدة الى المسجد الحرام حتى الآن فهنـاك التـوسعة المقررة لعمل الميادين حول المسجد الحرام والتى جرى الأعداد لها

وبـدأ العمـل فى نزع ملكيـات الـدور والعـمائر المنوى انشاء هذه الميادين فى مكانها ليكـون المسجـد الحـرام محاطـا بالميـادين الفسيحـة التى ستكـون مكـانـا طبيعيـا لاستيعـاب المصلين فى زمن الحجـاج علاوة على المنظـر الجمالي الذى ستظهر معالمه بعد احداثها .

وإذا كان من كلمـة اخـيرة تقـال فى هذا الشأن فهي ان لجلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز رحمه الله الفضل فى الاحتفاظ بالعمارة العثمانية للمسجد الحرام باصراره على ابقـائهـا وعـدم المسـاس بها الأمر الذى يستطيع به المشاهد رؤ ية تطور العمارة الاسلامية عبر القرون ممثلة فى اقدس بقعة على سطح الأرض .

● ●

تاريخ الكعبة المعظمة

للشيخ حسين عبدالله باسلامه كتاب آخر اسمه (تاريخ الكعبة المعظمة) يتحدث عن عمارة الكعبة وكسوتها وسدانتها وكلما يتعلق بشؤونها وهو كتاب ضخم يقع فى اربعمائة صفحة، وهذا الكتاب مكمل لكتابه الذى تحدثنا عنه «تاريخ عمارة المسجد الحرام» وقد اصدره بعده بعام أوعامين ثم اعادت تهامه طبعه مرة اخرى فى عام ١٤٠٢ هـ.

والكتاب فريد فى موضوعه فهو خاص بالكعبة المعظمة قبلة المسلمين فى صلواتهم ومهوى افئدتهم فى دعائهم وتوجههم الى ربهم، وهي أمل كل مسلم على سطح هذه الأرض فى الوفود اليها حاجا ومعتمرا وزائرا لبيت الله، مطوفا به ومصليا فيه، وساعيا بين الصفا والمروة وواقفا بعرفات والمشاعر الكريمة المقدسة.

يتحدث الكتاب حديثا طويلا عن البيت الحرام منذ فجر التاريخ بل من قبل التاريخ المعروف فيتحدث عن بناء آدم للبيت كما يتحدث عن بناء الملائكة له ثم بناء شيث فبناء ابراهيم عليه السلام وهو البناء الذى نجد سنده التاريخي الصحيح فى القرآن.

وقد خلص المؤلف من استعراض جميع الروايات التى تتعلق ببناء الكعبة المعظمة قبل بناء ابراهيم عليه السلام الى إنها روايات لايمكن القطع بصحتها،

كما لايمكن القطع بانها غير صحيحة والشيء الثابت الوحيد انه كان هناك بناء للبيت قبل بناء ابراهيم عليه السلام الا انه لايمكن القطع بنسبته تاريخيا الى من قام ببنائه ، ولهذا فان الامر الثابت الذى اعتمد عليه المؤلف هوبناء ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه للبيت حيث يمكن اعتباره الاساس الذى تؤيده النصوص القرآنية والاحاديث الواردة فى الصحيح من السنة النبوية ثم فى كتب التاريخ والسير .

والكتاب كما ذكرت يستعرض تاريخ الكعبة المعظمة وكلما يتعلق بها وماينسب اليها حتى يصل الى منتصف القرن الرابع عشر للهجرة الذى اصدر فيه المؤلف هذا الكتاب الفريد . وقد رأيت ان الخص للقارئ الاطوار التاريخية المختلفة للكعبة المعظمة منذ بناء الخليل عليه السلام لها الى عصرنا الحاضر كما وردت فى كتاب الشيخ باسلامه لاهمية الموضوع لكل مسلم ، ولأهل هذه البلاد خاصة حيث شرفهم الله تعالى ان يكونوا من اهلها فلا اقل من ان يعرفوا ولو بصورة موجزة تاريخ اقدس بقعة فيها .

وسيرى القارىء ان هذا التاريخ مملوء بالعبر كما انه لايخلو من الحوادث والطرائف التى تستشير شوق القارىء الى المزيد .

بناء ابراهيم للكعبة

كان مكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية وكانت السيول تأتيه فتأخذ عن يمينه وشماله .

وجاء ابراهيم عليه الصلاة والسلام الى مكة من الشام وخاطب ابنه اسماعيل .

ياإسماعيل إن الله أمرنى بأمر

قال إسماعيل فاصنع ما أمر ربك

قال إبراهيم وتعيننى / قال اسماعيل وأعينك .

قال إبراهيم فإن الله امرني أن أبنى بيتا هنا ، وأشار إلى اكمة ترتفع على

ماحولها، بدأ البناء وجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر.

مقـــــام إبراهيم

فوضعه فقام عليه إبراهيم - فسمى ذلك الحجر - مقام إبراهيم ، واقدامه عليه السلام ظاهرة فيه واستمر يناول الحجارة لابراهيم وهو يبنى البيت وهما يقولان :

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وجعلا يدوران بالبناء للبيت وهما يرددان هذا الدعاء.

صفة بناء ابراهيم

بلغ ابراهيم من الاساس أساس آدم عليه السلام، وجعل طول البيت فى السماء تسعة اذرع وعرضه فى الأرض - المقصود دورة البناء - ثلاثين ذراعا وذلك بذراعهم، وكان موضع الحجر فى بناء ابراهيم داخلا فى البيت ، وبناه بحجارة بعضها على بعض - المقصود ان البناء كان رضماً لم تدخله مواد اخرى كالاخشاب وغيرها مما يتماسك به البناء - ولم يجعل له سقفا، وجعل للبيت بابا، وحفر له بئرا عند باب خزانة البيت يلقى فيها مايهدى الى البيت.

وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت

ورأى إبراهيم عليه السلام على رأسه فى موضع البيت مثل الغمامة، واطل من هذه الغمامة مثل الرأس فكلمه فقال / ياإبراهيم ابن على ظلى أوعلى قدرى، ولاتزد ولاتنقص وفى ذلك يقول الله تعالى واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ان لاتشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود.

الحجـــر الأسود

بنى إبراهيم البيت وبقي موضع يحتاج إلى حجر لاكمال البناء وأمر إبراهيم

إسماعيل أن يذهب إلى الوادى فيحضر الحجر المطلوب وذهب إسماعيل إلى الوادى فنزل جبر يل عليه السلام من السماء بالحجر الأسود وكان قد رفع الى السماء حين غرقت الأرض بالطوفان وعاد اسماعيل فرأى الحجر الأسود وقد وضع فى مكانه وسأل أباه من جاءك بهذا؟ قال إبراهيم من لم يكلنى إليك ولا إلى حجرك.(١)

جرهم والعماليق

انتشر العمران فى مكة بعد بناء البيت ومرت اطوار تاريخية اصبح فيها امر مكة الى قبيلتي جرهم والعماليق وكانت تثور الحروب بين القبيلتين فتارة تكون الغلبة لهذه القبيلة واخرى لتلك ومما يذكر عن هاتين القبيلتين ان ملك جرهم الحارث ابن مضاض هو أول من ولي البيت وكان ينزل بقيقعان وهو جبل شهير بمكة يقع فى الجهة الغربية من المسجد الحرام ويقابل جبل ابى قبيس المطل على المسجد الحرام وكان كل من دخل مكة بتجارة عشرها عليه ملك جرهم . وذلك للداخل من اعلا مكة ،وكان ملك العماليق السميدع بن هود بن حدرة بن مازن وكان ينزل اجياد من اسفل مكة وكان يعشر التجارة الداخلة الى مكة من اسفلها .

ومن هذا يتبين لنا ان الرسوم الجمركية على البضائع الداخلة الى البلاد يرجع تاريخها الى ازمان ممعنة فى القدم . وكان آخر ملوك مكة هو الحارث بن مضاض الاصغر الذى تنسب اليه القصيدة الشهيرة .

كان لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر (٢)

بنـــاء قصي للكعبة

وقد انتهى امر مكة إلى قصي بن كلاب الذى اجتمع أمر قريش على ولايته عليهم ويبدو أن البيت قد تخرب بعوامل القدم ومرور الزمان فجمع قصي نفقة ثم

---

١ - «٣٤ - ٣٩ تاريخ الكعبة المعظمة»

٢ - «٤٦ تاريخ الكعبة المعظمة»

هدم الكعبة فبناها بنيانا لم يبن أحد ممن بناها قبله مثله وسقفها بخشب الدوم الجيد وبجريد النخيل. (١)

أقول وإذا صح ما ورد عن بناء قصي للكعبة فان هذا البناء لم يتجاوز الحد الذى قام عليه بناء إبراهيم عليه السلام، وسنرى ان قريشا حينما قامت ببناء الكعبة إنها اعتمدت على بناء ابراهيم لها وزادت ارتفاعها تسعة اذرع حيث كان بناء ابراهيم يرتفع تسعة أذرع فرفعت قريش البناء تسعة أذرع أخرى فكان طوله فى السماء ثمانية عشر ذراعا، واقتصروا من عرضها ستة اذرع وشبر لقصور النفقة لديهم وجعلوا مكانها الحجر - حجر اسماعيل عليه السلام بسكون الراء - ورفعوا بابها وجعلوا فى داخلها ستة دعائم فى صفين ثلاثة فى كل صف من الشق الذى فى الحجر الى الشق اليماني وجعلوا فى ركنها الشامي عند مدخلها درجة يصعد منها الى اسطحها وجعلوه سطحا وجعلوا فيه ميزابا يصب فى الحجر (٢)

بناء قريش للكعبة

اجمرت امرأة الكعبة فطارت شارة من مجمرها فى ثياب الكعبة فاحترقت فتشاورت قريش فى أمر هدمها وهابوه فقال الوليد وفى رواية أبو وهب بن عمرو بن عائد المخزومي وهو خال النبى ﴿ﷺ﴾ وكان شريفاً إن الله لايهلك من يريد الاصلاح فارتقى على ظاهر البيت ومعه العباس فقال اللهم لانريد الا الاصلاح ثم هدم فلما رأوه سالما تابعوه.

قالوا وأقبلت سفينة من الروم حتى اذا كانوا قريبا من جده انكسرت فخرجت قريش لتأخذ خشبها فوجدوا الرومي الذى فيها نجارا وكان اسمه باقوم وكان يتجر الى بندر وراء ساحل عدن فانكسرت سفينته بالشعيبة فقال لقريش ان اجريتم عيرى من عيركم الى الشام اعطيتكم الخشب ففعلوا وقدموا به وبالخشب ليبنوا به

---

١ - «٤٧» تاريخ الكعبة المعظمة»

٢ - «٥٧» تاريخ الكعبة المعظمة»

البيت فهدمت قريش الكعبة وكانت مبنية بالرضم ليس فيها مدر وكانت قدر ما تقتحمها العناق وكانت ثيابها توضع عليها تسدل سدلا وكانت ذات ركنين كهيئة الحلقة وذكروا ان السيل كان يأتى فيصيب الكعبة فيتساقط من بنائها وكان رضماً فوق القامة وبنوها بحجارة الوادى فرفعوها فى السماء عشرين ذراعا وكان قد سرق كنز الكعبة فأرادوا تسقيفها .

النبي ﴿ﷺ﴾ يشارك فى بناء الكعبة

عن عمرو بن دينار قال سمعت جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يقول ـ لما بنيت الكعبة ذهب العباس والنبي ﴿ﷺ﴾ ينقلان الحجارة فقال العباس للنبي ﴿ﷺ﴾ اجعل ازارك على رقبتك فخرَّ الى الأرض فطمحت عيناه السماء فقال أرني ازارى فشده عليه ، وكانوا يضعون ازرهم على اعناقهم يحملون عليها الحجارة فاذا دنوا من الناس لبسوا أزرهم فلما وقع ما وقع للنبي ﴿ﷺ﴾ سأله عمه ماشأنك؟ قال نهيت أن أمشي عريانا قال العباس فكتمته حتى أظهر الله نبوته .

قريش تبني الكعبة من طيب مالها

ولما أجمعت قريش أمرها فى هدم الكعبة وبنائها قام أبو وهب بن عمرو عائد المخزومى فتناول من الكعبة حجرا فوثب من يده حتى رجع الى موضعه فقال يامعشر قريش لاتدخلوا فى بنائها من كسبكم الا طيباء لايدخل فيه مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة لاحد من الناس قال ابن اسحق ووهب خال النبي ﴿ﷺ﴾ وكان شريفا ،وكانت النفقة على الكعبة قد قصرت بقريش فتركوا موضع الحجر واحاطوه بجدار وقد جاء ذلك فى حديث عائشة ام المؤمنين رضى الله عنها قالت سألت رسول الله ﴿ﷺ﴾ عن الجدار أمن البيت هو؟ قال نعم قلت فما لهم لم يدخلوه فى البيت قال الم ترى قومك قصرت بهم النفقة ، قلت فما شأن بابه مرتفعا؟ قال ذلك قومك ليدخلوا من شاؤ وا ويمنعوا من شاؤ وا ، ولولا ان قومك حديثو عهد بجاهلية فاخاف ان تنكسر قلوبهم ان ادخل الجدار فى البيت وان الصق بابه بالأرض .

الحجـر الأسـود

لما بلغ البناء موضع الركن أرادت كل قبيلة أن تستأثر بوضع الحجر الأسود فى مكانه فاختصموا حتى وصل بهم الأمر إلى الاعداد للقتال فقربت بنو عبدالدار جفنة مملؤة دما وتعاقدواهم وبنو عدى بن كعب على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة فسموا لعقة الدم ثم اجتمعوا وتشاوروا واتفقوا ورضوا بأول داخل من باب بني شيبة فدخل النبى ﴿ﷺ﴾ فقالوا هذا الأمين كلنا نرضى به فحكموه فى ذلك فوضع الحجر فى ثوب وأمر واحدا من كل قبيلة ان يأخذ بطرف الثوب ثم وضعه فى موضعه بيده الكريمة.

وقريش تقسم البناء اجزاء

وتجزأت قريش الكعبة فكان شق الباب لبني عبدمناف وزهرة ومابين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا اليهم وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم ابني عمر بن هصيص بن كعب بن لؤى، وكان شق الحجر لبني عبدالدار بن قصي ولبني اسد بن عبد بن قصي ولبني بن كعب بن لؤى وهو الحطيم.

كنوز الكعبـة

وكان فى بطن الكعبة جب تحفظ فيه الهدايا التى تهدى للكعبة وقد سرق من الكعبة حلة وغزال من ذهب كان عليه در وجوهر قالوا وكان فيها قرنى الكبش الذى افتدى به إسماعيل عليه السلام فلما عزموا على هدم الكعبة اخرجوا هذه الكنوز وجعلوها عند أبي طلحة عبدالله ابن عبدالعزى بن عثمان بن عبدالدار بن قصي، واخرجوا هبل وكان على الجب الذى فى داخل الكعبة نصبه عمرو بن لحي - ونصب عند المقام، وهناك رواية تقول انه كان فى داخل الكعبة افعى كبيرة مخيفة فلما اذن الله بهدم الكعبة أرسل اليها طائرا عظيما فاخذها من الكعبة فقذف بها فى اجياد. (١)

---

١ - «٤٦ - ٦٧ تاريخ الكعبة المعظمة».

بنـاء عبدالله بن الزبير للكعبة

أرسـل يزيـد بن معـاوية جيشا إلى مكة لحرب عبدالله بن الزبير الذى استولى على الحجاز وبايعه أهله خليفة عليهم بعد موت معاوية ووصل هذا الجيش بقيادة الحصـين بن نمـير فاستـولى على مكـة كلهـا إلا المسجـد الحرام ، ولجأ ابن الزبير وأصحـابـه الى المسجـد فبنوا حول الكعبة خصاصا (بيوتا من القصب) ورفافا من الخشب كما نصبـو خيـامـا يكتنـون فيهـا من حجـارة المنجنيقـين الذين نصبا على اخشبى مكة ابي قبيس وقعيقعان وكان الحصين قد قدر على اصحابه عشرة آلاف حجر يرمون بها الكعبة وكانوا يرمون ويرتجزون ، واخذت حجارة المنجنيقين تنصب على الكعبة حتى تخرقت كسوتها فصارت كانها جيوب النساء ترتج من اعلاها الى اسفلها ، واستمرت الحجارة تتساقط على الكعبة أياما .

إحتراق الكعبة

وفى ليلة السبت لثلاث خلون من ربيع الأول عام ٦٤ ذهب رجل من اصحاب الـزبـير يوقـد نارا فى بعض تلك الخيـام بين الركن الأسود والركن اليمانى ،والمسجد يومئذ ضيق فطارت شرارة فى الخيمة فاحترقت الخيام والتهب المسجد حتى تعلقت النـار بالبيت فاحـترق ، وكـان يومـا شديـد الرياح والكعبة يومئذ مبنية ببناء قريش مدمـاك من خشب السـاج ومـدمـاك من حجـارة من اسفلهـا الى اعـلاها وعليها الكسـوة فطـارت الرياح بلهب تلك النار، واحترقت كسوة الكعبة واحترق خشب الساج الذى بين البناء .

وهناك رواية اخرى تقول ان اصحاب الحصين بن نمير رموها بالنفط فاحترقت ولكن الحصـين وجمـاعتـه من اهـل الشـام ينكـرون ذلك . وقد احترق مع الكعبة الحجر الاسود حتى اسود لونه ، وكان لونه مثل لون المقام وتصدع الحجر ثلاث فرق فانشطـرت منـه شظيـة كانت عند بعض آل شيبة بعد ذلك بدهر طويل ، وقد شده

ابن الزبير بعد ذلك بالفضة إلا تلك الشظية من أعلاه وضعفت جدر الكعبة حتى أنها لتنقض من أعلاها الى اسفلها ويقع الحمام عليها فتتناثر حجارتها، وهي مجردة متوهية من كل جانب.

فزع اهـل مكـة وأهل الشام جميعا لما اصاب الكعبة، وتركها ابن الزبير ليراها الناس، ويروا ماصنع اهل الشام بها.

موت يزيد بن معاوية

وبقي الحصين بن نمير محاصرا ابن الزبير حتى وصل الخبر إلى مكة بنعي يزيد بن معـاويـة فى ليلة الثـلاثاء هلال ربيع الآخر. وعلـم عبدالله بن الزبير بوفاة يزيد قبـل أن يعلم الحصـين بذلـك، عنـدهـا أرسل ابن الزبير رجالا من أهل مكة من قريش وغـيرهم فيهم عبـدالله بن خالـد بن أسيد ورجال من بني امية إلى الحصين بن نمير فكلموه وعظموا عليه ما أصاب الكعبة وقالوا إن ذلك منكم وقد رميتموها بالنفـط فانكـروا، وقـالوا للحصين لقد توفى امير المؤمنين فعلى ماذا تقاتل؟ ارجع الى الشام حتى ترى ماذا يجتمع عليه رأى صاحبك يعنون معاوية بن يزيد.

والحصين يرتحل

ولم يزالـوا به حتى لان لهم ثم ارتحـل الحصـين من مكـة الى المدينة لخمس ليال خلون من ربيع الآخر.

وعبدالله بن عمرو بن العاص يبكى

لما ارتحل جيش الحصين بن نمير دخل عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهـما المسجـد الحـرام والكعبـة محترقـة تتنـاثر حجارتها فوقف ومعه ناس غير قليل فبكى حتى ان دموعه تحدر كحلا فى عينه من اثمد كأنه رؤ وس ذباب على وجنته.

ويعـــظ الناس

وقـال يا أيهـا النـاس والله لو أن أبـا هريـرة أخـبركم انكم قاتلوا ابن نبيكم بعد نبيكم ومحرقوا بيت ربكم لقلتم ما من أحد أكذب من إبى هريرة، انحن نقتل ابن نبينا ونحرق بيت ربنا فقد فعلتم، لقد قتلتم ابن نبيكم وحرقتم بيت الله فانتظروا النقمـة، فو الله الـذى نفس عبـدالله بن عمـرو بيـده ليلبسنكم الله شيعـا وليذيقن بعضكم بأس بعض يقولها ثلاثا.

رفع عبدالله بن عمرو رضى الله تعالى صوته فى المسجد فما فى المسجد أحد إلا وهـو يفهم مايقـول فان لم يكن يفهم فانـه يسمـع هذا الصوت. ثم قال عبدالله بن

عمـرو: أين الآمـرون بالمعـروف والنـاهـون عن المنكر، فوالذى نفس عبدالله بن عمـرو بيـده لوقـد البسكم شيعا واذاق بعضكم بأس بعض لبطن الأرض خير لمن عليها لمن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر.

ابن الزبير يستشير الناس فى هدم الكعبة

وجمع ابن الزبير وجوه الناس وأشرافهم فشاورهم فى هدم الكعبة. انقسم الناس فى آرائهم فاشار فريق بهدمها منهم جابر بن عبدالله وكان قد جاء معتمرا، وعبيد بن عمـير، وعبـدالله بن صفـوان بن اميـه وغيرهم. ولكن اكثر الناس لم يوافقوا على الهدم، وكان ابرز هؤلاء عبدالله بن عباس رضى الله عنهما قال لابن الزبير دعها على ما اقرها رسول الله ﴿ﷺ﴾ فأني اخشى ان يأتي بعدك من يهدمها، ثم يأتى بعد ذلك آخر فلا تزال ابدا تهدم وتبنى، وأمر عبدالله ابن الزبير بالخصاص التى كانت حول الكعبة فهدمت وبالمسجد فكنس مما فيه من الحجارة والدمار وتبين ان الكعبة قد مالت حيطانها مما اصابها من حجارة المنجنيق كما تبين ان الركن قد اسود واحترق وتقطع ثلاثة اجزاء. فتذهب حرمة هذا البيت من قلوبهم ويتهاون الناس بحرمتها ولا احب ذلك ولكن ارقعها.

ابن الزبير يرد على ابن عباس

قال الزبير ، والله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه فكيف أرقع بيت الله سبحانه وأنا أنظر إليه ينقض من أعلاه إلى أسفله حتى إن الحمام ليقع فتتناثر حجارته .

ابن الزبير يحزم أمره على الهدم

أقام ابن الزبير أياما وهو يفكر ويشاور ثم أجمع أمره على الهدم ، وكان يحب أن يكون هو الذي يعيد البيت على قواعد ابراهيم كما قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ فى وصفه لعائشة رضى الله تعالى عنها .

ابن الزبير يجمع المؤن قبل مباشرة الهدم

سأل ابن الزبير رجلا من أهل العلم عن المواضع التى اخذت قريش حجارة الكعبة منها حين قامت ببنائها ، قالوا له أن حجارة الكعبة اخذت من حراء ومن ثبير والمقطع وهو الجبل المشرف على الطريق ومن قافية الخندمة ، ومن جبل حلحله المشرف على ذى طوى وهو عند الثنية البيضاء فى طريق جده ومن جبل باسفل مكة على يسار ما انحدر من ثنية بنى عضل ويقال له مقطع الكعبة ـ يقول الشيخ باسلامه والظاهر ان هذا الجبل هو المسمى فى العصر الحاضر ـ جبل الكعبة ـ وهو واقع على يمين الداخل ومن مردلة من حجرها يقال له الملجوى

امر ابن الزبير بنقل الاحجار التى يحتاج إليها فى بناء الكعبة من الجبال التى ذكرنا وارسل رجلا إلى صنعاء فاشترى قصة باربعمائة دينار ليكون بناء الحجارة بها .

ابن الزبير يخرج كنوز الكعبة

لما استكمل ابن الزبير اعداد المؤن اللازمه للبناء عمد الى كنوز الكعبة وكان

فيها الحلي والثياب والطيب فوضعها فى خزانة الكعبة فى دار شيبة ابن عثمان .

وأهل مكة يغادرونها الى منى والطائف

ثم عزم على هدم الكعبة فخاف بعض أهل مكة ان ينزل عليهم العذاب لهدمها ففارقوا مكة الى منى والبعض ذهب الى الطائف ، ولم يعودوا اليها إلا بعد ان تم الهدم وبوشر فى البناء وكان ممن ترك مكة ابن عباس ولم يعد إليها حتى اكتمل بناؤها .

ابن الزبير يباشر هدم الكعبة بنفسه

امر ابن الزبير العمال بهدم الكعبة فتلكأوا ولم يجترىء أحد منهم على مباشرة الهدم فعلاها بنفسه واخذ المعول وأعمله فى الهدم وبدأت الحجارة تتساقط والناس ينظرون إليه فلما رأوا أنه لم يصب بسوء اجترأوا على الهدم ، وارقى ابن الزبير فوق الكعبة عبيدا من الاحباش يشاركون فى هدمها ، رجاء ان يكون فيهم الحبشى الذى قال فيه رسول الله ﴿ﷺ﴾ ـ يخرب الكعبة ذو السريقتين من الحبشة ـ عملت المعاول فى هدم الكعبة فلم تترجل الشمس حتى الصقت بالأرض وجعل ابن الزبير الحجر الأسود فى ديباجة وادخله فى تابوت وقفل عليه ووضعه عنده فى دار الندوة ، وكان فى بعض جدار الكعبة قرنا الكبش الذى فدى به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، فلما هدمت الكعبة كشف ابن الزبير عن القرنين فوجدهما مطليين بمشق فتناولهما فلما مسهما همدا من الأيدى ، وقيل ان قرني الكبش احترقا لما احترقت الكعبة وقد تم هدم الكعبة فى يوم السبت نصف جمادى الآخرة من ذلك العام عام ٦٥ للهجرة .

نصب الخشب حول الكعبة وتغطية بالستور

وأرسل عبدالله بن عباس رضى الله عنهما الى ابن الزبير يقول : لاتدع الناس

بغير قبلة انصب لهم حول الكعبة الخشب واجعل عليه الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلون اليها ففعل ذلك ابن الزبير وقال اشهد لسمعت عائشة رضى الله تعالى عنها تقول ـ وذكر حديثهما المتقدم .

الكشف عن أساس ابراهيم

لما تم الهدم كشف ابن الزبير عن أساس بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة فوجده داخلا فى الحجر نحوا من ستة اذرع وشبر كانها اعناق الأبل آخذ بعضها ببعض فاذا تحرك الحجر من القواعد تحركت الاركان كلها . فدعى ابن الزبير خمسين رجلا من وجوه الناس واشرافهم وأشهدهم على ذلك الاساس فادخل رجل من القوم يقال له عبدالله بن مطيع العدوى عتلة كانت فى يده فى ركن من اركان البيت فتزعزعت الاركان كلها جميعا .

أشهد ابن الزبير أشراف الناس ووجوه أهل مكة على أساس إبراهيم عليه السلام للكعبة ، ثم امر بالبناء على ذلك الأساس ، ووضع حداث باب الكعبة على مدماك الشاذروان الملاصق بالأرض ، وجعل الباب الآخر بازائه فى ظهر الكعبة مقابله ، وجعل عتبته على الحجر الأخضر الطويل الذى فى الشاذروان الذى فى ظهر الكعبة قريبا من الركن اليماني وكان الناس يطوفون من وراء الستور والبناة يبنون فى الداخل .

وضع الحجر الأسود فى الركن

فلما بلغ البناء موضع الركن امر ابن الزبير بنقر موضعه فى حجرين من تحته ومن فوقه بمقدار حجم الركن وامر ابنه عباد بن عبدالله ابن الزبير وجبير بن شيبه بن عثمان ان يجعلوا الركن فى ثوب وخاطبهم قائلا ، اذا دخلت صلاة الظهر فاحملوه واجعلوه فى موضعه واخبرهم انه سيطيل فى صلاته فإذا فرغتم من وضعه فكبر وا حتى اخفف صلاتي ، وكان ذلك فى يوم شديد الحر ، فلما أقيمت الصلاة كبر ابن

الـزبـير وصلى الـركعـة الأولى خرج عبـاد وجبـير بالحجـر من دار الندوة واختر قا الصفـوف حتى ادخـلاه فى موضعـه من البنـاء فلما اقـراه فى موضعـه وطـرقـا على الحجرين كبرا، لما سمع ابن الزبير التكبير خفف صلاته، وهكذا تم وضع الحجر الأسود فى مكانه من الركن وقد ذكرنا ان الحجر الأسود انقسم الى ثلاثة شظايا من تأثـير الحـريق فشـد ابن الـزبـير الشظيتـين اللتـين وجدهما من الحجر بالفضة أما الشظية الثالثة فقد بقيت عند بعض آل شيبة دهرا طويلا.

غضب بعض الناس لعدم اشراك القبائل فى وضع الحجر الأســود

تسـامـع النـاس بما كان من أمر وضع الحجر من قبل عباد ابن الزبير وشيبة ابن جبير والناس فى صلاة الظهر فغضب بعضهم ان لم تدع قبائل قريش لوضع الحجر كما تم حين بناء قريش للكعبة، ولكن ابن الزبير انفذ الأمر فى هدوء وسرية تامتين منعا للخوض فى الأمر.

زيادة ابن الزبير فى طول البناء

هذا وقـد ابلغ ابن الـزبـير طول بنـاء الكعبة سبعة وعشرين ذراعا وكانت ثمانية عشر ذراعا فى بناء قريش وتسعة اذرع قبل بناء قريش فكانت زيادته فى طولها تسعة اذرع عن بنـاء قريش وجعـل عرض جدارها ذراعان، وجعل فيها ثلاث دعائم فى صف واحـد وكـانت قريش فى الجـاهليـة جعلت فيها ست دعائم فى صفين وبناها بالرصاص المخلوط بالورس.

تزيين الكعبة بالرخام

واستقـدم ابن الـزبـير رخاما من صنعاء اسمه البلق فجعله فى الروزن الذى فى سقف الكعبة للضوء.

الأبواب والميزاب

قالـوا وكـان باب الكعبـة قبـل بناء ابن الزبير مصراعا واحدا فجعله ابن الزبير مصراعين طولهما احد عشر ذراعا من الأرض الى منتهى اعلاها اليوم وجعل الباب الآخـر الـذى فى ظهـرهـا بازائـه وجعـل اليهـا درجة فى بطنها فى الركن الشامي من خشب معرجة تصعد فيها الى ظهرها وجعل فى سطحها ميزابا يصب فى الحجر.

تطييب الكعبة وكسوتها

لما اتم ابن الـزبـير بنـاء الكعبـة خلق ـ طيّب ـ جوفهـا بالعنـبر والمسـك ولطخ جدارها بالمسك من الخارج من اعلاها الى اسفلها، وسترها بالديباج وقيل بالقباطي.

ويفرش حول الكعبة بالحجارة

وبقيت حجـارة من بنـاء الكعبـة ففـرشت حول البيت واديرت بمقدار عشرة أذرع تاريخ انتهاء البناء.

وكـان الفـراغ من عمارة الكعبـة المعظمة فى سابع عشر من شهر رجب من نفس العام عام خمس وستين للهجرة.

ابن الزبير يطلب من الناس ان يعتمروا ويتصدقوا

لما اتم ابن الـزبـير عمله العظيم خاطب النـاس قائلا : من كان لي عليه طاعة فليعتمـر من التنعيم شكـرا لله عزوجـل، ومن قدر ان ينحـر بدنـة فليفعل، ومن لم يقدر فليذبح شاة، فمن لم يقدر فليتصدق بقدر طَوْله

خرج ابن الـزبـير يمشى حافيـا وخرج معه رجال من قريش مشاة منهم عبدالله بن صفـوان وعبيـد بن عمير فأحرم وأحرم الناس معه من اكمة أمام مسجد عائشة بمقـدار غلوة ـ ومسجـد عائشـة على مقربة من المسجد المنسوب لعلي ـ وجعل ابن الـزبـير طريقـه على ثنيـة الحجون المفيضة الى المعلاة ، ولبى حتى نظر البيت فلما

طاف بالكعبة استلم الاركان الأربعة جميعا ، وقال انما كان ترك استلام هذين الركنين الشامي والغربي لان البيت لم يكن تاما . يقول ابن فهد القرشي وبقيت هذه العمرة سُنَّةً عند أهل مكة فى هذا اليوم يعتمرون فى كل سنة من هذه الاكمة يقصد من الينبوع فما دونها .

ابن الزبير ينحر مائة بدنه

وكانت فرحة ابن الزبير وأهل مكة فرحة عظيمة بإعادة بناء الكعبة فاهدى ابن الزبير فى ذلك اليوم مائة بدنة نحر بعضها فى جهة التنعيم والبعض الآخر فى طرف الحل ولم يبق من أشراف مكة وذوى الاستطاعة فيها الا من اهدى ونحر، ولم ير يوم كان اكثر عتيقا ولا اكثر بدنة منحورة أو شاة مذبوحة ، ولا صدقة من ذلك اليوم ، واقام اهل مكة يطعمون ، ويتنعمون وينعمون شكرا لله على ما انعم من التيسير فى بناء بيته الحرام على الصفة التى كان عليها حين بناه إبراهيم الخليل عليه السلام .

تحلية اساطين الكعبة بالذهب

قالوا وجعل ابن الزبير على الكعبة وأساطينها صفائح الذهب كما جعل مفاتيحها ذهبا ، كما قالوا انه ادخل الرصاص والورس فى بناء الكعبة .

هكذا أعاد ابن الزبير رضى الله تعالى عنه بناء الكعبة على قواعد إبراهيم عليه السلام وكان الاختلاف هو ان طول جدار الكعبة فى بناء إبراهيم تسعة أذرع فجعلها ابن الزبير سبعاً وعشرين ذراعا وجعل لها سقفا ولم يكن لها سقف فى بناء الخليل عليه السلام ، وجعل فى ركنها الشمالي درجا يصعد عليه الى سطحها وحلاها بالذهب وغير ذلك مما اسلفنا بيانه فجزاه الله على عمله الطيب خير الجزاء . (١)

بناء الحجاج للكعبة المعظمة

تأبي السياسة ألا أن تدس أنفها فى كل أمر فلم تمض عشر سنوات على بناء

---

١ - «٦٧ - ٨٥ تاريخ الكعبة المعظمة» .

عبـدالله ابن الـزبـير للكعبة المعظمة حتى اختلفت الأمور فعادت جيوش الشام مرة اخرى إلى مكة بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى وحاصرت أبن الزبير فى المسجد وضربت الكعبة بالمنجنيق مرة أخرى وحارب ابن الزبير حتى قتل فلما استتب الأمر فى مكـة للخليفـة الأمـوي عبـدالملك بن مروان كتب إليـه الحجاج بن يوسف عن الـزيـادة التى أحـدثها بن الزبير فى بناء الكعبة ووصف حديث عائشة رضوان الله تعـالى عنهـا الـذى اعتمـد عليـه الـزبـير فى اعادة بناء الكعبة على قواعد ابراهيم وصف هذا الحديث بانه مفترى على عائشة وان الزبير يزعم انه سمعه منها فكتب إليه عبدالملك ، إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شىء أما ما زاد فى طوله ـ طول بناء البيت ـ فاقره ، وأما مازاد فيه من الحجر فرد إلى بنائه ، وسد الباب الذى فتحه ، ولم يكذب الحجاج خبراً فسارع إلى نقض الزيادة التى ادخلها ابن الزبير رضى الله تعـالى فى الكعبـة ، والتى أعـادهـا بها إلى ماكـانت عليـه حين بنـاها الخليل عليه السـلام وأعـاد بنـاء الكعبـة فى الجـدار الـذى من جهة الحجر ـ حجر إسماعيل وهو بمقدار ستة أذرع وشبر كما قام بسد الباب الغربى فى ظهر الكعبة عند الركن اليماني وهكـذا أعيـدت الكعبـة إلى ماكـانت عليه حين بناء قريش لها ، اما ما احدثه ابن الزبير من الطول فى البناء فبقي على حاله .

عبدالملك يندم بعد فوات الأوان ويلعن الحجاج

ولقـد ندم عبـدالملك بن مروان على تعجله فى الأذن للحجـاج بنقض مابنـاه الزبير من الكعبة فقد وفد عليه الحارث بن عبدالله فى خلافته فقال له عبدالملك : ماأظن أبا خبيب ـ يقصد ابن الزبير سمع من عائشة ماكان يزعم أنه سمعه منها؟

قال الحارث : بلى أنا سمعته منها .

قال عبدالملك : سمعتها تقول ماذا؟

قال الحـارث : قالت : قال رسـول الله ﴿ﷺ﴾ إن قومـك استقصروا من بنيان البيت ، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ماتركوا منه فان بدا لقومك من بعدى

ان يبنوه فهلمي لاريك ماتركوا منه ـ فاراها قريبا سبعة اذرع ـ وتكملة هذا الحديث انـه قال ﴿ﷺ﴾ لها ـ ولجعلت لها بابـين موضـوعين فى الأرض شرقيا وغربيا، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟

قالت عائشة : لا

قال النبى صلوات الله وسـلامـه عليـه تعـززا أن لايـدخلها إلا من ارادوا فكان الرجل اذا هو اراد ان يدخلها يدعونه حتى يرتقي حتى اذا كاد ان يدخلوه دفعوه فسقط.

قال عبدالملك للحارث : أنت سمعتها تقول هذا

قال الحارث : نعم.

فنكث ساعة بعصاه ثم قال وددت أنى تركته ـ يقصد ابن الزبير وماتحمل، وقال أبوأويس أخبرني غير واحد من أهل العلم ان عبدالملك ندم على اذنه للحجاج فى هدمها ولعن الحجاج.

والحقيقة أن حديث عائشة رضوان الله تعالى عليها ثابت فى كتب السنة، وكان الأحرى بعبدالملك بن مروان أن يتقصى الأمر قبل ان يحكم فيه وهويعرف الحجاج ومـاجبـل عليـه من الحقد والبطش فالمسألة تتعلق هنا بهيبة البيت وقدسيته، حيث يجب عدم تعرضه للهدم والتغيير فى غير موجب، وقد رأينا ابن العباس وهو من هو فى فقهـه وعلمـه ينصـح ابن الزبير ان يقوم بترقيع الكعبة، أى ترميمها وأن لا يقوم على الهدم، ثم يترك مكة إلى الطائف فلا يعود إليها إلا بعد اتمام بناء البيت مرة اخرى.

لاتجعل كعبة الله ملعبة للملوك

وهـذا الـذى فعله ابن عبـاس رضى الله تعالى عنهما هو ما افتى به الامام مالك ابن أنس امام دار الهجرة حينما سأله هارون الرشيد وقيل أبوه المهدى العباسي ماذا يرى فى هدم الكعبة وردها إلى بناء عبدالله بن الزبير.

قال الامام مالك ـ يا أمير المؤمنين لاتجعل كعبة الله ملعبة للملوك، لايشاء أحد

أن يهدمها إلا هدمها، فتذهب هيبة البيت من صدور الناس فتركها الرشيد.

الطواف من خارج الحجر

ولهذا فان الطواف يكون من خارج الحجر - حجر إسماعيل - لأن ستة أذرع من الحجر مما يلى البيت تعتبر محسوبة من البيت بلا خلاف

خـلاصة القول

وخـلاصـة القول كما يقول المؤلف، فكل شيء فيها - الكعبة - بناء ابن الزبير الا الجـدار الـذى فى الحجـر - حجـر اسماعيل - فانه بناء الحجاج - كما سد الحجاج البـاب الـذى ظهـر فى الكعبـة، كذلـك رفع الباب الشرقي الذى يدخل منه اليها اليوم بمقدار اربعة اذرع وشبر وكان يصل الى الأرض، وكذلك الدرجة التى فى باطن الكعبة والبابان اللذان عليها اليوم هما ايضا من عمل الحجاج.(١)

السـيل يهدم الكعبة

بقيت الكعبة المعظمة على بناء ابن الزبير لها والتعديل الذى احدثه بها الحجاج ابن يوسف تسعمائة واربع وستين عاما لم يصبها وهن ولاخراب باستثناء بعض المرمات البسيطة، بقيت الكعبة المعظمة كذلك الى عام ١٠٣٩ للهجرة، ففى يوم الأربعـاء التـاسـع عشر من شعبـان عام تسع وثلاثين والف للهجرة، هطل بمكة المكرمة مطر عظيم ابتدأ فى الساعة الثانية صباحا - بالتوقيت الزوالى - واشتد نزوله بين صلاتي الظهر والعصر واتصل المطر الى ليلة الخميس، يصاحبه برد عظيم.

وفى آخـر النهـار من يوم الأربعـاء هبـط من جراء هذه الأمطار سيل عظيم لم يرد مثله فى الأزمـان القـريبـة، دخـل السيـل الى المسجد الحرام وامتلأ المسجد بالماء، ودخـل المـاء الى الكعبـة المشـرفـة من بابهـا ووصـل ارتفـاع الماء الى نصف جدار الكعبة، كما بلغ ارتفاعه الى طوق القناديل، ودخل السيل بيوت أهل مكة المكرمة

---

١ - «٨٦ - ٩١ تاريخ عمارة الكعبة المعظمة».

وأخـرج امتعـة هذه البيـوت وذهب بها الى اسفـل مكـة ، ومات فيه خلق كثير من مختلف طبقات الناس وصل تعدادهم كما يقول أحمد بن علان ألف إنسان من كبير وصغـير وجليـل وحقـير ، وبقى ماء السيـل تلك الليلة بالمسجـد الحـرام إلى الصباح . . وفى عصريوم الخميس عشرين من شعبان عام ١٠٣٩ هـ سقط الجدار الشـامي للكعبـة ، كما سقـط بعض جداريهـا الشـرقي والغـربي كما سقطت درجة السطح بعد ذلك ، ذعر الناس لما حدث من سقوط جدار الكعبة وضجوا وارتاعت القلوب لهول ذلـك . وكـان أمـير مكـة الشـريف مسعود ابن ادريس ابن حسن قد حضر الى المسجد صباح الخميس ، وامر بفتح سراديب المياه الخاصة بالحرم مما يلي باب إبراهيم وبعد ان تم تصريف معظم المياه عاد الى داره باجياد ولكنه ما لبث ان عاد الى المسجـد فزعـا حينـما علم بسقـوط جدار الكعبـة وحضر معه أشراف مكة وعلماؤ ها وسادن البيت الشيخ محمد بن أبي القاسم الشيبي .

أمر الشريف مسعود بايقاد الشموع فاوقدت وأمر السادن بالدخول الى الكعبة واخـراج القنـاديـل الثمينـة الخـاصـة بالكعبة ، وكانت عشرين قنديلا من الذهب احدها مرصع باللؤلؤ ، كما اخرج الميزاب والمعادن الثمينة ، وحفظت جميعها فى دار سادن البيت بعد ان تم ضبطها .

وفى اليـوم التـالى وهـويوم الجمعة ٢١ شعبان ١٠٣٩ حضر أمير مكة الشريف مسعود إلى المسجد الحرام ومعه أشراف مكة وعلماؤ ها واعيانها وباشروا فى تنظيف المطـاف ومـاحـولـه فبـاشـر الخطيب خطبة الجمعة وأقام صلاتها بالناس فى موضع المطاف . وبعد الفراغ من الصلاة شرعوا فى جمع الحجارة التى سقطت من الكعبة المشـرفـة فنقلوهـا من المطـاف ووضعوها فى اماكن قريبة حتى تكون فى متناول اليد عند اعادة البناء .

كان الحجـاز فى ذلـك العهـد ضمن البـلاد الاسلامية التابعة للخليفة العثمانى ولكنـه كان مرتبطـا فى ادارتـه بمصر، وكان مقر الشرفاء امراء مكة فى مكة المكرمة ، وكان مقر الولاة سواء اكان الوالي من قبل الخلافة العثمانى او من قبل صاحب مصر

فى جدة ، وقد استدعى ماحدث السعي لانقاذ الكعبة باحضار مال عاجل من جدة فارسل الى صاحب مصر فيها فبعث خمسمائة دينار بصورة عاجلة .

استفتاء الشريف علماء مكة فى اصلاح الكعبة

وقد حضر الشريف مسعود امير مكة الى المسجد الحرام وحضر لحضوره علماء البلد الأمين واعيان الناس ومندوب من صاحب مصر فسأل أمير مكة العلماء الحاضرين الفتوى فى إصلاح ماوهى من الكعبة وهل يجوز استعمال مال الكعبة فى اصلاحها ـ والمقصود بيع القناديل الثمينة التى تحتويها خزانة الكعبة وغيرها مما اهدى الى الكعبة ـ ام لايجوز ، ووجه السؤال مكتوبا الى العلماء وعين لهم مكانا خاصا فى باب الرحمة وقد اجتمع العلماء وتداولو الأمر ثلاثة أيام رجعوا فيها الى المراجع الفقهية ثم اجابوا على السؤال بان تعمر الكعبة من مالها، كما يجب المبادرة الى العمارة ممن له امارة على الحرمين الشريفين وان المخاطب بهذا هو السلطان مراد خان ثم نائبه الشريف مسعود أمير مكة .

وقد جهز امير مكة وفدا للسفر الى مصر لمقابلة صاحب مصر وعرض الأمر عليه مصحوبا بفتاوى العلماء وشهادة اعيان مكة لرفع الأمر الى السلطان مراد خان .

تنظيف المسجد واحاطة الكعبة بسور من الأخشاب

وفى نفس اليوم أمر الشريف مسعود المهندسين والفعلة بمباشرة تنظيف المسجد الحرام وباطن الكعبة مما أصابها من الأحجار والوحول المتراكمة، ووصلت من والي جده خمسمائة دينار اخرى لصرفها كذلك على التنظيف والاصلاح الابتدائى . وقد استغرف تنظيف المسجد الحرام مما أصابه من الوحول مايقرب من شهر كامل فتم تنظيف المسجد والكعبة ثم احيطت الكعبة بستارة من الخشب بعد احضاره من جده وغيرها، وامر الشريف مسعود بعمل ثوب اخضر كسيت به الاخشاب المحيطة بها ودخل الأمير الى داخل الستار الخشبي فصلى فى داخل

الكعبة ثم خرج وطاف بالبيت وذلك فى السابع من شهر شوال عام ١٠٣٩ هـ.

الاهتمام باصلاح الكعبة

وصل الوفد المرسل من مكة الى مصر وقابل واليها محمد باشا الألباني فاهتم بالامر اهتماما عظيما ورأى المباشرة بعمارة الكعبة حتى قبل ورود امر السلطان بذلك، فبعث من قبله مندوبا إلى مكة وخوله صلاحية تامة لاتخاذ التدبير المستعجلة للاصلاح، ووصل هذا المندوب الى مكة المكرمة يوم ١٦ شوال وفى اليوم التالى لوصوله قابل امير مكة الشريف مسعود وكان يصطحب معه خلعة سلطانية البسها لامير مكة فى المسجد الحرام. وكما اهتم صاحب مصر بالأمر فقد اهتم به السلطان مراد حينما وصل اليه الخبر فارسل السلطان فى شهر ربيع الثانى من عام اربعين بعدالألف رجلا اسمه السيد محمد افندى قاضيا للمدينة المنورة ومعينا لعمارة الكعبة المشرفة وحينما وصل الى مكة كان الشريف مسعود امير مكة مريضا فاستقبله فى بستان له خارج مكة المكرمة والبسه الخلعة السلطانية وتوفى الشريف مسعود فى الثامن عشر من ربيع الثاني عام أربعين وألف وقام بالأمر بعده الشريف عبدالله بن حسن بن أبي نمي.

ووصلت المؤن اللازمة للعمارة من مصر فى ٢١ من الشهر نفسه.

العمل فى بناء الكعبة

وقد بدأ الاستعداد للعمل الجاد فى بناء الكعبة فى الأسبوع الأخير من شهر ربيع الثانى فاحاط النجارون الكعبة بسياج من الخشب للعمل من داخله واخذوا من مدار المطاف نحو ستة اذرع لهذه الغاية. وكانت الاحجار الكبيرة التى اقتطعوها من جبل الكعبة المعروف حاليا قد احضرت قريبا من باب العمرة وشرع النحاتون فى نحتها. وهطل مطر بمكة فى يوم السابع والعشرين من ربيع الثانى سقط على أثره حجران من الجدار الغربي واحجار صغيرة اخرى مما دل على ان بناء الكعبة

جميعة قد وهى . وبالكشف على ماتبقى من بناء الكعبة ظهر ان الحاجة تدعو الى ازالة البناء القديم جميعه وتشييدها على أسس جديدة واختلف الناس فى ذلك

فالبعض يحبذ الهدم والبعض يميل الى البناء على ماتبقى من البناء ولكن تغلبت فكرة الهدم الكامل فى النهاية، فتم الشروع فى الهدم فى آخريوم من شهر جمادى الأولى واستمر المهندسون والعمال فى إزالة البناء القديم كله وهو بناء ابن الزبير

الى الثانى والعشرين من شهر جمادى الثانية ولم يبق فى مكانه من بناء ابن الزبير الا الحجر الأسود وذلك خشية عليه من التفتت، وقد تم قلع احجار الشاذروان - الشاذروان هو حجر الاساس - كما نقضوا سقف الكعبة وحفظوا كسوتها وأبوابها ومازينت به من النحاس المموه بالذهب والرخام فى مواضع أمينة.

وفى ضحى يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربعين بعد الألف بدأ العمل فى صب الاساسات فى جدار الكعبة الشامي ، واقيم لذلك احتفال حضره أمير مكة الجديد الشريف عبدالله ومعه اولاده كما حضر هذا

الاحتفال مندوب السلطان مراد خان ومندوب صاحب مصر وكثير من علماء مكة واعيانها وسادن البيت وشارك الجميع على سبيل التبرك فى عمل الاساسات كما جرى ذبح الذبائح عند باب السلام وباب الصفا وباب إبراهيم تقربا إلى الله تعالى رجاء قبوله وتوفيقه.

وقد استعملت الاحجار فى المدماك الأول من البناء بسمك أربعة وعشرين قيراطا وفى المدماك الثاني بسمك اثنين وعشرين قيراطا وجرى صب الرصاص المذاب بين الاحجار لمساواتها وتقويتها.

ولما بلغ البناء الى موضع الحجر الذى يستلمه الطائف فى الركن اليماني وضع

ذلك الحجر فى مكانه بعد ان ضخمه السادن بالعنبر والمسك وبخره بالعود وكان طرف الحجر الذى نحته انكسر من اعلاه فوضع فى محل ذلك رصاص مذاب

ليكون مسامتا لباقى الاحجار واستمر البناء بغاية الدقة والاتقان الى موضع الحجر الأسود فحضر مندوب السلطان مراد خان والشريف عبدالله ابن الحسين بن ابي نمي امير مكه واولاده وجمع كبير من العلماء والاعيان واصحاب الوظائف الكبيرة فى الحرم وسادن بيت الله الحرام وذلك للاحتفال بتثبيت الحجر الأسود فى موضعه من الركن.

حادث مثير للحجر الأسود

أخذ كبير المهندسين ومعه المعلم عبدالرحمن زين الدين باصبع الحديد ماطاف بالحجر الأسود والفضة التى احيطت بالحجر وكذلك بالجير الذى الصق به وكان ولد امير مكة الشريف محمد يتلقى هذه المواد بمحرمة فى يده وهم يتلطفون فى الامر ولكن الذى كان بيده المعمول ضغط دون قصد على الحجر فإذا به ينقسم الى أربع شظايا وكادت هذه الشظايا ان تسقط فلما رأوا ذلك احضروا السيد على ابن بركات فهاله ما رأى من امر الحجر كما هال الحاضرين ما علموا من ذلك وماشهدوا واخيرا اجمع الرأى على ابقاء الحجر فى مكانه من الركن واصلاحه دون اخراجه من موضعه خشية ان يتحول الى شظايا صغيرة متفرقة ان هم اخرجوه من الركن، واصلاحه دون اخراجه من العنبر واللاذن واعادوا الفتات التى خرجت من الحجر اثناء التنظيف الى مكانها منه ووضعوا عليه طوق الفضة الذى أعدّله وباشر اتمام ذلك امير مكة وأكابر الحاضرين، ولكن مركب العنبر واللاذن لم يدم طويلا فلما حميت الشمس ذاب هذا المركب فأُوقدت الشموع ليلا وعملوا مركبا آخر من كثير من المواد الثابتة واضافوا اليها المسك والعنبر وتم الصاق الشظايا مرة اخرى بهذا المركب الذى انتهى العمل فيه عند منتصف الليل وقد بلغت شظايا الحجر ثلاثة عشر فلقة الكبار منها أربعة وقد حدث فى التاسع من شهر شوال انه لوحظ تحرك طوق الفضة المطيف بالحجر الأسود وتخلخل احجاره وربما كان ذلك من كثرة اللمس والتقبيل للحجر بعد ان كان محجوبا عن الناس بضعة شهور فاعيد صنع مركب آخر ملئت به الثغرات بين احجاره ليتم تماسكها، وفى أول يوم من ذى

الحجة من هذا العام جرى دهن الحجر وطلى بالسندروس فصلح ماتخلخل منه .

تاريخ انتهاء البناء فى الكعبة

هذا وقد استمر العمل فى بناء الكعبة المعظمة ستة شهور ونصف ، أورد الشيخ باسلامه تفاصيلها نقلا عن المصادر التاريخية الكثيرة يوما بيوم الى ان انتهى العمل النهائى فيها ثانى أيام ذى الحجة من عام أربعين وألف وهذه العمارة التى قام بها السلطان مراد خان هى الباقية حتى هذا اليوم ولم يطرأ عليها سوى بعض الترميمات التى كان آخرها فى سقف الكعبة فى العهد السعودى عام ١٣٧٧ للهجرة .

ونكمل الحديث عن بناء السلطان مراد للكعبة ببعض المعلومات المتعلقة بالموضوع :

١ ـ الباب الذى جعل للكعبة فى هذه العمارة اشترك فيه اكثر من سلطان فقد ارسل السلطان بيبرس سلطان مصر بابا ثمينا من الخشب للكعبة ، ثم قام السلطان سليمان العثمانى بتلبيسه بالفضة المموهة بالذهب .

٢ ـ تم تسقيف الكعبة بالاخشاب وبلغت الاعواد التى استعملت كحامل للسقف ثمانية وثمانين عودا وتم تلبيس هذه الاعواد بصفائح الخشب .

٣ ـ جعلت للكعبة ثلاثة بساتل من الخشب القوي وقد وصل البستل الأول وهو قطعة من دقل مركب وحمل من جده على عجل وجُرَّتْ باثنى عشر جملا ، ولما وصلت الى باب الصفا حملها اثنا عشر رجلا ثم ركبوا اربع بكرات بحبال قوية ليرفعو البستل الى سقف الكعبة وهكذا فعلوا فى البساتل الباقية ، والبستل هو عمود ضخم من الخشب القوي الصالح لحمل الاثقال وقد تم دهن هذه العمد بالجير والزعفران وطليت بغراء الجلود .

٤ ـ للكعبة سقفان سقف يعلوه سقف .

٥ ـ الميزاب المركب فى سطح الكعبة ارسله السلطان العثمانى أحمد خان هدية الى الكعبة فى سنة ألف وعشرين للهجرة وطوله ثلاثة اذرع ونصف الجزء البارز منه

مصفح بالفضة المحلاة بالذهب وعليه اسم السلطان أحمد خان وقد بقي فى مكة عشرين عاما ثم جرى تركيبه فى العمارة الاخيرة التى اجراها السلطان مراد خان.

٦ ـ تم فرش سطح الكعبة بالرخام وكان قد تكسر من رخامه عشر رخامات ابدلت بعشر رخامات جديدة.

٧ ـ كان الجدار الذي بني به الحجر تم بناؤه فى عمارة الملك الأشرف قانصوه الغورى من ملوك الجراكسه بمصر فى القرن العاشر الهجرى، وقد اعيد بناء هذا الجدار فى العمارة الاخيره وفقدت رخامة من الرخام الملبس به البناء فابدلت بغيرها ـ وكذلك أبدل الرخام المكسر فى المطاف برخام سليم.

٨ ـ كان السلطان أحمد خان العثمانى قد بعث لوحا ذهبيا يعلق على اعلى باب الكعبة مكتوبا عليه باللون اللازوردي ـ الأزرق الفاتح ـ ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعاملين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من إستطاع اليه سبيلا ـ وتحت هذه الآيات ثلاث ابيات فيها تاريخ بعمل الحزام للسلطان أحمد خان وهو عام عشرين الف وهذه الثلاث أبيات تدل على الحالة التى كان فيها النظم الركيك يعتبر شعرا وكان هذا هو التفكير السائد فى ذلك الوقت.

السلوح ذا لما استرم فجددا قد بدل السلطان أحمد عسجداً

فبدا له من جديد ذو جدا الله انعم بالمجدد وايدا

الهمت فى تاريخه لما بدا اللوح للسلطان أحمد جددا

٩ ـ لما تم تجديد بناء الكعبة المعظمة كتب تاريخ العمارة على لوحة رخامية كتب فيها «بسم الله الرحمن الرحيم»، (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)، تقرب بتجديد هذا البيت العتيق الى الله سبحانه وتعالى خادم الحرمين، وسائق الحجاج

بين البرين والبحرين السلطان ابن السلطان مراد خان بن السلطان أحمد خان بن السلطـان محمـد خان خلد الله تعـالى ملكـه وايـد سلطنتـه فى أواخر شهر رمضان المبـارك المنتظم فى سلك شهـور سنة أربعين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها افضل التحية.

وقـد الصقت تلك اللوحـة على الجـدار الغـربى بداخـل الكعبـة المشرفة ومن المعلوم ان هذا التـاريـخ ليس هو التـاريخ النهائى للعمل فى البيت وربما كان تاريخ الانتهاء من البناء، لان التاريخ النهائى لعمارة البيت كان فى الثانى من ذى الحجة من نفس العام المذكور كما اسلفنا بيانه.

١٠ ـ زينت أرض الكعبـة وجـدرانهـا بالرخام الملون وفيها أربعة دعائم ، والدرجة الصاعدة الى السطح فى بطن الجدار الشامي عليها باب صغير وعلى يسار الداخل كرسي من الخشب يجلس عليه فاتح البيت وقد كسيت من الداخل بحرير أحمر.

١١ ـ تبلغ مساحة الكعبة بالامتار كما وردت فى الكتاب كالتالى :ـ

أ ـ طول الكعبة من وسط الجدار اليماني الى وسط الجدار الشامي ١٠,١٥

ب ـ طول الكعبة من وسط الجدار الشرقي الى وسط الجدار الغربى ٨,١٠

ج ـ يبلغ عرض جدار الدرجة التى بداخل الكعبة الواقعة فى الركن الشمالي الشرقي المصعدة الى سطح الكعبة من الشرق الى الغرب مترين وثلاثين سنتما ومن الشمال الى الجنوب مترا ونصف المتر.

١٢ ـ يوجد فى داخل الكعبة سبعة الواح من الرخام تحمل اسماء السلاطين والملوك الذين قاموا بعمارة فيها وهى كالتالى حسب الترتيب الذى اورده المؤلف.

١ ـ السلطـان الملك الأشـرف ابـو النصر قايتباى فى مستهل رجب عام أربع وثمانين وثمانمائة للهجرة.

٢ ـ والدة السلطان العثماني خان مصطفى بمباشرة أحمد بيك شيخ الحرم المكى فى عام مائة وتسع بعد الألف.

٣ ـ الخليفة العباسى أبوجعفر المنصور عام تسع وعشرين وستمائة.

٤ ـ الملك المظفر صاحب اليمن الذى قام بتجديد رخام البيت المعظم عام ثماني وستمائة .

٥ ـ السلطـان مراد خان بن السلطـان محمد خان فى شهر رمضان سنة أربعين والف من الهجرة .

٦ ـ السلطـان محمـد خان الـذى قام بتجـديـد سقف البيت الشريف وجميع داخل الحرم وخارجه سنة سبعين والف .

٧ ـ السلطان الملك الأشرف أبوالنصر برسباي سنة ستة وعشرين وثمانمائة . .

١٣ ـ توجد فى وسط الكعبة ثلاثة اعمدة من الخشب القوي التخين يقدر قطر تخن الـواحـدة منهـا بنصف متر ولـون هذه الاعمدة بين الحمرة والصفرة وقد بقيت هذه الأعمدة ثلاثة عشـر قرنا حيث وضعها عبدالله ابن الزبير فى بنائه للبيت وقد عمل لهذه الأعمدة قبل اربعين عاما دوائر من الخشب من اسفلها بإرتفاع متر ونصف من أرض الكعبـة بعـد ان ظهـر بعض التصـدع فى هذه العمد التى عاشت طيلة هذه القرون كما يقول المؤلف فى منتصف القرن الماضي .

١٤ ـ أرض الكعبـة مفـروش بالـرخـام الأبيض والقليـل منه ملون إما جدارها فهو مكسو برخام ملون ومزركش بنقوش لطيفه .

١٥ ـ وصف المؤلف الستـارة الحمـراء التى بداخـل الكعبـة والتى اهـديت لها من السلطان عبدالعزيز خان عام ١٢٩٠ للهجرة ومكتوب عليها بالنسيج الأبيض ـ لا إلـه إلا الله محمـد رسـول الله جل جلالـه ، ثم سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، ثم ياحنان ياسلطان ياحنان ياسبحان ـ وهذه الأسماء مكتوبة على شكل دوائر وتوجد ستارة أخرى على باب الدرجة المصعدة الى سطح الكعبة من الداخل وهى من الحرير الأسود ومطرزة بالقصب الفضي المذهب .(١)

الحجـــــــر الأســـود

أفرد المؤلف فصلا خاصا فى كتابه تحت عنوان ـ خبر الحجر الأسود ـ استعرض

١ـ٩٢ ـ ١٤٣ تاريخ عمارة المسجد الحرام

فيه الحوادث للحجر ونبدأ بالحادثة الشهيرة التى اخذ فيها القرامطة الحجر من مكة وساروا به إلى هجر وغيبوه هناك اثنتين وعشرين عاما ـ يقول المؤلف نقلا عن التقي القاسي فى شفاء الغرام وعن ابن فهد فى اتحاف الورى ماملخصه . ان أبا طاهر سليمان ابن ربيعة الحسن القرمطي صاحب البحرين دخل مكة فى شهر ذى الحجة سنة ثلاثمائة وسبعة عشرة للهجرة وكان قد حضر للحج بالناس نيابة عن الخليفة العباسي عمر بن الحسن بن عبدالعزيز وفاجأ القرمطي هذا الناس بان دخل المسجد الحرام يوم التروية ومعه تسعمائة رجل من أصحابه وكان يمتطى فرسا له وبيده سيف مسلول يقول ابن فهد فصفر القرمطي لفرسه فبال عند البيت واسرف هو أصحابه فى قتل الحجاج واسرهم ونهبهم وكان الناس يطوفون والسيوف تأخذهم وقد بلغ عدد القتلى في المسجد الحرام الفا وسبعمائة شخص فى احدى الروايات بينما بلغ فى رواية اخرى ثلاثة عشر الفا وايا كان العدد فقد كانت حادثة رهيبة وفظيعة وقد امتلأ المسجد الحرام بجثث القتلى بعد ان امتلأ بهم بئر زمزم وحينما سمع ابوطاهر هذا الناس يصيحون ـ تقتل جيران الله فى حرم الله؟ قال لعنه الله ـ ليس بجار من خالف أوامر الله ونواهيه وتلا الآية الكريمة ـ انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله الآية . .

ثم صعد على باب الكعبة واستقبل الناس بوجهه وهو يقول :ـ

إنا بالله وبالله أنا   يخلق الخلق وأفنيهم أنا

قالوا وضرب بعض اصحابه الحجر بدبوس فانكسر، وقيل ان الذى ضرب الحجر الأسود بالدبوس أبوطاهر نفسه وصاح ياحمير ـ أنتم تقولون من دخل هذا البيت كان آمنا فأين الأمن وقد فعلت مافعلت؟ وعطف دابته ليخرج فاخذ بعض الحاضرين بلجام فرسه وقد استسلم للقتل فقال له ـ ليس معنى الآية ماذكرت وانما معناها من دخل فامنوه فلوى القرمطي فرسه ولم يرجع اليه .

ثم استمر القتل والنهب من القرمطي واصحابه فى سكك مكة وظاهرها وشعابها من الحجاج المغاربة والخراسانين نيفا وثلاثين الفاً وسبى من النساء والصبيان مثل

ذلـك ولم يقف احـد هذه السنـة بعـرفـه ولا وفى نسكا الا قوم يسير ون غرورًا فاتموا حجهم دون إمام وكأنوا رجالة .

ونهب أبـو طاهـر ورجـالـه امـوال النـاس وحـلي الكعبة ، وهتك استارها وقسم كسـوتهـا بين أصحـابـه قال ابن فهـد ونهب دور مكة وقلع باب الكعبة ، وامر بقلع الميزاب وكان من الذهب الابريز فصعد احد رجاله ليقلعه فاصيب بسهم فى عجزه اطلق عليه من جبل أبي قبيس فسقط فمات ، وقيل ان الرجل وقع على رأسه فمات .

فقال القرمطي ـ اتركوه على حاله ـ يعني الميزاب فانه محروس حتى يأتي صاحبه يعنى المهـدى قالـوا وأراد أخذ المقام فلم يظفر به لان سدنة المسجد غيبوه فى بعض شعـاب مكـة ، فتألم لفقـده فعاد عند ذلك على الحجر الأسود فقلعه جعفر بن أبي علاج البنـاء المكي بأمـر القـرمطى بعد صلاة العصر من يوم الاثنين رابع عشر ذى الحجه قالوا وقال عند ذلك شعرا يدل على عظيم زندقته حيث يقول :

فلو كان هذا الـبـيـت لله ربّـنـا	لصـب علينـا النـار من فوقـه صبـا
لانـا حجـجـنـا حجـة جاهـلـيـة	محللة لم تبـق شرقـا ولاغـربـا
وانـا تركـنـا بين زمـزم والـصـفـا	جنـايـز لاتـبـغى سوى ربهـا ربـا

قالوا وقلع القرمطي قبة زمزم واقام هو واصحابه بمكة احد عشر يوما ثم انصرف الى بلده هجـر وحمـل معـه الحجـر الأسود يريد ان يجعل الحج عنده ، قال ابن فهد وهلك تحت الحجر اربعون جملا وبقى موضع الحجر الأسود من الكعبة خاليا يضع الناس فيه ايديهم للتبرك .

وكان القرمطي يخطب بمكة لعبد الله المهدى صاحب المهدية بافريقية .

أقـول ـ ان مايلفت النظـر فى هذه الـروايات التى سقناها عن القرمطي والمنقولة

عن ابن فهد ان تعداد جيش القرمطي كان تسعمائة رجل وقد عاث هذا الفساد كله فى اقـدس بقعـة على وجـه الأرض وقتـل الألـوف من الحجاج والاهليين ، وسبى الألوف المؤلفة كذلك من الصبيان والنساء، وهتك حرمة البيت الحرام وبقى احد عشر يوما ولم يتصد لقتاله ومناجزته احد|ترى الم يكن لدى امير مكة من الجنود والحرس من يتصدى لهؤلاء المفسدين فى الأرض وقد حضر الحج مندوب الخليفة ومعه حتما من الجنـد والحرس من كان ينضم الى أمـير مكـة وجنـده، كما ينضم اليهم المتطوعون من أهل مكة والحجاج.

ولقد ذكر ابن فهد ضمن أسماء القتلى أمير مكة ابن محارب كما ذكر اسماء كثير من الأعلام الذين قتلوا فى هذه المعركة الفظيعة.

على اي حال ـ يبـدو ان هذا القـرمطي اعتمـد على مفـاجأة النـاس باعتـدائه الفظيع الغاشم الذى تم فى اليوم الثامن من ذى الحجة، وفى قلب المسجد الحرام، ويبـدو ان هذه المفـاجأة اذهلت النـاس فشلت عقـولهم كما شلت حركتهم، كما ان مقتـل ابن محارب أمـير مكـة كان من أكـبر الأسبـاب فى اسـترسال القرمطي هذا وأصحـابـه فى القتـل والافسـاد دون رادع أووازع، امـا تعـداد القتلى و الاسـرى والسبـايـا فان المبـالغـة فيـه واضحة لايفتقر تبينها الى عناء، والناس فى امثال هذه الحـوادث يعظمـون الأمور ويبالغون فى الروايات وقد ينطقون الناس مالم ينطقوا او يقـولـوا ، ولكن الحـادثـة مهما صاحب روايتها من المبالغة والتهويل كانت من أسوأ الحـوادث التى مرت فى تاريـخ المسجـد الحـرام وافظعها، وهى سبة لهذا القرمطي واصحابه ولعنة تلحقهم عبر الازمان والدهور.

اعـادة الحجـر

ذكـرنـا ان هذا القـرمطي الفـاجـر اللعين كان يخطب لعبد الله المهدى صاحب افـريقيـة قالوا فلما بلغ المهدى ذلك كتب الى القرمطي يقول ـ والمعجب من كتبك

الينا ممتنا علينا بها ارتكبت واجتر يت باسمنا من حرم الله وجير انه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم الدماء فيها وإهانة أهلها ثم تعديت ذلك إلى أن قلعت الحجر الـذى هو يمـين الله فى الأرض يصـافـح بها عباده ، وحملته إلى أرضك ورجوت ان نشكـرك على ذلـك ، فلعنك الله ثم لعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من يسلم المسلمون من لسانه ويده .

لما وصل هذا الكتاب من الخليفة العبيدى عبدالله المهدى انحرف القرامطة عن طاعـة العبيـدين قالـوا وأقام الحجر بالاحساء اثنتين وعشرين سنة يستميلون الناس اليهم ، ثم يئسوا فردوه فلما كان يوم النحر من سنة ثلاثمائة وتسعة وثلاثين وافى سنبر بن الحسن القرمطي مكة ومعه الحجر الأسود فلما صار بفناء الكعبة ومعه امير مكة أظهر الحجر من سفط وعليه ضباب فضه .

وقـد قيـل ان الخليفـة المقتـدر العبـاسي اشـترى الحجر من ابي سعيد الجنابي بثلاثين ألف دينار ولكن الناقل لهذه الرواية نجم الدين ابن فهد ردها . قالوا ولما رد سنبر هذا الحجـر الى مكـانـه وجرى شده بالجص الذى احضره معه قال سنبر ـ اخذناه بقدرة الله ، ورددناه بمشيئة الله .

ونظر الناس الى الحجر فتبينوه واقبلوا عليه يقبلونه ويحمدون الله تعالى على رده الى مكانه من البيت الحرام .

وقـد جرى اخـراج الحجـر بعد بضعة شهور من اعادته الى مكة وتطويقه بالفضة كما كان عليـه الحـال فى خلافة عبدالله ابن الزبير وقد وقعت حوادث كثيرة للحجر الأسود عبر التاريخ نذكر منها مايلى :

١ ـ ذكـر ابن فهـد القـرشيى فى حوادث سنـة ٣٦٣ انـه بينـما كان الناس فى وقت القيلولـة وشـدة الحـر وانقطـاع حركة الطواف بالبيت إلا من رجل او رجلين شوهد رجل عليه ملابس بالية يغطى رأسه ويسير رويدا حتى دنا من الركن فاخذ معولا وضـرب به الـركن ضربـة شديـدة حتى ظهـر اثـرها فيه ورفع يده ليضرب الضربة الثـانيـة فابتـدره رجـل من السكـاسـك من أهل اليمن وكان يطوف بالبيت فطعنه

بخنجر طعنة عظيمة فسقط ارضا واقبل الناس من نواحي المسجد ونظروه فاذا هو رجل رومي يحمل معولا عظيما حديد السن وقد جعل له مال كثير على ذهاب الركن فاخرج من المسجد الحرام وجمع الحطب الكثير فاحرق بالنار.

٢ ـ وذكر ابن الاثير فى حوادث سنة ٤١٤ جاء الى المسجد فى يوم النفر الأول ولم يكن الناس عادوا من منى رجل أحمر اللون اشقر الشعر تام القامة جسيم طويل وبإحدى يديه سيف مسلول وبالأخرى دبوس فقصد الحجر الأسود بعد أن اتم الأمام صلاته يظهر كان يريد استلامه فضرب وجه الحجر ثلاث ضربات متواليات بالدبوس فتقشر وجه الحجر من تلك الضربات وسقطت منه شظايا صغيرة.

واقبل الرجل بوجهه متسائلا، إلى متى يعبد هذا الحجر الأسود ولا محمد ولا علي يمنعني عما أفعله فأنى أريد اليوم أهدم هذا البيت فتهيب الحاضرون الأقدام على الرجل، وكان قد وضع على باب المسجد عشرة من الفرسان لينصروه، ولكن رجلا من أهل مكة احتسب حياته فثار به فطعنه بخنجر وتكاثر عليه الناس فقتلوه وقطعوه اربا واحرقوه بالنار وقتل جماعة ممن شاركوه واعانوه واحرقوا بالنار.

قالوا وكان الظاهر منهم عشرين رجلا فثارت الفتنة وعلم ابو الفتوح أمير مكة بالأمر فاطفأ الفتنة التى كادت ان تعم المصريين لان الرجل كان كما يقول ابن الاثير ممن استغواهم العبيدى حاكم مصر.

٣ ـ وجاء فى منائح الكرم نقلا عن الشيخ محمد بن علان المكي انه فى عشر التسعين والتسعمائة جاء رجل اعجمي بدبوس فضرب الحجر الأسود، وكان الأمير ناصر جاوش حاضرا فطعن ذلك الاعجمي بالخنجر فقتله واراد العجم المقيمون بمكة ان يثأروا له وزعموا انه شريف فحال بينهم وبينه قاضي مكة حسين المالكي.

٤ ـ وقد اورد الشيخ باسلامه آخر الحوادث التى شهدها عن الحجر الأسود فقال: جاء رجل فارسي من بلاد الأفغان فى آخر شهر المحرم سنة ١٣٥١ فاقتلع قطعة من الحجر الأسود د وسرق قطعة من ستارة الكعبة، وقذعة فضة من مدرج

الكعبـة الـذى هوبين بئـر زمـزم وبـاب بني شيبة فشعـر به حرس المسجـد الحرام فاعتقلوه ثم اعـدم عقـوبـة له كما حدث لامثـالـه ممن تجرأوا على الحجر الأسود فى مختلف ازمان التاريخ بحيث اصبح ذلك سنة متبعة .

يقـول الشيـخ باسـلامـه ثم لما كان يوم ٢٨ ربيـع الثـانى من عام **١٣٥١** حضر جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود من مصيفه بالطائف قبل توجهه الى الرياض ومعه رئيس هيئة القضاء الشرعي الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيـخ ، وحضـر أيضـا الشيخ عبدالله الشيبي نيابة عن والده رئيس السدنه المرحوم الشيـخ عبـدالقـادر الشيبي وحضر كذلك بعض الاعيان ، ثم احضر مدير الشرطة العـام محمـد مهـدى بك تلك القطعـة التى اقتلعهـا ذلك الفارسي التعيس وعمل الاخصـائيـون مركبـا كيماويا مضافا اليه المسك والعنبر وضعه الاخصائيون لتثبيت تلك القطعـة ثم وضـع جلالـة الملك عبـدالعزيز بيده قطعة الحجر فى محلها واثبتها الاخصائيون اثباتا محكما . (١)

● ●

---

١ ـ «١٤٩ ـ ١٦١ تاريخ بناء الكعبة المعظمة»

كسوة الكعبة

تعـددت الـروايـات فى أمـر كسوة الكعبة وقد استنتج الحافظ ابن حجر من هذه الـروايـات أن أول من كسى الكعبـة أسـماعيـل عليـه السلام ثم عدنان وهو الجد الأعلى للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ثم تبع ملك اليمن واسمه اسعد .

وفى كسوة تبـع للكعبـة انه كان وقومه اصحاب اوثان يعبدونها فسار الى مكة بقـومـه حتى إذا كان قريبـا منهـا بين عسفان وامج اتاه نفر من هذيل فقالوا له ـ ايها الملك الا ندلـك على بيت مال وأثـر اغفلتـه الملوك قبلك فيـه اللؤلؤ والـزبـرجـد والياقوت والذهب والفضة؟

قال تبـع بلى ـ قالـوا بيت بمكـة يعبـده اهله ويصلون عنـده . . قالوا وانما اراد الهذليون بذلك هلاك تبع وجيشه لما عرفوا من هلاك من اراده من الملوك بسوء قبله .

اجمع تبع امره على السير الى مكة والاستيلاء على الكنوز النفيسة التى وصفها له الهذليون فاستشار حبرين كان عنده باليمن يعلمان ما جاء فى الكتب .

قال الحبران لتبع : ما ارادا القوم الا هلاكك وهلاك جندك ، وما نعلم بيتا لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت مادعوك اليه لتهلكن ومن معك جميعا .

قال تبع فماذا تأمرانني ان اصنع اذا انا قدمت عليه؟

قالا تصنع عنده ما يصنع أهله، تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده وتذلل له حتى تخرج من عنده

قال تبع للحبرين فما يمنعكما انتما من ذلك؟

قالا ـ أما والله انه لبيت أبينا إبراهيم وإنه كما أخبرناك، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالآوثان التى نصبوها.

استمع تبع لنصيحة الحبرين وعاقب الهذليين بقطع أيديهم وأرجلهم ثم سار إلى مكة، فلما وصل إليها طاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه، وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ينحر بها الذبائح لأهل مكة ويسقيهم العسل.

ورأى تبع فى منامه أن يكسو البيت فكساه الخصف وهي ثياب غلاظ وقيل نسيج من الخوص والليف وهو الأقرب إلى إسم الخصف(١) ثم رأى تبع فى منامه ان يكسوه احسن من ذلك فكساه المعافير ثم رأى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الملاء والوصائل وهي ثياب حبرة من صنع اليمن، وجعل للكعبة بابا يغلق وقال تبع فى ذلك شعرا:

وكسونا البيت الذى حرم الله ملاءاً معضدا وبرودا
واقمنا به من الشهر عشرا وجعلنا لبابه اقليدا
وخرجنا منه نؤم سهيلا قد رفعنا لواءنا معقودا

أقول وهذه الأبيات تدل على أن إقامة تبع بمكة طالت حتى بلغت شهورا عشرة كما وردت فى البيت الثانى.

---

١ ـ الخصف بسط تصنع من أوراق النخيل يستعمله الناس فى الحجاز لاغراض كثيرة اهمها ماكان يفرش فى البيوت والمساجد، انظر كتابنا ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز.

وتروى النوار بنت مالك أم زيد بن ثابت رضى الله عنه قالت: رأيت على الكعبة قبل أن ألد زيد بن ثابت وأنا به نسىء مطارف خز خضراء وصفراء وكرار واكسية من اكسية الأعراب وشقاق شعر والكرار هي الخيش الرقيق واحدها كر.

ويبدو ان الناس قبل الاسلام كانوا يكسون الكعبة تقربا فكل من اراد كسوتها وضع الكسوة التي عليه فعلقها بها فكنت تجد معلقا على وجه الكعبة الاكسية من الحرير والخيش والشعر وغيرها من مختلف الثياب التى تهدى اليها وتعلق عليها. وكانت هذه الاكسية تتكاثر على الكعبة وربما حفظ بعضها فى خزانة الكعبة فاذا بلى شيء من الاكسية المعلقة عليها ازيل ووضع مكانه، وكان الطيب يهدى الى الكعبة فتضمخ به كما يهدى اليها العود فتجمر به.

و فى وقت من الأوقات كانت قريش تفرض كسوة الكعبة على القبائل بقدر احتمالها فتسهم كل قبيلة بما فرض عليها من هذه الكسوة حتى نشأ ابو ربيعة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم وكان يتجر مع اليمن فأثرى ثراء عظيما فكان يكسو الكعبة سنة وتكسوها قبائل قريش سنة، وكان يأتى بالكسوة من أرض السكاسك باليمن وكانت هذه الكسوة حبرة جديدة واستمر على ذلك حتى مات وكانت قريش تسميه العدل لانه عدل بفعله فعل قريش كلها واستمر هذا الاسم لابنائه من بعده فكانو يسمون بنو العدل.

وقيل أن أول من كسى الكعبة الديباج خالد بن جعفر بن كلاب، قالوا أنه أصاب لطيمة فى الجاهلية فيها نمط ديباج فأرسل به الى الكعبة فنيط عليها وقيل أن أول من كساها الديباج نتيلة بنت حبان والدة العباس بن عبدالمطلب قيل أنها اضلت ابنها العباس، وقيل شقيقه ضرارا بن عبدالمطلب فنذرت ان وجدته ان تكسو البيت فرده عليها رجل من جزام فكست الكعبة ثيابا بيضا.(١)

١- «٣٤٤ - ٢٤٩ تاريخ الكعبة المعظمة»

كســـوة الكعبة فى الاسلام

أمـا كسـوة الكعبَـة فى الاسـلام فقـد ورد أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كساهـا الثيـاب اليـمانيـة ثم كساها أبوبكر وعمر وعثمان القباطي ، وهي ثياب من صنـع مصـر كانت معـروفـة فى ذلـك الـزمـان ، ثم كسـاهـا الحجاج الديباج بأمر عبدالملك بن مروان .

ويبـدو أن كسـوة الكعبـة لم تكن تتم بشكـل دورى فى مواعيـد معينة ، لهذا فان النـاس كانـوا يسـاهمون فى كسوتها فقد روى أن ابن عمر رضي الله تعالى عنه كان يكسو بدنه القباطي والحبرات كان يحرم بها فاذا كان يوم النحر نزعها ثم أرسل بها الى شيبـة بن عثـمان سادن البيت فنـاطهـا ـ علقها ـ على الكعبة . وروى ان عمر رضى الله تعـالى عنـه كان يكسـو الكعبـة القبـاطى يوصي عليها من مصر تحاك له هنـاك وفعـل بعـده ذلك عثمان فلما كان عهد معاوية كساها القباطى كما كان يفعل عمر وكساها الديباج فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء وتكسى القباطى فى آخر شهـر رمضـان واجرى معاوية لها وظيفة من الطيب لكل صلاة وكان يبعث بالطيب والمجمر والخلوف فى الموسم وفى رجب واخدمها معاوية عبيدا بعث بهم اليها فكانوا يخدمـونهـا وعلى هذا فان كسـوة الكعبة انتظمت فى عهد عمر رضى الله تعالى عنه حيث تحاك من مصـــــــر وترسل اليها ثم صارت تكسى فى عهد معاوية مرتين فى العام .

وكان يزيد بن معاوية وعبدالله ابن الزبير يكسوان الكعبة الديباج المصنوع من خراسـان فلما ولي عبـدالملك بن مروان الخلافة كان يكسوها الديباج ويرسل به من الشـام الى المـدينـة فينشر يوما فى مسجد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على اساطين المسجد ثم يطوى ويبعث به الى مكة وكذلك كان يبعث بالطيب وبالمجمر ـ العود ـ الى مسجد رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، وكان الديباج اذا وضع على الكعبة يوم الـتر ويـة علق على نصفهـا دون ان يخاط فتبدوا الكعبة وكانها محرمة كما هى العادة اليوم ، فإذا اتم الناس حجهم وصدروا من منى اكملت كسوتها فإذا كان يوم العاشر من محرم اتموا الكسوة بخياطة اثواب الكعبة عليها فبدت كاملة وتبقى كسوة الديباج

على الكعبة الى آواخر رمضان فتكسى القباطي المصرية لاستقبال عيد الفطر - القباطي هي نسيج حريرى من صنع مصر واليمن - فلما ولي المأمون العباسي الخلافة صار يكسوها الديباج الأحمر يوم التروية والقباطى يوم هلال رجب والديباج الأبيض فى السابع والعشرين من رمضان.

وكان الخلفاء والملوك يكتبون اسماءهم على كسوة الكعبة كما هى العادة الجارية الى يومنا هذا وكانت هذه الكسوة غالبا من الديباج والقز الرقيق وبالوان مختلفة فيها الأبيض والأحمر والأصفر، وكان بعض الخلفاء والملوك يحضرون الكسوة معهم اذا حضروا للحج ويتنافسون فى ذلك.

وفى سنة سبعمائة وثلاثة وأربعين للهجرة اوقف عليها الملك الصالح اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون قريتين من نواحى القاهرة يقال لهما - بيسوس وسندبيس اشتراهما بماله من وكيل بيت المال ووقفها كلها على كسوة الكعبة ولم تزل تكسى من هذا الوقف كما يقول ابن حجر فى فتح البارى الى سلطنة الملك المؤيد شيخ سلطان العصر.

ولقد كانت الحالة السياسية فى البلاد الاسلامية تنعكس آثارها على كسوة الكعبة كما كان الحال بالنسبة للخطبة والدعاء للخليفة مما سلف تفصيله فى حديثنا عن المنبر والخطبة فى المسجد الحرام فكان صاحب النفوذ الأكبر من السلاطين والملوك هو الذى تقدم كسوته فيكسى بها البيت الحرام فلقد ذكرنا ماكان من أمر أرسال الكسوة من مصر من ريع القريتين اللتين اوقفهما الملك الصالح إسماعيل لهذا الغرض، ولقد حاول ملك الشرق شاه بروخ فى عهد سلطنة الملك الأشرف برسباي أن يكسو الكعبة وطلب الأذن له بذلك من الملك الأشر ف فلم يقبل فراسله أن يسمح له بكسوة الكعبة من الداخل فأبي فكتب إليه مرة أخرى أن يرسل الكسوة إليه وهو يرسلها من قبله وتكسى بها الكعبة ولو يوما واحدا لانه نذر كسوتها ويريد الوفاء بنذره، قالوا واستفتى الملك الأشراف علماء العصر فتوقف الكثير ون منهم عن الجواب، وافتى بعضهم بعدم الجواز ممالأةً لهوى السلطان وقال

بعضهم ان خشي الفتنة فيجاب منعا للضرر، وتوفى الملك الأشرف دون ان يسمح لسلطان الشرق بالوفاء بنذره.

وفى بعض الاحيان كانت تكسى الكعبة من قبل ملكين من ملوك المسلمين فى وقت واحد كما حدث لكسوة نظام الملك وزير السلطان ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقي فإرسل بها الى مكة وجعلت فوق كسوة ابي النصر.

وكان لملوك اليمن دور فى هذا التنافس بين ملوك المسلمين فكانوا يرسلون بالكسوة الى الكعبة فتكسى بها اذا كانت القوة والنفوذ فى ركابهم او تحفظ ويظفر بالكسوة صاحب القوة والسلطان.

وكانت بعض الكساوى توضع فى داخل الكعبة، بل ان الكعبة كانت تكسى من الداخل ولكن لبس بصورة منتظمة ، كما تكسى الحجرة النبوية بالمسجد النبوي الشريف بصورة غير منتظمة . ولكن مايلفت النظر ان الوقفية التى اوقفها الملك الصالح اسماعيل بن الناصر قلاوون استمرت دهورا طويلة حتى حينما تحولت السلطة الى الخلافة العثمانية فقد ابقى سلاطين العثمانيين المتعاقبين على هذه الوقفية بل وزاد السلطان سليمان بن السلطان سليم خان عدة قرى بمصر واوقفها كذلك على كسوة الكعبة الشريفة وهى سبع قرى ذكرها مؤلف مرآة الحرمين وذكر اسماءها.

وفى عهد محمد علي باشا خديوى مصر جرى حل هذه الوقفية فى أوائل القرن الثالث عشر للهجرة وتعهدت الحكومة المصرية بصنع الكسوة من مالها العام يقول المؤلف ولايزال ذلك دأبها الى الآن.

ومن اطرف الحوادث التى تتعلق بالكسوة ان هذه الكسوة كانت تصل مع ركب الحجاج المصريين وتحفظ ضمن امتعتهم وقد سرقت بعض أجزاء الكسوة فى أحد الاعوام ولم يستطع أمير الحج المصرى إسترداد هذه الأجزاء إلا بعد أن بذل المال الكثير فى سبيل هذه الغاية، وبعدها صار العمل على تسليم الكسوة لسدنة بيت

الله الحرام لحفظها لديهم إلى أن يحين وقت أسدالها على البيت الحرام. (١)

مصــــر تمتنع عن أرسال الكســـوة

ولقد اورد المؤلف صورة الوقفية الخاصة بهذه القرى التى اوقفها الملك الصالح اسماعيل والسلطان سليمان خان العثمانى ، كما اورد ماتغله هذه القرى من المال وهو يكفى لكسوة البيت فى كل عام وكسوة الحجرة النبوية الشريفة وكسوة داخل الكعبة فى كل خمسة عشر عاما مرة بل وتفيض كثيرا كما ذكر ان حلّ هذا الوقف من قبل محمد علي باشا والي مصـــر فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى نتج عنه امتناع خديوى مصر عن إرسال الكسوة كما حدث فى عهد الشريف الملك حسين بن علي وكذلك فى اوائل عهد جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود وتفصيل ذلك.

ان اختلافا وقع بين الحكومة المصرية وحكومة الشريف الحسين بن على ملك الحجاز فى سنة ١٣٤١ يقول المؤلف فلما وصل المحمل المصرى فى باخرة خاصة الى جدة وكان معه كسوة الكعبة وحنطة الجراية وحرس المحمل وبعثة طبية منع الشريف الحسين دخول البعثة الطبية الى مكة المكرمة فعادت الباخرة التى تحمل الكسوة الشريفة وحنطة الجرايةومايتبعها من الصرر والصدقات وذلك فى آخر شهر ذى القعدة من سنة ١٣٤١ للهجرة، ولقد استطاع الشريف الحسين التغلب على الوضع الخاص بالكسوة فابرق الى أمير المدينة المنورة ان يرسل كسوة الكعبة الشريفة التى كانت الحكومة التركية اودعتها فى المدينة الى ثغر رابغ على وجه السرعة وأرسل الحسين احدى بواخره المسماة رشدي الى ثغر رابغ لنقل الكسوة الى جدة ومن ثم جرى الاسراع بنقلها الى مكة المكرمة وتم كل هذا فى سرية تامة وفى سرعة بالغة فكانت الكسوة معلقة على الكعبة المعظمة فى اليوم العاشر من ذى الحجة.

يقول المؤلف ، وقد حدثت ضجة عظيمة فى مصر وتساءلت الصحافة المصرية

١- «٢٤٩ - ٢٧٠ تاريخ الكعبة المعظمة»

كيف امكن عمل الكسوة واحضارها فى عشرة ايام ولم يدر بخلد الصحافة المصرية ان الكسـوة كانت موجـودة بالمـدينـة المنورة من العهد التركى حيث قامت الحكومة الـتركيـة بصنـع كسوة متقنة للكعبة ظنا منها ان الحكومة الانجليزية ستمنع وصول الكسـوة الى الكعبـة بعـد دخـول تركيا الحرب مع المانيا ضدها بعد اعلانها الحماية على مصـــر وارسلت هذه الكسـوة بالسكـة الحـديدية برا الى المدينة المنورة ولكن الحكـومـة المصـريـة لم تمنـع إرسـال الكسوة المعتادة بل ارسلتها وكتبت عليها اسم السلطان حسين كامل سلطان مصـــر فاتفق الشريف الحسين مع الوالي التركي فى مكـة على نزع اسم السلطـان حسـين ووضـع اسم السلطـان محمد رشاد خان العثماني وقـام آل الشيبي بهذا العمـل وبقيت الكسـوة الـتركية بالمدينة المنورة فقام الحسـين باحضـارهـا بينـما كان المصريون حائرين كيف استطاع معمل للنسيج فى رابـغ ان يصنـع الكسـوة فى عشرة ايام بينما لاتستطيع مصانع اوروبا صنع ذلك فى شهور، وكان مراسل رويتر فى جدة قد ابرق بوصول الكسوة من ميناء رابغ . هذا وقـد سارع الشـريف الحسـين بعمـل الكسـوة للكعبـة الشـريفة فى العراق وجرى نسجها من القيلان وكسيت بها الكعبة فى عام ١٣٤٢ لان حكومة مصـــر امتنعت عن ارسـالهـا ، وفى عام ١٣٤٣ اسـتولى جلالـة الملك عبـدالعـزيـز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود على مكة المكرمة واستمرت الحرب الى منتصف جمادى الآخرة عام ١٣٤٤ فكسيت الكعبـة بالكسـوة المصنوعة من القيلان التى صنعها الشريف الحسين لها فى عام ١٣٤٣ هـ.

وبعثت الحكومة المصرية الكسوة فى عام ١٣٤٤ ولكن حدثت حادثة المحمل فى موسم حج ذلـك العـام بمنى وكـادت ان تكـون معركة حربية بين الجنود المصريين وجمـوع الاخـوان من أهـل نجـد الذين ثاروا لرؤ ية البدع ممثلة فى المحمل المصرى والحجاج يتبركون به وبالجمل الذى يحمله الامر الذى يعتبر مجافيا لصفاء العقيدة الاسـلاميـة وسـلامتهـا ، وتطـور الامر الى استعمال السلاح من قبل جنود المحمل المصرى والاخوان ، وما ان علم الملك عبدالعزيز رحمه الله بالامر حتى سارع بنفسه

فوقف فى ميدان المعركة معرضا نفسه للخطر وطلب من جموع الاخوان اغماد سلاحهم والعودة الى السكينة حفاظا على أرواح الحجاج وعلى حرمة المشعر الحرام . وكان ذلك فى ليلة التاسع من ذى الحجة ومقذوفات حرس المحمل المصرى من مدافع ورشاشات وبنادق تمطر نيرانها هنا وهناك حتى امكن تغليب الحكمة وسكون الحال .

وفى العام التالى ١٣٤٥ هـ لم تبعث الحكومة المصرية بالكسوة فسارعت الحكومة السعودية ممثلة فى شخص الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية بعمل كسوة مؤقتة للكعبة من الجوخ الأسود الفاخر ومبطنة بالقلع القوى، كما صنع الحزام المعتاد للكعبة والمكتوب عليه الآيات باسلاك الذهب والفضة وكذلك ستارة باب الكعبة ولم يأت العاشر من ذى الحجة الاوكانت هذه لكسوة قد علقت على الكعبة المعظمة وتم هذا كله فى بضعة أيام وهكذا فان عزائم الرجال تخلق المستحيل (١)

انشاء مصنع الكسوة بمكة المكرمة

لما رأى جلالة الملك عبد العزيز ان موضوع كسوة البيت قد دخل فى اعمال السياسة امر بإنشاء دار خاصة لكسوة الكعبة المعظمة فى مكة المكرمة، وأولى وزير المالية الشيخ عبدالله السليمان اهتمامه للأمر فبنيت دار خاصة للكسوة على أرض مساحتها ألفا وخمسمائة متر بمحلة اجياد وتم البناء خلال ستة شهور، واستقدم عمال الحياكة كما استقدمت المواد اللازمة للكسوة وتطريزها من الهند كما استوردت الأنوال الخاصة للحياكة وعددها اثنى عشر نولا ، كما بلغ عدد الصناع من النساجين والمطرزين أربعين عاملا وعشرين تابعاً وعين الشيخ عبدالرحمن مظهر الموظف اذ ذاك مترجما بوزارة الخارجية مديرا لدار الكسوة وكان الشيخ اسماعيل الغزنوي احد علماء الهند هو الذى اشرف على استيراد الأنوال والعمال الخاصتين بالعمل وتمت حياكة الثوب الجديد للكعبة بنفس الجودة والاتقان التى كانت ترد بها

---

١ - «٢٧٠ - ٢٩٣ تاريخ الكعبة المعظمة»

الكسوة من مصـــر وكتب عليه اسم الملك عبدالعزيز رحمه الله ولم يحل موسم الحج إلا وكـانت الكســوة المصنوعة فى مكة المكرمة حاضرة لتعلق على الكعبة المشرفة فى موعدها المعتاد كل عام .

وفى عام ١٣٤٧ هـ عينت الحكومة السعودية مديرا لدار الكسوة ويدعى الحاج محمـد خان واشـترطت عليـه تعليم العمال السعوديين وتدريبهم وتم بالفعل الحاق الشباب الراغبين فى تعلم هذه الصناعة بالدار وفى عام ١٣٥٢ هـ اصبح جميع عمال الدار من الشباب السعودى وقد اتقنوا هذه الصناعة اتقانا كاملا بحمد الله .

اقـول وقـد تم بنـاء دار عظيمة للكسوة فى مدخل مدينة مكة المكرمة قبل بضعة اعـوام وهى تابعـة فى ادارتهـا لوزارة الحـج والأوقـاف وتقوم هذه الدار بصنع كسوة الكعبة الشريفة ومايتبعها فى كل عام .(١)

● ●

١- ٢٩٣ - ٣٠١ تاريخ الكعبة المعظمة

باب الكعبة

قيل أن أول من جعل للكعبة بابا ملك اليمن واستدل على ذلك بما جاء فى الشعر الذى روى عنه .

واقمنا به من الشهر عشرا وجعلنا لبابه اقليدا

ولقد كان بناء تبع للبيت قبل بناء قريش لها ، فلما عمرتها قريش جعلت لها بابا بمصراعين ولما بنى ابن الزبير الكعبة جعل لها بابا بمصراعين وكان طول ذلك الباب أحد عشر ذراعا ، فلما اعاد الحجاج بناء الكعبة على ماكانت عليه قبل بناء ابن الزبير لها ردم وبنى تحت بابها فجعل الباب ستة اذرع وشبر .

وفى سنة مائة واربع وتسعين للهجرة ارسل الخليفة الأمين محمد بن هارون الرشيد ثمانية عشر ألف دينار الى سالم بن الجراح عامله على الصوافي فى مكة وأمره ان يجعلها صفائح على باب الكعبة ، فقلع عامل الأمين ماكان من الصفائح على باب الكعبة وزاد عليها من الثمانية عشر ألف دينار التى ارسلها الامين فضرب على الباب الصفائح والمسامير وكذلك على حلقتى باب الكعبة وعلى الفيازير والعتب .

ووصف الارزقى باب الكعبة فى عصره فى اوائل القرن الثالث فذكر أن طوله ستة أذرع وعشرة اصابع وعرض مابين درفتى الباب ثلاثة اذرع وثمانى عشرة

اصبعا. والباب من خشب الساج المتين وملبس بصفائح الذهب المنقوش، وعلى الباب أربعة عشرة حلقة من حديد مموهة بالفضة فى كل درفة سبع حلقات. والمسامير المضروبة على الباب مموهة بالذهب المنقوش، وباطن الباب ملبس بالفضة.

وبعث المعتصم العباسى فى سنة **٢١٩** للهجرة قفلا للكعبة ثمنه ألف دينار وارسل الى الحجبة عامل مكة صالح بن العباس فدعاهم ليقبضوا القفل الذى ارسله المعتصم ويسلموه القفل القديم على باب الكعبة ليرسله الى الخليفة فابوا وطلبوا منه ان يأذن لهم بالخروج الى الخليفة فخرجوا اليه وكلموه فترك لهم قفلها واعطاهم القفل الذى بعث به اليها فقسموه بينهم، اقول ولعل الاصح انه ترك لهم القفل القديم فقسموه بينهم.

وفى سنة خمسمائة وخمسين للهجرة بعث المقتفي العباسي بابا للكعبة مصفحا بالنقرة المذهبة واخذ المقتفي الباب الذى كان قائما على الكعبة فصنع منه تابوتا لنفسه اوصى ان يدفن فيه اذا مات وقيل ان الباب الأول عمل منه تابوت لوزير المقتفي جمال الدين المعروف بالجواد وحمل فيه الى المدينة ودفن بها.

هذا وقد تنافس الملوك والخلفاء فى صنع الأبواب للكعبة عبر عصور التاريخ ونحن نذكر هنا بعضا منها.

صنع الملك المظفر صاحب اليمن بابا للكعبة وعليه صفائح الفضة وقد بلغت زنتها ستون رطلا ولم يذكر الفاسي تاريخ هذا الباب.

وفى سنة سبعمائة وثلاثة وعشرين صنع الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر بابا للكعبة مصفحا بالفضة وكان عليه من الفضة خمسة وثلاثين الفا وثلاثمائة درهم والباب مصنوع من خشب السنط الأحمر، وقد امر صاحب مصر بقلع الباب الذى صنعه الملك المظفر صاحب اليمن وتركيب الباب الذى ارسله قلاوون بدلا منه.

وفى سنة سبعمائة وواحد وستين امر الملك الناصر حسن بن الناصر قلاوون بصنع باب الكعبة بمكة المكرمة وهو من خشب الساج وما لبث ان قلع منها فى سنة

سبعمائة وست وسبعين لتحليته واعيد اليها الباب الذى صنعه ابو الملك الناصر قلاوون ثم اعيد الباب الذى صنعه الناصر حسن بعد اتمام تحليته فى سنة سبعمائة وواحد وثمانين وهذا الباب كان يحمل اسم الملك الناصر محمد بن قلاوون فى اسفله واسم حفيده الملك الاشرف شعبان حسين فى بعض فبادين الباب وفى جانب آخر من الباب كتب اسم الملك المؤيد ابى النصر شيخ صاحب مصر ومالبث ان حضر بعض خواص الملك المؤيد للحج في سنة ثمانمائة وستة عشر فاضاف حلية الى جانب آخر من باب الكعبة من الفضة وطلاها بالذهب وكتب عليها اسم الملك المؤيد.

وهكذا نرى الملوك يتنافسون فى نقش اسمائهم على باب الكعبة ويغيرون أبوابها ليكون لهم شرف ذكر اسمائهم على هذه الأبواب حتى رأينا باباواحداً يكتب عليه اسماء اربعة من ملوك مصر.

سرقة الفضة من أبواب الكعبة

وذكر قطب الدين فى الاعلام انه ادرك الباب الشريف مصفحا بالفضة ، قال وكان يختلس من فضته اوقات الغفلة من قلَّ دينه وخفَّتْ يده الى ان انكشف سفل الباب الشريف عن خشب الباب، وقبض على من يفعل ذلك اكثر من مرة كما يقول قطب الدين المكي فى الأعلام وحبسوا وبهدلوا، وجرى عرض الأمر على السلطان سليمان خان فى سنة تسعمائة وستة عشر فامر بتصفيح الباب الشريف بالفضة بعد ان اخرجوا الفضة التى كانت مصفحة على الباب وزادوا عليه فضة اخرى وجعلت صفائح وسمرت بمسامير الفضة وصفحت الفضة بالذهب.

باب الكعبة فى العهد العثمانى

فى سنة تسعمائة وثلاثة وخمسين امر السلطان سليمان العثمانى بقلع الباب الذى عمله السلطان محمد بن قلاوون وعمل بابا غيره حلاه بحلية كثيرة. وفى سنة ألف وأربع وأربعين امر السلطان مراد خان بن السلطان أحمد والي مصر ان يصلح ما وقع فى سطح الكعبة المشرفة من الخلل وان يجعل لها بابا جديدا وان يرسل اليه الباب

القـديم، وفى السـابـع عشـر من ربيـع الأول سنة خمس وأربعين بعد الألف وصل مندوب السلطان لهذا الغرض وجرى قلع باب الكعبة ووضع محله بابا من الخشب لم يكن محلى بشيء بل وضعت عليـه ستـارة بيضـاء، وقـد وزنت الفضة التى كانت على البـاب المقلوع فبلغت زنتهـا مائـة واربعة وأربعين رطلا، وقد استعملت هذه الفضة فى تحلية باب جديد للكعبة كتب عليه اسم السلطان مراد خان بن السلطان أحمد خان وتم تركيب هذا الباب فى شهر رمضان من سنة خمس وأربعين بعد الألف

وأرسل الباب القديم الى السلطان مراد، وجدد السلطان أحمد خان حلية باب الكعبـة فى سنـة ألف ومـائـة وتسعـة عشـر وكتبـوا تاريخ التجديد مضافا إليه اسم السلطان أحمد خان.

يقـول المؤلف وهـذا البـاب الأخـير الـذى عمله السلطان مراد خان هو الباب الموجود على الكعبة المشرفة فى العصر الحاضر وهو الذى تم تركيبه فى شهر رمضان من سنة خمس وأربعين بعد الألف.

أقول هذا ماذكره المؤلف الشيخ باسلامه فى الخمسينات من القرن الرابع عشر للهجرة وهو يدل على إن هذا الباب الأخير الذى صنع بأمر السلطان مراد خان قد استمر مركبا على الكعبة مايزيد عن أربعة قرون.

ولقد تم صنع اكثر من باب للكعبة المشرفة فى العهد السعودى وكان آخرها الباب الذى امر بصنعه المرحوم الملك خالد بن عبدالعزيز يرحمه الله وقد استعمل فيه كثير من الـذهب مع ارتفـاع اسعـارة وعلو اثـمانه فى العصر الحاضر، وحبذا لو استطعنا الحصول على المعلومات التاريخية الصحيحة الخاصة بهذا الموضوع وامثاله مما تم في المسجد الحرام والكعبة المعظمة لوصل ماانقطع من هذا التاريخ الهام لعمارة المسجد الحرام والكعبة المعظمة بعد كتابي الشيخ حسن باسلامه رحمة الله عنهما.(١)

بعد كتابة ماتقدم اطلعت على الكتيب الذى اصدرته وزارة الحج والأوقاف فى

١- «١٩٤ - ١٩٨ تاريخ باب الكعبة المعظمة»

٢٢ العقـدة سنـة ١٣٩٩ هـ عن أبـواب الكعبـة فى العهد السعودى وخاصة الباب الحـالى الـذى صنـع فى عهـد المرحوم الملك خالد ابن عبدالعزيز ومن هذا الكتيب نقلنا المعلومات التالية .

باب الكعبة فى العهد السعودى

الباب الأول فى عهد الملك عبدالعزيز

فى عام ١٣٦٤ هـ أمـر جلالـة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود بصنع باب للكعبـة المعظمـة وتم صنـع الباب المذكور من الالمنيوم بسماكة ٢,٥ سم وبمقياس ٣١٠×١٦٨ سنتمـتر ويتكـون الباب المذكور من درفتين تتألف كل درفة من ثلاث قطع طولية تم صبها وتجهيزها فى مكة المكرمة واستخدمت قضبان الحديد من خلف كل درفـة لدعمهـا وربـط القطع بعضها ببعض وهى ظاهرة من الخلف، كما ترتبط كل درفـة بثـلاث مفصلات من الحديد الصلب مثبتة على اطار ـ حلق من الحديد المتين ـ وتم صنع الوجه الخارجى للباب من الواح الفضة الخالصة المطلية بالذهب والمثبت على قاعدة خشبية من خشب التيك بسماكة ٢و٥ سم .

وقـد صنعت الـزخـرفـة ولوحات الخطوط فى محل شيخ الصاغة بمكة المكرمة فى ذلك الوقت المرحوم محمود يوسف بدر وبإشرافه كما قام بوضع الرسم والخط الشيخ عبدالرحيم أمين .

أما الجوانب فكانت مصنوعة أول الأمر من الخشب الجاوى سماكة ٦ سم وفوقها كذلـك الـزخـرفة واللوحات التى تحمل اسماء الله الحسنى بشكل بيضوى وعددها ثلاثـة عشـر لوحـة من الفضـة المطليـة بالذهب، وقد استغرق صنع الباب المذكور ثلاث سنوات وفى عام ١٣٩٥ هـ جرى تغيير القاعدة الخشبية لجوانب الباب حيث استبـدلت بها صفـائـح من الالمنيوم المسكوب وذلك بعد فك اللوحات التى تحمل اسماء الله الحسنى والزخرفة واعادتها الى وضعها السابق .

الباب الثانى فى عهد الملك
خالد بن عبدالعزيز

ظل البـاب الـذى امـر بصنعه الملك عبدالعزيز ثلاثة وثلاثين عاما قائما فى مكانه

من الكعبة المعظمة . وفى شهر جمادى الأولى من عام ١٣٩٧ هـ تشرف المرحوم الملك خالد ابن عبدالعزيز بالصلاة فى جوف الكعبة المعظمة فلاحظ قدم الباب ووجوب تغييره فاصدر امره الى وزير الحج والأوقاف بان يتم صنع باب للكعبة المعظمة الخارجى وكذلك الباب الداخلي للكعبة - باب التوبة من الذهب الخالص

تصميم الباب

اتفقت وزارة الحج والاوقاف مع المهندس المعمارى المسلم منير الجندى اخصائى التصميمات والعمارة الاسلامية للمشاركة فى التصميمات والدراسات الخاصة بالبابين ومتابعة التنفيذ وقد بلغت قيمة الدراسات ثلاثمائة الف ريال .

وقد تم اختيار التصميم النهائى الذى روعي فيه ان يكون منسجما مع الزخرفة التى تتميز بها ستارة الباب وكان خط الثلث هو العنصر الهام المميز فى هذه الزخرفة .

وروعي صنع داوئر لكتابة الآيات القرآنية الكريمة مع أضافات الزخاف فى الزوايا العلوية بحيث يبدوا الباب غنيا بالفن الاسلامي بزخارفه العريقة وقد قام بكتابة الخطوط الشيخ عبدالرحيم أمين الذى تولى خطوط الباب السابق فى عهد الملك عبدالعزيز رحمه الله ، وكان اهتمام صاحب السمو الملكى الأمير فهد بن عبدالعزيز - جلالة الملك فهد - فى ذلك الوقت عظيما فى اختيار التصميم الأمثل ومتابعة تنفيذ العمل حيث قام سموه بزيارة موقع العمل الذى عهدت به الدولة الى أحمد إبراهيم بدر شيخ الصاغة بمكة المكرمة والذى أقام ورشة خاصة لصناعة البابين. وكتبت اسماء الله الحسنى وعددها خمسة عشر فى دوائر فوق الباب وفى جانبيه الايمن والايسر.

وكتبت الآيات القرآنية الكريمة على لوحات من الذهب الخالص مزخرفة بطريقة النقش . ويبلغ ارتفاع باب الكعبة المشرفة اكثر قليلا من ثلاثة امتار ويقارب عرضه المترين اما سماكة الباب فتبلغ نصف متر وهومكون من درفتين،

ويتألف هيكل الباب من قاعدة خشبية سمكها عشرة سنتمترات من خشب التيك ووزنه النوعي ٨, ٤٠ سم ٢ وزودت نهاية الباب بعارضة من الأسفل لمنع دخول المطر الى داخل الكعبة المشرفة وتحتوى على قضيب خاص يضغط حرف الباب على العتبة عند الاغلاق.

وقد ثبتت صفائح الذهب على هذه القاعدة الخشبية بوضع مادة لاصقة ركبت بطريقة تضمن استمرار التصاق الذهب بالخشب الى فترة غير محدودة وتم كذلك صنع قفل الباب بنفس مواصفات القفل القديم مع تناسب التصميم الخاص بالباب الجديد. ولكى يتم تركيب الباب بسهولة اعد اطار من الصلب صنع خصيصا وثبتت عليه المفصلات بحيث تتحمل كل درفة مايزيد على خمسمائة كيلو جرام وجهزت المفصلات على عجلات دائرية لسهولة الحركة.

باب التوبة

اما الباب الداخلى الكعبة المشرفة وهو باب التوبة فقد جرى تصميمه مطابقا للباب الرئيسى من حيث الزخرفة وطريقة الكتابة بحيث يظهر التجانس بين البابين ويبلغ إرتفاع باب التوبة ٢,٣٠ مترين وثلاثين سنتيا وعرضه ٧٠ سم وصنعت قاعدته من نفس الخشب ولكنه اقل سماكة من باب الكعبة بمقدار سبعة سنتمترات.

التكاليف

وقد بلغت تكاليف صنع البابين ثلاثة عشر مليونا واربعمائة وعشرين ألف ريال خلاف قيمة الذهب الذى قدمته مؤسسة النقد العربي السعودى والذى بلغ مائتين وثمانين كيلو جراما عيار ٩, ٩٩٩.

مدة الصنع

بدأ العمل فى صنع البابين اعتبارا من غرة ذى الحجة ١٣٩٨ هـ واستغرق العمل عاما كاملا

الكتابة التى على الباب

اسماء الله

فوق البـــاب	ياواسع	يامانع	ياناقع
الجانب الايمن	ياعالم	ياعليم	ياحليم
	ياعظيم	ياحكيم	يارحيم
الجانب الأيسر	ياغني	يامغنى	ياحميد
	يامجيد	ياسبحان	يامستعان

واضيفت فى الـزاويتـين العلويتين زخارف متميزة لابراز شكل قوس محيط بلفظ الجلالة ـ الله جل جلاله واسم رسول الله ـ محمد ﴿ﷺ﴾ والآيات القرآنية الكريمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

ادخلوها بسلام آمنين، جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام.

رب ادخلني مدخل صدق واخرجنى مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، وقال ربكم ادعوني أستجب لكم.

ويلي ذلك حشوتان على شكل شمستين مشرقتين وسطها كتابة «لا إله إلا الله محمـد رسـول ﴿ﷺ﴾ على شكـل بروز دائـرى. وكتب تحت الحشوتين العلويتين الآية الكريمة.

«قـل ياعبـادي الـذين أسـرفـوا على أنفسهم لاتقنطـومن رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم».

كما كتبت العبارات التاريخية التالية بخط صغير :

«صنـع البـاب السـابق فى عهـد خادم الحـرمين الشريفين الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود سنة ١٣٦٣ هـ».

وتحتهـا «صنـع هذا البـاب فى عهـد خادم الحـرمـين الشـريفين الملك خالد بن

عبدالعزيز آل سعود سنة ١٣٩٩ هـ.

وكتب فى الدرفة اليمنى تشرف بافتتاحه بعون الله تعالى الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود فى الثانى والعشرين من ذى العقدة سنة ١٣٩٩ هـ

وفى الدرفة اليسرى «صنعه أحمد إبراهيم بدر بمكة المكرمة ، صممه منير الجندى ، واضع الخط عبدالرحيم أمين.

وقد تم صنع هذا الباب بإشراف مباشر من معالى وزير الحج والأوقاف الشيخ عبدالوهاب عبدالواسع الذى عهد اليه جلالة المرحوم الملك خالد بهذا العمل التاريخي العظيم.

والباب المذكور هو الباب الحالي للكعبة المعظمة.

الحفرة التى امام الكعبة

الحفرة التى امام الكعبة المعظمة من الجهة الشرقية بين الركن الشامي وباب الكعبة والتى تسمى فى الوقت الحاضر ـ المعجن ـ وردت فيها روايات كثيرة اشهرها رواية تقول انها المصلى الذى صلى فيه جبريل بالنبي ﴿ﷺ﴾ حين فرضت عليه الصلوات الخمس ، وهناك رواية تقول انها موضع حجر مقام ابراهيم بعد بنائه للكعبة المشرفة وان النبى ﴿ﷺ﴾ هو الذى أخر المقام بعد ذلك وقيل فى سبب تسميتها بالمعجن انها المكان الذى عجن اسماعيل فيه الطين لبناء الكعبة حين بناء البيت المعظم يقول المؤلف ولايوجد مايؤيد صحة هذا الخبر ، وقد ذكر ابن جبير فى رحلته سنة خمسمائة وثمانية وسبعين انها كانت مصبا للماء الذى تغسل به الكعبة ولم يقل بذلك احد غيره وربما ظن ابن جبير ذلك حينما رأى الماء الذى تغسل به الكعبة يتجمع فيها.

وتبلغ مساحة هذه الحفرة أربعة اذرع طولا من الشمال الى الجنوب وعرضها من الشرق الى جدار الكعبة ذراعان وسدس ذراع وعمقها نصف ذراع كل ذلك بذراع الحديد.

وقد امر بتلبيسها بالرخام ابو جعفر المنصور المستنصر بالله سنة ستمائة وواحد وثلاثين كما هو مثبت فى لوحة بها كما ورد فى تحصيل المرام للقطبي .

ميزاب الكعبة

أول من وضع ميزابا للكعبة قريش حين قامت ببنائها قبل خمس سنوات من البعثة النبوية ذلك ان بناء الخليل ابراهيم للكعبة لم يجعل لها سقفا ولهذا فلم تكن هناك حاجة للميزاب وفى بناء ابن الزبير للكعبة وضع لها ميزابا وجعله يصب فى حجر اسماعيل وكذلك فعل الحجاج بن يوسف وأول من حلى الميزاب بالذهب الوليد بن عبدالملك ونذكر هنا شيئا عن الميزاب فى العهود المختلفة .

١ ـ ذكر الأزرقي ان الشريف رميثة صاحب مكة عمل ميزابا للكعبة طوله أربعة اذرع وسعته ثمانية اصابع فى ارتفاع مثلها وان هذا الميزاب كان ملبسا بصفائح الذهب من داخله وخارجه .

٢ ـ ارسل رامشت بن الحسين الفارسي صاحب الرباط المشهور بمكة فى سنة خمسمائة وتسع وثلاثين ميزابا وركب فى الكعبة فى هذا العام ويبدو ان الميزاب السابق كان قد تلف .

٣ ـ فى سنة خمسمائة وواحد وأربعين أرسل الخليفة العباسى المقتفي ميزابا ركب بالكعبة وقلع الميزاب الذى كان ركبه رامشت الفارسي .

٤ ـ كذلك ارسل الناصر العباسي ميزابا كتب عليه اسمه وهو من خشب مبطن بالرصاص فى موضع جريان الماء وظاهره محلى بالفضة .

٥ ـ قام سبودون باشا بتعمير الميزاب ضمن العمارة التى اجراها فى المسجد الحرام سنة سبعمائة وواحد وثمانين .

٦ ـ امر السلطان سليم بعمل ميزاب حُلِّيَ بالفضة وطلي بالذهب وركب فى سنة تسعمائة وتسع وخمسين وامر السلطان بنقل الميزاب القديم الى خزانة الروم فتعرض

---

١ ـ «١٨٦ ـ ١٩٠ تاريخ الكعبة المعظمة»

له بنو شيبة - سدنة البيت - فاعطوا مقابله فضة بوزنه من بندر جدة وقد قدر الوالي والقاضي قيمة ذلك بالفين وثمانمائة درهم فضة .

٧ - ارسل السلطان أحمد خان ميزابا فى سنة ١٠٢٠ وتم تركيبه فى عمارة السلطان مراد بعد عشرين عاما من أرساله كما اسلفنا بيانه .

٨ - آخر ميزاب مركب فى الكعبة هو الميزاب الذي بعثه السلطان عبدالمجيد خان ابن السلطان محمود خان وقد صنع هذا الميزاب فى القسطنطينية وجاء به الحاج رضا باشا وركب فى سنة الف ومائتين وست وسبعين للهجرة فى ولاية أمير مكة الشريف عبدالله بن محمد بن عون ، وحمل الميزاب القديم الى الأبواب العالية ، والميزاب الجديد مصفح بالذهب ويقدر وزنه بنحو خمسين رطلا .

وهذا الميزاب هو الموجود فى الكعبة الى العصر الحاضر كما يقول الشيخ باسلامه حيث لم يحدثنا التاريخ انه وضع ميزاب بعد هذا الميزاب والله اعلم .(١)

حجر إسماعيل

حجر إسماعيل هو الحائط المبني على شكل نصف دائرة والواقع شمال الكعبة ، جاء فى تاريخ الأزرقي إن إبراهيم عليه السلام جعل الحجر الى جنب البيت عريشا من أراك تقتحمه العنز، وقيل انه كان زربا لغنم اسماعيل . ومساحة المستقيم من الحجر كما ذرعه الشيخ باسلامه فى عام ١٣٥٢ للهجرة تسعة اذرع بذراع اليد منها ستة اذرع وشبر تعتبر من داخل الكعبة لان هذه الستة اذرع هى التى تركتها قريش من البيت حين بنائه لقصور النفقة لديهم ، ولما بنى ابن الزبير البيت ادخلها فيه ثم جاء الحجاج فنقض بناء ابن الزبير واعاد الحجر الى ماكان عليه فى بناء قريش وقد سبق تفصيل كل ذلك ، وآخر مرة بنى فيها الحجر فى عصر السلطان عبدالمجيد خان الثانى سنة الف ومائتين وستين للهجرة .

ولايجوز الطواف من داخل الحجر كما اسلفنا من ان ستة اذرع وشبر منه تعتبر من البيت - وهذه المساحة هى الملاصقة للجدار الشمالي للكعبة والتى هى فى الوقت

---

١ - «١٩٠ - ١٩٣ تاريخ الكعبة المعظمة»

الحاضر تعتبر مدخلا الى الحجر اما بقية المساحة فهى الحجر.

وقـد سمى بعض المؤرخـين الحجـر بالحطيم وعللوا ذلـك بانـه مال حطم من الكعبة ولم يدخل فيها بينما ذكر بعض المؤرخين ان الحطيم هو مابين الركن الأسود والمقام وزمزم لان الناس يزدحمون على الدعاء فيه ويحطم بعضهم حطما، والدعاء فيه مستجاب.

وقـد تواتـرت روايـات كثيـرة ان اسماعيل عليه السلام دفن فى الحجر بجوار امه هاجر ولكن الشيخ باسلامه يقول انه لايوجد مايثبت صحة ذلك رغم تواتر روايات المؤرخين له ويعزى ذلك الى طول المدة بين بناء إبراهيم عليه السلام للبيت وبين العهد الاسلامي حيث ان بناء ابراهيم عليه السلام للبيت كان قبل الفي عام.

وأول من زين حجـر اسـماعيل بالرخام هو الخليفة ابوجعفر المنصور العباسى فى عام ١٤٠ هـ وجـدده الخليفـة المهـدى العبـاسي فى سنـة ١٦١ وفى عام ٢٤١ امـر بتجـديـده الخليفـة المتوكل العباسى بعد ان رث رخامه، وفى هذا العام ٢٤١ بعث أحمد بن طريف مولى العباس بن محمد الهاشمي الرخامة الخضراء التى فى الحجر تحت الميـزاب وبعث معهـا رخـامـة اخـرى خضـراء وضعت فى سطـح الكعبة وقد وصفت الرخامة الخضراء هذه بانها من الرخام الثمين النادر.

وفى عام ٢٨٣ عمر الحجر المعتضد العباسي والبسه الرخام من داخله وخارجه كما عمره الناصر العباسي وفرشه بالرخام فى سنة ٥٧٦.

وقـد توالى تعمـير الحجر وتزيينه على مدى عصور التاريخ من خلفاء المسلمين وملوكهم فكان من بينهم الملك المظفر صاحب اليمن، والناصر محمد بن قلاوون فى سنـة ٧٨١ والملك الظـاهـر برقـوق صاحب مصـر فى سنة ٨٠١ وأبو النصر قانصوه الغورى فى سنة ٩١٧. وفى سنة ٨٢٢ عمره القائد علاء الدين عمارة حسنة وكان قد تداعى للسقـوط وفى سنـة ٨٢٦ عمـر بامـر زين الـدين مقبل القديدى بالجبس واصلح الكثير من رخامه. وفى سنة ٨٣٣ احضر سودون المحمدى ستين ذراعا من الرخام من مصر لتعمير الحجر.

قال التقي الفاسي وقد خفي علينا شيء كثير من خبر عمارة الحجر من دولة المعتضد العباسي الى خلافة الناصر فانه لايبعد ان يخلو فى هذا الزمن الطويل من عمارة والله اعلم .

ثم قال وممن عمره الوزير جمال الدين المعروف بالجواد وذلك فى عشر الخمسين وخمسمائة وذكر نجم الدين بن فهد القرشي فى حوادث سنة ٨٨١ انه تم تغيير رخام الحجر داخلا وخارجا ولم يذكر العامل لذلك .

وجاء فى الارج المكي لعلي بن عبدالقادر الطبري وعمَّره ـ الحجر ـ من ملوك آل عثمان السلطان محمد خان بن السلطان مراد خان كما عمره السلطان مراد خان بن السلطان أحمد خان فى سنة ١٠٤٠ والسلطان عبدالمجيد خان فى سنة ١٢٦٠ وفى سنة ٩١٦ اصدر السلطان الغورى أمره بهدم الحجر واعادة بنائه يقول ابن فهد القرشي وكان الحجر كله بالرخام داخلا وخارجا ولم يكن به مايعاب الا أن الله قدر بالتلاعب فبنى من داخله بالحجارة ومن خارجه بالرخام فظهر الخلل فيه فى سنة ٩١٧ فارسل السلطان رخاما ومرخمين إبالبحر وصلوا مكة فى آخر رمضان وشرعوا فى يومهم فى اعادته بالآجرِّ والرماد ثم نقض ذلك ثانى يوم واعيد الحجارة والجبس والرصاص وكتب على علوه فى الرخام الأبيض اسماء من عمروه من الملوك وتاريخ عماراتهم وعمارته الاخيرة .

كسوة الحجر

وأرسل جقمق الجركسي فى القرن التاسع كسوة لدائر خارج الحجر من حرير أسود ككسوة الكعبة الشريفة ولم توضع عليه ثم وصلت بعدها بعام كسوة لدائر الحجر من الداخل فألبست الكسوة للحجر من داخله وخارجه . وتعتبر كسوة الحجر هذه كما يقول الشيخ باسلامه الأولى والأخيرة فى بابها حيث لم أقف فيما وقفت عليه أن احدا كسى حجر إسماعيل كما تكسى الكعبة المعظمة ولا بعده ، فكان قد تفرد بذلك ثم يقول الشيخ باسلامه والظاهر أنها لم تدم كثيرا ولم تجدد من قبله والله أعلم بذلك .

آخر عمارة للحجر:

وجاء فى منائح الكرم أنه فى سنة ١٢٨٣ حصل تجديد نصف أرض الحجر من المقام الحنفى وذلك فى سلطنة السلطان عبد العزيز خان وأمير مكة الشريف عبد الله بن محمد بن عون. وهذه العمارة هى آخر ما تم من عمارة للحجر الى عصر المؤلف فى أوائل النصف الثانى من القرن الرابع عشر للهجرة والله أعلم.

مساحة الحجر:

قام بذرع الحجر إبراهيم رفعت باشا مؤلف كتاب مرآة الحرمين فذكر القياسات الآتية:

ارتفاع جدار الحجر ١,٣١ متر عرض الجدار من الأعلى ١,٥٢ متر وعرضه من الأسفل ١,٤٤ متر وسعة الفتحة التى بين طرفه الشرقى الى آخر الشاذروان ٢,٣٠ متر.

وسعة الفتحة التى بين طرفه الغربى ونهاية الشاذروان ٢,٢٣ متر.

والمسافة بين طرفي الدائرة ثمانية أمتار ووراء الحطيم بمسافة ١٢ مترا المطاف.

والمسافة بين منتصف جدار الكعبة الشمالى ووسط تجويف الحطيم ٨,٤٤ مترا.

وقد أخترت ماذكره صاحب مرآة الحرمين لأنه أحدث قياس للحجر ولأنه أستعمل المتر وكسوره فيه بينما أستعمل المؤرخون السابقون الذراع وهو قد يختلف من شخص وآخر، لأنه بذراع اليد والله أعلم.(١)

سدانة الكعبة المعظمة:

كانت سدانة الكعبة المعظمة بعد بناء إبراهيم الخليل عليه السلام إياها بيد إبنه إسماعيل عليه السلام ثم بعد وفاته صارت لولده ثابت بن إسماعيل الى أن

١-«١٦٣ - ١٨٦ تاريخ الكعبة المعظمة»

أغتصبهـا من ولده أخواله جرهم ومكثت السـدانـة فى جرهم عدة قرون الى أن اغتصبتها منهم خزاعـة ومكثت فى خزاعـة عدة قرون الى أن آل أمـر مكـة والكعبة المعظمـة الى قصي بن كلاب بن مرة القـرشى وهـو الجـد الخامس للنبى ﴿ﷺ﴾ فأسـترجعهـا من خزاعـة بعـد حرب دامية ثم صارت من بعده فى ولده الأكبر عبد الدار ثم صارت فى بنى عبد الدارجاهلية وإسلاماإلى أن آل أمر السدانة الى شيبة بن عثمان بن طلحـة واسمـه عبـد الله بن عبد العزى بن عثمان الى العصر الحاضر يتوارثونها كابرا عن كابر.

عثمان بن طلحة يغلظ للنبى ﴿ﷺ﴾

جاء فى طبقات ابن سعد عن عثمان بن طلحة قال كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الأثنـين والخميس فأقبـل النبى ﴿ﷺ﴾ يومـا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلظت له ونلت منه فحلم عنى ثم قال : ياعثـمان لعلك سترى هذا المفتـاح يوما بيدى أضعه حيث شئت قال عثمان فقلت لقد هلكت قريش يومئذ وذلت فقال بل عمرت وعزَّت ودخل الكعبة يقول عثمان فوقعت كلمته منى موقعا ظننت يومئذ أن الأمـر سيصـير الى ماقـال فلما كان يوم الفتـح قال ياعثـمان أئتنى بالمفتـاح فأتيته به وأخذه منى ثم دفعه اليَّ.

خذوها خالدة تالدة لاينزعها منكم إلا ظالم :

وقـال ـ خذوهـا خالـدة تالـدة لاينـزعها منكم إلا ظالم ياعثمان ان الله أستأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف.

ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها :

وفى رواية أن العباس بن عبد المطلب سأل النبى صلوات الله وسلامه عليه أن يجمع له الحجابة مع السقاية وذلك فى فتح مكة حينما أخذ المفتاح من عثمان بن طلحة فقـال بأبى انت وأمى يارسول الله أعطنا الحجـابة مع السقاية فأنزل الله عز وجل

على نبيـه ﴿ﷺ﴾ ان الله يأمـركم أن تؤ دوا الأمـانـات الى أهلها ـ يقول عمر بن الخطـاب رضى الله عنـه فما سمعتهـا من رسول الله ﴿ﷺ﴾ قبل تلك الساعة فتـلاهـا ثم دعـا عثمان بن طلحة فدفع إليه المفتاح وقال: غيبوه وفى رواية اعينوه ثم قال: خذوهـا يابنى ابى طلحـة بأمـانـة الله واعملوا فيهـا بالمعـروف خالـدة تالدة لاينزعها من أيديكم إلا ظالم.

آل الشـــــيبى

والشيبيون أو آل الشيبي الذين لهم سدانة البيت فى العصر الحاضر هم من نسل شيبة بن عثمان بن ابي طلحة وهو ابن عم عثمان ابن طلحة لأن عثمان هذا لم يكن له ولد فانتقلت الحجابة اليه بعد وفاة عثمان بن طلحة الذى بقى فى المدينة الى وفاة النبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه ثم عاد الى مكة.

وقـد اسلم شيبـة يوم فتـح مكـة وشهـد حنينا وقيل اسلم بحنين ،قال الزبير كان شيبـة قد خرج مع رسـول الله ﴿ﷺ﴾ يوم حنـين مشـركا يريد ان يغتال رسول الله ﴿ﷺ﴾ غرة فاقبـل يريـده فرآه الرسول صلوات الله وسلامه عليه فقال ياشيبة هلم لا أم لك فقذف الله فى قلبه الرعب ودنا من رسول الله ﴿ﷺ﴾ ووضع يده الكريمة على صدره ثم قال: اخسىء عنك الشيطان فاخذه ونزع فقذف الله فى قلبه الايمان فاسلم وقاتل مع رسول الله ﷺ وكان ممن صبر معه يومئذ وكان من خيار المسلمين وحـين اعطى صلوات الله وسـلامه عليه مفتاح البيت اعطاه لعثمان وابن عمه شيبة هذا. . اقـول وهـذا يدل على أن شيبة أسلم يوم الفتح وليس يوم حنين وايا كانت الـروايـة الصحيحـة فان الحجابة لابناء ابي طلحة وقد توفى عثمان ولا ولد له فآلت الحجـابـة إلى ابن عمـه شيبـة وهى باقية فى نسله الى هذا اليوم وستبقى أبد الدهر حتى يرث الله الأرض ومن عليهـا مصـداقـا لقـول الـرسول الكريم خذوها خالدة تالدة لاينزعها منكم إلا ظالم.

شيبة ابن عثمان يحج بالناس

ومن الحوادث التاريخية التى تتصل بالحجابة أن عليا رضي الله تعالى عنه بعث

قثم ابن العباس فى سنة تسع وثلاثين ليحج بالناس وأرسل معاوية فى هذا العام يزيد بن شجرة فتنازعا فسعى بينهما أبوسعيد الخدرى رضي الله عنه وغيره فاصطلحا على أن يقيم الحج والصلاة بالناس شيبة بن عثمان.

الحجابة لاكبر العائلة سنا

وقد سار آل الشيبي على قاعدة اسناد الحجابة لاكبر العائلة سنا وهكذا اصبح الأمر بها الى هذا الوقت.

صحة نسب آل الشيبى

وقد ذكر الشيخ باسلامه ان بعض من يضمر السوء لآل الشيبي ادعوا فى أوقات مختلفة انقطاع نسبهم محاولين بذلك سلب الحجابة منهم وأورد من البراهين مايثبت هذه الاكاذيب والافتراءات فقال.

إن سدنة الكعبة المعظمة من اجلِّ وأعظم الوظائف التى يتنافس المتنافسون عليها بل أشد المتنافسين عليها الملوك والسلاطين فلو ان الأمر كما قاله ذلك المفترى بان نسبهم قد انقطع فى زمن هشام بن عبدالملك فلماذا ترك المنافسون هذه الوظيفة للمنتسبين لآل الشيبي بدون ان يستلبوها منهم كما استلبوا كثيرا من الوظائف التى هى اقل مكانة وسؤددا وفخارا؟ هل هنا قوة قاهرة تمنعهم غير قوة القاهر فوق عباده الى آخر ماقال. «١»

١- «٣٠١ - ٣٤٦ تاريخ الكعبة المعظمة»

هدايا الكعبة

كانت الهدايا الثمينة ترسل الى الكعبة فى مختلف العصور وأول ما ورد ذكر ذلك حين حفر عبدالمطلب لبئر زمزم فوجد فيها غزالين من ذهب وجواهر وسيوفا كثيرة قيل ان الذى أهداها للكعبة ساسان بن بابل وقيل انها كانت لجرهم وروي كذلك ان كعب بن لؤى القرشي أول من جعل فى الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة ذخيرة للكعبة هذا ماكان من أمر هدايا الكعبة قبل الاسلام .

الهدايا فى الاسلام

ذكر الأزرقي رواية عن الواقدى عن أشياخه قال، لما فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه مدائن كسرى كان مما بعث به اليه هلالان فبعث بهما فعلقهما فى الكعبة . أقول ولانجد فى كتب السير والتواريخ الموثوقة ذكرا لهذا الأمر وهو مما يستبعد على الخليفة الراشد عمر بن الخطاب فلقد كان حريصا على قسمة الفيء بين المسلمين مهما بلغ ثمنه ومهما كانت محتوياته ثمينة والله اعلم .

ونذكر هنا بعض هدايا الكعبة كما اوردها المؤلف :

بعث عبدالملك بن مروان الشمسيتين وقدحين من قوارير وضرب على الاسطوانه الوسطى بالذهب من اسفلها الى اعلاها صفايح .

وبعث الوليد بن عبدالملك بقدحين .

اقول ولابد ان هذه الاقداح التى بعثها عبدالملك بن مروان وابنه الوليد من القوارير الثمينة النادرة .

وبعث الوليد بن يزيد بالسرير الزيني وبهلالين كتب عليهما اسمه وذلك فى سنة احدى ومائة .

وبعث ابوالعباس السفاح أول الخلفاء العباسينْ بالصفحة الخضراء .

وبعث ابوجعفر المنصور بالقارورة الفرعونية .

يقول المؤلف وكل هذا معلق فى البيت .

وفى سنة مائة وست وثمانين وضع الخليفة هارون الرشيد قصبتين علقهما مع المعاليق وفيهما بيعة محمد وعبدالله ابنيه وماعقد لهما وما اخذ عليهما من العهود .

وبعث المأمون بالياقوتة التى كانت تعلق فى كل سنة فى وجه الكعبة فى الموسم بسلسلة من الذهب .

وبعث المتوكل بشمسة عملها من ذهب تعلق فى وجه الكعبة كل موسم .

ملك التبت يرسل سريره وصنمه

ذكر الازرقي رواية عن سعيد بن يحي البلخي قال: اسلم ملك من ملوك التبت وكان له صنم من ذهب يعبده فى صورة انسان وكان على رأس الصنم تاج من الذهب مكلل بخرز الجوهر والياقوت الأحمر والاخضر والزبرجد وكان على سرير من الفضة مربع مرتفع عن الأرض على قوائم وكان على السرير فرشة الديباج وعلى اطراف السرير ازرار من ذهب وفضة مرخاة والازرار قدر الكرين فى وجه السرير.

فلما اسلم ذلك الملك اهدى السرير والصنم الى الكعبة فبعث به الى امير المؤمنين هدية للكعبة والمأمون يومئذ بمرو من خراسان فبعث به المأمون الى الحسن بن سهل بواسط وامره ان يبعث به الى الكعبة فبعث به مع نصير بن إبراهيم الاعجمي وهو من أهل بلخ فقدم به الى مكة فى سنة ٢٠١ وحج بالناس تلك

السنة اسحق بن موسى بن عيسى بن موسى فلما صدر الناس من منى نصب ابن ابـراهيم السـريـر ومـاعليه من الفرشة والصنم فى وسط رحبة عمر بن الخطاب بين الصفـا والمـروة فمكث ثلاثة أيام منصوبا ومعه لوح من فضة مكتوب فيه «بسم الله الرحمن الرحيم».

هذا سرير فلان بن فلان ملك التبت اسلم وبعث بهذا السرير هدية الى الكعبة فاحمدوا الله الذى هداه الى الاسلام.

وكان يقف على السرير محمد بن سعيد ابن اخت نصير الاعجمي فيقرأه على النـاس بكـرة وعشيـة ويحمـدوا الله الـذى هدى هذا الملك الى الاسـلام. ثم دفع السـريـر والصنم الى الحجبـة آل الشيبي وأشهـد عليهم بقبضـة فجعلوه فى خزانة الكعبة فى دار شيبة ابن عثمان.

وكيل أمير مكة يأخذ السرير والصنم ويسكه دراهم

بقي هذا السرير والصنم والتاج الذى اهداه ملك التبت فى خزانة الكعبة عاما كاملا ثم استولى عليه يزيد بن محمد وكيل أمير مكة حمدون ابن علي بن عيسى بن ماهـان الـذى استخلف يزيـد على امـارة مكة حين خرج الى اليمن، قالوا واقبل إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد العلوي الى مكة مقبلا من اليمن فسمع يزيد بامره فخندق على مكة وسكها بالبنيان من انقابها وارسل الى الحجبة فاخذ السرير وماعليه فاستعان به على حربه، وقال أمير المؤمنين يخلف لها وضربه دنانير ودراهم وذلك فى سنة ٢٠٢ وبقى التارج واللوح فى الكعبة الى اليوم - يعنى فى عصر الازرقي.

اهداء الجواهر الى الكعبة

قالوا واهدي الى الكعبة طوق من ذهب مكلل بالزمرد وبالماس وياقوته خضراء وزنهـا اربعـة وعشـرين مثقـالا ودفعت هذه الهدية الى الحجبة فكتبوا فى أمرها إلى أمـير المؤمنـين المعتمـد على الله، واخذوا الدرة وأخرجوها وجعلوها فى سلسلة من

ذهب فى وسط الطوق مقابلة الياقوت والزمرد وجاء الكتاب من المعتمد بتعليقها مع معاليق الكعبة فى سنة ٢٥٩ .

تعليق بيعة أبناء الخلفاء

وكما اودع الرشيد بيعة الأمين والمأمون وعلقهما فى الكعبة فقد أودع المعتمد قصبة من فضة فيها بيعة ابنه جعفر بن المعتمد وبيعة أبي أحمد الموفق .

اهــــداء القناديل الكعبة

وبعث المطيع العباسي قناديل للكعبة من الفضة ومعها قنديل من الذهب زنته ستمائة مثقال وذلك فى سنة ٣٥٩ . وفى سنة ٤٢٠ أهدى صاحب عمان الى الكعبة قناديل ومحاريب مبنية زنة المحراب منها اكثر من قنطار وسمرت المحاريب فى الكعبة مما يلى بابها .

وفى سنـة ٦٣٢ اهـدى للكعبـة المنصـور عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن قناديل ذهب وفضة وفى سنة ٧١٨ بعث الوزير على شاه وزير السلطان أبي سعيد بن خدا بنـده ملك التـتر على يد الحـاج مولا واح حلقتـان مرصعتـان باللؤ لؤ والبلخش وكل حلقة زنتها الف مثقال وفى كل حلقة ست لؤ لؤ ات فاخرات وبينهما ستـة قطـع بلخش فاخـر ولما اراد تعليق ذلـك ببـاب الكعبـة منعه بن أمير الركب المصـرى فى ذلـك العـام وقـال لابد من الاذن بذلك من السلطان الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر .

وكان الوزير علي شاه المذكور قد نذر ان ظفر بخواجه رشيد الدولة وقتله ان يعلق على باب الكعبة معلقتين ، وقيل أن أمير الركـب المصرى اذن لمولا واح هذا بتعليق الحلقتـين زمنـا قليـلا ثم رفعتـا واخـذهما اذ ذاك رميثـة بن ابي نمي من آل قتادة .
واهدى السلطان شيخ ادريس صاحب بغداد فى سنة ٧٧٠ أربعة قناديل حجم كل قنديل منها مثل الدورق المكي اثنان منها من الذهب واثنان من الفضة وعلقت فى

الكعبة فترة من الزمن ثم اخذها أمير مكة عجلان بن رميثه .

أين ذهبت هدايا الكعبة

قال التقي الفاسي ، وأهدى بعد ذلك للكعبة قناديل كثيرة والذى فى الكعبة الآن من المعاليق ستة عشر قنديلا منها ثلاثة فضة وواحد ذهب وواحد بلور واثنان نحاس والباقى زجاج حلبي وهى تسعة وليس فى الكعبة الآن شيء من المعاليق التى ذكرها الأزرقي ولاما لم يذكره مما ذكرناه سوى الستة عشر قنديلا وليس فيها شيء من حلق الذهب والفضة التى كانت فى اساطينها وجدارنها بسبب توالى الايدى عليه من الولاة وغيرهم على ماذكره الأزرقى فى تاريخة ووقع ذلك بعده ايضا .

اقول ولعلم القارىء فان التقى الفاسي من رجال القرن التاسع للهجرة وقد توفى عام ٨٣٢ هـ

الذين اخذوا أموال الكعبة

ذكر ابن فهد القرشي فى كتابه اتحاف الورى فى حوادث سنة ٢٠٠ ، قال وفى أول ايام المحرم بعدما تفرق الناس من مكة جلس الحسن بن الحسين الافطس خلف المقام على نمرقة مثنية وامر بالكعبة فجردها حتى بقيت حجارة مجردة ثم كساها كسوتين انفذهما أبوالسرايا من الكوفة من قز رقيق أحدهما صفراء والاخرى بيضاء مكتوب عليها :

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وأهل بيته الطيبين الأخيار أمر أبو السرايا الأصفر بن الأصفر داعية آل محمد صلى الله عليه وسلم بعمل هذه الكسوة لبيت الله الحرام وان يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس ليطهر من كسوتهم وكتب فى سنة تسع وتسعين ومائة» .

علق الافطس هذه الكسوة التى وصف فيها ولد العباس بالظلم على الكعبة ، ثم اخذ مافى خزانة الكعبة وكان مالا عظيما نقله اليه ، وقال ماتصنع الكعبة بهذا

المال موضوعا لاينتفع به نحن احق به نستعين به وقسم المال مع كسوة الكعبة على اصحابه.

وفى سنة مائتين وواحد وخمسين اخذ إسماعيل بن إبراهيم الحسني مافى الكعبة من الذهب وما فى خزانتها من الذهب والفضة والطيب والكسوة، يقول ابن فهد وذلك عقب فتنة عظيمة وقعت فى مكة.

وفى سنة ٤٦٢ قطع أمير مكة أبوهاشم محمد بن جعفر المعروف بابن ابي هاشم الحسن خطبة المستنصر العبيدى صاحب مصر واخذ قناديل الكعبة وستورها وصفائح الباب لما لم يصله شيء من جهة المستنصر العبيدى واعاد الخطبة لبني العباس بعد قطعها من الحجاز نحو مائة سنة وخطب للخليفة القائم بأمر الله ثم للسلطان عَضد الدولة.

وفى سنة ٥٨٦ اخذ أمير مكة داود بن عيسى بن فليته ما فى الكعبة من أموال وطوقا كان يمسك الحجر.

هدية السلطان مراد

قال قطب الدين فى الاعلام : أرسل السلطان مراد سنة ٩٨٤ ثلاثة قناديل من ذهب مرصعة بالجواهر لتعلق اثنان منها فى سقف بيت الله تعالى والثالث فى الحجرة النبوية الشريفة فعلقا فى الكعبة وهو أول من علق الذهب فى الحرمين الشريفين من آل عثمان.

هدية ملكة بندر آشي

وقال الطبري المكي فى الاتحاف : ارسلت ملكة بندر آشي خمسة قناديل ذهب للكعبة فى إمارة الشريف سعيد ابي بركات سنة ١٠٩٤ فعلقت بها.

أقول وبندر آشي أوجزيرة آشى هى من جزر جاوا التى تسمى فى الوقت الحاضر اندونيسيا.

الهدايا المعلقة فى الكعبة

يقـول الشيـخ باسـلامـه ويوجد الآن معاليق كثيرة فى سقف الكعبة غير اني لا أعلم عن حقيقهتها هل هى معمولة من ذهب او فضة أو نحاس كما ان آل الشيبي سدنة الكعبة المعظمة لايعلمون بالضبط عن حقيقتها لقدم تعليقها ولعدم تعهدهم لها بالتمسيح والتنظيف اجيالا .

ثم يقـول الشيـخ باسـلامه : وربما انها من عهد بناء الكعبة الاخير الى الآن لم تنقل من موضعها ولذلك تعذر علي ان اصفها وصفا صحيحا والله اعلم بحقيقتها (١)

تطيـــب الكعبـــة

ذكـر التقي الفـاسي فى شفـاء الغرام نقلا عن الأزرقي انه روى عن ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها انها قالت / طيبوا البيت فان ذلك تطهيره ، وروى عنها أيضا انها قالت: لأن أطيب الكعبة أحب إلي من أن أهدى لها ذهبا وفضة .

وقد ذكرنا أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أجرى للكعبة وظيفة الطيب لكـل صلاة وكـان يبعث لها بالمجمـر والخلوق فى الموسم وفى رجب وأخدمها العبيد وتبعه فى ذلك الولاة (٢)

وكـان عبـدالله بن الـزبير يجمر الكعبة كل يوم برطل من مجمر ويجمر الكعبة كل جمعـة برطلين وقـد طيب الخليفـة العبـاسى محمـد المهـدى الكعبة بالغالية والمسك والعنبر ، وكان الملوك والسلاطين يرسلون الى الكعبة بأجود أنواع الطيب والبخور ولما صارت ولاية البيت لسلاطين آل عثمان صار الطيب والبخور يرسل الى الكعبة من القسطنطينيـة سنـويـا ضمن المرتبات التى خصصت للحرمين الشريفين ، وفى عهد الشريف الملك الحسين بن علي خصص مبلغ من المال يصرف لرئيس السدنة

١- «٢٠٩/٢١٧ تاريخ الكعبة المعظمة»

٢ ـ المجمر مايتجمر به وهو عود الرطب لعله بخور العود المعروف فى هذه الأيام والخلوق طيب يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب ويغلب عليه الصفرة والحمرة .

من من خزينة المالية برسم الطيب مع ماهو مخصص لها لغسيل الكعبة. وقد استمر الحال على ذلك فى العصر الحاضر كما يقول الشيخ باسلامة. (١)

خـــــدام الكعبة واغوات الحـــرم

ذكرنا أن أول من رتب العبيد لخدمة الكعبة معاوية بن أبي سفيان ثم تبعه الولاة فى ذلك الى العصر الحاضر يقول الشيخ باسلامه.

والقائمون بخدمة الكعبة الآن هم الأغوات وليسوا مماليك لاحد بل هم احرار قد اعتقـوا من قبـل أوليـائهم ولهم مرتبـات شهرية تصرف من خزينة الدولة. ولهم ادارة خاصـــة ورئيسهم منهم وقـد جرى العرف بينهم ان يكـون رئيسهم اقـدمهم خدمة ولهم بيت مال خاص بهم ويتوارثون بعضهم بعضا. ووظائفهم منحصرة فى تنظيف المطـاف، وحجـر إسـماعيـل ومقام إبراهيم والفرش الحجرى المحيط بمدار المطاف الذى عليه مقامات الائمة ولهم وظائف أخرى مثل وضع الشماعدين على باب الكعبـة من الغـروب الى بعـد صلاة العشـاء ومن طلوع الفجـر الى الاسفار وكانوا قبل دخول الكهرباء بالمسجد الحرام يضيئون القناديل التى على الاساطين المحاطة بصحن المطاف والمقامات الأربعة.

ولهم نظـام خاص فى تسلســل الـوظائف يسير ون عليه من أقدم الأزمان ونوجز هذه الوظائف فيما يلي:

حينما يبدأ الأغا العمل فى الخدمة يسمى نفر ويستمر فى ذلك ثم يرقى بالتسلسل حتى يصل الى وظيفة شيخ المفتاح وهذه الوظيفة هى أمانة مفاتيح غرف الادوات من شماعدين وأوانى تنظيف المطاف والحجر وأطراف الكعبة وغير ذلك. ثم يرقى الى وظيفة (دوز ورى) وهى مراقبة الأغوات حال قيامهم بتنظيف الصحن وماحوله، ثم يرقى الى رتبـة ضابـط ويسمى ضابـط أول ويـدخل فى سلك البطالين ووظيفة البطـالـين كنس مدار المطـاف ومـايتبعه مع حجر إسماعيل وتنظيم صفوف المصلين

١- «٣٦٢- ٢٦٣ تاريخ الكعبة المعظمة»

داخل الصحن والفرش الحجر المحيط بالصحن الذى عليه مقامات الائمة فقط. ثم يرقى الى رتبة (خبزى) وهؤلاء الخبزية لايتجاوز عددهم أحد عشر نفرا على الدوام فإذا مات أحدهم ارتقى الى وظيفة اقدم البطالين خدمة ثم يرقى من الخبزيه فيبلغ وظيفة بيت المال الخاص لهم ثم يرقى الى نقيب ثم يرقى الى وظيفة شيخ الأغوات اذا خلت الوظيفة بوفاة الشيخ السابق. (١)

غســـــل داخل الكعبة

أول من غسل الكعبة هو الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه يوم فتح مكة، وذلك بعد ازالة الاصنام ومعالم الشرك التى كانت فيها، يقول مؤلف الكتاب فتجرد المسلمون فى الازر واخذوا الدلاء وارتجزوا على زمزم وغسلوا الكعبة ظاهرها وباطنها فلم يدعوا اثرا من آثار المشركين الا غسلوه ومحوه.

وقد صار غسيل الكعبة عادة جارية وسنة متبعة من عهد رسول الله ﴿ﷺ﴾ الى العهد الحاضر. وتغسل الكعبة كما يقول المؤلف مرتين فى العام مرة قبيل الحج ومرة فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول.

أقول والذى اعرفه ان موعد الغسيل الثانى للكعبة هو فى شهر رجب من كل عام، ويتم غسل أرض الكعبة وجدرها الى ارتفاع قامة الانسان بماء الورد الممزوج بماء زمزم وتطيب جدران الكعبة بعطر العود كما تجمر الكعبة بالعود والند والعنبر، بعد تجفيف ارضيتها ويحضر عادة الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة والاعيان لغسيل الكعبة ويشاركون فيها تبركا مع رئيس الحجبة والمسئولين عن شئون المسجد الحرام ولاتزال هذه العادة سنة متبعة حتى هذا اليوم. (٢)

سرقة مفتاح الكعبة

جاء فى تاريخ السنجارى ان سادن البيت الشيخ عبدالرحمن الشيبي فتح الكعبة

١- «٣٦٣ ـ ٣٦٥ تاريخ الكعبة المعظمة».

٢- «٣٦٥ ـ ٣٦٧ تاريخ الكعبة المعظمة»

للنساء فى اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسعمائة وست وسبعين على ماجرت به العادة فى ذلك الزمان فسرق مفتاح الكعبة من حجره وهو مصفح بالذهب. يقول السنجارى فوقعت الضجة واغلقت ابواب الحرم وفتشت الناس فلم يظفروا بالمفتاح.

قال السنجارى ثم وجده سنان باشا باليمن مع رجل أعجمي فاخذ الرجل وكبست داره فوجد عنده المفتاح وغيره من السرقات التى اقر بها فقطع رأسه وأعيد المفتاح إلى السادن.

اشتعال ثوب الكعبة

ذكر الشيخ باسلامه أن حريقا وقع فى ثوب الكعبة فى يوم الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة ١٣٤٤ اثناء الحرب التى وقعت بين الشريف الحسين بن علي والجنود الاتراك المحاصرين فى قلعة اجياد بمكة المكرمة بعد أن أعلن الشريف الحسين نفسه ملكا على الحجاز وانفصل عن دولة الخلافة العثمانية.

وكان الجنود الأتراك يطلقون القنابل من مدافعهم باتجاه المسجد الحرام لان رجال الحسين كانوا يحتلون الدور المجاورة للمسجد الحرام، وبعضهم اتخذ من منائر المسجد الحرام مكانا يطلقون منه نيران بنادقهم على قلعة اجياد. وكانت القنابل التى يقذفها الاتراك تصيب قباب المسجد الحرام وخاصة فى باب الزيادة وباب أم هانىء.

وقد وقعت شظية من احدى القذائف على الكعبة المعظمة من الجهة الجنوبية قريبا من سطح الكعبة واشتعلت النار فى ثوب الكعبة قرب الحجر الأسود وقد فزع الناس لذلك فزعا شديدا وتجمعوا فى المسجد الحرام من كافة اطراف مكة فسارع ساذن البيت الشيخ محمد صالح شيبي بإرسال ابنه محمد ففتح الكعبة وصعد الناس فاطفأوا النار فى لحظة. (١)

هذا الحديث الطويل عن الكعبة المعظمة هو الخلاصة لكتاب الشيخ حسين

١- «٣٧٨ - ٣٨٢ تاريخ الكعبة المعظمة»

عبدالله باسلامه تاريخ الكعبة المعظمة الصادر فى سنة ألف وثلاثمائة وأربع وخمسين قبل مايقرب من نصف قرن، وهومن أهم الكتب فى موضوعه وهويمتاز بأنه قد جمع كلما كتب عن الكعبة المعظمة فى كتاب واحد يجعل القارىء ملما بتاريخها منذ فجر التاريخ وربما قبل ذلك حتى اليوم.

والكتاب هام ومفيد لانه يؤرخ لاقدس بيت لله على سطح الأرض ومفيد بما احتواه من الحقائق التاريخية كما انه لايخلو من الحوادث الطريفة عبر هذه القرون الطويلة.

وهو كما ذكرنا مكمل لكتاب الشيخ باسلامة الذى تحدثنا عنه قبل تاريخ عمارة المسجد الحرام ومن المعلوم ان للشيخ باسلامة مؤلفات كثيرة ذكرها الشيخ محمد نصيف فى ترجمته(١) ولكنى أود أن أذكر أنه لو لم يكن للشيخ باسلامه سوى هذين الكتابين اللذين تحدثت عنهما لكان ذلك جديرا بتسجيل اسمه بين الأعلام من المؤرخين فى هذا المجال.

ذكرياتي عن الشيخ حسين باسلامه

سمعت باسم الشيخ حسين باسلامه لأول مرة حينما ثارت المعركة الأدبية بينه وبين الاستاذ محمد حسن عواد على صفحات جريدة صوت الحجاز فى الخمسينات من القرن الهجرى الماضي إن لم تخني الذاكرة على أثر ظهور كتاب الشيخ حسن باسلامة تاريخ النهضة الاسلامية مع العلم والمدنية كان العواد(٢) رحمه الله قد انتقد هذا الكتاب حين ظهوره واجاب عليه المؤلف الشيخ حسين باسلامه وثارت بين الرجلين معركة عظيمة استمرت زمنا طويلا وشغل بها الناس، ولعل العواد وهو المجدد فى الأدب كان ينظر الى الشيخ باسلامه على انه من الطبقة التى تسلك نهج القدامى من المؤرخين فى الأسلوب والتعبير، وليس هذا مجال

---

١ ـ انظر هذه الترجمة فى كتاب تاريخ عمارة المسجد الحرام

٢ ـ انظر ترجمة محمد حسن عواد فى كتابنا اعلام الحجاز.

الحكم بين الرجلين فكلاهما قد غادر هذه الحياة الدنيا إلى رحاب الله الذى نسأله لهما الرحمة والغفران.

وقد رأيت الشيخ باسلامه حينما انتقلت الى مكة المكرمة بها وكنت من المواظبين على ارتيـاد المكتبـات ببـاب السلام وكان هو يحضر لزيارة الاستاذ عبدالله فدا رحمه الله وهـو أديب وصـاحب مكتبـة فكنت أراه فى الأصـائـل يجلس فى مكتبـة الفـدا ويتجاذبان أطراف الحديث.

ثم رأيت الشيخ باسلامه مع أعضاء مجلس الشورى فى جلسة طويلة دعى فيها الشيـخ محمـد سرور الصبـان رحمـه الله أعضـاء المجلس جميعا الى عشاء فى بستانه بالطـائف وكانت هذه الجلسة حافلة بالطرائف التى كانت تحفل بها مجالس الاعيان والافاضل من المكيين وكان مما يدور فيها ويتندر به الحاضرون أن أحدهم ينشد بيتا من الشعر فينشد الثانى بيتا يبدأ بالحرف الأخير من البيت الأول وينشد الثالث بيتا يبـدأ بالحـرف الأخـير من انشـاد الثـانى وهكـذا حتى يكتمـل الأنشـاد من قبـل الحـاضـرين جميعـا فى المجلس ولتمثيل هذه المجالس للقارىء نفترض ان أول من ابتدأ الانشاد أنشد البيت الآتى:

عيون المهابين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

فينشد الثانى بيتا يبدأ بالراء المكسورة فيقول مثلا:

ريم على القاع بين البان والعلم أحلّ سفك دمى فى الأشهر الحرم

فينشد الثالث بيتا يبدأ بالميم فيقول:

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

وهكـذا يستمـر الحاضرون فى الأنشاد دون توقف والا تحول الإنشاد الى التالى وهكـذا كان يتخلل هذه الجلسـات الكثـير من المرح والطرائف فإذا انتهى الانشاد اختـاروا حرفـا من الحـروف وبـدأوا بالسؤ ال عن اسم مدينة مثلا يبدأ بهذا الحرف ولنفـترض ان هذا الحـرف هو الألف فتـذكـر اسم المـدينـة (الطائف ـ فيسئل مثلا ماهى ميـزتهـا؟ فيجيب ارتفـاعهـا ثم يسئـل من تعـرف فيها؟ فيكون الجواب مثلا

أميرها؟ ثم يسئل مالذى يعجبك فيها؟ فتقول اعنابها؟ وهكذا يمضى المجلس فى هذه النـدوة الطـريفة وكثيرا مايعجز المجيب عن الاجابة بنفس الحرف فيضطر الى ان يجيب إجابة مضحكة يتندر عليه السامرون.

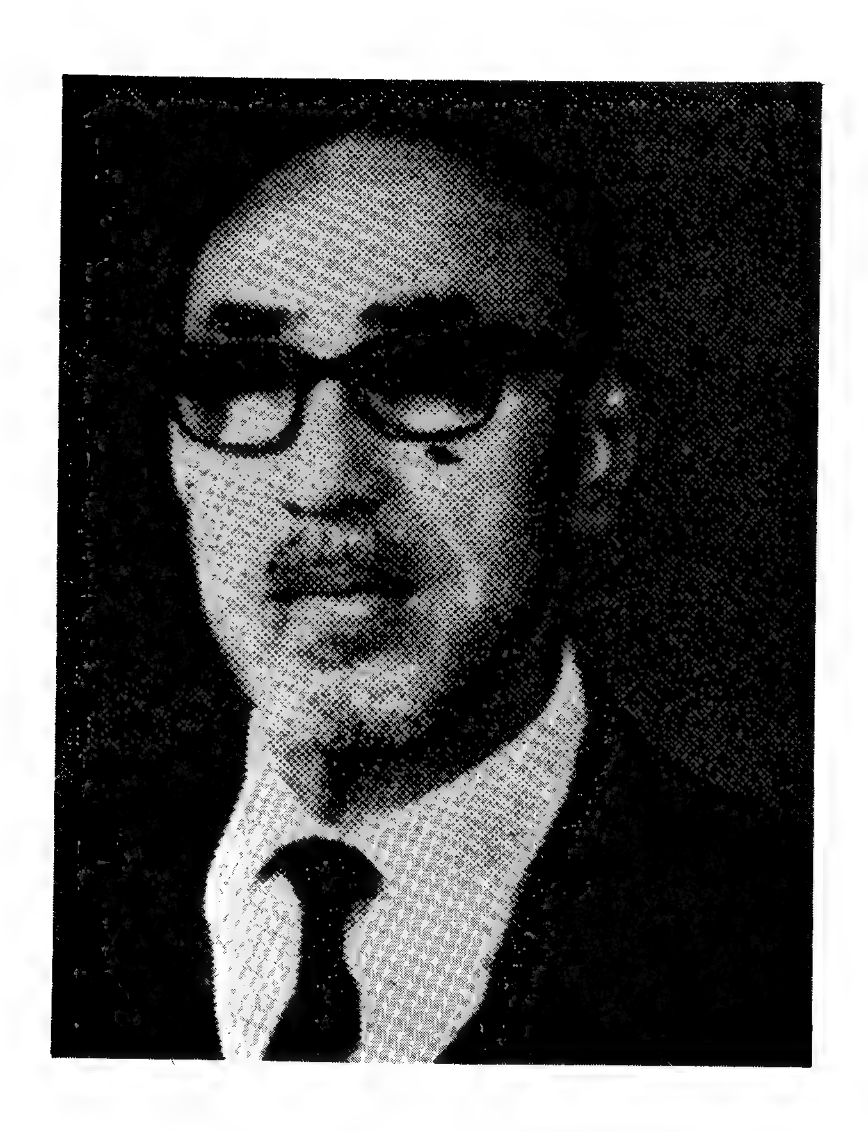
أقــول رأيت الشيـخ حسـين باسـلامـه رحمـه الله فى هذا المجلس وكـان بعض الحـاضـرين يلح عليـه فى الاسئلة وكـان يجيب ببـديهـة حاضرة وظرف وجرأة وكان يشاركه تلك الصفة تلك الليلة المرحوم الشيخ أحمد إبراهيم الغزاوى وكان سكرتيرا لمجلس الشورى رحم الله الجميع فلعل كل من حضر تلك الجلسة قد صاروا إلى رحاب الله تعالى فقد مضى عليها مايقرب من نصف قرن من الزمان.

توفى الـشـيـخ حسـين باسـلامـه فى عام ١٣٥٩ للهـجـرة كان قد فارق هذه الحيـاة الـدنيـا فقد ابقى له ذكرا خالدا فى مؤلفاته التى تحدثنا عن اهمها هذا الحـديث الطـويـل الـذى يستحقـه كتـاباه تاريخ عمارة المسجد الحرام وتاريخ الكعبة المعظمة.

رحم الله الشيخ حسين باسلامه واجزل جزاءه فى دار الخلد لقاء مابذل من جهد فى سبيل العلم النافع المفيد.

● ●

● حمزة شحاته ●



حمزة شحاتة

طويـل القـامة ممتلىء الجسم أسمر اللون اقنى الأنف واسع العينين يضع على عينيـه نظـارة طبيـة وهـو لا يستطيـع الرؤ ية بدون هذه النظارة أصلع الرأس ، تزين وجهـه لحيـة صغـيرة ، حليق العـارضـين ، جسيم وسيم متنـاسق الأعضاء له قامة رياضية ، عرفته فى النصف الثانى من الأربعينات وكان يرتدى الثوب القصير وتحته السروال الطويل الذى يشبه البنطلون ، وهذا هو زى الشباب الذين عاشوا فى الهند يتعلمون او يعلمون (١) وكان حمزه واحدا منهم كما سيأتى بعد . وفوق الثوب يرتدى الكوت الطويل ويضع على رأسه كوفية حجازية ويضع الشال على كتفيه او يعتم به اتقاء للشمس ، وعلى اى حال فقد كانت له هيئة متميزة فى ملابسه ، وكان انيق الملبس دائـما يختـار الألـوان الهـادئة والاقمشة الجيدة ، واذكر ان استاذا مصريا كان يعمل فى المدرسة السعودية الابتدائية فى جدة اجتمع به مرة فوصفه لأحد اصدقائنا قائلا ـ الافندى اللي هيأته كويسة ـ وذلك تمييزا له عن الآخرين وربما لم يكن يعرف اسمـه ، وعلى اى حال فان حمزه اصبـح فيـما بعـد يرتـدى العبـاءة العربية والعقال خاصة بعد ان عمل موظفا فى وزارة المالية بمكة المكرمة ، ومديرا للنقليات الحكومية

---

١ ـ انظر تفصيل ماكتبناه عن الأزياء فى كتابنا ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز.

فى عهد معالي وزير المالية الأسبق الشيخ عبدالله السليمان يرحمه الله .

ولـد بمكـة فى سنة ١٣٢٨ هـ وتلقى مبـادىء تعليمـه بها أولا ، ثم فى مدرسة الفلاح بجدة وكان الشيخ عبدالرؤوف جمجوم عميد آل الجمجوم (١) قد سافر الى مكـة وكـانت تربطـه بعـلي شحـاتـه ومحمد نور شحاته اشقاء حمزه صلات صداقة وعمـل ، وحينـما انتقـل آل شحـاتـه الى مدينـة جدة كان بيتهم ملاصقـا لبيت الجمجـوم ، وكـان الشيخ عبدالرؤوف يعنى عناية خاصة بالغلام حمزه شحاته رحمه الله حتى انه كلف احدى بناته بالعناية بحمزه ومذاكرة دروسه فكان يقضي أوقات فراغـه كلهـا بدار آل الجمجـوم ، واتم حمزه دراستـه فى مدرسـة الفلاح وكانت مدة الدراسة بها ست سنـوات ، وقد ادركته وهو طالب فى آخر مراحل الدراسة بالفلاح وانـا مبتـدىء بها ثم سافـر إلى الهنـد ليعمـل فى دار آل زينـل هنـاك وأقام فى مدينة بومبـاي عدة سنـوات ثم عاد بعـد انتهـاء الحـرب السعودية الهاشمية ليتسلم أولى وظـائفـه الحكـوميـة سكـرتـيرا للمجلس التجـارى بجده الذى كان يرأسه الشيخ سليـمان قابـل(٢) لم تطـل مدة عمل حمزه يرحمه الله بالمجلس التجارى فقد كان من النمط القلق الذى لايستطيع الاستمرار، وكانت طموحاته وتطلعاته تدفعه الى التغيير .

وقـد جاء هذا التغيـير بالحـاح من أخيـه المـرحوم الشيخ محمد نور شحاته الذى اسس شركـة للنقـل بالسيـارات فى أوائـل العهـد السعودى تعمل بين مكة المكرمة والمـدينـة المنـورة لنقـل الحجـاج وكـانت هذه الشركة تسمى شركة السلام (٣) وقد اخـبرني حمزه انـه أضطـر مرة إلى قيـادة السيارة اللورى من جدة إلى المدينة المنورة والعودة بها بعد ان لاقت شركتهم كما لاقت غيرها من الشركات المصاعب الكثيرة

---

١ ـ انظر ترجمته فى كتابنا اعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة صفحة ١٠١ ـ ١١٠ ج أول .

٢ ـ انظر ترجمته فى كتابنا اعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة صفحة ٥٥ ـ ٦٢ ج أول .

٣ ـ انظر ماكتبناه من شركات السيارات فى ترجمة الشيخ محمد صالح ابو زنادة فى كتابنا اعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة صفحة ٢٣٩ / ٢٤٢ الجزء الأول .

من السائقين الأجانب الذين كانوا يتولون قيادة تلك السيارات . . ومالبثت هذه الشركة ان انضمت كما انضم غيرها من الشركات الى الشركة العربية للسيارات ، ولكن محمد نور وحمزه شحاته كانا قد عملا فى استيراد وبيع قطع الغيار للسيارات وفى هذا العمل بالذات اتصلت اسبابي باسباب حمزه شحاته يرحمه الله فى النصف الثانى من الأربيعينات فى جدة ، حيث كنت اعمل فى شركة القناعة للسيارات وكانت تبيع قطع الغيار للسيارات كما تبيع المحروقات والاطارات الخاصة بالسيارات وبحكم تجانس العمل كان يزورنا الشيخ محمد نور شحاته وكذلك حمزة فاتصلت اسبابي باسبابه وتوثقت عرى الصداقة بيني وبينه .

كان حمزه نمطا فريدا من الأدباء لم يكن يشبهه غيره وكان ساحر الحديث يمتلك قلوب سامعيه وافكارهم وكانت لغة حديثه اقرب الى الفصحى منها الى العامية ولكنها الفصحى المحببة التى لاتصدمك منها لفظه موحشة أو كلمة غريبة قاسيه ، وكان يمزج احاديثه بالطرائف والنكات فى إسلوب اخاذ .

وكان اذا كتب لايختلف كثيرا عنه حينما يتحدث وكانت رسائله قطعا أدبية رائعة ، ولو جمعت هذه الرسائل التى كان يبعثها الى أصدقائه الكثيرين لتكونت منها مجلدات ولكانت فنا عجبا فى أدب الرسائل ، وقد جمعت ابنته شيرين الرسائل التى كان يرسلها اليها واصدرتها فى كتاب يحمل هذا العنوان ـ الى ابنتي شيرين ـ وحسنا فعلت السيدة شيرين بجمعها لهذه الرسائل وحسنا فعلت تهامة بطبعها ونشرها بين الناس .

ان هذه الرسائل تمثل فترة من حياة حمزه شحاته هى لعلها فترة الكهولة فى حياته ولو جمعت كل الرسائل التى كتبها فى صدر شبابه ورجولته لرأينا فيها (العجبُ العاجب) ، فلقد كان حمزه أحسن من يعبر عن عواطفه وخوالجه ، ولقد كان يكتب الي كما كان يكتب الى قنديل ، وإلى عزيز ضياء ، والى عبدالله عريف والى محمد عمر توفيق وإلى الأخ الشيخ محمد نور جمجوم وإلى غيرهم من أصدقائه الكثيرين ، وبالنسبة لرسائله الي فاني فقدتها كلها ، فقدت بين الكثير من

أوراقي الضـائعـة، ولعلها تكون موجودة بين ركام الأوراق الكثيرة التى لااستطيع فرزهـا والتى لااعـرف مكانها، على أي حال كان حمزه فريدا فى أحاديثه وفريدا فى رسائله (لايشابهه أحد) ، ولا يشبه أحدا فهو صاحب اسلوب خاص فى الحديث وفى الكتـابـة على سواء. توثقت الصلة بينى وبينـه عقـودا من السنين فكنت القاه أصيـل كل يوم وصـدر كل مسـاء حينـما كان بجـدة ولكن حمزه مالبث أن غاب عن جده مرتين، مرة بدون اختيار منه والمرة الثانية باختياره.

أمـا المـرة الأولى فقـد كان أحـد المعتقلين الذين رحلوا إلى الرياض فى أوائل الخمسينـات وكـان من بينهم الكثـير من شبـاب مكـة وجده أذكر منهم على سبيل المثـال لا الحصـر الأسـاتذه محمد حسن عواد، وعبدالوهاب آشي، والشيخ سليمان أبـو داود، والشـريف محمـد مهنـا وعبـدالعزيز جميل وغيرهم، وعلى أى حال فإن التحفظ على هذا الفريق من الناس كان من باب الاحتياط فما لبث جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله ان اطلقهم، وقد روى لي المرحوم الشيخ إبراهيم السليمان ابن عقيل رئيس ديوان النائب العام لجلالة الملك فى الحجاز فى تلك الأيام رواية طريفة اذكرها هنا للتاريخ.

قال : كان صاحب السمو الملكي الأمير فيصل - جلالة الملك فيصل فيما بعد - فى زيـارة والـده المغفـور له جلالـة الملك عبدالعزيز فى الرياض، وحينما قرب موعد عودته الى الحجاز وكان لايستطيع العودة الا إذا أذن له الملك عبدالعزيز رحمه الله، وكان هذا الاذن يصدر ابتداء من الملك عبدالعزيز بمعنى أن آداب الأسرة المالكة لم تكن تسمح لمن يرغب فى السفر أن يستأذن الملك فيه، وانما يصدر الأذن من الملك نفسـه حينـما يرى أن المـدة التى قضاها الزائر فى الرياض قد تمت وأن عليه أن يعود الى عمله بالحجاز.

قال الشيخ إبراهيم : قال جلالة الملك عبدالعزيز لسمو الأمير فيصل، يمكنك الآن أن تعود الى الحجاز فقد طال غيابك عنه.

قال سمو الأمير فيصل، ولكن كيف أعود إلى الحجاز وكثير من أهل الحجاز هنا

فى المصمك؟(١) هناك أمر جلالة الملك عبدالعزيز بإطلاق سراحهم فوصلوا إلى الحجاز قبل عودة سمو الأمير فيصل اليها رحمه الله .

عاد حمزه من الرياض إلى مكة وبقي بها بعض الوقت وكتبنا له مهنئين وجاءتنا رسائله بنفس الأسلوب الساحر الساخر، لم يؤثر النفي فى نفسه وعلمت أنه كان يقوم فى بعض الأحيان بطبخ الطعام لزملائه فى المصمك وكان حمزه من اكثر الناس إجادة فى صنع الطعام وتذوقه يرحمه الله .

هذه هي المرة الأولى التى غادر فيها جدة مختارا بعد أن عرفته ولكنه لم يلبث أن عاد اليها أما المرة الثانية فقد ذهب إلى مكة للعمل سكرتيرا للشيخ محمد سرور الصبان بطلب منه .

وكان حمزه كما ذكرت لايطيق البقاء فى عمل واحد حتى ولو كان هذا هو العمل التجاري الذى يمتلكه هووأخوه ، ولعل خلافا دب بين الأخوين رأى حمزه معه أن يترك عمله التجارى ليعمل سكرتيرا خاصا للشيخ محمد سرور الصبان ، وقد بقي حمزة فى هذا العمل عاما واحدا أونحوذلك إن لم تخني الذاكرة فى تحديد الوقت. وكان من ضمن أعمال السكرتارية لدى الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله الاجابة على عشرات الرسائل التى ترد اليه يوميا من شتى أنحاء المملكة ومن مختلف طبقات الناس وكثير منها يتعلق بمعاملات لهم فى وزارة المالية وفى شئون خاصة بهم، وضاق حمزه ذرعا بهذا العمل الروتيني فطلب من الشيخ محمد سرور اعفاءه ولكن الشيخ محمد سرور لم يوافق على اعفائه ومازال حمزة يلح حتى وافق الشيخ محمد سرور على إجابة الطلب، ولكنه ألزمه أن يختار له من يقوم بعمل السكرتارية بدلا منه، وكتب الي حمزة رحمه الله يعرض علي العمل لدى الشيخ محمد سرور فى مكة فاعتذرت بادىء ذى بدىء لان ظروفى العائلية لم تكن تسمح لي بالانتقال الى مكة، وعاد حمزه الى جدة ثم طرأ ماجعلني اقبل العمل لدى الشيخ

---

١ ـ المصمك إسم القصر الذى كان المسجونون يعتقلون فيه فى الرياض وللعواد فيه قطعة شعرية انظر مجموعة دواوين العواد.

محمد سرور فى مكة وانتقلت اليها وكان ذلك فى شهر ذى القعدة عام ١٣٥٥ هـ، عاد حمزة مرة أخرى للعمل مع أخيه فى جدة ولم يمض على هذه العودة الكثير من الـزمن حتى رأيت حمزة يسـافـر الى أبهـا وجيزان بصحبة المرحوم الشيخ عبدالعزيز جميل وكان يعمل هناك مديرا لماليات وجمارك جيزان وتوابعها.

كانت هذه الرحلة رحلة تفقد للمنطقة واحوالها وكان لحمزة صديق آخر فى أبها هو المرحوم طلعت وفا الذى كان مديرا لشرطة أبها والذى وصل فيما بعد الى منصب مدير الأمن العام فى مكة المكرمة.

وقضى حمزة بضعـة شهـور وهو يتنقل بين جيزان وأبها وصبيا وأبو عريش ورجال المع ثم عاد إلى مكـة المكـرمـه بصحبـة الشيـخ عبـدالعزيز جميل الذى نقل رئيسا لماليـات وجمـارك الاحسـاء وتـوابعها، وبعد هذه العودة عهد معالي الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية الأسبق الى حمزة بادارة سيارات النقليات الحكومية وبقي فيها بضعة شهور، ثم انتقل بعد ذلك للعمل فى ديوان المحاسبة فى وزارة المالية.

ثم ترك العمل فى وزارة المالية وعاد إلى جدة لادارة العمل التجارى مع شقيقه محمد نور، الذى مالبث أن سافر الى مصر وإستقر بها، إبان الحرب العالمية الثانية.

كان حمزة يحلم بالهجرة إلى مصر والاستقرار بها، وكان خياله الخصيب يصور له جمال الحياة على شاطىء النيل، وامكانية النجاح الاقتصادى الكبير فى أرض الكنانة.

ونسيت ان أذكـر أن حمزة جاء إلى مصـر قبـل ذلـك مريضا وكنت فى القاهرة فى تلك الأيـام، فبعث إلي من يخبر ني بوصـولـه إلى القاهرة ونزوله فى مستشفى مورو بالـدقى، وأسـرعت اليـه فوجـدته فى سرير المرض وقد أجريت له عملية استئصال الزائدة الدودية وكنت أزوره يوميا وكان هذا فى عام ١٩٤٢ مـ خلال الحرب العالمية الثانية وترك المستشفى بعد أن تماثل للشفاء، ولكنه لم يعد إلى جدة وتزوج بإحدى الفتيـات المصـريات وبقي هناك بضعة شهور، وحينما حان أوان عودته إلى الحجاز سافر وطلب اليها أن تلحق به فيما بعد، ولكنها لم تحضر.

وكـانت ابنتـه الطفلة شير ين فى القـاهـرة فى حضانة امها هناك وكانت هي بكر أولاده من زوجته الأولى التى تزوجها فى جدة، وكان حريصا على ضمها اليه بعد ان تعذرت سبل الوفاق بينه وبين زوجته وأسرتها.

تهيأت الأسبـاب لسفـره إلى مصـر فسافر إليها مع بناته وأسرة أخيه جميعا ونزلوا أول نزولهم فى مدينة حلوان ثم استقر بهم الأمر فى القاهرة وكان هذا فى عام ١٣٦٤ هجرية وكنت هناك وكنت أرى حمزه تقريبا فى كل يوم، وكان اخوه الشيخ محمد نور قد اشـترى قطعـة أرض فى الـدقى وكانت البعثات السعودية تسكن فى دار مؤجرة وكـان القـائمـون على شئـون البعثـة يتمنـون لو أنهم سكنـوا فى دار مملوكـة لاحد السعـوديـين، وقـام حمزه وأخوه محمد نور ببناء دار للبعثات السعودية على جزء من الأرض المملوكـة لهما بالـدقى وأصبحت هذه الدار مقرا للبعثات السعودية ثم تعين حمزه محاسبا لادارة البعثات لبعض الوقت ولكنه مالبث أن ترك العمل فى دار البعثات.

وعاد الى مكة بناء على طلب الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله تعالى ليكون أول رئيس لنقابة السيارات فى عهدها الجديد فى ١٣٧٢ هـ ولم تطل إقامته فى هذا العمل كما لم تطل فى أي عمل مارسه من قبل.

كان قلق النفس لايستقـر على حال، كانت طمـوحـاتـه تتمـرد على العمـل الـروتيني الـرتيب، وكـانت افكـاره أقـوى من واقع حياته، كانت تلك هى ضريبة العبقرية التى تتحدى القيود والأعراف.

وعـاد حمزة أخـيرا ليستقـر فى القـاهرة، وقد استشرت الخلافات بينه وبين أخيه حتى بلغت حد القطيعـة، قلت له يومـا إن وفـاقك مع اخيك وتعايشكما ملزم لكما جميعا فأنتما لم تنجبا ولداً، كل ذريتكما من البنات فاطويا صفحة الخلاف، وليضع أحدكما يده فى يد الآخر، ولكنهما كانا عنيدين.

ولقد ضعف بصر حمزة فى السنوات الأخيرة فكان اذا خرج صحبته صغرى بناته وكان قد أصيب بانفصال الشبكية، كما أصيب قبله اخوه محمد نور بها، وفقد كل

منهما بصره فى آخر حياته غفر الله لهما.

إن فقد حمزه لبصره فى آخر حياته أثر فى نفسه واستطيع ان أقول إنه أدخل الكثير من التغيير على أفكاره، ويتضح هذا فى حديثنا عن رسائله إلى ابنته شيرين.

إلى ابنتي شـــــيرين

إسم الكتاب الذى يضم ستين رسالة كتبها حمزة إلى كبرى بناته بعد أن غادرت مصر عائدة الى الحجاز اثر زواجها، وهذه الرسائل تظهر بجلاء الحب الكبير الذى يربط شيرين بأبيها فقد أصبحت له كل شىء البنت وسيدة البيت والصديقة التى يتحدث اليها ويبثها مكنون صدره وأفكاره، وليس هذا بغريب على أى حال وقد اخترت بعض المقتطفات من بعض الرسائل التى كتبها حمزه إلى شيرين وهى تمثل أسلوبه فى كتابة الرسائل كما تمثل أفكاره وخوالجه.

وأبدأ بالنماذج التى تمثل حالته النفسيه فهو يقول فى الرسالة (٣٠) لقد تحطمت قبل أن أبدأ قصة حياتى التى شغلنى عنها ولوعي بإنقاذ الغرقى وإطفاء الحرائق (١)

ويقول فى الرسالة الرابعة : تمت عزلتى الآن ولم تعد لي علاقة بأحد إلا بالمقدار الذى لايزيد عما يتهيأ لأي نزيل فى فندق صغير. ومنها :

اننا فى سفينة أو اتوبيس وكل الفرق ان الرحلة أطول ، انني أشعر بضغط الوحدة ضغطا مخيفا أراني غريق اتخبط وأرسل صرخات الهلع، وأسمع أصوات ضحكات السخرية ممن يتظاهرون بانقاذي.

أبدا أبدا لم اعد اقوى على احتمال هذا الشقاء وحدى بلامعين، انني أبدأ الفكرة ولا أعرف كيف أتمها، وفى الليل عندما يهدأ كل شيء وينام، أظل أنا كالآلة الدائرة تدور بلا نهاية (٢)

---

١ ـ صفحة ١٢٧ الى ابنتي شيرين

٢ ـ صفحة ٥٤ الى ابنتى شيرين.

ويقول في الرسالة العاشرة : بعد أن فقد البقية الباقية من بصره فيها اظن .

اني لا أنـام الليـل أبـداً حتى السـاعة السابعة أو الثامنة ، لاتسألي لماذا ؟ فأنا لا أعـرف شيئـا يقتضى هذه الأرق الثابت ، ربما كانت الشيخوخة ، اوطبيعة إنعدام الشاغل الليـلي كالقـراءة والتلهي بنظم الشعـر أوعلى الأصح ما أصطلح الناس على تسميته بالشعر لتمييزه بأنه الكلام غير المألوف ، وربما كانت طبيعة الوحدة ، والشعور بالظلمة التامة ، ويظهر أن وقتا كافيا للاعتياد لم يمر على هذه التجربة القاسية(١)

ويقول في الرسالة السابعة والعشرين :

لاتتأثـرى إنهـا النهـايـة الطبيعيـة لانسان لم يسر على الطريقة التى يسير عليها الآخـرون ، بل ظل يحلم بأن يعلوعلى مستوى الطـين والـتراب ويخـالف معـرفته للحقيقـة التى فهمهـا الجهـلاء والأغبيـاء على الوجه السليم ، لاتظني أنني أبكي بهذه الكلمات .

اني أضحك واقهقه ساخراً بنفسي لاني كنت الغبي الذى يتهمه الناس بالفطنة ، والضحك بهذا الاسلوب هو العزاء الوحيد الذى بقي لي (٢)

والرسائل تتضمن أفكارا وآراء كثيرة تستوقف القارىء والمتأمل .

يقول في الرسالة الرابعة عشر .

إن غايات الحياة والعقل والقدرة لاتنتهى ، وهذا مايجعل الحياة تجددا مستمرا ، ومتعة دائمة وامجاداً مضيئة(٣) ويقول في الرسالة الثامنة :

إن شقـاء الانسـان وعذابه ليست نتيجة لاخطائه ، هناك أناس يخطئون دائما ، ولايفعلون الا الخطأ ولكنهم لايـدفعـون ثمن اخطـائهم ، ويعيشـون في انفصال

---

١ ـ ٥٢ إلى ابنتي شيرين

٢ ـ ١١٨ إلى ابنتي شيرين

٣ ـ ٥٦ إلى ابنتي شيرين

عنها وعن تأثيراتها، وأناس لايخطئون على الأقل لأنهم لايجدون الوقت، ولا الامكان للخطأ مع ذلك فهم فى عذاب باخطاء غيرهم، إن العاطفة البشرية أقل الأشياء أمانا وثباتا، ولاسيما عندما تتوهج انفعالاتنا بها. وفى هذه الرسالة كذلك يقول:

مايعزينا أن الناس لايموتون، ولاسيما عندما يفقدون حبهم، وإن العلاقات لاتنتهى اذا حدث أشكال.

إن الانسان يعيش طويلا وهو يحمل مرض موته ويصارعه، والعلاقة تعيش بين قلبين متنافرين وربما يجيء ظرف يتغير فيه التنافر الى حب (١)

وفى الرسالة العاشرة يقول:

لاتصدقي إن كلمة الطموح تعني شيئا من الجشع، وهو التطلع إلى المزيد . . إن مطالبنا فى الحياة لايمكن أن تريحنا ما لم نضع لها حدا بالبساطة والقناعة. أقول تريحنا لأن لاشيء يتعب ويجهد كالرغبة فى المزيد هذا ينطبق على كل شيء.

ان طلب المزيد لايحقق الأحلام بقدر ما يقضي عليها، يقضي عليها ليحلم بغيرها بما لم يتحقق بعد (٢) ويقول فى الرسالة الحادية عشر.

عندما نفعل خيرا للغير ينبغي لنا أولا أن لا ننتظر او نتقبل جزاء عليه من غير الله، وأن نحتمل مايقابلنا من مكاره اقلها الجحود (سوء الجزاء) إلا إذا عافانا الله من التعرض لها إن احتمال مغارم الخير وماقد يجره علينا من البلاء مضاعفة لجزائنا عليه من الله (٣)

ويقول فى الرسالة الثامنة عشر

هناك اشاعات يرفضها العقل تتوفر لها القدرة بإستمرار على قتل الحقائق وعلى

---

١ - ٤٧ إلى ابنتي شيرين

٢ - ٥٣ الي ابنتي شيرين

٣ - ٥٦ إلى ابنتي شيرين

التشكيك فى الواقع وتزييفه، وهي ليست أكثر من إشاعات ترفضها كل مقاييس العقل والمنطق والواقع الملموس.

يقول كذلك فى هذه الرسالة:

كثير من الانتصارات باهظ التكاليف اكثر كثيرا من أية هزيمة. وفيها أيضا يقول.

إن بعض الظروف تضع الانسان فجأة أمام مثير من نوع مافتكون الاستجابة المتسرعة مانعة من صحة التقدير والتروى ولاغرابة فى هذا(١)

ولقد كان حمزه يفكر فى العودة إلى الحجاز ويبدوا أنه كان يتحدث بآماله هذه إلى شيرين حينما كانت معه فى القاهرة ولاغرابة فى هذا وقد عبر عن سعيه للهجرة إلى مصر والاقامة بها ثم سعيه للنزوح عنها والعودة الى بلاده تعبيرا ساخرا طريفا فى الرسالة السادسة عشر قال:

وصف مفكر الرجل الامريكى من الطبقة العادية بأنه يقضى نصف عمره فى الريف فى محاولة الانتقال الى المدينة، ويقضى النصف الآخر فى محاولة العودة الى الريف، وهذا بالضبط ماحدث لي ولم أعد بعد إلى الريف (٢)

إلى جانب رسائل إلى ابنتي شيرين كتاب آخر نشرته تهامة كذلك مشكورة لحمزه شحاته، بعنوان رفات عقل، وهى عبارة عن مذكرات كان يكتبها حمزة لنفسه كما يقول الأستاذ عبدالحميد مشخص الذى استخلصها من بين أوراقه المتناثرة، وليست هي مذكرات بالمعنى الذى يسبق الى ذهن القارىء لانها عبارة عن أفكار وآراء فى شكل مفكرات أومذكرات يرجع إليها فيما بعد وحسنا فعل الأستاذ عبدالحميد مشخص بجمعها ونشرها، فهي تصور حمزة شحاته الكاتب والمفكر ويفتتح حمزة الحديث فى هذه المذكرات بسؤال عنوانه من أنا؟ فيقول:

يبدو لي أنني لم أستقبل حياتي منذ وعيت حتى هذه الساعة.. كنت أعيش

---

١ ـ ٨٤ رسائل الى ابنتي شيرين. ٢ ـ ٧٦ رسائل إلى ابنتي شيرين

متأثرا بجملة الظروف والدوافع والمقاومات . . أسير . . وأتقهقر . . وأقف . .
وأحيانا اعدو بجنون . وحيث يتاح لي أن أتأمل ذاتي أرى انني أداة تملى عليها مقـدرات حركتهـا وسكونها ، لم أشعر قط بتحرير ارادتي ، وحين بدا للآخرين انني اكتهلت بحكم السن ، وإتسـاع افق التجـربـة ، وجدت ان مايسمى الارادة فينا ، ليس إلا حاصل ظروف وعوامل ينسحق فيها ماهو ذاتي وداخلى تحت وطأة ماهو خارجي .

فإذا قلت الآن بصـدق انني أجهـل من أنـا . . أوما أنـا فلأنى لم استقبل قط ما استطيـع ان أسميـه حياتي ولكيلا يعتبر كلامي عن حياتى كلاما يكتنفه الغموض أقـول . . إنني كنت كالجنـدي الـذى قضى أيـامـه ولياليه فى التدريب والأستعداد لمعـركـة لم يقـدر له ان يخوضهـا ، أوكالمتعلم الذى قضى شطر عمره للتخصص فى مجال معـين وقضى الشطـر الثانى عاملا غير ثابت فى كل مجال غير مجال تخصصه . هذا هو أنا ، وهذا ماستقبله واستدبره من حياة هذا الانسان(١) .

ويقول تحت عنوان لم انتم لاية مدرسة :
أحب ان اوضـح اننى قرأت الكثـير ، كل شيء وصـل الى يدى . . تأثـرت وانفعلت بكـل ماكـان له صدى فى نفسي وفكـرى ولم التـزم منهجـا معينـا ففـاتني التخصص فى أي شيء ، كما فاتنى الاحتراف .

ومنهـا يقـول / لم امـارس الأدب على انـه وسيلة ، ولا على إنه غاية ، وانما كان تنفيسا عن شعورى بمرارة العيش وحرارة القلب(٢)

ويقول عن الأدب والمجتمع مايلي :
سيظـل الأدب فنـا قوامـه الجمال والتأثير والفكرة والعاطفة وهدفه الانسان متابعاً لتحولاته ، قائدا لمشاعره ، موجها لاهتماماته .

---

١ ـ رفات عقل ـ ١٢ ـ

٢ ـ رفات عقل

وفيهـا يقـول : ان الانسـان هدف الـوجـود وغـايتـه ومغزاه والانسان وعلاقاته بالطبيعـة مجتمعـين أومتفـرقـين هدف الأديب والفنـان . ومنها ـ والأدب فى خدمة المجتمع لايكون ولن يكون ادباً متجردا من جمال الفن، وفن الجمال (١).

وقد تضمن كتاب رفات عقل المقدمة التى كتبها حمزة لكتاب شعراء الحجاز فى العصـر الحـديث للمـرحـوم الأستاذ عبدالسلام الساسي وفى هذه المقدمة يتحدث حمزة عن رأيـه فى الشعـر وعن الفـوارق بين الكـاتب والخطيب والشـاعـر فيقـول : والشاعر يستهدف ماشاء فى حياة الفكر والخيال والشعور وحركة النفس وخلجاتها، واستجـابـاتهـا وحقـائقهـا واوهـامها، أو فى حياة الواقع والقانون والمنطق والقاعدة والعمـل والتكـوين والـرأى والعقيدة ولكن من هذا السبيل، وبهذا الأسلوب سبيل الجمال وأسلوبه الخاص.

ويصف الشعر بأنه : الترف الحافل بمعاني القدرة المعبرة وذخائرها النفيسه فى أبهى الحلل والاثـواب حتى بسـاطتـه وهى اسمى صفـاتـه وغاياته انما تكون ترف البساطة الفنية بالمزخورات، لافقرها العارى او المتكلف.

ومنها ـ ولو سألنا الآن ـ ماهى أغراض الشعر لوجدنا أنها الجمال والتأثير وإبداع الصـور واستعـادتهـا لتـوشيتهـا وجـلائهـا ، وتلوين الحقـائق والأفكار أو صنعها او صنعها لاما اشاعت المذاهب والطاقات والكتاب يضم قصائد لثلاثين شاعرا حجازيا يقول حمزة عنهم فى هذه المقدمة :

وبعد فان من شعراء هذه المجموعة من لايفخر الحجاز وحده بهم ويتيه، بل كل بلد عربى وهم السرحان وعواد وقنديل وحسين عرب وإشباههم فى معظم السمات وفى بعضها دون جملتها.

ومنهم من يستحق الـرثـاء، ومنهم مستـوجب التعزير حتى يعلن التوبة عن رفع عقيرته يمثل هذا الهراء ظنه شعرا فافسد به أو كاد جو هذه المجموعة الرقيق حتى

---

١ ـ ٢٢/ رفات عقل

اوشك ان يتحول به إلى جومظاهرة من المظاهرات التى يغلب عليها عنصر الرعاع والدهماء (١)

ويتحدث عن القديم والجديد فيقول:

التزام القديم هروب طبيعى من مشقات الجديد، ولكن من حسن الحظ ان الحياة هى التى تتولى دائما دفع الانسان الى الامام مكرها كان أو راضيا. إن الشعوب التى تتوقف عن السير مع تيار الحياة والتغيير تضطر بعد إلى أن تعدوا لاهثة بجنون لكي تعوض مافاتها من الوقت وفى هذا العَدْو الاضطرارى مزالق الخطأ وكبواته (٢)

وهذه مقتطفات أخرى نختتم بها هذه المقتبسات:

الذى يسيء الى من أحسن اليه ليس شريرا.. أنما هو نذل.

إذا كان الطعام ردئيا أو قليلا تنعدم المجاملات على المائدة.

إن للنذل ضميره أيضا.. ولكنها دائما على وفاق.

العمل لايقتل مهما كان شاقا وقاسيا ولكن الفراغ يقتل حتى انبل ما فى الانسان.

إن من لايندفع إلى الامام. يدفعة تيار الحياة الى الوراء.

ان الفاقه تقتل أشرف الدواعى فى النفس.

لو كان للتاريخ ان يسألنا ماذا تنتظرون؟ لقلنا المعجزة وهذا صحيح ولكن اتراه ميسورا (٣)

وهناك كتاب ثالث اصدرته تهامة لحمزه شحاته بعنوان ـ الرجولة عماد الخلق الفاضل ـ وهذا الكتاب عبارة عن محاضرة طويلة ألقاها حمزه يرحمه الله فى مقرجمعية

---

١ ـ ٢٤/٣٦ رفات عقل

٢ ـ ٤١/ رفات عقل

٣ ـ ٤٤ / ٤٩ رفات عقل

الاسعـاف الخـيرى بمكـة المكرمة فى شهر ذى الحجة عام ١٣٥٩(١) وأستطيع أن أقـول إني عايشت كتـابـة هذه المحـاضـرة أو على الأصـح هذا البحث القيم، كما استمعت اليها مع الجمهور الذى حضر لاستماعها وكان حمزة يرحمه الله يشكو ألماً فى الحلق قبـل القـاء المحاضرة بيوم وقد عرض علي أن القيها نيابة عنه فاعتبرتها مزحة من مزحـاتـه، وقـد القـاها واستغرق القاؤها أربع ساعات كما يقول الاستاذ عزيز ضياء مقدم الكتاب، وكان الشيخ محمد سرور رئيس جمعية الأسعاف يفضل لو أن حمزه جزأها والقاها فى عدة محاضرات بدلا من محاضرة واحدة لان الوقت طال فعلا وهو يتكلم ولكن احدا من الحاضرين لم يترك المكان أو الاستماع.

على أي حال إن القارىء لهذا الكتاب يشعر أنه اكثر من محاضرة تلقى فى مكان عام يحضـره جمهـور متفـاوت الثقـافة والفهم والذوق، ولقد احسنت تهامة بإصدار هذه المحـاضـرة فى كتـاب فهـو للقـراءة المتأملة المتأنية، وليس للالقاء فى حشد من الناس، ولو حاولت ان أصور المحاضرة أو الخصها لما استطعت ولجاء هذا التصوير أو التلخيص فى صورة مبتـورة لا أرضى عنهـا ولا يـرضى عنها أحد لهذا فإنني انصح القـراء بقـراءتهـا قراءة متأنيـه والتأمـل فى معـانيها فى هدوء وأكتفى بأن اقتبس نتفا صغـيرة منهـا وانـا احذر القارىء سلفا واعترف له بانها لا تهدف الى شيء اكثر من تشويقه الى هذه القراءة وتحبيبه فيها فلنبدأ الاقتباس وامرنا الى الله - يقول الكتاب:

لاتكون النظرة إلى حقائق الحياة والفكر خالصة، إلا من إناس يرون أنفسهم فوق قيـودهـا وقوالبها وهؤلاء يدعون بالمجانين تارة، وبالفلاسفة وقادة الفكر تارة،

لان حظ الصفات والمبادىء والنزعات يرتبط بحظ الداعين اليها والمتصفين بها من الانجاح والفشل.

ويقـول: ونحن نحلم بالقمم الشـامخـة، ولكنـا نرجـو أن نصحـح مقياسا من

---

١ - انظر ماكتبناه عن المحاضرات فى هذه الجمعية فى كتابنا أعلام الحجاز فى ترجمة السيد صالح شطا

مقـاييسنـا الفكـريـة ولـو بالشـك فيـه، لأن الركود فى تاريخ أمة تتطلع الى ماوراء حدودها الجامدة شر من الخطأ.

ويقول كذلك:

والايـمان بالفضيلة قديم، كما ان الكفـر بالـرذيلة قديم، والحـرب بينهـما لاتزال قائمـة، ماتهـدأ لها ثائـرة وهي سجـال بينهـما، ميـدانها النفس الانسانية تارة ومجال الحيـاة الظـاهـرة تارة اخـرى وستبقى سجـالا هكـذا إلا إن أراد الله، فاذا انهزمت الرذيلة فى مجال الحياة الظاهر لم تنهزم فى مجالها الباطن فعرشها مايزال موطد الاركان فى النفوس.

ثم يقـول: ولامـراء فى ان الايـمان الكـامـل الصحيـح بالفضيلة معـرفة وعمل تقتضيه هذه المعرفة وارادة وحرية.

ويقول أيضا:

وحب الــوطن فضيلة ولاشـــك، هو فضيلة المتـوحش والهمجى والاجتـماعى والمتمدن وفضيلة قد تتسع وتمتد حتى تكون أساسا لحب الموطن العام للبشرية كما كان حب المأوى الخـاص أسـاسـا لحب المـوطن الجماعى فالموطن القومي فهل كان أسـاسهـا إلا الضـرورة؟ وهل كان الوطن عند الانسان القديم الا هذه المعاني وإلا قرابة مدلولاتها من حياته؟

ويقول كذلك:

كان الناس يتحاربون على سطح الأرض، صاروا يتحاربون فى أعماق البحار وفى أجواء الفضاء

كانـوا يفتتحـون المـدن بالقـوة، صاروا يفتتحونها، ويفتتحون النفوس والأفكار بتسميم عقائدها بالدعاية

كانت الحرب حرب اجساد، صارت حرب أعصاب وعقول وأفكار، ليس هذا هو الفارق بين الأمس واليوم إنما هو الفارق بين إنسان الأمس وإنسان اليوم.

تقدم الذكاء والعقل والعلم، هزم القوانين المسلحة وهزأ بها لانه أقوى منها.

ويقل أيضا :

كانت فى حياة محمد ﷺ تضحية صادقة الى آخر حدود طاقة النفس الانسانية واحتمالها. كانت حياء يدفع الناس ألّا ينهزموا فى مواطن الجهاد، أمام الكثرة وأمام الموت المحقق كانت حياء لايترك الغنى يأكل حتى يشبع الضعيف. وكانت مثلا أعلى تضربه قطعة لحم كما تضربه قافلة ضخمة يجلبها عثمان للتجارة فينفقها للحياء.

قطعة من لحم تطوف على بيوت الأنصار والمهاجرين مطافها الطويل حتى تعود الى الأول، وكانت مثلا تضربه شربة ماء يدفعها جريح يعالج سكرات الموت، يستحي ان يشرب وهو يسمع أنين أخيه الجريح فيقول حياؤه ربما كان أحوج اليها مني فتدور يدفعها جريح الى جريح حتى تعود الى دافعها فاذا هو قد مات وإذا هم قد ماتو.

وأمسك عن الاقتباس بعد هذا الابداع الذى نقلت اليكم صورة باهتة منه لتقرأوا بأعينكم وتستمتعو بقلوبكم.

ان كتاب الرجولة عماد الخلق الفاضل يمثل حمزة شحاته كاتبا مفكرا رائع الأسلوب بعيد الغور ثاقب النظرات فإذا اردتم ان تعرفوا حمزة شحاته الكاتب المفكر فأقرأوا هذا الكتاب.

ونكتفى الآن عن نثر حمزه شحاته بما كتبناه عن رسائله ومذكراته وكتابه الأخير لنفتتح الحديث عن شعره وهو فى القمة ليس بين شعراء بلادنا وحسب ولكن بين شعراء العرب فى الوطني العربى كله.

حمـــــزة شـــــحاته الشـــــاعر

عرفت حمزة شحاته فى أواخر الأربعينات وكان يومها فى العشرين من عمره وكان فى هذه السن البـاكـرة شاعـرا مرمـوقـا يحتل مكانه بين كبار الشعراء فى الحجاز وقد أطلعنى حمزة على قصـائـد له نظمت قبـل ذلـك بسنـوات وهي فى نفس المستـوى العـالي الـذى عرف به شعـره فيما بعد، لقد ذكرت فى تراجمى لكثير من الأعلام أن بدايـاتهم دائـما كانت تبشر بالاجادة والابداع، أما حمزة فكان الأبداع سمته البارزة منـد ان عرف النـاس شعـره، فهـل اخفى هو ما لايـرتضيه من بداياته حتى يظهر للناس بالصورة المشرقة التى أراد بها ان يواجه الناس؟

ان كان ذلـك فهـو دليـل جديد على تمكن حمزة من ناحية الفن الذى يزاوله فلا يطلع الناس منه إلا على الجودة والأبداع .

لقـد تأخـرت فى الكتـابـة عن حمزه لأني لم اجد المراجع التى أرجع اليها بالنسبة لشعـره، فلقـد كان كلما نشـر فى حيـاتـه بعض القصائد المتداولة والتى سجلت فى بعض المراجع ولكنها لاتطفىء الغلة لمن يعرف مقدار مانظم من الشعر وخاصة بعد رحيله إلى القاهرة وبقائه بها السنوات الطوال .

والقصائد الوحيدة التى نشرت بانتظام كانت هى المباراة الشعرية التى حدثت بينـه وبـين الأستاذ محمد حسن عواد فى صوت الحجاز والتى سنتحدث عنها حديثا مستقلا فيما بعد .

وهـذه المجمـوعـة على تعـدد القصائد فيها وكثرة تعداد أبياتها لا تمثل إلا جانبا واحدا من الجوانب الشعرية لحمزة ، وهو متعدد الجوانب فالحديث عنها لايكون إلا حديثا مبتورا، لهذا فأني لجأت الى الصديق الشيخ محمد نور جمجوم رجل الأعمال المعروف وهو صديق عمر الشاعر وصفيه ووصيه بعد وفاته لجأت اليه حيت علمت إنـه يحتفـظ لديـه بمجمـوعة كبيرة من قصائد حمزه شحاته، وكان الشيخ محمد نور جمجـوم عنـد حسن الظن به فوضـع بين يدي المجمـوعة الكاملة لشعر حمزة شحاته وأضـاف اليها القصائد المطبوعة بعد وفاته بعنوان «شجون لاتنتهى» وكذلك بعض

المؤلفات التي سجلت بعض قصائد حمزة، وكان لاطلاعي على المجموعة المكتوبة بخط الشاعر اكبر الاثر في تشجيعي على اظهار ترجمته وهي تحمل صورة لا أقول كاملة ولكني أرجو ان تكون وافية بإذن الله.

وقبل كل هذا اود أن أذكر ان صديقنا الشيخ محمد نور جمجوم باحتفاظه بهذه الثروة الشعرية ومحافظته عليها طيلة هذه العقود من السنين قد أسدى يدا عظيمة للشعر في هذه البلاد سيذكرها له المعنيون بتاريخ الأدب والشعر وخاصة حينما يظهرها الى النور مجموعة بين دفتي كتاب كبير بإذن الله، والآن فلنفتتح صفحات هذا الكتاب أو هذه المجموعة التي ستكون كتابا لنختار من هذه العقود الثمينة بعض اللآلىء التي نتحف بها القراء، من هذا الكنز المخبوء.

نظم حمزه في فنون الشعر المختلفة وأبدع فيها أيما إبداع ، والقارىء لمجموعة اشعاره يخرج بانطباع يصور الشاعر متشائما بالحياة، هازئا بما اصطلح الناس على الاحتفال به والتطلع اليه حتى ليذكرك بالمعرى.

ما أرى في البقاء الا علالات خيال مآلها التنغيص
والردى صائد النفوس فما فر كناس منه ولم ينج عيص
فعلام العناء يضني المجدين ويصلاه طاعم وخميص
يالها رحلة برانا بها الجهد ولكن قد عز فيها النكوص

هذه زفرة متشائمة يرى فيها الشاعر ان لاجدوى من السعي في هذه الحياة والعناء فيها فالردى بالمرصاد لم ينج منه كبير ولا صغير.

ولكن متى وصل الشاعر الى هذا، انه جدَّ وكافح فلم يصل به السعي إلى نيل مايريد.

قطعنا سبيل الغمر جهدا وراحة نروم منى ضنت بهن العواقب
فها نحن والآمال رهن مصيرها فلول روت مأساتهن الغياهب

ومنها

شقينا بما قد كان في مشرق الصبا فها نحن في ماكان والعمر غارب

مرامي نضـــال طول الاْين عمـــرهـا　　فطـــالــت به آصـــارنـــا والمتـــاعب
إلى أين لاتـدري وقـدابهم السـرى　　سوى أنَّ وهماً فى الـــدجـنـــة ضارب
وفـيـم وغــايـــات المســاعي موارد　　تطـيـب بها للنـــاعمـــين المشـــارب

ويختتم هذه القصيدة بهذا البيت:

وتـقـضى بها تلقى نفـــوس كريمـــة　　وتـــدفـــن فى ظل الخــمـــول مواهــب

وهذه قصيدة أخرى تذكرنا بأبي العلا كذلك

علام بكى البـاكـون فى الحيِّ هالكـا　　وكـــل وجـــود شعـــلة سوف تطـــفأ
وهـل يعقل المفجوع فى غمرة الأسى　　مقـــالــك ان الصـــبر للحـزن ادرأ
الا ربَّ شاك من مســـاءة يومـــه　　تطـــامـــن لليـــوم الـــذى هو أســـوأ
تنبأت بالأحــداث قبـــل وقـــوعهـا　　فما حاطـــني مما حذرت الـــتـــنـــبؤ

ومنها

تســـائلني كيف انتهيت الى الـرضـا　　ومـــاعـلـمـت ان الـعــزائم تصـــدأ
اهـبـت بعـــزمي فاستجـــاب فردني　　لســـالـــف أطـــوارى حيـــاء ومبـــدأ
تشبهت بالســاعـــين عزمـــا واهبـــة　　فأخـــرني انـــى عجـــلت وأبطأوا

ومنها :

رأيـت دروب الـعيش شتى لمن وعى　　مســـالكهـــا واحـــترت من أين أبـــدأ
وقـد حَظِيَ اللاهون بالصيت والغنى　　فشـــادوا وســـادوا وانـــتشوا وتبـــوأوا

وهذه قصيدة عنوانها الى صديق

من ذاكـــر الـــعـــهـــد الـــى ذاكـــر　　تحـيـــة الـــشـــاعـــر للشـــاعـــر
فيـــهـــا الهـــوى المـــاضـــي بآثـــاره　　مكـــتـــومـــهـــا المطـــويِّ والظـــاهـــر
والـــود والـــصـــدق وذكـــرى المنـــى　　فى يومـــنـــا أو أمـــســـنـــا الـــغـــابـــر

ومنها :

تحية الباكي على مامضى ... والهازىء الكافر بالحاضر
تؤوده أعباء .احساسه ... مما يرى فى كونه السادر
من صور العيش وأسراره ... أعيت على القائف والزاجر
مكرورة فى أبد آبد ... مطوية فى لجه الزاخر
من أين؟ لاتدرى وحتى متى؟ ... وأين مرسى فلكها الحائر
ماهي ؟ ما الغاية من قذفها ... على متون الشبج الثائر

ومنها :

تحية المفجوع فى قلبه ... وفكره وحظه العاثر
عاف الهوى والحسن مذ جافيا ... ايمانه بالخلق الطاهر
وجانب الناس لما هاله ... من شبه الفاضل بالفاجر

ويقول أخيرا

تحية الشاكي الى مثله ... والساهر المكدود للساهر
عاشا على ضنك سواء فما ... هانا لمستعل ولاهاجر
حالاهما حال على سوئها ... خليقة بالفخر من فاخر
وحلقا فى الجو لم يعبآ ... بجارح ينقض أو كاسر

ونكتفي بما أوردناه من هذه الصور المتشائمة لننتقل إلى صور أكثر اشراقا وأوفر بهجة تتجلى فى شعره الغزلى الرائع

يقول فى قصيدة بعنوان نفيسه وهي من شعره فى المهجر - فى مصر -

الهمت والحب وحيي يوم لقياك ... رسالة الحسن فاضت من محياك
من أين ياأفقي السامي طلعت بها ... حقيقة ما اجتلاها النور لولاك

كانت بنفسي وقد طال المدى حلما فصورته لعينى اليوم عيناك
لم أشهد الحسن يبدو قبل مولدها الا صناعة اصباغ وأشراك
حتى برزت به فى ظل معجزة يضاعف الصدق معناها بمعناك

ومنها :

ياشاطىء النيل مافاضت شواطئه سكرا وعربدةً ألا من حمياك
ولا استهل شراع فوق صفحته مغالبا وجده الا ليلقاك
ولاسرت عبر مجراه نسائمه الا لتلثم فى صمت الدجى فاك
ولاتنفَّس فجر فى خمائله الا ليملأ عينيه بمرآك

ومنها :

يامنحة النيل ياأحلى روائعه هل أنت من سحره أم قد تبناك
وهل ترعرعت طفلا فى معابده أم كاهن فى ربا سيناء ربَّاك
أم كنت لؤلؤه فى يمِّه سحرت فصاغك اليمّ مخلوقا وأنشاك
أم أنت حورية ضاقت بموطنها فهاجرته صنيع المضنك الشاكي
أم أنت روح ملاك حلَّ فى امرأة فخافك الملأ الأعلى فأقصاك
فضمَّك النيل فى رفق فهمت به حبا ووثَّقت نجواه بنجواك

ومنها :

يافجر يا بدر يازهر المنى ابتسمت ياخمر ياجمر فى احساسي الذاكى
ماكنت قبلك الا صادحا صمتت به الهموم فلما لحت غنَّاك

ومنها :

الحب قلبان فى مسراهما التقيا فكيف الزمنى قيدى وخلَّاك
وفيم انفذ فى قلبي ارادته وقادني لمصيرى اذ تحاماك
لم يعطني منك الا الحسن همت به حتى استردك غيرْ انا وحاباك

وأين قلبك لم أسمع لخفقته صدى ألم يعنه اني معنّاك

ومنها :

يابنت حواء هل بالدنّ باقية تغني فيشر بها من ليس ينساك

فقد حملت غليل الوجد مرتضيا نعماك ودا فلم أظفر بنعماك

اظمأتني وصرفت الكأس ظالمة عني بثغر على الحالين ضحاك

ومنها :

طامنت من كبريائي فيك فاحتكمي فالحب ارخص من قدرى واغلاك

انت الحياة بلونيها محببة فما ارقك فى نفسي واقساك

فليت لي منك بالدنيا وما وسعت يوما تجود به للوصل مسراك

والقصيدة طويلة تبلغ المائة بيت اوتزيد وكلها من هذا النسق العالي عاطفة ثائرة متدفقة ، وديباجة مشرقة ناصعة وتسلسلا عذبا كالغدير الصافي لاتصدمك فيه لفظة موحشة أوكلمة نابية أومعنى دخيل وفوق كل هذا وذاك تحس فيه بهذا الوهج الذى يصهر القلب، ويثير العاطفة ويسيطر على الاحساس وهذا هو الشعر فى صورته الرفيعة الحافلة بالجمال .

حمزه وقنديل

وهذه قصيدة أخرى بعنوان «لم أهواك» ولهذه القصيدة قصة يحسن بنا ان نذكرها فقد نشر الشاعر الأستاذ أحمد قنديل يرحمه الله قصيدة فى صوت الحجاز بعنوان ـ «مالذى فيك» ومطلعها :

مالذى فيك يامعيدا الى القلب صباه من بعد ان عاد كهلا

وهى من غرر شعر القنديل وقرأها حمزه وأعجب بها ايما اعجاب وكأنما كان هذا الأعجاب بالقصيدة وما تضمنته من المعانى الجميلة الرائعة باعثا له على نظم قصيدة لم أهواك ومطلعها :

ياحبيبي ياملتقى السحر والفتنة ياغالبى على امر نفسي
لم كانت ولاأسومك لوما قسمتي فى هواك قسمة وكسى
الانى آثرت فى حبك القاهر عزى ذهبت تطلب تعسى

ثم يتساءل :

لم أهواك؟ أيها المفعم النفس شجونا وحيرة وشقاء
الحسن ؟ فالحسن فى البدر والزهرة اندى وقعا واضفى رواء
ام لمعنى شفت مفاتنك العذبة عنه فكاد ان يتراءى
فالمعاني فى الكون ليست على الانسان وقفا الا هوى ودعاء

ومنها :

فتراها فى قطعة الأرض والصخرة شعرا لم يبله الترديد
وتراها فى نأمة الظبي للظبية سحرا يبدى وحبا يعيد

وتراها فيما ترى من جميل وقبيح وهين وعظيم
صورا حية يناجيك منها ألف وجه من كالح ووسيم
كل وجه دنيا بتاريخه النابض تصبي بحادث وقديم
وفضاء لايعرف الحد والقيد ولا وغرة الضنى والسهوم

ومنها :

أتراني أهواك حقا؟ فما فيك لمثلي معنى يمازج حسي
أم تراني اهواك زورا؟ فلم يصبح قلبي على هواك ويمسى
أم تراني احب فيك وما أشعر نفسي وأنت عندى نفسي

لانا منك فى سبيل من الحيرة تضني عقلي وتثقل حدسي

والقصيدة طويلة فى اكثر من ستين بيتا وهى حافلة بهذه المعاني التى يتساءل فيها الشاعر لم يهوى حبيبه ويدفعه هذا التساؤ ل الى الشك ولكن الأحساس الذى

يعانيه يرده الى دنيا الواقع وبين هذا الشك وتساؤ لاته ، والواقع واحساساته تتجلى هذه الروائع التى ابدعها الشاعر فنا معجبا وشعرا مطربا يشرق فيه الفكر ، كما تشرق فيه العاطفة أيما اشراق .

وما دمنا نتحدث عن علاقة القنديل بحمزة وهما صديقان حميمان جمعت بينهما الصداقة فى آواخر الأربعينات فهناك قصيدة أخرى لحمزه أو على الأصح قصيدة للقنديل أوحت الى حمزة بنظم قصيدة من أجمل قصائده ، هذه القصيدة هى قصيدة جدة وهى من مشهور شعر حمزة ، وقد سجلت بعض أبياتها فى نصب فى مغنى الكورنيش على ساحل البحر الأحمر فى جدة .

أما قصيدة قنديل فقد نشرت كذلك فى صوت الحجاز وأعجب بها حمزة فكانت سببا فى اظهار رائعته الشهيرة عن جدة . وقصيدة قنديل مطلعها :

لك ياجدة الحبيبة فى القلب مكان محبب مألوف

طار فيه صدى الجديدين بالأمس ومازالت الحياة تطوف

أما قصيدة حمزة فمطلعها :

النهى بين شاطئيك غريق	والهوى فيك حالم مايفيق
ورؤى الحب فى رحابك شتى	يستفزُّ الأسير منها الطليق
ومعانيك فى النفوس الصديَّات	إلى ريِّها المنيع رحيق
سحرته مشابه منك للخلد	ومعنى من حسنه مسروق
كم يكرُّ الزمان متئد الخطو	وغصن الصبا عليك وريق

هذا واني لأخشى ان الاقتباس هنا يفسد تسلسل المعنى فالقصيدة وحدة كاملة مترابطة الاجزاء ولو تركت لنفسي لاثبتها كاملة ولست اقصد لهذا وإنما أنا ارمي الى اعطاء القارىء صورة مصغرة عنها فليرجع اليها كاملة من أراد الاستمتاع حقا بما فيها من المعاني والصور الرائعة .

ومنها

انت دنياي رفافة بمنى الروح	وكونٌ بالمعجزات نطوق

رضى القيد فى حماك فؤاد ... عاش كالطير دأبه التحليق

ماتصبته قبل حبك ياجدة ... دنيا بسحرها او عشيق

حبذا الاسر فى هواك حبيبا ... يهوى الفكر والمنى مايفيق

منهجي فيه منهج الطائر الآلف ... ينزوا به الجناح المشوق

فاذا همَّ اشغلته فروض ... من هواه واثقلته حقوق

وهذا معنى جديد فى حب الوطن صاغه الشاعر فى هذه الصورة البارعة الساحرة تأبى طبيعة مزاج الشاعر الا ان تظهر فى هذه القصيدة كما تظهر فى كل شعره فيقول:

كم معنًى مثلي يطارحك الحب ... فينبو به السبيل الزليق

ودعيٌّ يصطك فى فمه القول ... عثارا مكانه مرموق

امن العدل ان يشاركني فيك ... جبان عما اريغ فروق

وقصاراه فى هواك هوانا ... أمل ضارع ووجه صفيق

لاتلومي على عتابك حرًّا ... قلبه منك بالجراح شريق

والقصيدة كذلك فى نحو ستين بيتا وهى من أروع الشعر واعذبه، وأودُّ هنا ان انبه القارىء الى أن مجاراة شاعر لشاعر فى النظم فى موضوع معين لايعيب الشاعر ولاينقص من مكانته، فالشعر فن يتصل بالعاطفة فى صورها المختلفة وقد يتفق الشعراء فى المعانى بل وفى الالفاظ وفى الموسيقية الشعرية ولكن هذا لايقدح فى قدراتهم وللنقاد مقاييس يلجأون اليها فى هذه المواقف ليس هنا مكان بسطها، وبالنسبة للشاعرين فكلاهما عبر عن الموضوع بإسلوبه الخاص، وهو أسلوب متميز عن أسلوب الآخر، وقد تصرف حمزة فى كلا الحالتين تصرف الشاعر القادر المتمكن، ولقد كان شوقي يعارض قدامى الشعراء فى روائعهم فينسج قصائده على مثل القافية والوزن، وقال الرافعى رحمه الله واصفا ذلك من شوقي فأراهم غباره وولىَّ ولكنه وقف عند المتنبي، وقول الرافعى هذا كان فى مجال الأكبار لما صنع شوقي وليس فى مقام الأزراء عليه.

ونكمـل الآن حديثنـا عن حمزة والقنـديـل بالشعر الضاحك الذى اشتهر به قنديل فنقـول إن حمزة نظم هذا الشعـر ولكنـه احتفـظ فيـه باللفـظ الفصيح ولم يلجأ الى اللهجـة العـاميـة كما فعل قنديل وأذكر هنا بعضا من قصائده التى عثرت عليها فى هذه المجمـوعـة التى تصـور هذا النـوع من الشعـر الضحاك ولكني أنقل هنا من كتـابي أعـلام الحجـاز ماذكـرته عن بداية قنديل فى نظم هذا الشعر وعن القصيدة التى نظمهـا حمزة منـه فى مناسبة من المناسبات ، كانت دار الهلال فى القاهرة تصدر مجلة أسبوعية اسمها الفكاهة وهى مجلة فكاهية كما يدل عليها اسمها ، وكان يتولى رئـاسـة تحريـرهـا الأستـاذ حسـين شفيق المصـرى وهـو شاعر مجيد وزجال مصرى معـروف ، وكـان الأستاذ حسين شفيق فيما أعرف هو أول من نشر الشعر الضاحك فى أسلوب عامي ، ولكن هذا الشعـر العـامي كان يحتفـظ بالوزن والقافية ، وكانت الطـريقـة أنـه يفتتـح القصيـدة بمطلع قصيدة من عيون الشعر العربى القديم ثم ينسج على منوالها كلاما موزونا مقفى تختلط فيه العامية بالعربية الفصحى وكانت مواضيع هذا الشعر دائما انتقادية ولكنها فى أسلوب فكاهي مقبول ، وكنا نجتمع فى مكة المكرمة مع الاستاذين حمزة شحاته وأحمد قنديل رحمهما الله وجاء يوما ذكر هذا الشعر الذى كان يسميه الأستاذ حسين شفيق المصـرى الشعر الحلمنتيشي ـ فسأل حمزة قنـديـل ان كان يستطيـع النظم على هذا النسق فأجاب قنديل بالايجاب وفى اليـوم التـالي بدأت المحاولات الأولى للقنديل فى هذا الشعر وكانت موفقة جدا وما هي الا فترة بسيطـة حتى بدأ القنـديل فى نشرها فى صوت الحجاز ووجدت صدى شعبيا واسعا واستقبالا حسنا . . الخ

ثم قلت بعـد ذلـك / ولعـل معظم القـراء بل والادبـاء لايعـرفـون ان المرحوم الأستاذ حمزة شحاته ينظم هذا الشعر ولكنه لم يستمر عليه ، وانما نظمه مرة واحدة أو مرتين وله قصيدة جميلة أذكر بعض أبياتها فيما بعد ، وهذه القصيدة لها قصة لابأس من ايـرادهـا ، فقـد عُلم ان العـراق سيرسل بعثة كشافة الى المدينة المنورة ومكة ، ولعل ذلك فى زمن الحج وارادت الحكومة ان تكرم كشافة العراق فأعدت لهم برنامجا

حافلا كان منَ ضمنه إقامة حفل تكريم لهم فى جدة وتولى الأخ الشيخ محمد عبدالله رضا يومها أمر ترتيب هذا الحفل الشعبي فأرسل دعوة الى شباب مدينة جدة للحضور الى منزله ودعاهم للتبرع لاقامة هذا الحفل ،، ولكن المرحوم

حمزة شحاته لم يدع الى هذا الاجتماع مع اننا كنا جميعا على علم بالحفل الذى كان سيقام فى بيت نصيف، وكان صديقنا المرحوم الأستاذ حسين محمد نصيف - مؤلف كتاب ماضي الحجاز وحاضره - يخبرنا يوميا عن هذا الحفل ويحثنا على الحضور فيه، وغضب حمزة لعدم دعوته من قبل الشيخ محمد عبدالله رضا فانشأ قصيدة ضاحكة صور فيها ما وقع من المجتمعين للتبرع فى أسلوب ضاحك جميل والقصيدة أخذ مطلعها من قصيدة أبي تمام المشهورة :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب ... ويضرب سيف الله أيان تضرب

وبالأمس قد أرسلت حتة دعوة ... الى فتية بالصالحات تحزبوا

فلم تك الا ساعة أو دقيقة ... تجاروا سراعا بعدها وتكركبوا

ومنها يصف كيف حاول المجتمعون الهرب حينما علموا أن عليهم التبرع للحفل

وبصوا الى الباب الكبير ليهربوا ... ولكن باب الدار ما منه مهرب

لان حواليه الحضارم وقّفٌ ... وفى يد كل منهمو كان شبشب

ثم يصف ملابسات التبرع

فقام فتى منهم حريىء حجنجل ... فجاد بربع ريال فانبروا وتعجبوا

وقالوا استحى ياسي فلان فانه ... قليل ومن يكتب قليلا يؤنب

فقال لهم ليش نسبتي تقتضى كدا ... فان راقكم قولي والا فاحسبوا

فبان حماس فوق وجه زعيمهم ... فسجل عشرينا وقد كاد يغضب

والقصة ان المرحوم الاستاذ محمد لارى - والد الأستاذ رضا محمد لارى - كان من ضمن من حضروا الاجتماع فجاد بربع ريال فقال المجتمعون انه قليل فقال

لهم انه ليس قليلا بالنسبة لما تبرع به الشيخ محمد رضا فتحمس الداعي وسجل عشرين ريالا أخرى وسواء أكانت القصة حقيقيةام من خيال الأستاذ حمزه رحمه الله وأغلب الظن أنهاحقيقية فانايرادها على هذا النحوفى هذا الشعر الضاحك كان مناسبة يتفكه بها مجتمع جدة كلها، فكاهة تخلومن الحرج والبذاء (١) وهنا قصيدة تبدأ بهذه الأبيات :

ماذا وقوفك بالأطلال والدمن	موزع النفس بين الشعر والشجن
يرمي بك الوجد فى صحراء مجدبة	طوت حياتك طي البحر للسفن
تهيم فيها شريداً لاقرار له	وترسل الدمع مدرارا بلا ثمن

ثم يقول بعدها

(بعزقت) عمرك لا الاحباب منك دنوا	ولابلغت مكانا فى ذوى الفطن
الكاسبين ملا يينا وماكدحوا	وأنت فى قفص من عقلك الزّمن
تمرجلوا واستغلوا كل سانحة	من المصالح فى سرٍّ وفى علن
وقدت انت رعيل الفن متكئا	على مبادىء سقراط واهرمن

ومنها :

وكان درسك فيها لوفطنت له	درسا تفيق به من سكرة الوسن
اذ قام يصرخ والملقاط فى يده	كالسيف يهتز فى كف بن ذى يزن
وجاء من كركون الريع ضابطه	على الزعيق وحشد من ذوى حسن
وكان يوما تشاطرناه بهدلة	وكنت فيه وحدى دافع الشلن
كينوم وقعتنا بعد الغداء على	قرشين لم يدفعا فى مطعم البُين
خرجت فيه بلوح الكتف منخلعا	ورحت خلفك فيه دارم الأذن

(١) انظر كتابنا اعلام الحجاز صفحة ٢٢ ـ ٢٦

تجاربٌ وحشة خضنا معاركها — وكان شعرك فيه مصدر المحن
اما لنا غير قرض الشعر مشغله — نقضى بها فضل عمرينا على سنن
الا وظيفة نرجوها ولو صغرت — نقضي بها دين راعي العيش واللبن
ونستردُّ بها فى الناس سمعتنا — بعد الضياع بلا شعر ولاسفن
وحسبنا مالقينا من بهادلها — وأنها مهنة من أخسر المهن

ويقول فى آخرها

فما وراءك الا النحس ملتطم — الأمواج دهمل ارطالا ودهملني
وايه لزوم كلامي منت عارفه — مذ ضاع عمرك بين الشام واليمن
وداب ضهرك بين الآخذين به — رقعا تمثّلت فيه لعبة الأنِنِ
قد شدتها من صميم الفن أبنية — فهل بنيت بها حوشا من اللبْن
بل نمت فى دكة الزيدان منطرحا — على البلاط طوال الصيف كالورن
لا انت ضيف فيرجى يوم رحلته — ولا انت فى نفقات البيت ذا شطن
وزغت من فندق التيسير لاهربا — من نامس الليل بل من اجرة السكن
باظت حياتك ماضيها وحاضرها — مادام شعرك فيها عقدة الكفن
وخضت من غمرات الصبر أحلكها — فى قهوة السد أوفى مقعد اللبني

والقصيدة كما يرى القارىء صورة لشاعرين صديقين يندبان حظهما العاثر بعد أن صفرت أيديهما من المال، كما خلت أوقاتهما من العمل، وكيف تعرضا للفضائح فى مركز الشرطة بالريع - والريع كما لابد وان يعلم القارىء هوباب الريع فى مدينة الطائف وهو مسرح هذه القصيدة أما المعركة التى تعرضا فيها لخلع الكتف وورم الأذن فهى فى مطعم بُيَنْ وبُيَنْ هذا كما لابد أن يعلم القارىء صاحب مطعم شهير للأكل الجاوى فى مكة المكرمة أما الأنن الذى ورد فى البيت:

وداب ضهرك بين الآخذين به — رقعا تمثلت فيه لعبة الانن

الأنَنِ هذه لعبة شعبية يغمض فيها أحد اللاعبين عينيه، ويضربه أحد اللاعبين حوله وعليه أن يمسك اليد التى صفعته او على الأقل يميزها فإن اهتدى اليه حل

الضارب محله واذا فتح المضروب عينيه هز الجميع حوله أياديهم وهم يقولون إننن ،إننن
أما الزيدان فهو صديقنا الكاتب والمؤرخ الأستاذ محمد حسين زيدان والمعروف للجميع وكان له منزل قروى فى مدينة الطائف ولعلهما كانا ضيفين عليه .

أقول والقصيدة كما ترى فصيحة فى جملة تعابيرها بإستثناء بعض الالفاظ التى وضعناها بين قوسين والفارق بين ما نظمه قنديل من الشعر الضاحك أن قصائد قنديل تغلب عليها العامية الفاظا ومصطلحات وامثالا ، بينما يحتفظ حمزة بالألفاظ الفصيحة . . باستثناء بعض الكلمات وعلى أى حال فإن مانظمه حمزه من هذا النوع من الشعر لايتجاوز أصابع اليد الواحدة عددا بينما ان قنديل نظم الكثير من هذه القصائد والرباعيات حتى أصبحت له دواوين كاملة منها .

● ●

حمزة شحاته والعواد

المعركة الشعرية العظيمة التى دارت بين الشاعرين حمزة شحاته والعواد فى النصف الثانى من الخمسينات أو فى أوائل الستينات ان لم تخنى الذاكرة معروفة فى أوساط الأدباء، دارت رحى هذه المعركة على صفحات جريدة صوت الحجاز قصائد شعرية تبادلها الطرفان بعد أن رمز كل منها لنفسه باسم مستعار أخذ حمزة لنفسه اسم الليل رمزا واتخذ العواد لنفسه اسم الساحر العظيم رمزا وبدأت المعركة بقصائد رمزية ينتصر فيها كل منهما لنفسه تحت ستار الحرب بين عناصر الطبيعة وما إليها وقد تحولت المعركة بعد ذلك الى هجاء مقذع تناول الأعراض ولم يكن ينشر بصحيفة صوت الحجاز وانما كان يكتب باليد ويوزع على احياء مكة (١) ونواديها وشاع امر هذا الهجاء وذاع حتى بلغ الى سمع المعنيين فى الحكومة فخاف الشاعران وطوى كل منهما هذه الصفحة السوداء بعد ان انزلق معهما فى هذا الطريق الأستاذان أحمد قنديل ومحمود عارف وكانت القصائد التى نظمها حمزة فى هذه المعركة ونشرها مفقودة بينما ان العواد اثبت قصائده فى ديوانه الشعرى لعلها تحت عنوان (يد الفن تحطم الاصنام وهى تمثل جزءاً هاما من شعر العواد ويسرني ان اذكر هنا اني وجدت القصائد التى نظمها حمزه ضمن المجموعة التى احتفظ بها صديقنا وصديقه الشيخ محمد نور جمجوم وإنه ليسرني هنا ان اثبت بعض مقاطعها، وحينما يتم نشر ديوان حمزة شحاته وتنشر فيه هذه القصائد سيتمكن الدارسون لشعر الشاعرين من الحكم فى هذه المعركة الشعرية التاريخية اذا صح هذا التعبير.

ملحمــــــــــة

هذه الملحمة تتكون من سبعة عشر مقطوعة كل مقطوعة تتألف من خمسة أبيات، وهى تصور مفاخرة بين البحر والعاصف يرويها الليل، وقد رمز حمزة لنفسه بالعاصف ولخصمه العواد بالبحر وتبدأ الملحمة هكذا:

---

١ ـ انظر تفاصيل اوفى عن هذه المعركة فى كتابنا أعلام الحجاز فى الحلقة الخاصة بمحمد حسن عواد.

حدث الليل والحديث شجون | وحديث العظيم لهوٌ وجَدٌّ
تتلهى به نفوس الخليلين | ويعنى بلبه المستمد

قال : كانت عناصر الكون كالاحياء قدما تروح فيه وتغدوا

لم يقيد كل بقانونه الصارم | والقيد حاكم مستبد
فتلاحت يوما وجد بها الشر | وللشَّرِّ ثورة ماتُحَدٌّ

****

وادعى كل عنصر قصب السبق | وادلى بحجة المتحدى
قالت النار، انني عنصر الفتك | اذا اورت المطامع زندى
اتلقى الحديد بالجاحم المودى | واردى الصلاب إن جد جدى
ويعيد الاجرام حرّيٍ رمادا | وينير السبيل ضوءاً ويهدى
انا للكون بدء تاريخه النابض | مذ قلت ياحياة استعدى

هكذا قالت النار فاجاب التراب انه هو العنصر الذى صنع منه الانسان والوحش والنبت فهو سر البناء ولم يكن للوجود أصل لو لم يكن التراب فاندفع البحر غاضبا قائلا :

قال ماذا الست من يطفىء النار | اذ آذنت بوشك شبوب
الذى يسكن العناصر ان ثارت | وتعنوا من خيفة ووجيب
والذى اغرق الشواطىء لوشاء | وجاز الأمداء غير هيوب

ثم يقول :

حدث الليل قال واندفع البحر يظن الشطآن كل الوجود

ومنها

من له بالجبال ترميه بالهزء | صنيع القوى بالمكدود

شامخات إذا تطامن بحر أو تنزى به عرام الحقود

من له بالنجوم بالبدر بالشمس اليست بصيرة وهو اعمى
من له بالطيور تسبح في الجو خفافا معنى وروحا وجسما
من له بالنسيم بالريح بالعاصف تغزو الحياة حربا وسلما

ثم :

حدث الليل قال واستقبل العاصف هذا الطاغي الجهول وهما
همَّ فارتَدَّ فارتمى فطوى الدنيا حياة ومسرحا وخضمًا

هذه هي المعركة مفاخرة بين العناصر تنتهي بالعاصف يثور على البحر فيطويه فاذ بالبحر يلفظ كلما اشتمل عليه وإذا شطآنه ساكنة هادئة ، وإذا به يرجف من هول مالقي من العاصف فيرتد الى قرار مهين .

واستنجد البحر فلانا أو قال طودا أشمًّا
معلنا ضعفه وقد آنس الموت عيانا يدعو الضراعة حزما
وترامى إليه يلتمس العون والقى قياده واستذما
قال هيهات ان يجير من العاصف طود يرى غرورك جرما
بيد اني محاول لك مارمت وملق على سجاياى غرما

هكذا وسط البحر الطود حتى يرحمه العاصف مما حل به من المصائب والخذلان ، فيمشى الطود بالوساطة الكريمة التى تنتهى بعفو العاصف عن البحر فكم كان هذا العاصف كريما عظيما .

حدث الليل قال ماأكرم العاصف ، ما أكرم القوى الرحيما

والقصيدة كما ترى فن مبدع فى وصف خواص العناصر الطبيعية فى أسلوب مفعم بالحماسة والمفاخرة يذكرنا بالملاحم اليونانية فى الالياذة عن أساطير اليونان .

ولم يكتف حمزة بهذه الملحمة التى لخصناها عن البحر والعاصف والتى يرويها بلسان الليل فاتبعها بملحمة عظمى تتكون من خمس وأربعين مقطوعة وتزيد

أبيـاتهـا على مائتين وعشرين بيتا ووجهها الى الساحر العظيم تتناول الموضوع ذاته بأساليب شتى ولن نقتبس منها خشية الاطالة .

وفى القصيدة الثالثة ـ الليل والشاعر ـ تحول فيها الشاعر الى تمجيد الليل ، بعد ان استكملت ملاحم البحـر والعـاصف اغـراضهـا فيما يبدوا ـ فاتخذ الليل رمزا له واكتفى باقتباس بعض أبياتها :

يالــيــل يالـيــل الهـوى والـرؤ ى	يامــلـتـقـــى الــفــن وديــوانــه
ويــاشــعـــاعَ الـسـحـــر يانـبـعــه	ومــشــعــل الــفــكــر وربــانــه
يانــافــث الــفــتــنــة رفــافــة	وعــبــقــر الــشـعــر ودهـقــانــه
تلقِّــن المطــرب الحــانــه	وتــلـهــم الــشــاعــر اوزانــه
رداؤك الأســود ملقيٍّ على	الــدنــيــا رؤ ى الحـسـن وأفنــانــه

وإلى جانب ماذكرنا قبل هناك ثلاث قصائد أولاها بعنوان ضلاله ، والثانية موجهة الى الصنم الخـاوى وعصبتـه والثـالثـة بعنـوان إلى ، والقصائد فى مجموعها كسب للأدب والشعر لان التنافس بين الشاعرين حفزهما الى الابداع ، والشعر لايصدر إلا عن حوافز عظيمة ، والحافز هنا هو طلب النصر فى معركة ادبية يشاهدها الناس ويترقبونها وتسرى أنباؤ ها فى كل مكان .

ان القصائد التى نظمها حمزة فى هذه المعركة الشعرية تمثل ديوانا قائما بذاته يتميز بوحدة الموضوع ، كما يتميز بالشاعرية الأصيلة والاجادة البارعة لشاعر عظيم .

حمـــزة وبناته

تزوجت شيرين وتـركت بيت أبيهـا وكانت تقوم بوظيفة الأم وسيدة البيت فهى الأخت الكـبرى لاخـواتهـا الصغـار ، ولقـد سجل حمزه واقع البيت بهذه القصيدة الجميلة التى يوجهها إلى شيرين :

وكـما تركـت الـبـيـت مازالا	قلقــا واعــبــاء وأطــفــالا
ومــعــاركـا بين الــصــغــار غدا	حُلم الــنظــام بهن أطــلالا

* * * *

أخذت كتابى ضيعت قلمي شدت يدى قفزت على ظهرى
ذات الحياة وربما اختلفت عما كرهت، ونحن لاندرى

****

فاذا الصباح اطل خضناها حربا يكون وقودها اختى
عامان مرًا أو لعلهما هذى تقول حذاؤها ضاعا
زلفى تسائل اين مريلتي وسهام تبحث عن حقيبتها
وتصيح ليلى لم اجد قلمي فتجيبها نجلا بدمعتها
وأنا صحوت فلم أجد كتبي ويجد أهل البيت فى الطلب

كلثوم

وهناك قصيدة بعنوان كلثوم وفيها يتحدث الشاعر الى طفلة لا أدرى مكان قرابتها منه ولكن فى القصيدة لمسة إنسانية رقيقة لايملك القارىء الا مشاركة الشاعر شعوره إزاء هذه الطفلة التى تعلق بها ويوجه اليها حديثه قائلا:

حدقي في عابسا أو طروبا لاتراعى لظاهرى اوتسرِّى
لك مني صدر رحيب وان ضاق بها فى الحياة ذرعا فقرِّى
والصقى وجهك الصغير بكتفي وكلى لليدين تجميش صدري
وإذا شاقك الوصول الى رأسي لكي تعبثي قليلا بشعرى
فاقفزى قفزة المجازف فى رفق تكوني فى لحظة فوق ظهري
وافعلي بي ماشئت وافترضيني لعبة بادلتك فراً بكرٍّ
فقريبا ستصبحين فتاة لاترى الشمس حسنها ذات خدر
ليت شعرى ماذا تكون حياتى ان خلت منك يانضارة عمرى
اقسمي لي بحب أمك الا تتناسي فى يوم عرسك ذكرى

ومنها:

سوف أحيا نعم ولكن حياة تتهادى بها أعوامل قهر

قانعــا من اليم عيشي بالــذكــرى أداوى مريــرهــا بالأمــر

وأقدر ان هذه القطعة من شعر الشاعر فى صدر شبابه قبل ان يتزوج وأن يصبح أبا لخمس بنات ، وهى على أى حال من أعذب الشعر وأطربه .

الحنين الى الوطن

هاجـر الشـاعـر إلى مصـــــــــــــر وابتعد عن الوطن وطالت غربته فكان الحنـين يعـاوده الى مغـانى بلاده وفى هذه القطعة بعنوان وج يعبر الشاعر عن هذا الحنين ، ووج كما يعلم القراء هو واد مشهور فى مدينة الطائف .

وج

ان وُجـاً وسـامـح الله وجـا لم يدع لي الـى الـسـلامـة نهجـا

كان ليـلي به مسـيـلا من الـنـور يغـشـى جوانـب الـعـيش وهـجـا

فانـا الـيـوم بعـده فى ظلام انـتـحيـه وعـمـرا اطـويـه لجا

بين قيـديـن من حنـين وعـجـز كلما قرت المـراجـع لجا

يارمـال الـوادى الحبيب تنـاسيت طويـلا هذا الـعـليـل المسجّى

انـه جارك الـقـديـم ونـجـواه لعـهـد من الـوفـاء مرجـى

اطـلقـت ذكـريـاتـه دمـع عيـنيٍّ بما سرٌّ فى هواك واشـجـى

اتـرانـى اليـك استقبـل الفجـر ملاذا بعـدوتيك ومـنـجـى

كذب الـعـيش بعـد يومـك ياوج مريـرا والـعـمـر بعـدك فجـا

الشــــعر الحر

لحمزة شحاته قصائد قليلة من الشعر الحر ولكنها لاتتجاوز أصابع اليد الواحدة وجميعها مما أنتجـه الشـاعـر وهـو فى مصـر والمتأمل فى بعض هذه القصائد يجد أنها تحتفظ بالموسيقية بل أنها تلتزم فى بعض المقاطع بالقوافي حتى ليخيل للقارىء انها من الشعـر العمـودى وإن تعـددت فيها الأوزان والقوافي وسنورد بعض المقاطع منها استكمالا لتصوير جوانب شعر حمزة شحاته .

أما أنا فقد انتهيت
وشربت من حلو الكؤوس
ومرها حتى ارتويت
وبلغت من غايات حبك
ماكرهت بها اشتهيت
وافقت من حلمي الجميل
على الحقيقة
وهي كابوس ثقيل
وتسللت من حاضرى
أوهام ماضيك الحفيل
وفرغت من رهب الخيال
فلا أشتياق ولاغليل

وإذا كان الشعر الحر يتخذ هذا السمت فلا اعتراض عليه وعلى أى حال فان الحكم على ما أنتجه حمزة شحاته من هذا الشعر سواء انتظمت فيه الموسيقية أو لم تنتظم بالقياس الى المجموعة الضخمة من قصائده الغراء من الشعر العمودى ، هذا الحكم سيكون ميسورا للنقاد والقراء حينما تنشر هذه القصائد مع ماينشر من شعره كله بإذن الله .

الكلمة الأخيرة

وبعد فكل هذا الذى قدمته للقارىء انما هو زهرات مقتطفة من هذه الروضة الغناء لشاعر عظيم ، ظهرت عبقريته الشعرية منذ بواكير انتاجه وهو فى مطلع الشباب ، وريق العمر ، وهو يذكرك حينما تقرأه بفحول الشعراء العرب فى العصر العباسي أمثال مهيار الديلمي والشريف الرضي واضرابهما من كبار الشعراء والقارىء للديوان يجد هذه الملامح واضحة فى شعره ، ديباجة مشرقة وكلمات ناصعة وسلاسة تركيب ، وتدفق كل هذا تنتظمه عاطفة شعرية حارة تحس فيها

بهذا الوهج الذى انصهرت فيه عواطف الشاعر واحاسيسه حتى خرج الى الناس بيانا هو الأبداع الذى لايتأتي الا للموهوبين والعبقريين.

عـازف العـود

هذا ولعـل مما يحسن ذكـره ان حمزة رحمـه الله كان الى جانب ابـداعـه فى الشعر والادب عازف عود مجيد، وقد كانت له مكتبة للتسجيلات يحتفظ بها ويرجع اليها وكـانت هذه المعـزوفات مسجلة على الاسطوانات، فلم يكن الكاسيت قد عرف يومها - لاكابر الموسيقيين العرب والشرقيين وكان يستمع اليها كما كان يعزف بانتظام.

لقـد كان فنـانـا اصيـلا، اخذ بجوانب متعددة من الفنون فهو كاتب، شاعر، عازف، مفكـر فنـان هذا وقـد توفى حمزة فى القـاهـرة في ١٢/١٢/١٣٩٠ هـ ونقل جثمانه الى مكة المكرمة حيث دفن بها.

رحم الله حمزة شحـاتـه وغفـر له فلقـد كان من أعـلام الشعراء ليس فى الحجاز فحسب وانما فى بلاد العرب جميعا.

****

❂ عبدالسلام طاهر الساسي ❂



عبدالسلام طاهر الساسي

قصير القامة، نحيل الجسم، قمحي اللون، تكسو وجهه صفرة، واسع العينين، كبير الأنف ناتىء الجبهة، لم يكن يطلق لحيته ولكنه لم يكن من المواظبين على استعمال شفرة الحلاقة، فغالبا ماترى الشعر النابت يكسو عارضيه وشاربه، ذكى تبدو امارات الذكاء فى عينيه. يرتدى الكوت ويعتمر بالعقال ولا يرتدى العباءة الا فى المناسبات والواجبات.

ولد عبدالسلام رحمه الله فى عام ١٣٣٥ هـ بالمدينة المنورة وتعلم القراءة والكتابة فى كُتَّابُ الشيخ محمد بن سالم وكان له كُتَّابٌ لتعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن فى باب المجيدى داخل المسجد النبوى الشريف، وقد أزيل هذا الكُتَّابُ مع الجزء الذى أزيل من المسجد النبوى الشريف حين اجراء العمارة التى امر بها جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله وتمت فى عهد جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز رحمه الله.

مات والد عبدالسلام صغيرا وتركه فى كفالة أخيه الأستاذ عبدالله الساسي رحمه الله وهو من رجال التعليم، انتقلت وظيفة عبدالله الساسي الى مكة فى عام ١٣٤٦ هـ فانتقل عبدالسلام بصحبته اليها حيث ألحقه اخوه بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة فحفظ القرآن الكريم وحصل على الاجازة بذلك ولكن عبدالله الساسي لم يستقر به المقام فى مكة المكرمة فنقل الى جده فى عام ١٣٤٨ هـ وانتقل

عبـدالسـلام معـه اليهـا والتحق بالمدرسة السعودية فيها حتى حصل على الشهادة الابتدائية وتخرج منها .

وفى هذه المـدرسـة اتصلت أسبـابه لأول مرة بالمرحوم الأستاذ محمد حسن عواد الـذى كان مدرسـا بها بعـد ان انقطع عمله بمدرسة الفلاح اثر ظهور كتابه خواطر مصرحة وما ثار بسببه من الجدل الذى ادى الى محاكمته بعد (١)

يقـول عبـدالسلام وكان من اساتذته فى هذه المدرسة الأستاذ محمود محمد شاكر والأستـاذ الشيـخ حسن ابـو الحـمائـل أمـا الأستـاذ محمود محمد شاكر فكان قد قدم مهـاجـرا من مصـر بعد ان وقع بينه وبين الأستاذ الدكتور طه حســين رحمه الله من الخلافات ما آثر به البعد عن بلده ولقد الف الأستاذ محمود محمد شاكر وهو من أدباء مصـر الكبار كتابين خصص واحدا منها للحديث عن معاركه مع طه حسين وغيره من أدباء مصر والتالى حول بحثه الخاص بالمتنبي الشاعر العظيم .

بعـد أنْ حصـل عبـدالسلام على الشهادة الابتدائية إنتقل مع أخيه مرةً اخرى الى مكة المكرمة فعمل فى وظائف كتابية صغيرة كثيرة كما كان الحال بالنسبة لامثاله من حديثي التخـرج، عمـل بإدارة الأمن العـام فى مكـة المكرمة كما عمل فى إدارة سيـارات الحكـومـة ، وناسخا على الآلة الكاتبة فى وزارة المالية ولم يطل به المقام فى الحجـاز فانتقـل للعمـل فى منطقة الاحساء كاتبا فى جمرك أم رضمه وانتقل منها الى ممثليـة المملكـة فى الدمام وكان هذا الاسم يطلق على المكتب الذى يقوم بالتنسيق بين الدولة وشركة ارامكو.

وفى عام ١٣٦٠ هـ عاد الى الحجـاز فالتحق بالعمـــل فى وظـائف شتى بوزارة المـاليـة حتى انتهى به الأمـر الى أن عين رئيسـا لمكتب مشروع توسعة الحرم المكي الشريف (٢)

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتابنا اعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر.

(٢) استقينا هذه المعلومات من الترجمة التى كتبها عبدالسلام عن نفسه، انظر صفحة ٦٢ الموسوعة الأدبية الجزء الثالث.

عشق عبـدالسـلام رحمه الله الادب فكان يلتهم كلما يصل الى يديه من الكتب والصحف، وعشق الأدبـاء المـبرزين فاتصلت أسبابه بأسبابهم صديقا يمحضهم الحب الخـالص، ويتحمـل بدواتهم ونـزواتهم كما يتحمـل المحب دلال المحبـوب ولكنه كان يجد مكانه بينهم كراوية متميز فريد.

وكتب عبـدالسـلام كما يكتب امثاله فى الصحف ولم يكن كلما يكتبه يجد طريقة الى النشـر ولكنـه على أى حال بعـلاقتـه الخاصة بالأدباء ورؤ ساء تحرير الصحف كان أحسن حظـا من غيره من النـاشئـين. ولكن الميـزة الكـبرى التى تميـز بها عبـدالسـلام بين أبناء جيله ومن تلاهم هى الحماس الدائم والشديد لقضية الأدب والفكر، وقوة الحفظ التى كانت معلما من معالم حياته الأدبية إذا صح هذا التعبير.

وقد ظهرت هذه الميزة حينما تولى الأشراف على الصفحة الادبية فى الندوة حينما كانت مملوكة للأستاذ صالح محمد جمال. كما ظهرت فى مؤلفاته التى توالى ظهورها قبل عمله فى الندوة وبعدها.

وإذا استعرضنا هذه المؤلفات نجد معظمها مجموعات شعرية ونثرية للآخرين وهى كما اثبتها عبدالسلام نفسه فى الجزء الثانى من الموسوعة الأدبية.

١ ـ نفثات من أقلام الشباب الحجازى ١٣٥٥ وهو كتاب تعاون فى اصداره مع صديقيه الأستاذ هاشم الزواوى وعلى حسين فدعق.

٢ ـ فى ظلال الصراحة فى عام ١٣٧٢ هـ.

٣ ـ نظرات فى الأدب المقارن فى عام ١٣٧٧ هـ.

٤ ـ الشعراء الثلاثة فى عام ١٣٦٨ هـ

٥ ـ شعراء الحجاز فى العصر الحديث عام ١٣٧٠ هـ.

٦ ـ الموسوعة الأدبية وقد صدر منها ثلاثة أجزاء.

ولسنا بسبيل دراسة هذه المؤلفات أو نقدها ، فليست الدراسة والنقد من أغراض هذه الترجمة المراد منها إعطاء صورة عن الشخصية التى تتحدث عنها وعن ملامحها البارزة .

لم يكن الساسي رحمه الله أديبا مبدعا ولكنه كان يعشق الابداع ، ولم يكن شاعرا ولكنه كان يحفظ روائع الشعر، ويرويها وهذه ميزته العظمى التى ظهرت فى ماجمع من آثار فى هذه المؤلفات التى ذكرنا اسماءها قبل .

وإذا قرأت ماكتب الساسي أو كنت ممن يستمعون اليه حين يتحدث فستخرج بفكرة واحدة عنه هى حماسه العظيم للأدب والفكر، ولروائع الشعر وكان إذا انفعل تدافعت الكلمات فى فمه لتنطلق من بين شفيته فى سرعة وحماس وقد ظل هذا الحماس ملازما له طيلة حياته وبسببه أخرج ما أخرج من مؤلفات تجمع آثار الشعراء والأدباء، لهذا فاننا قبل أن نتحدث عن أهم مجموعة أخرجها للناس وهى الموسوعة الأدبية التى صدر منها حتى الآن ثلاثة أجزاء الأول والثانى منها على نفقته وهو محدود الموارد وقام النادى الأدبي فى الطائف بطبع الجزء الثالث منها، . وحديثنا عن الموسوعة الأدبية هذه هو لاعطاء القارىء فكرة موجزة عن محتوياتها وعن الجهد الذى بذله الساسي رحمه الله فى جمعها واخراجها، سنتحدث أولا عن كتابين للساسي احدهما شارك فى تأليفه والآخر قام وحده بعبء تأليفه واخراجه .

نفثات من أقلام الشباب الحجازى

هذا الكتاب كما يدل عليه اسمه نفثات من أقلام الشباب الحجازى اشترك فى جمعه وتأليفه مع الساسي الصديقان السادة هاشم يوسف الزواوى وعلى حسن فدعق ، ولعل نصيب صديقنا الأستاذ السيد هاشم فى الجهد كان اوضح كما يظهر ذلك من المقدمة التى كتبها المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان لهذا الكتاب الذى طبع فى اوائل عام ١٣٥٥ هـ.

والكتاب مقتصر على نشر آثار طبقة معينة من الأدباء كانت فى ذلك الزمان تضع خطواتها الأولى فى الطريق الطويل، لتظهر فى دنيا الفكر وبين حملة الأقلام،

ولست أشك أن الساسي رحمه الله بما وهب من حماس دافق كان من المساهمين بحق فى جمع هذه الآثار وانه بذل من الجهد مايستطيع فى سبيل اظهار هذا الكتاب.

هذا الكتاب ونحن نتحدث عن الساسي لايخرج عن الأسلوب الذى تميز به والذى تحدثنا عنه وهو الحماسة والجمع ولكنه مختص بطبقة معينة من الكتاب والشعراء كانوايعتبر ون فى ذلك الوقت الجيل الثانى أو الثالث من الأدباء بحكم اسنانهم ولهذا أعطى المؤلفون إسم الشباب لهذه الأقلام - نفثات من أقلام الشباب.

الطريف فى هذا الكتاب أن بعض من اشتركوا فيه أصبحوا فيما بعد من ذوي الأسماء اللامعة المحلقة مثل المرحوم عبدالله عريف، والعلامة الفاضل الشيخ حمد الجاسر، والأخ الصديق الأستاذ حسين عرب، وصديقنا الباحث الكبير الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار، وغيرهم ومن الطرائف الأخرى فى هذا الكتاب أننا نقرأ شعرا للعلامة الشيخ حمد الجاسر وللصديق الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار وكذلك للمرحوم الأستاذ عبدالله عريف وهم الذين عرفوا بابحاثهم الجادة والذين لم يشتهروا بالشعر أما بالنسبة لصديقنا الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار وكذلك اسمعنى قبل بضع سنوات قصيدة معجبة رجوت ان ينشرها، وان يستثير هذا الوتر الاخاذ ليضرب عليه كلما تهيأت له الأساب.

أما صديقنا الأستاذ حسين عرب فقد اصبح من أعلام الشعراء فى هذه البلاد ولكنه يختص نفسه بهذا الشعر اكثر مما يخص به الآخرين. أما الأستاذ حمد الجاسر مد الله فى حياته فانني انقل هنا بعض ابيات من القصيدة التى نشرت له فى هذه النفثات ومطلعها.

عاش الشباب الذى للمجد قد طلبا	واستشعر الحزم حتى يدرك الاربا
وجدَّ يدأب فى تنفيذ خطته	ولم يَهن عزمه عجزا ومارهبا

ومنها :

فتى العروبة هل فى القوم مستمع	فبين جنبيَّ نار جمرها التهبا

اذا تذكــرت ماقــد فات من زمــن — كنــا برغم عدانــا فى الــورى شهبـا
كنــا الملوك لاهــل الأرض نحكمهم — بالــعــدل طرا وكنــا سادة نجبــا
الــعــدل منتشــر والجــور منحــدر — والـعلم مزدهــر والجهــل قد غربــا

ولست اقـول ان القصيـدة من روائـع الشعـر، ولكني أقول أن هذه البداية كان يمكن أن تبشر بميلاد شاعر عظيم لو أن صاحبها استمر فى إحياء هذه الملكة التى كانت من أحسن البـدايـات ولست أدرى ان كان اشتغال الشيخ حمد بالتحقيقات التـاريخيـة العظيمـة التى يضطلع بها عن الامـاكن التـاريخية فى الجزيرة العربية قد صرفتـه عن الشعـر أم أنـه يعـود اليـه بعد الحين والحين ولكنه يطويه عن الناس كما يفعـل صديقنـا الأستـاذ أحمد عبدالغفور عطار. ونكتفى بهذا القدر فى حديثنا عن النفثات لنتحدث عن كتاب آخر من مؤلفات الساسي هو.

فى الأدب المقارن ومساجلات الشعراء

حينـما قرأت عنـوان هذا الكتاب ظننت اني سأقرأ بحثا فى الأدب المقارن يعقده صديقنـا السـاسي رحمـه الله وإذا بي افـاجأ بإن الكتـاب عبـارة عن سؤ ال وجهـه السـاسي الى كثـير من الأدبـاء يطلب منهم المقـارنـه بين أدب العقـاد وطه حسين وابداء الرأى فى أى الاديبين الكبير ين ينتهج الأسلوب العلمي فى بحثه ودراساته، وجـه هذا السؤ ال الى كثـير من اعـلام الشعـراء بينهم المـرحـومـين الأستاذة أحمد إبراهيم الغزاوى ومحمد حسن عواد والسادة محمد سعيد العامودى وأحمد محمد جمال وغيرهم وقد أجاب السادة الأدباء فنشر الساسي اجاباتهم وليس هنا مجال البحث فى الاجـابـات ولا فى السؤ ال نفســه، ولكن الساسي يؤ كد الرأى الذى ذكرته عنه وهو أنه جامع للأدب والشعر وليس مبتدعا فيه وليست هذه الصفة بالتى تنقص من قدره فكـل امـرىء ميسـر لما خلق له، وقـد حفلت كتب التراث فى الأدب العربى بالروائع لما جمعه الرواة ويكفى ان تعلم ان ياقوت الحموى مؤ لف الاغاني ومعجم الأدبـاء وغـيرهـا من أمهـات كتب التراث لم يؤ ثر عنه الكثير من الشعروالانشاء،

كان الـرجـل خزانـة ادب تنقله إلى الناس وتتوارثه الأجيال وقد احتل اسمه مكانه العظيم بهذه الصفة وحدها صفة الجمع والتدوين.

ولست أقول ان الساسي يأتى فى هذه المرتبة من الرواة ولكني استطيع ان أقول انـه كان فرعـا صغـيرا فى شجـرة عظيمـة، وان هذا الفرع الصغير فيه من الشذى والثمـر ما يزكـو ويطيب وعلى هذا الأسـاس وحـده نقـوّم عمل الساسي فى الحفظ والجمع فابداعه هو فى حفظ الابداع وجمعه ثم نشره على الناس.

وكأنما أبت طبيعة الساسي عليه ان يقتصر كتابه فى الأدب المقارن على اجابات الأدباء فاضاف الى الكتاب بعض مساجلات الشعراء انه عاشق شعر وقد ضمت هذه المسـاجـلات الشعـريـة قصائد ومقطوعات شعرية للاساتذة العواد والغزاوى وحمـزه شحـاتـه وأحمـد قنـديـل رحمهم الله وحسين عرب وحسين سرحان مد الله فى حياتهما ولعل بعض ماسجله الساسي فى هذه المساجلات لم يرد فيما نشر من دواوين هؤلاء الشعراء، فهي بصورة من الصور يمكن ان تكون مما يرجع اليه الدارسون لشعر هؤلاء الشعراء.

ونقتطف الآن شيئـا من هذه المسـاجـلات ونبـدأهـا بالمسـاجلة بين الشـاعرين الكبيرين محمد حسن عواد وأحمد إبراهيم الغزاوى: بعث العواد إلى الغزاوى يقول:

أيهـا الـبـلـبـل المـغـرد بالـشـعـر ... الا أيـن ذلـك الـتـغـريـد؟
لم آثـرت تـنـزوى الـشـهـر ... تلو الشهـر مستعصيـا عليك القصيد
(ادلالا هجـرتـه أم ملالا) ... أم اتـاه منـك الـقـلى والـصـدود
لاتـغـادر فن الـنظـيم يعـانـى ... منـك ما لايطـيـقـه المـعـمـود
فلقـد كنـت والـنظـيم شقيـقـين ... وسـيـان منـشـد ونـشـيـد

وقد أجاب الغزاوى العواد بهذه الأبيات

أيهـذا الـذى تواضـع شكـرا ... انـما انـت فى الـبيـان المجيـد
كيـف لا أوثـر الـسكـوت وأصغى ... لشعـور يصـوغـه الـتـجـديـد

أنا ماقلته تظالع ضعفا — والذى حكته الضليع الشديد

وتعالى جد الآله فماذا — بعد فرقانه يحيط النشيد

مازج الروح فهو حي — وهو الرشد والهدى والخلود

ونجد فى هذه المساجلات ان الشاعر الأستاذ حسين سرحان يوجه قصائده إلى الشعراء أحمد قنديل، حمزه شحاته، فيقول فى القصيدة المهداة الى القنديل:

أقتات من روحي وأشرب من دمى — ان كنت عالمة وان لم تعلمى

حتى اذا حم الردى لاقيته — غراد كمثل الطائر المترنم

ومنها

يابنت ذى سيارة حسانة — تنساب فى الترب إنسياب الأرقم

لاتعنفى فى القول اني فاهم — من غمرة الأحداث مالم تفهمى

ما هذه الدنيا وما غاياتها — ومن الذى تكوين كي الميسم؟

المال؟ اهون مايكون طلابه — ان كنت اعبده عبادة درهم

الجاه ايسر مايكون مناله — لثقيل غنم او لخفة مغرم

ماذا وراء حياتنا.. تبابها — ان لم تتمَّ بجنة وجهنم؟

ويوجه إلى حمزة شحاته قصيدة بعنوان سراب يقول فيها:

انس وربك قد ملأن شغافا — حبا وهجن بك الهوى الرجافا

هاتيك أم هاتيك؟ كل خريدة — هيفاء زانت ثوبها الهفهافا

علقت بهن العين ذات عشية — فحبونها الاتحاف والالطافا

يخطرن فى بسط النسيم وقد رأى — ما فيه فاستشفى بهن وشافى

الحسن زخرف كل طرف رامل — والطيب فَّوق نشره الآنافا

والقصيدة كلها كبقية شعر السرحان من هذا النمط العالي الفريد فى أسلوبه ومعانية ولقد سجل لنا الساسي استجابة حمزه شحاته لقصيدة السرحان من نفس

الوزن والقافية وبنفس هذا النسق العالي فى معانيه وأسلوبه يقول حمزه شحاته :

أفبعد ماسنح الخيال ووافى ... ودَّعْنَ سرحك وانطلقن خفافا
وعدت سوابق وُدِّهنَّ ذواهبا ... بالبرء ليس وراءهن معافى
من كل نافرة الهوى لم تقضها ... حقا فكيف تميلها استعطافا

ومنها

يا أنت ما كل الغيوم تحملت ... مطرا فشيمى العارض الوكافا

ومنها

صرنا الى زمن ينازع قاعد ... فيه الفخار الراحل الطوافا
ليت الذى خلق المطامع كالها ... للحالمين كما تراد جزافا
أوليت ملتمس السلامة نالها ... عرضا كما تجني الزهور قطافا

ولقد استهوت هذه المساجلة صديقنا الأستاذ حسين عرب فوجه الى حمزه شحاته قصيدة من نفس الوزن والقافية يقول فيها :

تركتك مسلوب الفؤاد مجافى ... مضنى الهوى تتعجل الانصافا
هيفاء ذابلة العيون كأنما ... تسقيك من نظراتهن سلافا
لاحت لعينيك العشية فانطوى ... فيها خيالك هائما رفافا

ومنها

والغانيات وعودهنَّ خديعة ... تبدى الوفاء وتضمر الاخلافا
هن الرزان اذا خطون على الثرى ... فإذا اسرن القلب طرن خفافا

والقصد كما يرى القارىء ناصعة الأسلوب، فريدة المعاني، وليت شعرى مالذى يجعل صديقنا الأستاذ حسين عرب يضن بهذا الشعر أن يضمه كتاب او ديوان ليكون غذاءا للقلوب والاذهان. ولقد اعدانا الساسي بإسلوبه فإذا بنا ننقل هذه الروائع من المساجلات التى اوردها فى كتابه، ولم يكن فى حسباني ان افعل ،

فلست اترجم الان لهؤلاء الشعراء حتى انقل عنهم ولكن الساسي هو الساسي رحمه الله، عاشق شعر وناقل ابداع ، فنحن ننقل عنه هذا الشعر وذلك الأبداع .

الموسوعة الادبيـــــة

الموسوعة الأدبية هى أكبر الأعمال التى قام عبدالسلام بعبئها ابتدأ فيها النشر للأدباء والشعراء على ترتيب الحروف الهجائية .

فبدأ بحرف الألف فى الجزء الأول وانتهى الى حرف الغين فى الجزء الثالث .

وقد احصيت عدد الأدباء والشعراء الذين تبدأ اسماؤ هم بحرف الغين فكانو خمسة وثلاثين ادبيا وشاعرا ، ويكاد الجزء الثالث من الموسوعة ان يقتصر عليهم فهم يشكلون مائتين وسبع وخمسين صفحة من هذا الجزء البالغ مائتين وسبعين صفحة ، كان عبدالسلام نفسه ضمن الاسماء التى وردت فى هذا الجزء ولكن الحيز الذى منحه لنفسه كان حيزا ضيقا للغاية فقد نشر لنفسه مقالين فى خمس صفحات احدهما بعنوان وجوب التفرغ للأدب الخالص ، لاينبغى ان نظل عالة على ممارسة بعض أنواع الفن ، هذان عنوانان لمقال واحد اما المقال الثانى فهوكذلك يحمل عنوانا طويلا هو نقد الأدب،والحياة النقد الزم مايكون للبناء وضبط القواعد والأصول ونبذ المساوىء(١)

كانت ميزة عبدالسلام الأولى كما ذكرنا هى حماسة الشديد لقضية الأدب والفكر وكانت ميزته الثانية هى قوة الذاكرة التى تشبه الكمبيوتر فهي تحفظ كلما يلقى اليها وتختزنه ، ولم يكن عبدالسلام يكتفى بحفظ مايعجبه من الشعر والنثر ولكنه كان يلقى ذلك الى الناس رواية شعرية اونثرية تصاحبها الحماسة والانفعال وكان يحتفظ بما يعجبه مما ينشر فى الصحف ويختص به نفسه ليحفظه ويثرى به المجموعة الضخمة التى تختزنها ذاكرته العجيبة .

ومن الطرائف التى اذكرها فى هذا المجال إنه نشر لى قصيدة غزلية حينما كان

---

١ ـ الموسوعة الأدبية للساسي الجزء الثالث من ٥٣ ـ ٦٨

مشـرفـا على تحريـر الصفحة الأدبية بالندوة، كانت القصيدة غزلية كما ذكرت تعود إلى عهد الشباب وكانت قد نشرت قبل سنوات طويلة فى جريدة صوت الحجاز فى الخمسينـات، وكتبت الى عبـدالسـلام رسـالة اعاتبه فيها على نشر هذه القصيدة التى جعلتني اشعــر بالحــرج أمــام أولادى وأرسلت اليـه قصيـدة طويلة بعنـوان التجاريب اشتر ى بها نفسي منه حتى لايعود الى نشر امثال القصيدة السابقة، ولم يكن من عبدالسلام إلا أن قام بنشر الرسالة والقصيدة معا. . ثم حضر الى جدة فسألته عاتبا ماهو الداعي لنشر الرسالة؟ ألم تكتف بالقصيدة التى نشرت على حلقتين؟

قال فى حماسـة وانفعـال هذا ادب الرسائل . . ثم أضاف وهذا هورأى الأستاذ صالـح جمال وإلى هنـا نستطيـع ان نعتبر الحادث عاديا، ولكن الذى حدث بعد ذلك اني كتبت اليه منذ عام تقريبا اخبره اننى اقوم باعداد ديواني للطبع وسألته ان يبعث الي بنسخ من القصائد التى يحتفظ بها من شعري أو التى تصل يده اليها. ولم يرد عبدالسلام على هذه الرسالة وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى لايرد فيها، وبعـد فترة بسيطـة أرسل الي الجزء الثالث من موسوعته الأدبية وبمطالعتها ادركت أن عبـدالسـلام لم يمتنـع عن الـرد إلا لأنـه أراد أن يحتفظ لموسوعته الأدبية بما لديه خاصة إذا كان البعض من أمثالي لايحتفظون لانفسهم بما يحتفظ به هو عنهم.

ولقـد كنت انتظـر صدور الجـزء الرابع من الموسوعة الأدبية وكنت على ثقة انني سأجـد فيـه بعضـا مما فقدت، ولكن المنية ادركت عبدالسلام رحمه الله قبل اصدار الجزء الرابع الذى لعله يكمل موسوعته الأدبية واغلب الظن ان هذا الجزء مكتمل لديه لانه ذكر فى الجزء الأخير من الموسوعة أنها ستكون من أربعة اجزاء.

ونعود الآن الى الموسوعة نفسها أو إلى ماصدر منها من اجزاء.

لقد ذكرت ان الجزء الثالث يضم آثار خمسة وثلاثين اديبا وشاعرا، ويضم الجزء الثاني آثار واحد وثلاثين أديبا وشاعرا، ولاشك ان الجزء الأول يضم هذا العدد أو مايقرب منه، ولعل الجزء الرابع والأخير يضم مثل ذلك ونستطيع ان نقدر ان عدد

الأدبـاء والشعـراء الـذين تضمهم الأجـزاء الأربعة من موسوعته الأدبية بحوالى المائة وعشرين أديبا وشاعرا وهو عدد ليس بالقليل .

بعض هؤلاء الـذين تضمهم المـوسـوعـة من أصحـاب الأسماء الجهيرة الذين فرضـوا اسماءهم في دنيـا الأدب والفكـر ولكن آثارهم لم تجمع حتى ظهور مجموعة السـاسي في كتـاب أو ديوان، البعض منهم غادر هذه الحياة الدنيا ولم ينشر له ديوان مطبـوع فالمجمـوعـة على هذا الاعتبـار تعتـبر مرجعـا من المراجع التى تنير سبيل الـدارسـين لآثار هؤلاء الشعراء والأدباء الى أن ينتظم لكل منهم مرجع يضم كلما انتـج من أدب وشعـر وعلى سبيـل المثال فان مانشره الساسي لحمزه شحاته وضياء الـدين رجب قبـل ظهـر المجمـوعـات الشعـريـة لهما. لم يضمه كتاب قبل ولايزال مانظمـه صديقنـا الأستـاذ عبـدالوهاب آشي مد الله في اجله من الشعر مطويا بين أوراقـه إن لم يكن مفقـودا بينـما تطالعنا موسوعة الساسي بقصائد ومقطوعات جميلة للأستـاذ الكبـير . ولقـد غادر الأستاذ عبدالقادر عثمان رحمه الله هذه الحياة دون ان تجتمـع آثـاره في كتـاب فجاءت موسوعة الساسي لتضم بعضا من هذه الآثار وهذا وذلك ينطبق على كثير ممن تضمهم المجموعة من اسماء .

ليست المـوسـوعـة الأدبيـة عمـلا متكـامـلا ولكنها نواة طيبة للدراسين وخاصة بالنسبة لأولئك الذين عزفوا عن النشر أو الذين غادروا هذه الحياة ولم تجمع لهم آثار في كتاب مطبوع .

قد يأخذ البعض على المجموعة أنها تضم آثارا لا وزن لها وهذا ليس عيبا فيها وقد كان الأجـدر بالعمـل المـوسـوعي ان تتفـرغ له مجمـوعة من الرجال المتخصصين ولكني احكم سلفا بأن تحقيق مثل هذا الحلم لايزال بعيد المنال .

ولقـد قام السـاسي بجهـده الخـاص وحده بعبء اخراج هذه الموسوعة وجمعها وطبـع الجـزء الأول والثـانى على نفقتـه الخـاصـة وهو محدود الموارد ولقد شكى مر الشكـوى في مقـدمـة كل جزء منهـا مما لقيه من تجاهل الأدباء والشعراء وتثاقلهم في الأستجـابـة اليـه وانـا بتجـربتي الخـاصة أصدق كما ذكره رحمه الله في هذا المجال . نستطيـع ان نعتـبر المـوسـوعـة الأدبية هي أهم عمل قام به الساسي يرحمه الله وهو

يستحق على هذا العمَل الذى قام به بحب واخلاص كل التقدير.

شخصية الساسي

عرفت عبدالسلام رحمه الله فى منتصف الخمسينات من القرن الماضي واتصلت اسبابي بأسبابه حينما كنت اعمل بمكة المكرمة فى مكتب الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله فكنت أراه فى معظم الأيام إما زائرا فى المكتب أوفى جريدة صوت الحجاز أو فى منتزهات مكة فى الأمسيات حيث يجتمع الأدباء والشعراء من الأصدقاء.

كان الأستاذ أحمد قنديل رحمه الله رئيسا لتحرير جريدة صوت الحجاز فى منتصف الخمسينات وكنت إذا فرغت من عملي فى آخر النهار أمرُّ به فى الجريدة ونخرج معا الى المسفلة ثم ينتهى بنا المطاف فى جرول حيث نبيت فى مقهى هناك فى ليالي الصيف هربا من الجو القائظ فى مكة المكرمة وكان عبدالسلام رفيقا ثالثا لنا فى المبيت وانني انقل هنا من كتابي حبات من عنقود الطرفة التالية عن عبدالسلام.

كنا فى ليالي الصيف نخرج إلى ظاهر مكة فنقضي الليل بعيدا عن البعوض والجو القائظ فى البيوت، وكنا جماعة من الأصدقاء، الأستاذ أحمد قنديل وأنا والأستاذ عبدالسلام الساسي وغيره من الأصدقاء، وكنا فى تلك الأيام نتخذ من قهوة ـ العم حمزه ـ بالشهداء، وفى موضع جراج الشركة العربية للسيارات الآن، نزلا مختارا للعشاء والمبيت، نقضي الأصيل بالمسفلة مع اصدقائنا من الأدباء الكثيرين، ثم نعود الى الشهداء فنأخذ عشاءنا من جرول، ونمضي به الى العم حمزه فنجد المركاز مهيئا للمبيت، وكان عبدالسلام ولايزال اعجوبة من الأعاجيب فنقضي صدرا من الليل نسمع روايته للشعر، وحماسته للأدب، فتندر معه، وربما هجاه القنديل هجاء الأصدقاء الألداء.. ووفد علينا من جدة الأستاذ أحمد عمر عباس ـ يرحمه الله ـ موظفا جديدا فى مكة، وانضم الى الحلقة فى مركاز العم حمزة، وفى الليلة الأولى التى وفد علينا فيها الأستاذ أحمد وكان ضيفا علينا قال انه كان يعمل فى شركة التعدين فى مهد الذهب.. وإنه تعود ان يشرب قهوة باللبن كل

صباح وابدى إنه لاطاقة له بالسير على الريق من الشهداء الى القشاشية دون شرب هذه القهوة بالحليب.

وعقدنا جلسة مستعجلة مع العم حمزة لبحث الموضوع، ولم يخيب العم حمزة امل الأستاذ أحمد فأبدى استعداده لصنع القهوة وأحضارها قبل مطلع الشمس ليستيقظ الأستاذ أحمد فيجدها طوع يديه، وكان عبدالسلام أكثر الحاضرين حماسا لهذه القهوة.. فلقد حاول معنا من قبل تناول شيء فى الصباح ولم نوافقه بحال من الأحوال..

وكان من عادة عبدالسلام كل ليلة ان يحافظ على امتعته فيضع الكوت والغترة تحت المخدة ويرفع الحذاء ـ اكرمكم الله ـ فى جوانب الكرسي الذى ينام عليه، وكنا نعجب لهذا الحرص، ونتنذر عليه ولكنه افهمنا انه رقدي قديم، وليس حديث عهد بالنوم فى المقاهى، وهو يعرف أصول الرقدية وقوانينهم و لرقدي كما لابد وان يعرف القارىء بضم الراء وتشديدها وفتح القاف دون تشديد هو مفرد راقد ويختص ذلك بمن تعود النوم فى المقاهي، وهو اصطلاح لاتتنكر له اللغة الفصحى فيما اظن.

ونام عبدالسلام ليلتها فى موجة عارمة من الفرح، ونسي فى غمرة هذه الفرحة ان يقوم بالأجراءات الاحتياطية التى يتخذها لامتعته وحذائه، ونمنا. واستيقظت فى الصباح الباكر على حركة قدوم العم حمزه بالقهوة واستيقظ عبدالسلام وادخل قدميه فى الحذاء، وصرخ صرخة مفزعة طارت منها بقية النوم من عيني، واستيقظ لها كل من فى المقهى من الناس، وسألنا عبدالسلام مابك؟ ولكن اجاباته كانت مختلطة بالصراخ فلم نفهم شيئا، ولكنا أدركنا أن هناك حدثا إصابه، وسارعنا إليه فرفعناه الى الكرسي فإذا بقدمه التى ادخلها فى الحذاء يصب منها الدم وقد بدا عليها التورم والاحتقان ووجدنا فى الحذاء عقربا..

وتجمع الناس وفى السيارة الوحيدة الموجودة فى المقهى فى ذلك الصباح بعثنا عبدالسلام الى مستشفى اجياد لاسعافه ولم يشرب القهوة، ولم يتمتع بها، ومن مأمنه يؤتى الحذر. حيا الله صديقنا عبدالسلام فلقد كان مصدر سرور حتى حينما

يتعرض للأذى . . وقاه الله من كل سوء .

انتهى مانقلناه من كتابنا حبات من عنقود الذى نشر فى الحجة من عام ١٣٨٧ هـ .

ونعـود الآن الى مواصلة الحـديث عن شخصية الساسي فنتحدث عن دوره فى المعركة بين الشاعرين الكبير ين حمزه شحاته ومحمد حسن عواد رحمهما الله .

صلة الســـاسي بالعـواد وشحاته

عاصرت المعركة الشعرية التى نشبت بين المرحومين الاساتذه محمد حسن عواد وحمـزه شحـاتـه والتى بدأت على صفحـات صوت الحجـاز ثم انتهت الى الهجاء المقـذع الـذى لايمكن نشـره فى الصحف فكـانت القصـائد تنسخ باليد ، ولم تكن الآلات النـاسخـة موجـودة الا فى دوائـر الحكـومـة ، وتوزع فى أماكن معينة فى مكة المكرمة وقد اشترك بعد ذلك فى المعركة المرحوم الأستاذ أحمد قنديل متحزبا لصديقه الأستاذ حمزه شحاته ، والأستاذ محمود عارف مد الله فى أجله متحزبا للعواد .

كان حمزه مقيـما فى مكـة المكـرمـة فى تلك الأيـام وكنت انـا وقنـديـل على صلة مستمـرة به وكـان ينظم القصيـدة فيأخـذهـا عبـدالسلام ويقوم بمساعدة البعض بكتـابـة عدة نسـخ منهـا ويبدأ توزيعها على أناس يعرفهم فى حارة الباب واجياد ، والقشـاشيـه والمسفلة والمعـلاة وجرول وهكذا ومن المؤكد انه كان يوصل القصيدة أولا إلى عواد الـذى يقـوم بدوره بالرد عليها ولعل عبدالسلام كان يقوم معه بنفس الـدور ولم يكن السـاسي يظهـر انـه كان على خلاف مع العواد ، لم المس ذلك منه اطـلاقـا ولكنه كان متحمسا للمعركة باعتبارها معركة أدبية تثير شاعرية الشاعرين الكبـير ين وتـدفعهـما الى موالاة النظم والانتـاج وان كان هذا الشعـر يجافى الخلق الكـريم فلقـد اسـرف الشاعران حين احتدمت بينهما المعركة فى الهجاء ولم يكفَّا الا حينما شعرا بأن الأعين قد التفتت لرصدهما ، وحسنا فعلا .

ولست أشـك أن عبـدالسـلام كان مسرورا ومزهوا لصلته بالشاعرين الكبير ين ولقـد كان يحب حمزه كما يحب العـواد ولقـد سمعته مرارا وهويقسم على هذا الحب

وكان حمزة كذلك ولكنه لم يكن يعفيه من السخرية اللاذعة وكان عبدالسلام يتقبل ذلك ضاحكا ، ولقد كان قنديل رحمه الله يطلق السجع الساخر مستخدما لقب الساسي فيه وهو يستمع إليه فى سرور وجذل ، أما عواد فقد هجا الساسي بقصيدة مقذعة خاصمه الساسي بسببها بعض الوقت ولكنه مالبث أن عاد الى الاتصال به والاشادة بأدبه وشعره فى كل زمان ومكان .

وكان الساسي على أى حال إنسانا سمحا يحب الناس ويكثر من الاتصال بهم ويألفه الناس ويحبونه ويكثرون ممازحته ، ويتقبل هو ذلك المزاح ضاحكا وإذا غضب فما يلبث ان يفىء الى الرضا والسكون .

وكما كانت صلة الساسي قوية بكبار أدباء عصره فلقد كانت صلته قوية كذلك بشباب الأدب وناشئته وكان الساسي يتخذ بينهم مركز الأستاذيه ويستقطب اهتمامهم بما يرويه لهم من أحاديث أصدقائه من كبار الأدباء والشعراء وبما ينشده لهم من محفوظاته الشعرية لهؤلاء الشعراء واخبارهم ، ولهذا يمكن اعتبار الساسي همزة وصل بين كبار الأدباء وصغارهم فى ذلك الزمان .

ولابد ان نذكر ان الساسي لم يتزوج فى سن مبكرة وحينما تزوج لم ينجب فخلت حياته من مسئوليات الولد وهموم العائلة ، ولم يكن هناك إلا زوجه التى رأيتها ترافقه فى أحدى رحلاته الى لبنان ولقد ساعده هذا على التفرغ للأدب الذى احبه طيلة حياته .

والساسي على أى حال نشأ فى أسرة تشتغل بالعلم والأدب فأخوه الأكبر المرحوم الشيخ الطيب الساسي كان رئيسا لتحريرة جريدة القبلة فى العهد الهاشمي وقد هاجر مع من هاجر فى بداية العهد السعودى ثم عاد ليعمل رئيسا لتحرير جريدة أم القرى فى مكة المكرمة وهو رجل يتميز بالعلم والفضل .

وأخوه الشيخ عبدالله الساسي الذى كفل عبدالسلام وقام على تربيته كان مدرسا فى مدارس المدينة المنورة وجدة ومكة ولقد أدركته فى مكة المكرمة فى منتصف

الخمسينات وهو مدير لاحدى المدارس الحكومية .

والـدكتـور عمـر الطيب الساسي الذى يصافح إسماع القراء فى الأذاعة بحديثه عن الكتب والذى كان من أساتذة كلية الآداب بجامعة الملك عبدالعزيز ، واظنه يعمــل الآن فى المــانيـا هو ابن شقيق عبـدالســلام رحمـه الله فلاعجب ان يكـون عبدالسلام متعلقا بالأدب والرواية وقد نشأ فى هذه الأسرة الكريمة التى تعمل فى هذا المجال .

هذا وقـد ألم المـرض بصحـة عبدالسلام فبقى فى داره لبعض الوقت ولكن المنية كان قد حانت حينها فأسلم الروح صباح الأربعاء ٢٣ ذى الحجة ١٤٠١ هـ ودفن فى مكة المكرمة البلد التى نشأ فيها وأحبها وقضى معظم حياته بها .

رحم الله عبـدالسـلام رحمـة واسعـة فقـد قضى حيـاته منشغلا بالأدب والشعر وعمل ماوسعه الجهد لتسجيل هذا الأدب وحفظه ثم اذاعته بين الناس ، وحبذا لو قامت النـوادى الأدبيـة بطبـع البـاقى من مؤلفـاته وأهمها الجزء الرابع من الموسوعة الأدبية ، وشعراء الحجاز فى القرن الماضي الذى نوّه عنه فى كتابه الأخير وبالله التوفيق .

● ●

● عبدالقدوس الأنصاري ●



عبدالقدوس الأنصاري

معتدل القامة، أقرب إلى الطول منه إلى القصر، معتدل الجسم أقرب إلى النحافة منه إلى الأمتلاء شديد إسمرار الوجه عالي الجبين واسع العينين عظيم الشفتين.

ولد الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري فى سنة ١٣٢٤ للهجرة بالمدينة المنورة وتوفى والده وهو فى الخامسة من العمر فكفله قريبه الشيخ محمد الطيب الأنصارى العالم والمدرس بالمسجد النبوي الشريف.

تلقى عبدالقدوس دروسه الأولى فى قراءة القرآن الكريم بالمسجد النبوي الشريف وهو فى السابعة من العمر وأتم حفظه فى سنتين وكان يتلقى دراسته فى مختلف الدورس الدينية فى حلقات المسجد النبوي الشريف خاصة على يد أستاذه وكافله الشيخ محمد الطيب الأنصاري كما تعلم الكتابة على يد أحد الخطاطين الأتراك. وحينما بلغ السادسة عشرة من العمرة انتقل للدراسة بمدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة فى عام ١٣٤١ هـ عند بداية تأسيسها وكان الشيخ الطيب الأنصاري مشرفا عليه وحصل على الشهادة النهائية منها فى سنة ١٣٤٦ للهجرة.

وبعد تخرجه من مدرسة العلوم الشرعية شغل بها وظيفة أستاذ الأدب العربي، ثم انتقل إلى العمل الحكومي فعمل بديوان الأمارة بالمدينة المنورة معاونا لرئيس

الديوان، وفى سنة ١٣٥٩ هـ عين رئيسا لتحرير جريدة أم القرى فانتقل عمله إلى مكة المكرمة فبقي بها إلى نهاية سنة ١٣٦١ هـ (١). حيث انتقل للعمل بديوان نائب جلالة الملك فى مكة المكرمة، ثم عين سكرتيرا لمجلس الوكلاء وتنقل فى الوظائف الادارية الى أن عين مستشارا فى الديوان ثم مديرا للشئون المالية بديوان رئاسة مجلس الوزراء ثم تفرغ بعد ذلك لاعماله الخاصة.

ثقافتـــــــــــه

لم يكتف عبدالقدوس بما تلقاه من العلوم فى حلقات الشيخ الطيب الأنصارى بالمسجد النبوي الشريف ولا بما تعلمه فى مدرسة العلوم الشرعية فلقد كان الشاب عبدالقدوس محبا للقراءة منذ نشأته فأكب على ما كان يصل الى يديه من كتب الأدب والشعر قديمه وحديثه يقرأ ويحفظ ويتحدث إلى زملاء دراسته وأصدقاء صباه فى كل هذا الذى يصل اليه. ولقد كانت حلقة قريبه وكافله الشيخ الطيب الأنصاري تضم الكثير من شباب المدينة الذين لمعت إسماؤ هم فيها بعد، وكان من زملائه فى حلقة الشيخ الأنصاري الشيخ ضياء الدين رجب والسيد عبيد مدني والأستاذ عبدالحميد عنبر رحمهم الله ومعالي الشيخ محمد الحركان والأستاذ عبدالحق نقشبندى وغيرهم ممن نسأل الله لهم العافية والعمر المديد.(٢)

كانت قراءات عبدالقدوس الأولى تجعل الأدب القديم هو القدوة التى يحذو حذوها ولكن صلته بصديق صباه وزميله فى حلقة الشيخ الطيب الأنصارى السيد عبيد مدني رحمه الله فتحت له المجال للأطلاع على الأدب الحديث فقرأ دواوين شوقي وحافظ والزهاوى وسامي البارودى، كما قرأ مؤلفات المنفلوطي والزافعى فتفتحت أمامه الآفاق ليسلك هذا الطريق الجديد وكان لتشجيع صديقه السيد عبيد مدني الذى وصفه بأنه رائد الأدب الحديث فى المدينة المنورة كما وصف نفسه

---

١ - ١١٤ تطور الصحافة فى المملكة العربية السعودية لعثمان حافظ.

٢ - انظر الحلقتين المنشورتين بجريدة المدينة المنورة عن السيد عبيد مدني فى سلسلة أعلام الحجاز.

بأنـه الـرجـل الثـانى بعـده فى ريـادة الأدب الحديث فى مدينة الرسول عليه أفضل الصلاة واتم التسليم .

ذكرياتي عن الأنصـــــارى

عرفت عبـدالقـدوس رحمه الله من مقالاته التى كان تنشر فى صوت الحجاز أولا ثم من مجلة المنهل التى اصدرها فى الحجة من عام ١٣٥٥ هـ وتوثقت صلتي به بما كنت أنشـره فى مجلة المنهـل من قصص ومقـالات وشعـر ثم حضر إلى مكة المكرمة للحـج فى النصف الثـاني من الخمسينـات على مااذكـر ونـزل ضيفـا على معـالى المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان الذى كنت سكرتيرا له فكنت أراه فى كل يوم ، وقـد زادتني هذه اللقاءات معرفه به فرأيت فيه الأديب الذى يجمع بين الأدب والعلم ، فكان أديبا محققا يزن الكلام الذى يكتبه ويقوِّم الكلام الذى يقرأه ويتنبه إلى مايقع فيه الكثير ون من أخطاء فى اللغة فى نطق بعض الكلمات وتصريفها ومن يتتبع مجلة المنهـل يجد الكثـير من هذا الـذى اذكـره مبثـوثـا بين صفحاتها ، وكان الرجل الى جانب هذا وذاك أديب الطبع والخلق فكان يتنزه فى مجلسه وفى كلامه عما يسف به الكثير ون .

غرامـــه بالآثار

وكان مغرما بالآثار وتحقيقها وله فى ذلك المؤلفات التى سنتحدث عنها بعد ومما اذكره عن ولعه بالآثار اني ذكرت له يوما وكنا نصطاف بالطائف ولعل ذلك كان فى أوائل الستينات انى بينما كنت أسير فى ضواحى الطائف عثرت على مقبرة وجدت بها شواهـد على كثـير من قبـورهـا وقـد كتب فى هذه الشـواهد اسماء المتوفين ومن أعجب ما رأيت شاهدا وضعه زوج ثكل زوجته وبعد ان ذكر اسمها وتاريخ وفاتها سأل الله ان يلحقـه بها فكتب هذه الجملة «والحق بها زوجهـا» واهتم عبـدالقدوس رحمـه الله بأمـر هذه المقـبرة وطلب ان اصفها له فاخبرته انني كنت امشى على غير جادة بعـد عصـر أحـد الأيـام وكانت الطائف محصورة بين أسوارها ولم يكن خارج

مسجد ابن العباس الا بعض البيوت والبساتين وكانت الأرض خلوا من البناء بين شهار وحوايا وقروى والسلامة، وبعد الحاح منه تواعدنا على الخروج معا، وكنا نسير على الأقدام، فلم يكن لواحد منا فى ذلك الزمان مايركبه من دابة فضلا عن السيارة والحمد لله على ماأعطى ووهب، وكنا فى اكتمال الشباب ومطلع الرجولة قويين نشطيين فخرجنا وقضينا الوقت من بعد العصر الى ان ادركنا الظلام نضرب على غير هدى ولم استطع العثور على المقبرة التى رأيتها والتى حرص عبد القدوس رحمه الله ان يراها.

اطلاعـــه الواســـع

وكان عبدالقدوس رحمه الله واسع الاطلاع على الكتب قديمها وحديثها وكان يخص الكتب القديمة منها بكثير من اهتمامه ولعل ذلك يعود الى ولعه بالتاريخ والآثار والمتتبع لمؤلفاته المطبوعة وآثاره المنشورة يدرك سعة اطلاعه وعظيم معرفته.

اخبرنى رحمه الله ان مكتبته الخاصة تشغل شقة كاملة فى العمارة التى يملكها والتى يدير منها مجلة المنهل وقال لي فيها قال ان كتب الرحلات فى المكتبة اصبحت تشغل جزءا كبيرا منها. ومما اذكره فى هذا الباب انني كنت اقيم فى مكة منذ عام ١٣٥٥ إلى عام ١٣٦٤هـ وقد استلفت نظرى ما رأيته فى المسجد الحرام مما لم يكن معهودا أو مذكورا فى العهد النبوي وفيما تلاه مثل المطوفين الذين يقودون الطائفين بالبيت الحرام وبين الصفا والمسعى، وكذلك الحمام الموجود فى المسجد الحرام وهو بلون واحد وشكل واحد مما يدل على انه من فصيلة واحدة وكذلك الاغوات الذين ينظمون الصفوف فى ساحة المطاف ويقومون على شئون النساء.

استلفتت هذه الأمور كلها نظرى وبدأت أسأل عنها فضلاء المكيين وابحث عن جذورها الأولى ومتى بدأت، وكنت أعد لذلك كتابا ذهبت مع كل أسف أصوله كما ذهب الكثير من أوراقى عبر السنين وكنت قد كتبت بعض الفصول عن بعض هذه المواضيع ونشرتها قديما فى جريدة البلاد السعودية.

كما نشرت أخيرا شيئاً من ذلك فى جريدة المدينة المنورة

ونعـود بعـد هذا الاستطـراد الى صديقنـا المـرحـوم الأستاذ عبدالقدوس ، فقد كتبت اليه وهو فى المدينة المنورة قبل انتقاله الى مكة ورجوته ان يبحث فى مكتبات المدينة المنورة عن كلما يتعلق بأغوات الحرمين ويزودنى به ، ولم يكذب عبدالقدوس رحمه الله ظني فلما لم يجد كتابا باللغة العربية فى هذا الشأن أرسل الي بترجمة كتاب باللغـة الـتركيـة فى هذا المـوضـوع . اريد بذكر هذه الحادثة ان أثبت سعة اطلاعه ومدى اهتمامه بالابحاث التاريخية والأثرية رحمه الله .

مجـــــلة المنهل

اصـدر عبـدالقـدوس مجلة المنهـل فى ذى الحجـة من عام ١٣٥٥ هـ وهـو مقيم بالمدينة المنورة وقد اتخذ لها مقرا بشارع العنبرية قريبا من المسجد النبوي الشريف وكان يصدرها وهو يعمل بالوظائف الرسمية التى كان يتقلدها .

ومجلة المنهـل تمثـل الكثـير من شخصيـة عبـدالقـدوس رحمه الله فقد اصر على اصـدارهـا واستمرارها رغم قلة الموارد ولست أشك انه لقي الكثير من الصعوبات المالية خاصة حتى ابقاها مستمرة مايقرب من نصف قرن دون كلل اوملل ، فالمنهل ليست من المجـلات التى تحظى باعـلانـات المؤسسات والشـركات أو الأفراد ولقد كانت ارامكـو تنشـر بها اعـلانـات ثابتـة لا أشك ان الباعث عليها هو التقدير لهذا العمل الثقافى الرائد ولم تكن الجدوى الاعلامية للاعلان فى حسبانها .

ومجلة المنهـل كما يعلم قراؤها مجلة متخصصـة تعنى بالشئـون الثقـافية والأدبية والعلمية فليس للاعلان فيها سوق رائج لان قراءها طبقة خاصة من الناس . ولكن عبـدالقـدوس استمـر فى اصـدارها رغم العوائق بل واستمر فى تطوير طباعتها عاما بعـد عام فاخـذت تسـايـر المجـلات الأخـرى فى الطبـاعـة الانيقة المزودة بالصور والرسوم مع جودة الورق وجمال الأخراج .

والمنهل تصدر شهرية منذ بدء تأسيسها ولكني لاحظت فى السنوات الأخيرة ان

المجلة تصدر كل شهرين مرة إلا فى بعض الشهور التى تتجمع فيها المواد فيصدر بها عدد خاص لكل شهر، وعلى أي حال فان هذا الدمج قابله زيادة عدد الصفحات وكثرة المواد التى تحتويها. وإلى جانب تطور المجلة هذا من الناحية المادية فإن المحتوى كان دائما يزخر بالمواد الثقافية فى شتى فنون العلم والأدب وبعض هذه المواد كان يتميز بالتحقيق والتدقيق وخاصة فى المباحث التاريخية والأثرية واللغوية التى كان عبدالقدوس نفسه يرحمه الله يعنى بها.

وقد حظيت مجلة المنهل بتقدير كثير من العلماء والباحثين من خارج المملكة العربية السعودية فكانوا يرسلون اليها بعضا من آثارهم تقديرا لدورها البارز فى نشر العلم والأدب والدين. وقد احتفظ عبدالقدوس للمنهل بمكانتها الطيبة بابتعاده عن المهاترات وترفعه عن الاسفاف فى الجدل أو الخروج عما رسمه للمجلة من حدود البحث فى نطاق مقارعة الحجة بالحجة والمجادلة بالحسنى، وتخير النافع والمفيد. ولقد كان لاحتفاظ المجلة بهذا المستوى اكبر الأثر فى استثنائها حين صدور قرار دمج الصحف وتحويلها إلى مؤسسات فكانت المنهل هي المجلة الوحيدة التى استثنيت من بين جميع المجلات والصحف التى كانت تصدر فى المملكة العربية السعودية وبقيت خالصة بإسم صاحبها دون شريك، ولقد كان هذا الاستثناء سببا فى احتفاظ المنهل بملامحها الخاصة دون تغيير.

المنهل مرجع هـــام

وأستطيع أن أقول ان اعداد المنهل عبر هذه العقود من السنين تعتبر مرجعا هاما لكثير من الشخصيات والمباحث ولقد رجعت اليها في ترجمتى للسيد عبيد مدني رحمه الله فى أعلام الحجاز كما رجعت اليها فيما انا بسبيل اعداده من ترجمة للشيخ أحمد إبراهيم غزاوى الشاعر المعروف يرحمه الله، وستبقى مرجعا للباحثين بما تضمه بين جوانبها من كنوز الثقافة والعرفان، واني لارجو ان يعنى الأستاذ نبيه الانصارى بالسير بها على خطى والده الكريم وأن يحافظ على تطويرها مادة ومعنى وهو

القادر على ذلك بعون الله .

مؤلفــات عبدالقـــدوس

ألف عبدالقدوس رحمه الله مؤلفات كثيرة نثبت هنا اسماءها :

التوأمان ـ قصة اجتماعية

آثار المدينة المنورة

بين التاريخ والآثار

الانصاريات ـ ديوان شعر

بناة العلم فى الحجاز وهو ترجمة للسيد أحمد فيض آبادى مؤسس مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة .

موسوعة تاريخ جدة وهو كتاب ضخم فى تاريخ جدة .

الملك عبـدالعـزيـز فى مرآة الشعـر وهـو البحث الـذى قدمـه الى مؤتمر الأدباء السعوديين الأول الذى عقد بمكة المكرمة فى ١٣٩٤/٣/٤ هـ

تاريخ الكعبة المعظمة قبل الاسلام

شاعر العرب عبدالمحسن الكاظمي

اصلاحات فى لغة الكتابة والأدب

بنو سليم

رحلة فى كتاب من التراث

التحقيقات المعدة بحتمية ضم جدة .

مع أبن جبير فى رحلته

طريق الهجرة النبوية

تحقيق اماكن مجهولة بالحجاز وتهامه .

والقسم الأكـبر من هذه المؤلفـات يتسم بطابع التحقيق التاريخي ، ويدل على اهتـمامـات عبـدالقـدوس رحمـه الله بالآثـار والتـاريخ أما القسم الآخر فيدل على

اهتماماته بالتحقيقات اللغوية والأدبية وهى مكملة لاهتماماته التاريخية والأثرية .

هذا هو المطبوع من مؤلفاته ولقد ترك بعض المؤلفات التى لم تطبع فمنها ما قد كمل وماهو تحت الأكمال، ولن تتسع هذه الترجمة للكتابة عن كل هذه المؤلفات لذا فقد اخترت الكتابة عن اضخم كتبه وهو موسوعة تاريخ مدينة جدة والذى بذل الكثير من الجهد والوقت فى جمعه وتحقيقه .

وكذلك عن كتابه الهام آثار المدينة المنورة الذى ظهرت طبعته الأولى قبل نصف قرن ولنبدأ بآثار المدينة المنورة

آثار المدينة المنورة

لعبد القدوس رحمه الله كتاب صغير الحجم ولكنه عظيم القيمة والقدر هو كتاب آثار المدينة المنورة الذى ألفه قبل نصف قرن ، فقد ظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٣٥٣ هـ، وعبدالقدوس يومها فى الثلاثين من العمر ثم أعيد طبعه فى عام ١٣٧٨ هـ وطبع للمرة الثالثة فى سنة ١٣٩٣ هـ وقد قسم الكتاب الى عشرة أقسام هى كما يلى :-

١ ـ قسم الدور

وقد تحدث فيها المؤلف أولا عن الدور التى نزل بها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أول وصوله إلى المدينة المنورة وهى دار كلثوم بن الهدم وسعد بن خيثمه بقباء ثم دار أبي أيوب الأنصارى التى اتخذها ﴿ﷺ﴾ مسكنا الى أن بنى دوره بجوار المسجد. كما تحدث عن دور عبدالله بن عمر وجعفر الصادق وعثمان ابن عفان وأبي بكر الصديق ودار ريطة ودار خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ودار مروان بن الحكم. وحدد المؤلف مواقع هذه الدور مستشهدا بالأدلة التاريخية التى توصل اليها.

٢ ـ قسم القصـــــور

أمـا عن القصـور الأثـرية فقد تحدث الكاتب عن قصر سعيد بن العاص الذى لاتزال آثاره باقية حتى اليوم تشهد بماضٍ عريق لهذا القصير الذى قال الشاعر فى وصفه:

القصر فالنخل فالجماء بينهما احلى الى القلب من أبواب جير ون

وزين حديثـه عن القصـر بصـورة فوتـوغـرافيـة لبقـايـاه الشاهدة بماضيه الغابر التليد. وكذلك تحدث عن قصر عاصم والسد الذى بناه بجوار قصره.

٣ ـ قسم الحصون

وفى هذا القسم تحدث المؤلف عن حصن كعب بن الأشـرف فى بنى النضـير واثبت له أو على الأصـح لبقـايـاه صورة فوتوغرافيه، وقد زار عبدالقدوس رحمه الله الحصن ثلاث مرات ليتثبت من ان هذه البقـايـا هى حصن كعب بن الأشـرف، وليست بقـايـا حصن آخـر أو منـازل أخـرى ويقص علينـا الشكوك التى قامت فى نفسـه، والأدلـة التى توصـل اليهـا بعـد البحث فى كتب التـاريخ والاستفسار من سكـان المنطقـة من الأحيـاء، وكـذلـك الأمر بالنسبة لأطم الضحيان الذى اثبت صورة فوتـوغـرافيـة لبقـايـاه وهـو لاحيحة بن الجلاح وماذكرناه عن اطم الضحيان ينطبق على اطم ابي دجانة الساعدي الانصارى.

٤ ـ قسم المساجد

تحدث فيـه المؤلف عن مسجـد قبـاء ومسجد الجمعة والمسجد النبوي الشريف ومسجـد المصلى أو مسجـد الضمان ومسجد الفتح ومسجد ذباب ومسجد القبلتين ومسجد بني ظفر ومسجد السقيا ومسجد الاجابة ومسجد السجدة ومسجد الشمس.

المسجد النبوى الشريف

وقد رأيت ان استخلص للقارىء بعض المعلومات عن المسجد النبوى الشريف لما لهذا المسجد من مقام عظيم فى نفوس المسلمين عامة ولاثره البالغ فى تاريخ الاسلام.

١ ـ بني المسجد النبوي الشريف فى السنة الأولى للهجرة على يدى النبي صلوات الله وسلامه عليه وكان بناؤه بسيطا بالغ البساطة كان اساسه الحجارة وجدره من اللبن وعمده من جذوع النخل وسقفه الجريد وكانت مساحته نحوا من ٣٥ مترا من الجنوب الى الشمال و ٣٠ مترا من الشرق الى الغرب وقد اشترك المسلمون فى البناء وشاركهم فى ذلك النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

٢ ـ زاد النبي ﴿ﷺ﴾ فى المسجد فى السنة السابعة للهجرة فاصبح مربعا.

٣ ـ زاد عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى المسجد فى السنة السابعة عشرة للهجرة خمسة أمتار فى الجنوب وعشرة امتار فى الغرب و ١٥ مترا فى الشمال.

٤ ـ جدد عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه فى عمارته فى سنة ٢٩ للهجرة فبناه بالحجارة والجص والعمد المحشوة بالحديد وسقفه بالساج وزاد فى الشرق والغرب والشمال والجنوب، يقول المؤلف وهى منتهى الزيادات بجنوبي المسجد حتى الآن.

٥ ـ جدد الوليد بن عبدالملك عمارة المسجد فى عام ٨٨ للهجرة وانتهت العمارة فى سنة ٩١ للهجرة، وزاد فيه من الغرب والشرق وادخل حجر امهات المؤمنين فى المسجد وأقام الدائر المخمس على الحجرة، وعمره بالحجارة المطابقة، والجص والعمد، ونقش جدرانه بالفسيفساء والمرمر وسقفه بالساج وذهبه.

٦ ـ زاد المهدى العباسي فى عام ١٦١ هـ فيه وانتهت عمارته فى سنة ١٦٥ هـ ولم يذكر المؤلف مقدار هذه الزيادة.

٧ ـ وقع حريق فى المسجد النبوي الشريف فقام الخليفة المستعصم بتجديده وبدأت العمارة فى سنة ٦٥٥ للهجرة وانتهت فى عصر الظاهر بيبرس البند قدارى.

اقول ولايضاح الأمر نذكر ان الخليفة العباسى المستعصم امر بتجديد عمارة المسجد النبوي الشريف وبدأت العمارة فى سنة ٦٥٥ هـ وفى عام ٦٥٦ هاجم التتار بقيادة هولاكو بغداد واجتاحوا واسرفوا فى قتل أهلها حتى يذكر ان عدد القتلى بلغ اكثر من ألف ألف نسمة ـ مليون قتيل ـ وقتلوا الخليفة رفسا .

ثم ساروا الى الشام فالتقى بهم المصريون بقيادة قطز فى عين جالوت وهزم الله التتار على يد جيش المسلمين فى الخامس عشر من رمضان سنة ٦٥٨هـ ، ثم تولى الظاهر بيبرس البندقدارى السلطنة فى مصر بعد أن قتل قطز ومد نفوذه الى الحجاز فقام بعدة اصلاحات بالحرم النبوى الشريف وارسل الكسوة الى الكعبة كما أرسل الصدقات والزيت والشموع ، ويبدو انه بدأ سياسته فى مد نفوذه الى الحجاز باكمال العمارة فى المسجد النبوى الشريف التى بدأها الخليفة المستعصم العباسي فى سنة ٦٥٥ هـ . (١)

٨ ـ جدد الملك الناصر محمد بن قلاوون سقفه شرقي رحبته وغربيها وزاد رواقين فى السقف الجنوبي مما يلى الرحبة عام ٧٧٥ و ٧٠٦ و ٧٢٩ للهجرة .

٩ ـ وقد تم تجديد الرواقين المذكورين آنفا فى عهد الأشرف برسباى عام ٨٣١ للهجرة .

١٠ ـ جدد الظاهر سقف الروضة وسقوفا أخرى عام ٨٥٣ للهجرة (٢)

١١ ـ عمره قايتباى سنة ٨٧٩ هـ .

١٢ ـ قام بعمارته العظمى المنتهية فى آواخر القرن التاسع الهجرى .

---

(١) «٣٠٨ / ٣١٦ تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين للسيوطى . «١٩٥ / ١٩٨ قيام دولة المماليك الاولى فى مصر والشام لأحمد مختار العبادى»

(٢) أقول هو الظاهر جقمق من سلاطين المماليك الجراكسة . جاء فى وفاء الوفاء للسمهودى مايلى :

(ثم حصل خلل فى سقف الروضة الشريفة وغيرها من سقف المسجد فى دولة الظاهر جقمق فجدد ذلك فى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائه وماقبلها على يد الأمير بردبك الناصر المعمار وغيره . «٢٦٨ المماليك للدكتور السيد الباز العريفى «٤٣٣ وفاء الوفاء . . . . الجزء الثانى» . . .

أقول والظاهر مما ذكره المؤلف ان قايتباى قام بعمارتين للمسجد الأولى فى سنة ٨٧٩ هـ والثانية التى وصفها بالعظمى هى التى انتهت فى سنة ٨٧٩ هـ.

١٣ ـ جدد السلطان سليمان كامل الجدار الغربي من حذاء باب الرحمة إلى المنارة السليمانية سنة ٩٧٤ هـ كما هو منقوش بعلو الجدار المذكور من الداخل قرب باب الرحمة، وبنى المحراب السليماني عام ٩٣٨ هـ والمحراب النبوي على مايبدو من هيئته.

١٤ ـ عمره السلطان سليم الثاني سنة ٩٨٠ هجرية.

١٥ ـ بنى السلطان محمود القبة على القبر الشريف ثم أمر بترميمها ودهنها باللون الأخضر الذى لاتزال تصبغ به الى اليوم وذلك فى سنة ١٢٣٣ كما ورد فى مرآة الحرمين لابراهيم رفعت، وقد ذكر المؤلف نقلا عن كتاب مرآة الحرمين لايوب صبرى المؤلف باللغة التركية والمطبوع فى الآستانة سنة ١٣٠٠هجرية ما ملخصه:

فى عهد السلطان محمود خان الثانى وجد فى القبة الخضراء تشقق، بسبب عدم متانة جدرانها، وعدم متانة حزامها العلوى، فأمر السلطان محمود بهدمها من قواعدها، وبناها على قواعد مثبتة ورفع بناءها الحالي.

ويعلق المؤلف على ذلك قائلا، ويتضح من ذلك ان القبة التى بناها قايتباي هى غير هذه القبة الخضراء الحالية ويؤيد ان القبة الخضراء الحالية عثمانية البناء هذا الهلال الموضوع فوقها وهو شعار الدولة العثمانية كما هو معروف.

أقول: والذى استطعت إستخلاصه مما نقلناه آنفا هو أن السلطان قايتباى بنى القبة الخضراء على القبر الشريف فى عمارته العظمى للمسجد والتى انتهت فى اواخر القرن التاسع الهجرى، ثم ان هذه القبة ظهر فيها التشقق فى عهد السلطان محمود خان فى سنة ١٢٣٣ هجرية فقام بهدمها وإعادة بنائها ومن ثم اتخذت هذه العمارة الطابع العثماني الذى أشار اليه المؤلف وعلى هذا فإن القبة الخضراء المقامة على القبر الشريف يرجع تاريخها الى أواخر القرن الهجرى التاسع والله اعلم.

١٦ ـ قام السلطان عبدالمجيد العثماني بالعمارة الكبرى للمسجد فى عام ١٢٦٥

هـ وانتهت فى عام ١٢٧٧ هـ وفى هذه العمارة فتح الباب المجيدى وسمي باسم فاتحه السلطان عبدالمجيد العثماني.

الترميمات فى المسجد

١ ـ رمم فخري باشا الوالي التركي المحرابين النبوي والسليماني ورمم البئر التى كانت فى صحن المسجد عام ١٣٣٦ هـ ومعلوم ان هذه البئر قد طمت.
٢ ـ رمم المغفور له الملك عبدالعزيز آل سعود أرض المسجد مما يلى رحبته فى الجهات الأربع عام ١٣٤٨ هـ ووضع اطواقا حديدية على بعض الاساطين التى حدث فيها تشقق بغربي الرحبة وشرقيها وذلك فى سنة ١٣٥٠ هـ.
٣ ـ رممت الحكومة المصرية المسجد فى سنة ١٣٥٤ هـ من غلة أوقاف الحرمين الشريفين بمصر ولم يورد المؤلف تفاصيل هذا الترميم.

العمارة السعودية للمسجد النبوى الشريف

على أثر ظهور الخراب فى بعض اعمدة المسجد النبوى الشريف أمر الملك عبدالعزيز رحمه الله بتوسعة المسجد النبوى الشريف وقد اصدر امرا بذلك بتاريخ ٥ رمضان ١٣٦٨ هـ وبدىء بتنفيذ العمارة السعودية فى ٥ شوال ١٣٧٠ هـ.

هدم الدور والاماكن المحيطة بالمسجد

وبدأ المشروع بهدم الدور والاماكن المحيطة بالمسجد بعد انتزاع ملكيتها وتعويض اصحابها تعويضا سخيا وبلغت الدور والاماكن المنزوعة للتوسعة وللميادين والشوارع المحيطة بالمسجد ٢٢٩٥٥ مترا مسطحا.
استمر العمل فى البناء من ٥ شوال ١٣٧٠ هـ وانتهى فى أوائل ١٣٧٥ هـ وقدرت المواد التى استعملت فى العمارة السعودية بثلاثين الف طن من الأسمنت والحديد والأخشاب والمؤن حملتها الى ميناء ينبع اكثر من ثلاثين باخرة ونقلت

بالسيارات الضخمة من ميناء ينبع الى المدينة المنورة ، واقيم مصنع خاص لاعمال الموازييك فى منطقة ذى الحليفة وجلب له المهندسون والاخصائيون .

وبلغ عدد العاملين فى عمارة المسجد النبوى الفا وخمسمائة عامل يشاركهم مائتي صانع ويشرف عليهم أربعة عشر مهندسا جميعهم من الدول الاسلامية من مصر وسوريا والباكستان والسودان واليمن وحضرموت علاوة على السعوديين وبلغت مجموع الزيادة التى تمت فى العمارة السعودية للمسجد ستة آلاف وأربعة وعشرين مترا .

مراحل الزيادات فى المسجد النبوى الشريف

وننقل فيما يلى مراحل الزيادات التى تمت فى مساحة المسجد النبوى الشريف منذ تأسيسه على يدي الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وحتى هذا الوقت الحاضر كما اثبتها المؤلف وهى موضحة بالأمتار:

امتار مربعة

٢٤٧٥ مساحة بناء النبي ﴿ﷺ﴾

١١٠٠ زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

٤٩٦ زيادة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه

٢٣٦٩ زيادة الوليد بن عبدالملك الأموى .

٢٤٥٠ زيادة المهدى العباسى

١٢٠ زيادة الملك الأشرف قايتباى

١٢٩٣ زيادة السلطان عبدالمجيد العثمانى

١٠٣٠٣ مجموع المساحة العامة للمسجد قبل التوسعة السعودية

٦٠٢٤ الزيادة السعودية الحالية الأولى

والواقع ان العمارة السعودية تنقسم الى قسمين،القسم الأول هوهدم بعض

أجـزاء المسجـد القديم وإعادة تعميرها وكذلك ترميم بعض أجزائه والقسم الثانى هو التوسعة التى زيدت فى مساحة المسجد وقد أوضح المؤلف ذلك كما يلى :

٦٠٢٤ مقدار التوسعة السعودية

٦٢٤٧ مقدار الأجزاء القديمة التى هدمت واعيد تعميرها وهى الجهات الثلاث

———

١٢٢٧١

٤٠٥٦ مساحة الجهة القبلية ـ الجنوبية ـ الباقية من البناء القديم.

———

١٦٣٢٧ المجموع الكلي لمساحة المسجد النبوى حاليا.

معلومـــات عامة عن المسجد

أســاطين المسجد ونوافذه

يبلغ عدد الأسـاطـين فى المسجـد النبـوى الشريف قبل العمارة السعودية ٣٢٧ اسطوانة:يبلغ عدد الأعمدة فى العمارة السعودية ٤٧٤ عمودا محيطة بالجدار و٢٣٢ عمـودا مستـديـرا. يبلغ طول كل من الجدار الغربى والشرقي للمسجد ١٢٨ مترا ويبلع طول الجدار الشمالي ٩١ مترا. يبلغ عدد النوافذ فى الجدار القبلى للمسجد أربعـة عشـر نافـذة مكونة من شبكة حديدية فى منتهى الدقة والجمال وأمام الواجهة الشريقة نافذة تطل على دار عبدالله بن عمر.

المحراب العثمانى

يقع المحراب العثمانى قبلي المسجد وهذا المحراب هو الزيادة التى زادها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه فى المسجد ويدخل اليه من باب السلام وفيه محراب الامام وفى نهاية المحراب موضع الزيارة للقبر الشريف.

المحراب النبوي ـ والروضة الشريفة

يقع المحراب النبوى فى شرقي المنبر وما بين المنبر والقبر الشريف هو الروضة ومساحة الروضة ٢٢ مترا فى عرض ١٥ مترا ، وفى الجانب الغربي من المحراب كتب بخط نافر هذا مصلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ .

يقول المؤلف وشكل بناية هذا المحراب ينبىء بانه قرين المحراب السليماني فى طراز العمارة وقد حصل فيه ترميم أيام فخرى باشا وبعدها .

المحراب السليماني

أما المحراب السليماني فيقع فى غربي المنبر وهو على شكل المحراب النبوي فى زخرفته وبنائه وقد بناه السلطان سليمان العثماني فى سنة ٩٣٨ هـ كما يظهر من الكتابة المثبتة فيه وقد رمم فى عهد الوالي التركي فخري باشا ابان الحرب العالمية الأولى .

المنـــــبر

يقع غربي المحراب النبوي وبه اثنتا عشرة درجة ثلاث بخارجه وتسع بالداخل وهو مصنوع من المرمر وظاهره مغمور بالتذهيب والنقوش الفائقة وفوقة قبة لطيفة تقوم على أربعة أعمدة مضلعة من المرمر،وقد أمر ببنائه السلطان مراد العثماني وأرسل الى المدينة سنة ٩٩٨ هـ كما هو مثبت على بابه شعرا ويتم طلاء المنبر والمحراب فى المسجد النبوى الشريف بالذهب

الحجرة النبوية الشريفة

وكانت تسمى قديما المقصورة ومساحتها من الشمال الى الجنوب ستة عشرا مترا ومن الشرق الى الغرب خمسة عشرا مترا وقد أمر ببنائها الملك الأشرف قايتباي وجعل لها السور الخارجي مَن النحاس الأصفر ووضع عليها القبة الداخلية وهى مبنية بالحجر الأسود والأبيض وتقع فوق الحجرة الشريفة وللسور الخارجى المعروف

بالشباك باب قبلي اى جنوبي ويسمى باب التوبة ، ويقول المؤلف وعليه صفيحة فضية مرقوم عليها تاريخ صنعها سنة ١٠٢٦ هـ .

أقول : لعل المقصود وهو تاريخ صنع الباب المذكور.

وللحجرة الشريفة باب فى الشمال يقال له باب التهجد.

وباب فى الشرق يدعى باب فاطمة . وكذلك باب فى الغرب .

صب الرصاص حول الحجرة

وقد حفر الملك العادل نور الدين الشهيد سنة ٥٥٧ هـ خندقا عميقا حول الحجرة وصب فيه الرصاص للحيلولة بين الجسد الشريف ومن يريد الوصول اليه .

الكوكب الدري

وكانت الهدايا تهدى الى الحجرة النبوية الشريفة ، وقد ذكر المؤلف نقلا عن كتاب مرآة الحرمين لابراهيم رفعت باشا أن من ضمن ماكان فى الحجرة الشريفة من الذخائر قطعتان كبيرتان من الالماس نقلتا الى الاستانة خلال الحرب العالمية الأولى ولم تعادا الى الآن .

حجرة فاطمة

وبشمالي الدائر المخمس فى داخل الشباك حجرة فاطمة أو قبرها ـ والاصح أن فاطمة دفنت فى بقيع الغرقد كما يقول المؤلف ـ وبخلف هذه الحجرة محراب يقال له محراب فاطمة .

محراب التهجد

وفى شمال الشباك من الخارج محراب يسمى محراب التهجد جدد فى عهد

السلطان عبدالمجيد وقد ازيل اخيرا .

الصُّــــفَّة

وتسمى فى الوقت الحاضر دكة الاغوات وكانت هى المكان الذى يجلس فيه فقراء المهاجرين فى حياة النبي ﴿ﷺ﴾ وهى مواجهة لمحراب فاطمة وهى عبارة عن دكة طولها ١٢ مترا فى عرض ٨ أمتار تعلوعن الأرض التى حولها بنصف متر . وعليها داربزين من الصفر وبجانبها الى الشرق مخزن امامه دكة كانت معدة لجلوس شيخ الحرم النبوي فى أيام الدولة العثمانية .

المــــآذن

مآذن المسجد خمس أربع منها شامخة وهى ١ ـ الرئيسية بالجنوب من المسجد بناها قايتباي ٢ ـ منارة باب السلام بالجنوب الغربي منه . ٣ ـ السليمانية شرقي الباب المجيدي . ٤ ـ الشكلية بشماله . ٥ ـ منارة باب الرحمة وقد ازيلت وضم مكانها الى رحبة باب الرحمة وكان بناؤ ها فى عهد قايتباى وهى أقصر من جميع المآذن وقد حصل فى كل المآذن ترميم فى العمارة السعودية الجديدة .

أبواب المسجد النبوى الشريف

كان للمسجد خمسة أبواب كعدد مآذنه قبل التوسعة السعودية وهذه الأبواب هي :

باب السلام فى الجنوب الغربي وكان يسمى باب مروان .

باب الرحمة بالشمال الغربي وكان يقال له باب عاتكة .

باب النساء وهو يقابل باب الرحمة من المشرق وكان يسمى باب ريطة

باب جبريل بحذاء باب النساء من الجنوب .

الباب المجيدى بشمال شرقي المسجد ونسبته الى السلطان عبدالمجيد العثماني الذى عمر فى عهده المسجد النبوى العمارة التى سبقت التوسعة السعودية مباشرة .

وقد زيد فى التوسعة السعودية خمسة أبواب هى :-

باب الصديق ابي بكر وهو بثلاث فتحات متلاصقة ويقع بين باب السلام وباب الرحمة غرب المسجد.

باب الملك وله ثلاث فتحات متلاصقة أيضا ويقع كسابقه فى غرب المسجد.

باب عمر بن الخطاب فى شمال المسجد الغربى.

باب عثمان بن عفان فى شمال المسجد الشرقى.

باب عبدالعزيز وهو ذو ثلاث فتحات متلاصقة وموقعه فى الجهة الشرقية من المسجد النبوي.

جدران المسجد

هى بصفة عامة مبنية من الحجر الأسود المنحوت المطابق وهى فى غاية المتانة وسمكها نحو ٣ امتار وكلها مطلية بالجير داخلا وخارجا وهذا الوصف للجدران فى العمارة العثمانية وقد هدم بعضها فى العمارة السعودية وبنيت بقوالب الأسمنت وطليت من الداخل والخارج بالدهانات.

إنارة المسجد النبوى

كانت الأنارة فى المسجد النبوي تعتمد على قناديل الزيت التى لاتزال بقاياها معلقة فى العوارض الحديديه بين أعمدة المسجد، كما كانت الشموع توقد فى المسجد للاضاءة الى جانب القناديل، وأول من أضاء المسجد النبوى بالكهرباء هو السلطان عبدالمجيد الثانى العثماني الذى بعث مكينة كهربائية لاضاءة المسجد وكان بدء الانارة بالكهرباء يوم ٢٥ شعبان ١٣٢٦ هجرية وهويوم الاحتفال بإفتتاح السكة الحديدية الحجازية بالمدينة المنورة.

ولما قدمت المكينة المذكورة أهدى الحاج الشاوي الجزائرى المغربي مكينة جديدة لاضاءة المسجد الشريف وبقيت هذه المكينة مستعملة كما يقول المؤلف الى سنة ١٣٥٣ هجرية وهى سنة تأليف كتابه هذا.

التوسعة الثانية للمسجد النبوى

لقد ظهرت الحاجة الى توسعة المسجد النبوى الشريف على أثر تكاثر الحجاج عاما بعد عام وكذلك لسهولة المواصلات بين مدن المملكة مما سهل للمواطنين القدوم الى المدينة المنورة بطريق الجو والبر ولهذا فقد جرى الاعداد للتوسعة الثانية للمسجد وتم نزع ملكيات كثير من المباني والاماكن ويقول المؤلف ان هذه التوسعة ستتم باتجاه الغرب وستمتد من الجدار الغربي للمسجد الى الشارع العيني بطول يبلغ مقداره ١٦٥ مترا كما ستمتد من الجنوب الغربي الى الشمال الغربي حتى محلة الساحة ويبلغ مجموع مساحة التوسعة الجديدة مايزيد على ستة وعشرين ألف متر وتزيد قيمة التعويضات فيها على خمسين مليون متر .

هذا ماكتبه المؤلف فى سنة ١٣٩٣ هـ فى آخر طبعة لكتابه القيم الذى نتحدث عنه ، وقد تم نزع ملكيات اخرى حول المسجد النبوى الشريف كما والحقت مساحات كبيرة من الأرض به واحيطت بالأسوار واضيئت بالكهرباء واعدت للصلاة والمأمول ان تجرى العمارة الجديدة المنوية وان تتم كما تمت سابقتها فى المسجد النبوى والمسجد الحرام وفق الله ولاة الأمور وأعانهم على اتمام ذلك انه سميع مجيب .

وقد تحدث المؤلف فى كتابه القيم عن اودية المدينة وعيونها ومحلاتها الشهيرة الى غير ذلك من المباحث الهامة والقيمة التى نكتفي بالاشارة اليها خشية الاطالة ونحيل الراغب فى الاستزادة الى هذا الكتاب الصغير فى حجمه والكبير فى قدره ومحتواه .

ان كتاب آثار المدينة المنورة الذى الفه عبدالقدوس رحمه الله وهو فى الثلاثين من العمر من الكتب النادرة فى موضوعه وهو خلاصة جهد عظيم ودأب وتحقيق كبيرين ، ولقد كنت اتمنى لو أنه رحمه الله افاض فى بعض المواضيع التى عالجها لكن ذلك اشفى لنفس القارىء واكثر فائدة لأن هذه المباحث العزيزة يتشوق اليها

الـراغب فى المعـرفـة وهى مرتبطـة بتـاريـخ المـدينة المنورة عاصمة الاسلام الأولى ومنطلق الجهاد ومهبط الوحي ومستقر صحابة رسول الله ومن تبعهم من اعلام الاسلام .

وأخـيرا فان هذا الـذى ذكـرت لاينقص من قيمة الكتاب فالمؤلف كان يكتب الآثار ولم يكن يكتب التاريخ ولكل كاتب اسلوبه فيما يكتب وطريقته فيما يعالج من الأمور.

ان الكتاب من المراجع الهامة التى لم يؤلف مثلها فى بابها ولهذا يقرأ على توالى السنين والأيام .

موسوعة تاريخ مدينة جدة

ألف عبدالقدوس كتاب تاريخ مدينة جدة وظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٣٨٣ هـ بطلب من رئيس بلديـة جدة ثم أصـدر طبعتـه الثـانيـة فى سنة ١٤٠٠ باسم موسوعة تاريخ مدينة جدة واضاف اليه اضافات كثيرة كما ذكر لي ان للكتاب جزءا ثانيا هو بسبيل اعداده وأظهاره للناس وهذا الجزء هو لتاريخ جدة بعد عام ١٣٨٣ هـ حيث شهـدت المـدينـة بعـد هذا التـاريـخ الكثـير من التطور والامتداد بحيث اصبحت تسـابق الـزمن فى تطـورها واتساعها كما سبقت المدن الأخرى بما نالته من عناية فى جميع الأحوال.

ولقـد اخـبر ني نجله الاستـاذ نبيـه ان القسم الاكـبر من الجـزء الثانى من هذا الكتـاب قد اتمـه عبـدالقـدوس رحمه الله قبل وفاته وانه كان قد حدد مواد المواضيع الباقية لهذا الجزء لاكمالها.

على اي حال فإن الجزء الأول بين ايدينا والذى يحتوى على مايقرب من ألف صفحة والمحلى بكثير من الصور وبعضها نادر وبعضها قديم يمثل الجهد الضخم الـذى بذلـه المؤلف فى اعـداده وتأليفه . وبعد هذه المقدمة عن الكتاب فلنتحدث عن مدينة جدة التى هى موضوع الكتاب .

قدم مدينة جــدة

تعـددت الـروايـات التى اوردها المؤلف عن قدم مدينة جدة فبعض الروايات يذكر ان عمرو بن معد بن عدنان نزل بها واتخذها له ولقومه سكنا ومرعى ، وعمرو هذا هو قضـاعـة ويستشهـد على ذلك بان احد احفاده ـ جدة بن حزم بن ريان بن حلوان بن عمرو بن الحارث بن قضاعة ولد بجدة فسمى باسم الموضع الذى ولد فيه .

وحـدد عاتق بن غيث البـلادى فى معجم معالم الحجاز مساكن قضاعة ومراعيها من شاطىء البحـر ومـادونهـا الى منتهى ذات عرق الى حيـز البحـر من السهـل والجبل . ويحدد الأستاذ عبدالقدوس هذا التاريخ بصورة تقريبية الى القرن الثانى قبل الميلاد . (١)

بناء الفرس لمدينة جده

أما الرواية الثانية فتذكر ان الفرس ـ العجم ـ هم الذين بنوا مدينة جده فى عهد ملكهم يزدجـرد وبنوا عليهـا سورا من الحجـارة عرضه خمسة عشر شبرا كما احاطوها بخندق من الماء يدور حول المدينة بما يجعل وضعها الجغرافى فى شكل شبة جزيرة . ويحدد المؤلف هذا التاريخ بمنتصف القرن السادس الميلادى . (٢)

اما سبب بناء فرس لمدينة جدة فهو خراب الميناء الفارسي سيراف ورغبة ملك الفـرس فى ايجـاد مينـاء آخر بدلا عنه . وهناك رواية اخرى تجعل بناء الفرس لمدينة جده مرتين المرة الأولى ممعنة فى القدم والثانية هى التى تمت فى عهد الملك يزدجرد فى القرن الميلادى (٣)

على أى حال فان ارتباط مدينة جدة بالفرس يبقى واضح المعالم خلال القرون المتتالية بعد الاسلام كما ورد على ألسنة الرحالة والمؤرخين مما سنتعرض له بعد .

---

(١) «ص ٦٦ موسوعة تاريخ مدينة جدة»

(٢) «ص ٦٦ نفس المصدر»

(٣) «ص٦٦ نفس المصدر»

جدة قبل الاسلام

فإذا تركنا العهود الممعنة فى القدم التى اشرنا اليها نجد ذكرا لشاطىء جده قبيل الاسلام حينما اعتزمت قريش بناء الكعبة قبل الاسلام بعد احتراقها فعلموا ان سفينة لبحار رومي كسرت قريبا من شاطىء جدة وقد بعثت قريش فاشترت اخشاب السفينة واحضرت صاحبها باقوم وكان نجارا ليساعدهم فى بناء الكعبة وهذا البناء هو الذى وضع الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فيه ـ الحجر الأسود ـ بيده الشريفة حين اختلفت قبائل قريش فى الأمر كما هو معلوم وكان هذا قبل البعثة النبوية بخمس سنين(١)

جدة فى العهد الاسلامي الأول

فإذا وصلنا الى العهد الاسلامى وجدنا أن أهل مكة طلبوا من الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ان يجعل ميناء مكة فى ساحل جدة بدلا من الشعيبة ، ويتطرق المؤلف الى الشعيبة ويناقش ماورد فى بعض الروايات من انها ميناء مكة قبل جده ويخلص الى القول ان جدة هى المدينة وهى الميناء القديم وان الشعيبة لاتعدوا ان تكون قرية صغيرة كل ميزتها ان ميناءها لاتكثر فيه الشعاب المرجانية التى تضطر السفن فى ميناء جدة للرسو بعيدا عنها وان الخليفة المهدى العباسي اختارها ـ الشعيبة لرسو السفن التى تحمل الرخام المرسل لعمارة الحرم المكي الشريف فى عهده لهذه الغاية ليسهل نقله من السفن الى مكة ويقول المؤلف ان بعض هذا الرخام لايزال حتى اليوم مدفونا فى رمال الشعيبة . (٢)

---

١ ـ انظر ماكتبناه عن تاريخ الكعبة المعظمة فى ترجمة الشيخ حسين عبدالله باسلامه ضمن اعلام الحجاز

٢ ـ «٦٠ موسوعة تاريخ مدينة جدة»

جــده فى روايات الرحالة والمؤرخين

وصف البلخي المتوفى سنة **٣٢٢** هجرية جدة فى كتابه ذكر المسافات والاقاليم. بأنها كثيرة التجارات والأموال وليس بالحجاز بعد مكة اكثر مالا وتجارة منها وقوام تجارتها الفرس (١)

ووصفها البشارى فى كتابه احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم بانها:

مدينـة حصينـة عامرة آهلة أهلها أهل تجارات ويسار، خزانة مكة مطرح اليمن ومصـر وأهلهـا فى تعب من المـاء وقـد غلب عليهـا الفرس، ولهم بها قصور عجيبة وازقتها مستقيمة ووضعها حسن شديدة الحر جدا. (٢)

اقـول ولايضـاح ماذكـره البشـاري فى وصف جدة انها مطرح اليمن ومصر ـ ان هذا الـوصف كان لجدة فى القـرن الرابع الهجرى، ولقد كانت جدة حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى الموافق للقرن الثالث عشر الهجرى مطرحا لمصر واليمن والقصد بالمطرح هنا ان البضائع التى ترد الى مصر من الهند تطرح بمدينة جدة، ثم يجرى نقلهـا بالسفن الشـراعيـة الى القـاهـرة وذلـك قبل حفر قناة السويس فى منتصف القـرن التـاسـع عشـر للميلاد. والواقع ان تجار جدة كانوا يحتفظون بهذه البضـائـع فى السفن التى كانت عبـارة عن مخازن عائمـة ثم يصـدرونهـا الى مصر بطريق البحر الى ميناء السويس حسب الحاجة (٣)

ونعـود بعـد هذا الاستطـراد الايضاحى لنتابع وصف الرحالين لمدينة جدة عبر القـرون، وصف ناصـر خسـرو جدة فى القـرن الخامس الهجرى بانها مدينة جميلة محصورة فى داخل سورها الحصين كما لفت الانتباه الى عدم وجود الاشجار والزرع بها رغم ازدهـارهـا العمـراني، وعلل ناصر خسرو ذلك الى ندرة وجود الماء العذب

---

١ ـ صفحة ٧٧ موسوعة تاريخ مدينة جده.

٢ ـ صفحة ٧٧ نفس المصدر

٣ ـ انظر ماكتبناه مفصلا عن ذلك فى كتابنا ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز صفحة ١٧٢/١٧٣.

بها، وقدر ناصر خسرو سكان مدينة جدة بخمسة آلاف ووصف اسواقها بانها نظيفة جدا ولها بابان مما يلى مكة، وباب البحر وقال ان اميرها مملوك لامير مكة الذى هو فى نفس الوقت أمير المدينة المنورة (١) واسمه ابو المعالي ابن ابي الفتوح.

فإذا وصلنا الى القرن السادس الهجرى نجد الرحالة الاندلسي الشهير ابن جبير يقدم لنا وصفا مخالفا كل المخالفة لوصف من سبقه من الرحالين فى القرنين الماضيين فعمارتها الضخمة استحال اكثرها الى خصاص اما اهلها الذين وصفوا بالثراء وكثرة المال فيصفهم بانهم يستخدمون انفسهم فى كل مهنة لتحصيل لقمة العيش

فكان منهم من يكري الجمال ومنهم من يبيع اللبن أو الماء للحجاج وإذا لم يكن لاحدهم شيء مما ذكر فهو يلتقط التمر من الشوارع او يحتطب الحطب من ضواحى البلد ويبيع ماجمع، وربما تناول نساؤهم الشريفات ذلك بانفسهن(٢)

ويعلق المؤلف على وصف ابن جبير بان الحالة السياسية المضطربة فى العالم الاسلامي واشتغال السلطان صلاح الدين الايوبي بالحروب الصليبية فى فلسطين ومهاجمة الصليبين للسواحل الاسلامية كل هذا أدى الى الاضطراب السياسي الذى انعكست آثاره على الحالة الاقتصادية مما أدى الى رحيل ثراة جدة وسراتها بأموالهم واهليهم وخدمهم إلى مكان أمين وان هذا الرحيل اخلى مدينة جدة من عناصر الثروة والقوة بها فلم يبق فيها الا الضعفاء الذين ليست لهم القدرة على الهجرة او القلة القليلة المتمسكة بالبقاء فى البلاد رغم المتاعب والصعاب(٣)

ابحـــــر

ومن الأخبار الطريفة فى رحلة ابن جبير وصفه لمرسى ابحر الذى رسى المركب

---

١ - ٧٩/ ٨٠ تاريخ موسوعة مدينة جدة.

٢ - ٨٠ موسوعة تاريخ مدينة جدة.

٣ - ٨٠ / ٨٢ موسوعة تاريخ مدينة جدة.

القـادم به ابن جبير فيهـا فيقـول وفى عشي يوم الأحـد ثانى ربيـع الآخـر أرسينـا بمـرسى يعـرف بابحـر وهو على بعض يوم من جدة وهو من اعجب المراسي وضعا وذلك ان خليجا من البحر يدخل الى البر والبر مطيف به من كلتا حافتيه فترسى الجلاب به من قرارة هادئة (١)

عودة الى الرحالين

قدم المؤرخ العـربي جمال الـدين أبـو الفتح بن يوسف بن يعقوب المعروف بابن المجـاور الى الحـج بعـد ابن جبـير بنحـو قرن من الـزمان فوصف جدة بانها مدينة صغـيرة على ساحـل البحـر مزدحمة الحجاج وذكر ان الماء بها قليل وانه يجلب اليها من اماكن بعيدة كما ذكر ان اهلها من نسل العجم وان ابنيتها من الحجر الكاشور ومن الخـوص وانـه يوجـد بها خانـات من الخـوص تؤجر فيها الغرف للمسافرين، وقـال ان بها خانيـين كبـيرين متقـابلين بمخـازن كبـار وانـه كان تجبى بها رسـوم - ضرائب - للعقار من قبل سلطان مصر مقابل تعمير كل بيت مبني بالخوص ومقدار هذه الرسوم العقارية هى ثلاثة دراهم على كل بيت (٢)

والمتأمـل يرى ان وصف ابن المجـاور الـدمشقي يقـترب من وصف الـرحـالـة السـابقـين باستثنـاء وصف ابن جبـير، الـذى يقـول المؤلـف انه ربما أنزل فى هذه الخانات المبنية من الخوص فاخذ الانطباع القاتم عن المدينة واحوال اهلها.

أهل جدة يرحلون منها

ويقدم المجاور الدمشقي قصة تحمل فى طياتها أسباب ترك ثراة جدة لمدينتهم فى سنة ٤٧٣هـ فيقول ما معناه:

أرسل أمير مكة الى شيخ تجار جدة يطلب منه إرسال حمل من الحديد فأمر شيخ

---

١ - ٨٠ / ٨٢ موسوعة تاريخ مدينة جدة.

٢ - ٣٢ موسـوعـة تاريـخ مدينـة جدة ويقـول الأسـتـاذ حمد الجـاسـر ان كتاب المستبصر ليس من تأليف ابن المجاور الشيباني الدمشقي وانما هو منسوب اليه خطأ وان مؤلفه فارسي الأصل.

التجـار غلامـه بإرسـال الحـديد إلى مكة وأرسل الغلام الحديد المطلوب فلما وصل الى صاحب مكـة وجـد ان الحمل الذى أرسل كان من الذهب الخالص وقد علاه الصـدأ من طول بقـائـه فتغير لونه فظنه الغلام حديدا فبعثه على انه من الحديد، ولكن والي مكـة الـذى عرف ان الـذهب فى مخازن تجار جدة موجـود على شكـل قضبان من الحديد طمع فى حمل آخر فارسل الى شيخ التجار يطلب حملا آخر من نفس الصنف، وقـد تنبـه التاجر فاستدعى غلامه الذى أرسل الحمل الأول وسأله عن الحديد الذى ارسله الى مكة فقال حمل حديد اصفرٌ بتشديد الراء.

ايقن شيـخ التجـار ان الحمـل الـذى أرسـل إلى صاحب مكة كان من الذهب الخالص وليس من الحديد كما ايقن باطماع أمير مكة وماتجره هذه الاطماع عليه على تجار المدينة جميعا، وهنا تختلف الرواية، فتقول احدى الروايتين ان أمير مكة الأمير

داود بن إبـراهيم هاجم جدة بالأعـراب وحـاصرها فهرب التجار بإموالهم واهليهم وكلما يملكون ، والرواية الأخرى تقول ان شيخ التجار استشار أحد كبار السن فى المدينة فأشار عليه بالنزوح من المدينة فنزح تجار جدة بكل ما يملكونه وركبوا البحر فسكن قوم منهم السـرين والـراحـة وعـتر والجرعة والدرعة والشميد وجزيرة ذهبان وكسـران وبنـو موسى وبـاب موسى، ويعلق ابن المجـاور على القصـة فيقول فلما خلت الأرض من الأحباب ملكها الاعراب. (١)

ويعلق المؤلف على ذلك ان هجرة أهل جدة نتيجة لمحاصرة الأعراب لها كانت جماعيـة وأنهـا كانت الى ناحية الجنوب لأن اكثر الأسماء التى اوردها الدمشقي هي من مدن اليمن.

اقـول والمتأمـل فى الرواية التى اوردها ابن المجاور لايطمئن الى حكاية الحديد الـذى طلبـه أمـير مكة فإرسل اليه حمل ذهب بدلا منه فالذهب مهما كثر عند شيخ

---

(١) ٨٧ موسوعة تاريخ مدينة جدة.

التجار أو أي ثري لايلقى فى المخازن حتى لايفرق بينه وبين الحديد، ولقد أدركت الناس يبنون الغرف السرية فى بيوتهم أو متاجرهم ليودعوا بها مايخشون عليه ولكن الحقيقة التى يمكن استخلاصها من رواية ابن المجاور ان حصار الأعراب والبادية لمدينة جدة طمعا فى ثروات أهلها وعدم اطمئنان الناس الى وجود الحماية الكافية لهم تجاه هذا الغزو هي التى دفعتهم الى الرحيل بأولادهم وثرواتهم هذا إذا صحت الرواية وليس هناك مايمنع صحتها.

وذكر ابن المجاور كذلك شيئا عن الرسوم التى كانت مفروضة على الحجاج المغاربة والتى تستوفى منهم بأمر والي مكة المكرمة كما ذكر ان بعض الحجاج الذين لم يستطيعوا دفع الرسوم جرى ايقافهم فى جزيرة قريبة من جدة (١)

أما الرحالة الشهير ابن بطوطه الذى قدم الى الحج بعد قرن من قدوم ابن المجاور لها فى القرن الثامن الهجرى فيقدم لنا وصفا يشبه وصف ابن جبير فيذكر ان سكان المدينة قليل بحيث لايجتمع النصاب لصلاة الجمعة فسبحان مغير الأحوال.

ويعلل المؤلف هذا الانحدار المؤسي الذي آلت إليه أحوال جدة إلى اضطراب الأحوال السياسية فى العالم الاسلامي فالاندلس يتقاسمها المسيحيون وبنو نصر، والصوماليون الوثنيون انتزعوا الساحل المناوح لمدينة جدة، والحجاز نفسه كان طعمة سائغة لاطماع ونزوات امرائه الأشراف وكانوا شيعا ذوى اهواء متفرقة، والبادية فى الحجاز تعيث فسادا فى الأرض بدون رادع أو زاجر، ويد السلاطين خارج الحجاز قاصرة عن ان تمتد اليهم لاعادة استقرارا الأمن الى ربوعه، فلا غرو ان يهبط كما يقول المؤلف مستوى التجارة البحرية فى البحرين الأحمر والأبيض الذين تعتمد عليهما تجارة جدة فى تقدمها وازدهارها، وهكذا فاننا نرى ان فقدان الأمن فى المدينة بسبب تنازع وتسلط البادية واطماعها ادخل الرعب

---

١ - ٨٥ موسوعة تاريخ مدينة جدة

الى قلوب الناس فتركوا ديارهم ورحلوا بأموالهم وذرياتهم الى حيث يجدون الأمن والاطمئنان.

البرتغاليون يهاجمون جدة

في سنة ٩٤٨ للهجرة هاجم البرتغاليون مدينة جدة بحراً بنية الاستيلاء عليها وكان الاستعمار الغربي قد بدأ يزاول نشاطه في احتلال الشرق الأقصى والأوسط والاستيلاء على البلاد الهامة في آسيا وأفريقيا وكان البرتغاليون هم أول الشعوب الغربية المستعمرة للبلاد البعيدة، وكانت نواياهم قد أصبحت معلومة بعد ان استولوا على اجزاء من الهند، كما حاولوا الاستيلاء على بعض مدن المغرب العربي، ولما كان الله تعالى قد تكفل بحماية الحجاز من هذه الشرور لأنه موضع المقدسات الاسلامية في مكة والمدينة فقد الهم الله السلطان قانصوه الغوري قبل ذلك بتحصين مدينة جدة ضد الغزو المنتظر وكان الحجاز في تلك الحقبة تابعا لولاية سلاطين المماليك في مصر.

أمر السلطان قانصوه الغوري باحاطة مدينة جدة بسور حصين وبناء القلاع في مواجهة البحر وتزويدها بالمدافع الحربية وبالرجال لصد المغيرين على المدينة وأرسل جيشا من الترك والمغاربة للدفاع وعهد برئاسة الجيش الى حسين الكردي الذي أمر أهالي المدينة عامة بالمشاركة في بناء السور وتم بناؤه في سنة ٩١٥ للهجرة ولكن البرتغاليون لم يفدوا للغزو الا في سنة ٩٤٨ للهجرة الموافقة لسنة ١٥٠٩ للميلاد.

دفع البرتغاليون حملتهم البحرية من الهند الى جدة وكانت مدينة جدة مستعدة للدفاع عن المدينة وكان أمير مكة الشريف ابونمي على علم بخطورة الحالة فترك الحج وحضر الى جدة مع جنوده والمتطوعين من الناس لمواجهة الغزاة فحاصر البرتغاليين واصلاهم نارا حامية وشاركت القلعة البحرية التي كانت في مواجهة السور باطلاق النيران من المدافع ولم يجد البرتغاليون سبيلا الى المدينة فلاذوا بالفرار مخلفين الذخائر والسلاح.

وقد شكر السلطان سليمان للشريف أبي نمي صنيعه هذا وقدر عمله الطيب

وجهـاده فى صد الـبرتغـاليـين عن مدينـة جدة مدخل مكة المكرمة ودهليز الحرمين الشريفين (١)

أقول لقد ادركت سور جدة الذى كان يحيط بها إحاطة السوار بالمعصم والذى ازيل فى سنة ١٣٦٤ تقريبا كما ادركت القلعة البحرية التى ورد ذكرها وكانت قد تحولت الى سجن جدة (٢) ولم يبق من آثارها سوى ملامح البناء القديم .

الشريف والوالي

انتقل الحكم فى الحجاز من سلاطين مصر الى دولة الخلافة بالقسطنطينية وكان لما ابداه الشريف ابو نمي أمير مكة من استبسال فى صد الغزاة النصارى عن مدينة جدة اثره الطيب لدى السلطان فاصبح الحكم فى الحجاز مشتركا بين شريف مكة والـوالي الـتركي الـذى تعينـه السلطنـة بمـرسـوم من الخليفـة ، وكـان لابـد لهذه الازدواجيـة فى الحكم ان تظهـر آثـارها منافسة بين الشريف والوالي وكان لكل منهما انصاره ورجاله وكان الشريف يقيم بمكة ويعين وكيلا له بجدة والوالي يقيم بجدة وكان لكل من الشريف والوالي انصاره الذين يلجأ اليهم فى دار الخلافة وهكذا يقع الشـد والجـذب وتعـانى المـدينـة من جراء التنافس بين الحزبين هزات تهدد امنها واقتصادها وقد اورد المؤلف بعض الأمثلة على ذلك .

كان أمـير مكـة فى سنـة ١١٨٢ هـ الشـريـف مسـاعـد وطمـع شريف آخـر هو الشـريف أحمـد بن الشـريف عبـدالكريم فى الأمارة ولم يجد وسيلة لذلك الا اظهار الشـريف مسـاعـد بمظهـر الرجل العاجز عن السيطرة على الأعراب والبدو الذين يتبعون أمير مكة عادة فهاجم الشريف أحمد مدينة جدة بواسطة البدو لنهب أموال تجارهـا ودافعت جدة عن نفسهـا متحصنـة بسـورهـا واصلت المهاجمين نارا حامية ولكن المهاجمين اطلقوا على المدينة قنابل المدافع وسهام الكبريت الموقد فى رؤوسها كالرياش فاحترقت عشش جدة .

---

١ - ٨٨ - ٩١ موسوعة تاريخ مدينة جدة .

٢ - يراجع تفصيل كل ما يتعلق بسور مدينة جدة في كتابنا ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز صفحة ٥٩ / ٦٢

ويـرى المؤلف ان الـوالي الـتركي كان ضالعـا فى هذه المؤ امـرة والا ماتمكن المهاجمون من احداث الحريق فى جدة (١)

ولكن المؤلف لم يعـط مصـدرا تاريخيـا لهذا الاستنتـاج والذى اراه ان الطمع فى امـارة مكـة هو الـذى احـدث الحريق وليس من المعقول ان يساعد الوالي الشريف الذى يمهد لعهده بالاخلال بالامن وحصار مدينة تجارية كبيرة كمدينة جدة والله اعلم.

والواقع ان الفتن بين ولاة مكة من الأشراف كانت اظهر من الخلافات بين الوالي التركي والشريف المكي واخطر وقد اورد المؤلف بعد ذلك حادثة توضح هذا الرأى نوجزها فيما يلى:

فى سنـة ١١٨٥ هـ كان شريف مكـة أحمـد بن سعيد وكان وكيل الأمارة فى جدة التـاجـر الشهـير يوسف قابـل أحـد أعيـان جدة ودهاتها كما يصفه المؤلف غضب شريف مكة على وكيله هذا فعهد بوكالته فى جدة الى حسين ابن إبراهيم الشامي وكـان حاضـرا فى مجلس الشـريف بمكـة وأمـره أن يتـوجـه الى جده ليقبض على يوسف قابـل ويضعـه فى الاغـلال ويتولى وكالة إمارة مكة بدلا منه. يقول المؤلف ولحسن حظ يوسف قابل وسوء حظ شريف مكة ان صديقا للتاجر يوسف قابل كان حاضـرا بالمجلس وسمـع فى شأن صديقه ماسمع هذا الصديق هو الشريف سرور بن مسـاعـد فأسـرع بالسفـر الى جدة واخبر صديقه يوسف قابل بما يراد به، وكان سرور ابن مسـاعـد يطمـع فى إمـارة مكـة كما ان يوسف يريد دفع الاذى عن نفسه فاتفقـا ان يمـد يوسف قابـل الشـريف سرور بالمال الوفير ليستولى على إمارة مكة ويعـزل الشـريف أحمـد بن سعيد، وهكذا تمكن الشريف سرور بمساعدة يوسف قابل من عزل شريف مكة والاستيلاء على إمارتها وإبقاء يوسف قابل وكيلا للامارة بجدة. (٢)

---

١ ـ ٩٣/٩٢ موسوعة مدينة جدة

٢ ـ ٩٤/٩٣ موسوعة تاريخ مدينة جدة

ويـذكـر المؤلف ان قبـائل حرب اشتبكت فى قتال مع أمير مكة الشريف سرور ابن مساعد فى سنة ١١٩٥ للهجرة وان مدينة جدة قد وقفت الى جانبه وانجدته فى هذه الحروب ولكنه كذلك لايعطى تفصيلا عن هذا الأمر(١)

الانكليز يقذفون جدة بالقنابل

فى سنـة ١٢٧٤ للهجـرة أرسـل الانجليز بعض قطع الأسطول الى مدينة جدة وقذفوا المدينة بالقنابل وذلك على أثر مقتل القنصل الانكليزي والقنصل الفرنسي وبعض الفرنجة من قبل الأهالى والسبب فى ذلك هو انه سرت اشاعة بأن القنصل الانجليـزى دعس بقـدمـه علم الـدولـة العثـمانيـة فاعتـبر الاهالي ذلك اهـانة للاسلام وقام عبدالله المحتسب ومعه جماعة من الأعيان بتهييج الاهالي على الافرنج فاقـدمـوا على قتـل القنصليين كما ذكرنا ورأت انكلترا ان تنتقم لمقتل قنصلها ومن معه بإرسال أسطولها الى جدة ولم تكن المدينة مستعدة لمقابلة الأسطول الانجليزى فتدخلت الحكومة العثمانية فى الأمر ووعدت الانجليز بالتحقيق فى الحادث ومعاقبة المعتـدين وتم بالفعـل القبض على المحـرضين وصدر الأمر بقتل المحتسب وسعيد العامودى ونفي الآخرين الى جزيرة قبرص واطفاء الفتنة(٢)

إرسال الأسطول الانجليزى مرة اخرى الى جدة

وفى سنة ١٣١١ للهجرة أرسل الانجليز قطعا من اسطولهم مرة أخرى الى جدة أثر قتل الأعراب لوكيل القنصل الانجليزى وقد جرح فى هذه الحادثة كذلك وكيل القنصـل الفـرنسي والقنصل الروسي وتدارك الشريف عون الرفيق امير مكة الامر قبل ان يستفحل فحضر الى جدة وعالج الأمر صلحا وعادت المراكب الانجليزية .

---

١ - ٩٣ نفس المصدر

٢ - ٩٥/٩٤ موسـوعـة تاريـخ مدينـة جدة وانظر تفصيل هذه الحادثة فى ترجمة عبدالله باشا باناجه فى الجزء الثاني من كتابنا اعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة.

دون ان تتعرض للمدينة بأذى(١)

هجرة أهل جدة الى مكة

فى سنة ١٣٣١ هجرية هاجر كثير من سكان جدة الى مكة خشية من ان تتعرض المدينة لمهاجمة الأسطول الأيطالى من البحر وذلك على اثر نشوب الحرب بين الدولة العثمانية وإيطاليا فى طربلس الغرب، ويبدو انه وردت بعض الأخبار بذلك ولكن شيئا من ذلك لم يحدث (٢)

الانجليز يضربون جدة بالقنابل

وفى سنة ١٣٣٤ للهجرة اطلقت البوارج الانجليزية قنابلها على المدينة واستهدفت بالذات الثكنة العسكرية التى كانت الحامية التركية معتصمة بها وذلك على أثر اعلان الشريف الحسين ابن علي الثورة على الحكومة التركية وقد قاومت الحامية التركية خمسة عشر يوما فاستقدم الانجليز بعض الطائرات التى القت منشوراتها على المدينة محذرة ومنذرة وكان الشريف الحسين قد حاصر جدة برًّا فلما طال الامر اتصل الشريف الحسين بأهلها وانذرهم بضرورة التسليم وتم ذلك بالفعل واستسلمت الحامية التركية وغنم الشريف الحسين الاسلحة والذخائر الموجودة لديها فى جدة وتم نقلها الى مكة لمحاربة الحامية التركية المعتصمة بقلعة اجياد (٣)

جدة مقرا للملك علي بن الحسين

وفى سنة ١٣٤٣ هـ على أثر خروج الملك حسين بن علي من الحجاز بعد أن

---

١ - ٩٥ موسوعة تاريخ مدينة جدة.
٢ - ٩٦٩٥ نفس المصدر.
٣ - ٩٦ نفس المصدر

خلعه أهل الحجاز عن الملك وتولية ابنه الملك علي بن الحسين ملكا على الحجاز اتخذ الملك علي من جدة عاصمة له وكانت جدة معرضة للحصار من قبل جيوش السلطان عبدالعزيز آل سعود الذى استولى على الطائف واستسلمت مكة له دون حرب وكانت الحرب مستمرة بين الهاشميين والسعوديين فى جدة الى إن تم الصلح بين الطرفين فى جمادى الثانية ١٣٤٤ هـ وغادر الملك علي جدة نهائيا ٣ جمادى الثانية ١٣٤٤ هـ ثم دخلها السلطان عبدالعزيز آل سعود ـ جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله ـ وانتهت بذلك المحنة التى تعرضت لها البلاد(١)

وهكذا طاف بنا المؤلف عبر التاريخ لنرى كيف تقلبت الأحوال بمدينة جدة عسرا ويسرا وحربا وسلما وخوفا وأمنا فسبحان من له البقاء والدوام والعزة والملكوت .

كان الحكم فى الحجاز وخاصة فى العهد العثمانى مناصفة ـ اذا صح هذا التعبير ـ بين امراء مكة الذين جرت العادة على اسناد الامارة اليهم وهم من الأشراف ، والولاة الاتراك الذين تختارهم الحكومة العثمانية وترسلهم من قبلها . وكان أمير مكة يعين له وكيلا فى جدة يطلق عليه لقب ـ الوزير ـ وكان امراء مكة من الأشراف يناط بهم شئون البادية والأعراب والمحافظة على الامن وخاصة فى الطريق بين مكة وجدة وبينها وبين المدينة الذى تعبره قوافل الحجاج الى جانب ادارة الأمور فى مكة المكرمة والمشاعر المقدسة .

وكان مقر الولاة الاتراك فى جدة وكان هؤلاء منوطا بهم الشؤون الادارية والمالية المتعلقة بجباية الضرائب الحكومية والرسوم الجمركية وإدارة شئون جدة من النواحى الادارية والعسكرية والمالية ، وكان لأشراف مكة معاليم تدفع لهم من واردات جدة ويبدو ان هذه المعاليم مرتبطة بنسبة مايتحقق من الواردات التى كان أهمها الرسوم الجمركية ولما كانت الواردات المالية تستوفى بجدة فإن شريف مكة يتسلم استحقاقاته بواسطة وزيره فى جدة من الوالي التركي .

---

١ ـ ٩٧/٩٨ نفس المصدر

وكانت هذه الازدواجية فى السلطة بين الوالي التركي والشريف المكي توجد الكثير من التنافس لرغبة كل طرف بالاستئثار بالسلطة الكاملة، ولهذا فان تاريخ جدة حافل بالكثير من الحوادث التى وصل الأمر فيها بين الشريف والوالي الى الحروب ونحن ننقل هنا بعض الحوادث الهامة الواردة فى الكتاب عن هذه الأمور لاهميتها التاريخية التى تنبىء عما كانت عليه أحوال البلاد من الاضطراب فى تلك العصور.

حكام جدة

كان حسين الكردى حاكم جدة من قبل السلطان قانصوه الغوري وهو الذى بنى بأمر السلطان قانصوه سور جدة وقلعتها البحرية التى صدت البرتغاليين حينما هاجموا البلدة وكان حسين الكردي هذا جبارا صارما فعندما أمره قانصوه ببناء السور فرض على عامة اهالي البلدة وتجارها المشاركة فى البناء وحمل الطين والاحجار حتى اتم السور فى اقل من عام وقد حدث ان احد البنائين تأخر يوما فى الحضور فأمر حسين الكردي ببناء السور عليه وهكذا دفن الرجل حيا تحت هذا السور.

وقد انفصل الحجاز عن حكم السلطان الغوري وانتقلت السلطة الى السلطان سليم أول السلاطين العثمانيين الذين الذى حكموا الحجاز فى سنة ٩٢٣ ويبدو ان الشكوى من حسين الكردى وجبروته وصلت الى مسامع السلطان فأصدر أمره الى والي جدة قاسم الشرواني بإغراق حسين الكردى فى بحر جدة ونفذ الشرواني أمر السلطان فربطت على ظهره صخرة والقي فى البحر (١)

قيطاس بك

وفى سنة ١٠٦٠ ولي حكم جدة غيطاس أو قيطاس بك وهو أحد مماليك رضوان العقادي أمير الحج المصرى ولاّه سيده إمارة جدة نكاية بالشريف زيد أمير مكة فدس انفه فى شؤون الأمارة واخذ يناصر الشريف عبدالعزيز بن الشريف ادريس

---

١ - «٢٩٨/٢٩٩ نفس المصدر»

على أمير مكة ويغريه بالاستيلاء عليها حتى انتهى الأمر الى نشوب قتال عظيم بين الطرفين فى مكان يقع قريبا من السيدة ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها وقد اصيب عدد كبير من الجانبين.

ولما اشتد القتال وخشي الشريف عبدالعزيز من الهزيمة طلب الامان لنفسه ولقيطاس بك ومن معهما فاعطاهما الشريف زيد الأمان وأرسل مع غيطاس اشخاصا يوصلونه الى جدة وبعد ذلك صدر الأمر بعزل غيطاس بك وترحيله الى مصر مع الشريف عبدالعزيز الذى تآمر معه. (١)

حسين باشا

وفى سنة ١٠٧٩ اسندت الدولة إلى حسين باشا أمر جدة ومشيخة الحرم المكى والنظر فى أمر مكة وكان هذا الوالي طموحا، غاضب الشريف سعد بن زيد امير مكة وعاكسه فى توزيع الصرّ المرسل معه لمستحقيه ولم يعتن به ثم توسط بينهما بعض أمراء الحج فتواصلا على مضض وحذر، وبعد انتهاء حج عام ١٠٧٩ عاد الى جدة مقر امارته وظهر منه شقاق كبير على أمير مكة الشريف سعد وبارزه بالعداوة وقطع معاليمه من جدة ـ المعاليم ـ هى المخصصات المالية التى كانت مخصصة لشريف مكة بأمر السلطان ـ ثم قدم الى مكة فى حج ١٠٨١ فلما كان اليوم الثالث من منى اطلقت عليه رصاصة وقيل ثلاث رصاصات فاصيب فى فخده عند جمرة العقبة في وقت الغروب وهو منحدر الى مكة فوقع من حصانه فاحتمله العسكر الى التخت ونزلوا به الى مكة بعد ان قتلوا من وجدوه تجاههم من الحجاج الفقراء الى أن وصلوا الى بيته فى باب الباسطية بمكة.

وبلغ الخبر الشريف سعدا فنزل من منى بمن معه من العسكر والأشراف فى لباس الحديد، واستعدت عساكر حسين باشا للحصار وجعلوا المدافع على باب السدرة ورباط الباسطية ومن جهة باب الشبيكه بمكة. واجتمع امراء الحج بالشريف فأخبرهم أنه لم يعلم بهذا ولم يأمر ـ وطلب الشريف محاسبة حسين باشا

---

١ ـ «٣٠٢/٣٠١» نفس المصدر»

عن استحقـاقـه الذي منعه حسين باشا بدون حق . ووكل الشريف وكيلا من قبله فأقـام الـدعـوى لدى قاضي مكـة على البـاشـا واحضـرت دفاتر بندر جدة فصح للشريف عند الباشا مبلغ ٢٤٠٠٠ قرش وتوسط الأمراء بينهما فاخذ الشريف عشرة آلاف وسامح فى الباقي ، ثم توجه حسين باشا عائدا الى جدة فى السابع عشر من ذى الحجـة وتـوجـه منهـا الى المـدينـة المنورة وكان يضطرم غيظا على شريف مكة فاستـدعى الشـريف أحمـد بن محمـد الحارث بن الحسين بن ابي نمي وولاه شرافة مكة والبسه الخلعة فى الروضة الشريفة ونادى له فى البلد وأمر بالدعاء له على المنبر .

وأرسل الى جدة يطلب الذخيرة والسلاح ليتوجه الى مكة لخلع الشريف سعد وبلغ الشريف سعدا ماحدث فسافر من مكة الى ينبع لقتال حسين باشا ثم توالت الحـوادث حتى ورد عزل حسـين باشـا الى الشريف سعد وجاءته البشرى بامداده بالـذخـيرة والخـزانـة التى طلبهـا حسين باشا فارسلت اليه من جدة ، ثم وافى خبر العزل حسين باشا فتوجه من المدينة الى غزة وتوفي بالطريق . (١)

الاشراف يشكون أمير مكة الى الوالي سليمان باشا

وفى سنـة ١١١١ اسنـدت ولاية جدة الى سليمان باشا واستمرت ولايته لها الى سنة ١١١٨ وخلال هذه السنوات اختلف الأشراف مع أمير مكة الشريف سعد ، واخـذوا يعيثون فى الأرض فسـادا فتعـرضـوا لنهب المسـافـرين بين مكة وجدة من الحجـاج وغـيرهم وكـان أمـير مكة الشريف سعد قد امتنع عن دفع استحقاقات الأشـراف الـيـهـم فكـاتـبـهـم الـوالي سليـمان باشـا ووعـدهـم بضـمان حقـوقهم واعـادتهـا اليهم وطلب منهم تأمـين طريق مكـة للحجـاج فانصـاع الأشـراف لرغبـة الـوالي وأمنوا الطريق بل وصار البعض منهم يصطحبون القوافل فى ذهابها الى مكة وايابها محافظة عليها وكتب الوالي الى الشريف بما فعل

١ص: (٣٠٢/٣٠٣ نفس المصدر)

وطلب منه اطلاق حقوق الأشراف اليهم، ولكن الشريف سعيدا امير مكة لم يحفل بالأمر فما كان من الأشراف الا انهم اجتمعوا وعزلوا الشريف سعيد وولوا بدلا منه الشريف عبدالمحسن وتجمع الأشراف قرب جدة فى منطقة غليل وارسلوا الى سليمان باشا يذكرونه بوعده لهم وبما تم الاتفاق عليه معهم وطلب منهم سليمان باشا الدخول الى جدة فدخل بعضهم وبقى البعض الآخر فى غليل على حذر.

ويبدو ان سليمان باشا كان من دهاة الرجال وقد احكم خطته فاستبقى الاشراف فى جدة وكتب الى الشريف سعيد أمير مكة وكذلك الى والده رسالة يقول فيها:

ان الأشراف نزلوا غليلا لمحاصرة جدة ومنعهم اهلها من الماء (١) وربما يحدث منهم خلاف على البندر - مدينة جدة - وليس لنا قدرة على دفعهم، وارجو ان تخرجوا اليهم ونحن من عندنا معكم او تدفعوا ماهو لهم من المعاليم ليرجعوا عما هم فيه من مضرتنا ومضرتكم وليدخلوا تحت الطاعة، وان كنتم عاجزين عن ذلك فاخرجوا من البلاد فقد نعين لها من يقوم بحفظها.

إن المتأمل فى رسالة الوالي يجدها مبطنة بالتهديد فهو يخيره بين القضاء على مشكلة الأشراف الذين يعبثون بالأمن اما بالقوة ويعده بالمساعدة على ذلك، أو بالحسنى بدفع مالهم من استحقاقات وفى حالة عدم استجابته لأي الامرين يدعوه الى ترك إمارة مكة لانه يصبح عاجزا عن القيام بواجباته.

وركب الشريف سعيد رأسه فكانت اجابته لسليمان باشا - ليس لهم عندنا الا السيف او يرضون بالحيف.

لم يضع سليمان باشا وقتا فاستدعى الشريف عبدالمحسن بن أحمد بن زيد فعقد له إمارة مكة بحضور القاضي والأشراف والأعيان وهيأله كل ما يحتاجه من عساكر خيالة ومشاة وأمن له المرتبات اللازمة من المطعم والمشرب، وكتب الى المدينة المنورة

---

١ - منطقة غليل فيها عين الماء التى ن تستقي منها جدة

بامـرتـه فنـودى به أمـيرا لمكة وخطب بأسمه على المنبر النبوي كما كتب الى قبائل حرب وإلى شمال الحجـاز وإلى اليمن والطـائف بامـرتـه فاطاعوا . ولكن والي مكة الجديد بقي بجدة لأن الأمير الشريف سعيد مازال بها .

ولم يرضـخ الشـريف سعيـد للأمر الواقع فقابل الكيد بالكيد اذ استصدر فتوى شرعيـة من قاضى مكـة المكـرمـة بابطـال البيعـة للشريف عبدالمحسن وبعزله هو وسليـمان باشـا من منصبيهـما ، ولكن سليـمان باشـا كان فيما يبدو قد استصدر امرا سلطانيا باطلاق يده فى تولية إمارة مكة من يشاء وعزل من يشاء وكان قد اعذر الى الشريف سعيد برسالته التى أرسلها اليه .

ابرز سليمان باشا الأوامر السلطانية بتفويضه فى أمر ولاية إمارة مكة فلم يستطيع الشريف سعيد أن يفعل شيئا واضطر فى نهاية الأمر الى الخروج من مكة ليدخلها الشريف الجديد عبدالمحسن بن أحمد بن زيد .

وكما ولي سليمان باشا الشريف عبدالمحسن بن أحمد بن زيد فإنه قام بعزله عن منصب الأمـارة وتـولية الشريف عبدالكريم بن محمد بدلا منه ، ويقول المؤلـف ان الباشا شعر ان الشريف عبدالمحسن يعمل على التخلص من نفوذ الباشا .

وعلى أى حال فان هذه الـوقـائـع تظهـر قدرة هذا الـوالى على السيطـرة على حكـام مكـة من الأشـراف واخضـاعهم لنفوذه استنادا الى ما بيده من تفويض من السلطان ، وقد اقترنت ولاية سليمان باشا بالقضاء على تمرد المتمردين من الأشراف والبدو سواء بالحسنى كما رأينا فى تأمينه طريق القوافل بين مكة وجدة وبالقوة حينما جرد حملة بحـريـة قوامهـا السفن الشـراعيـة على الشريف عبدالله بن عبدالكريم الذى استولى على مدينة ينبع وكذلك حملة بحرية اخرى على الشريف سعد والد الشريف عبدالكريم الذى حاول انتزاع القنفذة بواسطة الأعراب فى الجنوب ولكن الشريف سعيدا لم يهدأ بالا حتى استصدر امرا من السلطان باعادته الى الامارة مرة أخرى وفوجى سليمان باشا بأمر السلطان الذى رضخ له فبايع الشريف سعيدا بالامارة وبذل الشريف سعيد لسليمان باشا الأمان ولكن هذا لم يلبث ان استصدر

فرمانا من السلطان أحمد بعزل الشريف سعيد وتولية الشريف عبدالكريم مكانه ، وهكذا انتصر سليمان باشا الوالي الداهية اخيرا واجلس صديقه الأمير عبدالكريم على دست الأمارة فى سنة ١١١٧ للهجرة.(١)

شـــريف مكة يهاجـــم جـــدة

ادت الخلافات المتفاقمة بين امراء مكة من الاشراف وولاة جدة من الترك الى حدوث احتكـاكـات ادت الى هجـوم أشـراف مكـة بجيـوشهم على مدينـة جدة ومحاصرتها واجبار الوالي التركي على الهرب من جدة .

فقـد اسنـدت ولايـة جدة سنـة ١١٤٦ الى الـوالي علي باشـا وحدثت بينه وبين الشريف مسعود أمير مكة منازعات بسبب المقررات الخاصة للشريف فى بندر جدة وقـدمت جنـود الشـريف مسعـود لمحاصرة جدة وكان الوالي قد استعد لهذا الحصار ونشبت المعـارك الا ان وكيـل شريف مكـة فى جدة وانصـاره فيها اشاروا على قائد جيش الشـريف مسعـود بمهاجمة المدينة من الجهة الجنوبية لضعف الدفاع فى تلك الجهـة وبـالفعـل تمكن الجنـود والمهـاجمـون من التسلل من الثغرات الضعيفة فى السور واصبحوا داخل المدينة ، فلاذ الوالي التركي بالفرار بحراوتمكنت جيوش امير مكـة الشـريف مسعـود من الاستيـلاء على جدة وبـالحاح من الشريف مسعود تم عزل الوالي التركي وارسلت القسطنطينية واليا آخر.(٢)

وقـد حدث نفس الشيء بالنسبـة للوالي الـذى عينتـه مصـرفى سنة ١١٨٣ هـ واسمه حسن اغاشبكة ـ ويبدو ان المصريين تمكنوا من استعادة بعض سلطتهم فى الحجـاز فى ذلـك الوقت فتوجه الوالي الى وادى فاطمة ثم الى جدة ولكن الشريف أحمد بن سعيد أمير مكة لم يكن راضياً عن وصول هذا الوالي المصري فأرسل اليه يأمـره بالخـروج من جدة فلم يقبـل فأرسل اليه جيشا يزيد على أربعة آلاف مقاتل

---

(١) ٣١٤/٣٠٧ نفس المصدر

(٢) ٣١٩/٣١٨ نفس المصدر

ومعه بعض قبائل اليمن، واستعد حسن اغا للدفاع عن المدينة وأخرج المدافع الكبيرة ونصبها على الكدوة وصارت خيله تخرج كل ليلة .وتعسّ الى الرغامة.

وصلت سرية من جيش شريف مكة الى غليل ولجأوا الى وسيلة أخرى فارسلوا كتابا الى الشريف أحمد رئيس جند حسن اغا وجعلوا له مقدارا معلوما من المال ليفسد الجنود على الاغا، وتم التواطؤ بين الشريف أحمد وقائد سرية أمير مكة وأوعز اليهم ان يهاجموا البلدة من الباب اليماني لضعف وسائل الدفاع فيه. وبادر هو بالهجوم مع السرية الواردة من مكة فتمكنوا من الاستيلاء على جدة في نهاية جمادى الآخرة.

وقد استسلمت لهم البلدة بعد ان قتلوا جملة من الاتراك واخرجوهم من البلدة ولم يبق في يد والي جدة الا القلعة التى احاطت بها جيوش شريف مكة ولما ايقن قائد القلعة ان القلعة لاتحميه خرج منها من الباب المطل على البحر وخاض في البحر بخيله وتوجه بمن معه الى رابغ ومنها الى مصر وبذلك انتهت ولاية حسن اغا على جدة. (١)

غــــزو الاحبــــاش لجدة

وإكمالا لما حدث من الوقائع الحربية بجدة نذكر ان الاحباش قاموا بغزو جدة بحرا في سنة ١٨٣ للهجرة واوقعوا بأهلها فخرج الناس من مكة يومئذ غزاة في البحر وعليهم أميرهم عبدالله بن محمد بن إبراهيم المخزومي الذى ولي مكة لهارون الرشيد العباسي .(٢)

وكذلك غزاها اسماعيل الاخيضر سنة ٢٥٦ للهجرة فنهبها وقتل اهلها قتلا ذريعا .(٣)

تعداد سكان جدة

اختلف المؤرخون في تعداد سكان مدينة جدة فقدرهم ناصر خسرو في عام

١- «٣١٩/٣٢٠ نفس المصدر»

٢- «١٠٣ موسوعة تاريخ مدينة جدة»

٣- «موسوعة تاريخ مدينة جدة»

٤٤٢ للهجرة بخمسة آلاف نسمة وقدر الرحالة المستشرق بوركهات سكان جدة فى سنة ١٢٣٠ مابين اثني عشر الفاً وخمسة عشر ألفا وفى سنة ١٢٧٧ قدر مالتزن عدد سكان جدة لما حج الى مكة بخمسة عشر ألفا، وفى سنة ١٢٨١ قدرهم هوجلين بأربعين ألفا، وقدرهم فانديك باثنى عشر ألف نسمة، وفى سنة ١٣٠١ قدرتهم دائرة معارف البستانى بثمانية عشر الف نسمة، وقدر عدد سكان جدة فى مطلع هذا القرن الهجرى سنة ١٣٠٠ هـ محمد صادق باشا بخمسة وعشرين ألف نسمة، وكذلك كان تقدير إبراهيم رفعت باشا، وفى سنة ١٣٢٧ هـ قدرهم محمد لبيب البتانوني بخمسين ألفاً بينهم عشرة آلاف من الاجانب المسلمين بين فرس وحضارمة وهنود وبخاريين، أما الافرنج فيبلغ عددهم مائة اويزيد قليلا واغلبهم من الاروام. وفى سنة ١٣٣٠ هـ قدرتهم دائرة المعارف البريطانية بعشرين ألفا، وفى سنة ١٣٣١ هـ قدرتهم دائرة المعارف الاسلامية بنحو ثلاثين ألفا من العرب المختلطين بالتكارير ونحو ٥٠ نصرانيا. وقدرهم محمد فريد وجدى فى دائرة معارفه بنحو ثلاثين ألف نسمة. (١)

عدد الاجانب فى جدة

فى سنة ١٣٥٥ هـ الموافق لسنة ١٩٣٧ م ذكرت دائرة المعارف البريطانية انه كان بجَدة من الأجانب مايأتي :

٥٠ أمريكيا - ١٩ ايطاليا - ٤٤ بريطانياً - ٥ روس - ٥ فرنسيين - ١١ هولندياً وفى سنة ١٣٧٥ هـ قدرت دائرة المعارف البريطانية سكان جدة بمائة وستين ألف نسمة، وقدرتهم دائرة المعارف الامريكية فى سنة ١٣٧٦ هـ بستين ألف نسمة، وقدرهم توتشل بثمانين ألف نسمة وجاء فى هامش الصفحة ان عددهم الفعلى ١١٢ ألف نسمة ونشر قارى اوين ممثل شركة الزيت العربية الامريكية مقالا فى مجلة المنهل ذكر فيه ان الخبراء يقدرون عدد سكان جدة قبل عشر سنوات بخمسة وثلاثين الفا. ويقدرونهم اليوم سنة ١٣٧٩ هـ بثلاثمائة وخمسين ألفاً أو نصف

١- «١١٠/١١٧» نفس المصدر»

مليون ، وقدرهم عبدالله عبدالجبار فى كتابة التيارات الأدبية الحديثة فى قلب جزيرة العرب بأربعمائة الف وقـدرت منظمـة الصحـة العالمية فى الاحصاء الذى قامت به العـدد بمائـة وستـة آلاف فى سنـة ١٣٨١ هـ وورد فيـه ان ٣٥٪ منهم من الاجانب معظمهم من العمال وأصحاب الحرف. ودل المصور الجغرافى لجدة سنة ١٣٦٨ هـ ان تعـداد السكـان يقـدر بـ ٢٤٤٠٠ نسمـة وان تعـدادهم سنـة ١٣٧٥ هـ كان ٩٤٢٠٠٠ وفى سنة ١٣٧٩ هـ وصل الى ١٠٦٠٠٠ والاحصاء الذى اجرى سنة ١٣٨٢ هـ أظهر أن عدد السكان قد بلغ ١١٤٠٠٠ .

تعداد المباني فى جدة

أما بالنسبة لتعداد المبانى فى جدة على اختلاف أنواعها فإن الكتاب يضم هذه المعلومات :

جاء فى كتاب الجواهر المعدة للحضراوي ان دكاكين جدة تزيد على خمسة آلاف ومقاهيها تزيد على المائة وجاء فى نشرة احصاء السكان والمؤسسات التى اصدرتها وزارة المـاليـة والاقتصـاد الوطني فى ذى القعدة سنة ١٣٨٢ هـ ان عدد مباني جدة - ٣٢٣١٧ مبنى(١) وعدد شوارع جدة حاليا ١٣١ شارعا، هذا فى عام ١٣٨٣هـ(٢)

شـــارع قابل

وفى زمن حصار الملك عبدالعزيز آل سعود لجدة باع الملك علي بن الحسين هذا الشارع لسليمان قابل بثلاثة آلاف جنيه ذهبا واعطاه سليمان قابل ارزا وشعيرا بدلا من النقود المشار اليها ومن ثم صار الشارع ملكا له . (٣)

البحر الأحمـر

يبتدىء البحـر الأحمر من خط عرض ٣٠ شمالا من خليج السويس وينتهى عند ١٣/٤٠ جهـة باب المنـدب ويبلغ طولـه نحو ٢١٥٠ كيلومترا وعرضه فى المتوسط

١- «٥٦٠ موسوعة تاريخ مدينة جدة»

٢- «٥٦١ نفس المصدر».

٣- «٥٦٧ نفس المصدر»

۲۸۰ كيلومتر ويتسع فيما بين مدينتي جازان شرقا ومصوع غربا ويبلغ نحو)٣٤ كيلومتر.

وتبلغ اعماقه بالقرب من السواحل نحو ۲,۲۰۰ قدم وتنحدر الى ان تصل الى زهاء ٦٦٠٠ قدم ويبلغ امتداد السواحل فى المملكة العربية السعودية مايزيد عن ١٠٠٠ ميل.

الماء فى جدة

كانت جدة تعاني من شح الماء عبر القرون وفى القرن العاشر الهجرى قام السلطان قانصوه الغورى بجلب الماء العذب الى جدة من وادى قوص الواقع شمال الرغامة وتبعد الرغامة عن جدة ساعتين سيرا على الاقدام ولكن هذا الماء كان يتعرض للملوحة اذا شحت الامطار ويعذب بكثرتها، فلما دخل القرن الحادى عشر الهجرى انقطعت العين ثم اجريت ثم انقطعت مرة اخرى فى القرن الثالث عشر الهجرى، وذلك تبعا للتطورات السياسية والأمنية التى تتعرض لها البلاد ولتوفير الصيانة والتنظيف واهمالها. وفى سنة ١٢٧٠ هـ، قام التاجر فرج يسر باعادة اجراء العين بعد اصلاحها وجمع لذلك التبرعات من التجار واستمر جريانها الى سنة ١٣٠٤ هـ وفى سنة ١٣٠٦ هـ تم ايصال الماء الى جدة بأمر من السلطان عبدالحميد الثانى فوصل الماء الى جدة فى عهد الوالى التركي صفوت باشا وسميت هذه العين بالحميدية نسبة الى السلطان عبدالحميد الثانى، ولكن الاسم الذى غلب على هذه العين لدى أهل جدة هو العين الوزيرية وكانت هذه العين تنبع من سفوح الجبال الشرقية لجدة والتى تبعد مسافة نصف ساعة عن جدة، وبنيت لهذه العين مناهل فى انحاء متفرقة من مدينة جدة ليأخذ الناس منها حاجاتهم من الماء كما تأخذ البواخر منها حاجتها كذلك.

تقطير الماء من البحر

تكرر انقطاع الماء عن مدينة جدة فجلبت الحكومة التركية فى سنة ١٣٢٥ هـ أول آلة لتقطير مياه البحر وكان أهل جدة يسمونها الكنداسة، ولم تكن هذه الكنداسة كافية لسقيا مدينة جدة فكانت موردا مساعدا للصهاريج الموجودة فى جدة والآبار الأخرى. وقد تعرضت هذه الآلة للخراب حينما انقطع الفحم

الحجرى الذى كان وقودها فى عام ٤٣ و ١٣٤٤ هـ وفى سنة ١٣٤٦ هـ استوردت الحكومة السعودية آلتين مقطرتين بدلا من الآلة البخارية .

عين العزيزية

اجتمع أهل جدة فى ١٣٦٧ هـ وقرروا جمع المال من أثريائهم لجلب الماء إلى جدة بعد ان تكرر انقطاع العين العزيزية عنها وقد جمع الأهالي نصف مليون ريال واستقدموا خبيرا انجليزيا لهذه الغاية ولما علم جلالة الملك عبدالعزيز بالأمر أمر بجلب الماء على حسابه وكلف الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية بهذا المشروع وقد جلب الماء من عيون وادى فاطمة بعد الاتفاق مع أهلها على ذلك وتعاقدت الحكومة مع شركة جلاتلي هنكي الانجليزية على تنفيذ المشروع وبدىء العمل به فى منتصف عام ١٣٦٧ هـ وفى غرة المحرم ١٣٦٧ هـ وصل الماء الى جدة منقولا بالأنابيب بطول خمسه وستين كيلومترا وبذلك انتهت قصة انقطاع الماء التى دامت عبر القرون(١) .

وعلى ذكر الكنداسة نورد هنا بعض أبيات من قصيدة المرحوم محمد سعيد العتيبي فى الكنداسة :

يا ذوى الرأى والحجي والكياسة ... خلصونا من دوشة الكنداسة

كلكم تأخذون بالدِّسِّ ماءاً ... ونشوف النجوم من أجل كاسه

ومنها

كل عشرين طابقون حمارا ... ويل من عضَّه الحمار وداسه

منظر يضحك الخواجات منه ... والأديب اللبيب من هز رأسه

ويضم الكتاب كثيرا من المعلومات التى تجمع بين الطرافة والغرابة وقد اخترنا منها ما يلى : (٢)

(١) «١٤١/١٥٦ نفس المصدر» .
(٢) «١٥٢/٥٣ نفس المصدر» .

امتيـــازات الحضارمة فى جدة

جاء فى مذكـرات المـرحـوم الشيـخ محمـد صالـح بن علي باعشن ان كثـيرا من تجارات جدة كانت بيـد الحضـارمـة وان لهم تقـاليدهم الموروثة فى جدة وكانت لهم مكـانـة فى المجتمـع باعتبـارهـم من رجالاته وكانت الدولة العثمانية تقدر لهم هذه المكـانـة وكـانوا يمتازون عن سكان المدن الأخرى فى الحجاز ـ مكة والمدينة وغيرها من مدن الحجاز ـ بإن دعاواهم وتركاتهم وبيع وشراء دورهم تتم عند شيخ السادة ولايتعرضهم وال ولا قاضٍ .

وقد صدر بذلك فرمان سلطاني فى سنة ١٢٣٧ هجرية من السلطان محمود خان وبقى هذا الامتياز ساريا فى العهد العثمانى ثم فى العهد الهاشمي ، ولما تولى الملك عبـدالعـزيـز امـر الحجاز طلب منه الحضارمة ابقاء امتيازاتهم لهم فوافق على ذلك ولكنهم اختلفوا فيما بينهم فى أمر المشيخة وكانت اجتماعاتهم تتم فى دار الشيخ محمد صالح باعشن ولم يتفقوا على شيء فضاعت امتيازاتهم وتغير الأمر بالنسبة اليهم(١) .

ثـروات البحر

وصف الـرحـالة الحميري جدة وضخامة الثراء بها فقال وفى أعلى منازلها قباب محكمة ويذكر أهلها ان من بلغ كسبه مائة ألف دينار بنى على داره هذه القبة ليعلم ان كسبه قد بلغ العدد المذكور(٢) .

صادرات جـــدة

وصف بطرس البستانى تجارة جدة بأنها متسعة جدا تجرى على الاكثر بواسطة مراكب انجليـزيـة ومـراكب عثـمانيـة ووطنيـة صغيرة محمولها نحو ٨٠ طنا وأن من صادراتها البن والصمغ والطيوب والبلسم والبخور والسنا والعاج والعطر والخيارشنبر وصدف اللؤلؤ وتروس السلاحف وريش النعام والتمور والسكاكين والخزف والجلود .

---

(١) ٢٣٢/٢٣١ نفس المصدر.

(٢) ٢٧٥ نفس المصدر.

رأس المــــــال

يقول الشيخ محمد صالح بن علي باعشن : وكان من يبلغ رأس ماله ستة عشر ألف ريال يعتبر تاجرا ناحجا مرموقا. (١).

اللؤلـــؤ فى جـــدة

وقد ذكر توتشل ان بعض اللآلى وجدت على طول البحر الأحمر قرب جدة الى الجنوب ولكن الغوص لم يكن حتى الآن احد المشروعات الناجحة. (٢).

واردات جـــدة

حددت دائرة المعارف الاسلامية واردات جدة بانها كانت بعد فتح قناة السويس بمقدار مليون وخمسمائة الف جنيه ذهب(٣).

وذكـرت دائـرة المعارف المطبوعة سنة ١٩٦٠ ، ان استيرادات جدة من البضائع فى سنة ١٩٥٥ م بخمسة ملاين جنيه.

صـادرات المملكة ووارداتها فى سنة ١٣٧٩ هـ

ذكر تقرير رئيس الغرفة التجارية بجدة الأرقام التالية :

٣,٣١٣,٥٠٦٧٤٤ ريال صادرات المملكة فى سنة ١٣٧٩ هـ.

٩١٧,٦٣٢٧٠٢ ريالا واردات المملكة فى العام المذكور. (٤)

حــارة المظـلـوم - سبب التسـمية

فى سنة ١١٣٤ هـ وقعت بالمدينة المنورة فتنة أهلية أتهم أغوات المسجد النبوي فيهـا العـالم الـديني السيـد عبـدالكريم البر زنجي بأنه من مشعلي الفتنة ورؤ وسها وصـدر الأمـر من السلطنـة بقتـل السيـد البر زنجي ومن اتهم معه من زعماء الفتنة ومثـيريها . وبقي السيـد عبـدالكريم البر زنجي بالمدينة خائفا ولم تلجأ الدولة الى القبض عليـه فى المـدينـة وتنفيـذ حكم القتـل فيـه تحسبا لما قد ينجم عن ذلك من

---

(١) «٢٧٦ نفس المصدر».

(٢) «٢٧٩ نفس المصدر».

(٣) «٢٨٠ نفس المصدر».

(٤) «٢٨٣ نفس المصدر».

القلاقل ، ويبدو ان لمكانة الرجل الدينية الاثر الاكبر فى تحسب الدولة لذلك .

لهذا فقد اغروا به من زين له الخروج من المدينة والانتقال الى جـدة حيث انها آمن له من المـدينـة ، وقـرر السيد البر زنجى الخروج من المدينة والانتقال الى جدة فلما وصل الى مكة فى طريقه الى جدة قبض عليه الوزير ابوبكر باشا وأرسله الى جدة فحبس بقلعتها وقتل خنقا والقي بجسده فى سوق جدة يوما كاملا وكان قتله بهذه الصفـة الشنيعـة ثم القـاؤ ه فى السوق قد أثار حنق أهل جدة وسخطهم على الحكـومـة العثمانية فسموه المظلوم وسميت المحلة التى القى بها جسده محلة المظلوم من يومئذ الى اليوم .

يقـول المؤلف امـا كتـاب السلاح والعدة فى فضل جدة فيسمى البقعة التى فى داخـل السـور بالجهـة الشـماليـة باسم بقعة المظلوم نسبة الى عفيف الدين مظلوم المدفون فيها(١) أقول والرواية الأولى تتفق مع ماسمعته من بعض العارفين بتاريخ جدة من أهلها والله أعلم .

باب المغاربة ـ سبب التسمية

وكـان هذا البـاب يقـع أمام عمارة معرض الجفالي ، ولعل منشأ التسمية انه كان مدخـل حجـاج المغـاربـة أيام كانت تفرض عليهم رسوم حج باهظة من قبل امراء مكـة ، كما حدثنـا ابن المجـاور الـدمشقي من أهل القرن السابع الهجرى فى كتابه تاريخ المستبصـر ، وقـد افادنا ابن المجاور بأن صلاح الدين الأيوبي أنفذ من مصر الى الأمـير مكثـر أربعـة آلاف اردب حنطة (والأصح ستة آلاف أردب حنطة) إلى جدة وإلى مكـة وقـال له خذ هذا القـدر واتـرك عن المغاربة الجزية مع دية الكلب فازال الأمير مكثر ذلك كله فى سنة ست وثمانين وخمسمائة ثم أراد الأمير قتادة ان يرد الشىء الى أصله ـ يعنى اخذ الجزية من المغاربة فادركه الموت وارتفع عنهم . وقد وصف ابن جبـير الانـدلسي الـذى حج فى زمن امـارة الأمير مكثر ما كان يمنى به الحجـاج من أرهـاق فى أخـذ المكـوس على اشخاصهم «وكان مقدار الجزية سبعة يوسفية على كل رأس كما كان القواد فى جدة يأخذون من كل رأس منهم يوسفيا» .

---

(١) . «٣١٦ نفس المصدر» .

قال ابن جبير ولولا ماتلافى الله به المسلمين فى هذه الجهات الحجازية بصلاح الدين لكانوا من الظلم فى امر لاينادى وليده لايزجر شديده فانه رفع ضرائب المكوس عن الحجاج وجعل عوض ذلك مالا وطعاما يأمر بتوصيلها الى أمير مكة، فمتى ابطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم، عاد هذا الأمير الى ترويع الحاج بسبب المكوس واتفق لنا من ذلك ان وصلنا الى جدة فامسكنا بها خلال ماخوطب مكثر الأمير المذكور فورد امره ان يضمن الحاج بعضهم بعضا ويدخلوا الى حرم الله فان ورد المال والطعام اللذان برسمه من قبل صلاح الدين والا فهو لايترك ماله قبل الحاج، ثم قال ابن جبير - والذى جعل له صلاح الدين بدلا من مكْس الحاج الفى دينار والفي أردب من القمح وهو نحو الثمانمائة قفيز بالكيل الاشبيلي عندنا حاشا اقطاعات اقطعها بصعيد مصر وبجهة اليمن لهم بهذا الرسم المذكور، ولولا مغيب هذا السلطان العادل صلاح الدين بجهة الشام فى حروب له هناك مع الأفرنج لما صدر عن هذا الأمير المذكور ماصدر فى جهة الحاج.(١)

أوليات فى جدة

الفرنجة - القنصليات الأجنبية

فى سنة **١٢٥٢** هـ كان وصول أول قنصل انجليزى الى جدة وتوطنه بها ونصبه أول علم للأجانب بها فكانت القنصليات الأجنبية فى جدة تابعة لبريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا وهولندا وبلجيكا وإيران وكان للحكومة البولندية قنصلية فى جدة وانقطعت العلاقة معها بعد استيلاء الروس على بولندا، اما العلاقة السياسية مع روسيا فقد بدأت فى **١٦** فبراير سنة **١٩٢٦** م وانقطعت فى سنة **١٩٣٨** م. (٢)

وكان للمسيحيين فى جدة نظام خاص فى لباسهم وتنقلهم كما يظهر فى الفقرة التالية.

١- «٥٥٨/٥٥٩ نفس المصدر- عن رحلة ابن جبير نفس المصدر- عن رحلة ابن جبير ٥٤/٥٥».

٢- «٣٩٣ /٣٩٨ نفس المصدر»

المســــيحيون فى جدة

ويوجد مسيحيون يقيمون فى جدة وهناك يونانيون قليلون يعملون فى التجارة ، وكان قدومهم الى جدة من مصر وكانوا مجبرين فى ايام الشريف على ارتداء لباس خاص وكانو ممنوعين من الوصول الى باب مكة فى مدينة جدة وعندما حكم الاتراك الحجاز ازيل هذا النظام الدقيق ، والآن للمسيحي كامل الحرية فى التنقل فى جدة واذا مات لايـدفن فى جدة لانهـا تعتـبر ارضـا تابعـة للأرض المقـدسة ويوجد محل خاص فى الجزر الصغيرة يؤذن لهم فى الدفن به . (١)

أما اليهود فقد طردوا من جدة كما يظهر من الفقرة الثالية .

اليهـــــود فى جدة

وكـــان اليهـود وهم سماسـرة هذا البلد ولكنهم طردوا منـذ سبعـين عامـا لسـوء أخـلاقهم و نزحـوا الى اليمن وصنعـاء على مايقـولـه بوركهارت . وبوركهارت مستشرق سويسري تسمى بإسم إبراهيم عبدالله وتزيى بزي المسلمين ودخل جدة ومكة والمدينة ووصف موسم الحج وصفا بارعا فى كتاب سماه السفر الى بلاد العرب وظهر باللغة الانجليزية سنة ١٨٢٩ م . (٢)

وتعليقـا على ذلـك اقـول أن مايتعلق بالمسيحـين ربـما كان فى العهـود السابقة للحكم العثماني والتى تبدأ فى أواخر القرن العاشر الهجرى والمقصود بكلمـة أيام الشـريف الـواردة فى الخـبر هو شريف مكـة . لقـد ادركت المسيحيـين فى العهـد الهـاشمي واوائـل العهد السعودى وهم يعيشون حياة عادية فى ملابسهم وتحركاتهم وكـانت لهم شركـاتهم واعمالهم أما بالنسبة لمدافنهم فقد كانت لهم مقبرة فى جدة فى الجهة الجنوبية قرب الميناء ولاتزال موجودة حتى هذا اليوم ، اما عن اليهود فلم يكن بجدة الا يهودي واحد اسمه ماركو وكان له دكان فى شارع متفرع من السوق الكبير وقـد رحـل من جدة بعـد ان تزوجت ابنته الخواجه نقولا وكان يونانيا مسيحيا على

١- «١١١ نفس المصدر»

٢- «١١١ نفس المصدر»

غير رضاء منه فترك جدة غاضبا الى غير رجعة.

اضاءة الشـــــــوارع

واضيئت شوارع جدة بالمصابيح الغازية فى أول عهد الحرية فى سنة ١٣٢٧ هـ وكـان المتصـرف سوريـا اقـول والمقصـود بعهـد الحـرية هو الانقلاب الذى قام به الأحـرار العثمانيـون وكـان شعـاره حريـة مساواة عدالة وكان حزبهم يسمى حزب الاتحاد والترقى . (١)

دخول فن التصوير الفوتوغرافي

يقول المؤلف : حدثني الشيخ محمد نصيف بأنه فى سنة ١٣٠٠ هـ اخذ رسمه - فوتوغرافيا - وهو ابن ستة اشهر المستشرق الهولندى سفوك هوجرنة الذى كان يومئذ نزيـل جدة قادمـا اليهـا من مصـر وكـان ذلـك برغبـة من جدة الشيـخ عمـر نصيف . (٢)

الحسبة والمحتسب

المحتسب هو المتصـرف فى شئـون المـدينة وبيده مفاتيح أبوابها وهو المسئول عنها وكان لديه مراكب مؤلفة من بغال وحمير وجمال ولديه رجال شجعان مسلحون لنشر الأمن فى البلدة واذا حدث أمر هام فى الليل مثلا فان الكتب الرسمية التى يكتبها حاكم جدة إلى إمارة مكة فى هذا الشأن لاترسل الا مع رجل خاص من رجالات المحتسب. وكانت إمـارة مكـة تبيـع الحسبـة لطـلابها مقابل مبلغ من المال يدفعه المحتسب لخزانـة أمـير مكـة وربـما كان الحـال فى جدة شبيهـا بذلـك فى بعض الظروف. وكانت لحسبة فى عام ١٢٧٠ هـ تدور بين ثلاثة اشخاص من أهل جدة هم محمد طويل جد محمد الطويل رحمه الله وعبدالله محتسب وآخر من بيت جاسر. وفى مطلع القـرن الهجرى الـرابـع عشر حولت الحسبة الى رئاسة بلدية جدة مثل سواها من مدن الحجاز.

١- «٣٩٣ نفس المصدر»

٢- «٤٩٥ نفس المصدر»

قبر حـــــواء

كان موضـع هذا القـبر هيكـلا عبـدتـه قضـاعـة قبـل الاسلام وبقي اثره بعد الاسلام فاقيم القبر مكانه، ولقد حاول الشريف عون الرفيق هدم هذه القبة ـ قبة قبر حواء ـ وقـام قنـاصـل الـدول فى وجهه حيال عزمه المذكور وحيلولتهم بالتفاهم الـودى بينـه وبين تنفيذ ماعزم عليه بحجة ان حواء ليست أم المسلمين وحدهم بل ويشاركهم فى بنوتها جميع البشر من الاجناس غير الاسلامية. (١)

أقول وهذا الخبر فيه شيء من الغرابة والله أعلم.

تقييم الكتـــــــاب

وبعد فهذا الحديث الطويل عن جدة هو مارأيت نقله من موسوعة تاريخ مدينة جدة وهو من أهم الكتب التى الفها المرحوم الأستاذ عبدالقدوس الانصارى فتتبع كلما يتعلق بمـدينـة جدة فى كتب الـرحلات والمؤرخين والجغرافيين ودوائر المعارف اضافة الى ابحاثه الخاصة فى شتى المجالات حديثها وقديمها والاتصال بالعارفين من أهلهـا كالشيـخ محمـد نصيف والشيخ محمد صالح بن علي باعشن رحمهما الله وهما من كبـار أهـل جدة الـذى يجمعـون بين العلم والخبرة ومعـاصرة الاحداث، والتنقيب عن المـذكـرات والكتب المخطوطة فى تاريخ جدة واستخلاص المعلومات منهـا. ان الكتـاب حجـة فى موضوعه ولقد بذل فيه المؤلف من الجهد والوقت ما لم يبـذلـه سواه من أهـل جدة أوغيرهـا مما يجعله مرجعـا قيـما لكـل مؤرخ أودارس والكلمة الاخيرة فى هذا الكتاب هى استحثات الاستاذ نبيه الأنصارى ابن المرحوم عبدالقدوس فى إكمال مابدأه والده واخراج الجزء الثانى من هذه الموسوعة الضخمة فى تاريخ جدة.

١- «٤٨/ ٤٩ نقلا عن رحلة لبيب البتنوني».

المعـــارك الأدبية

خاض عبدالقدوس رحمه الله معارك أدبية كثيرة أولها فيها اذكر مع الأستاذ محمد حسن عواد يرحمـه الله حينـما اصـدر عبـدالقدوس كتابه التوأمان وكان رأي الأستاذ عواد فيه سيئـا ودارت المعـركـة فى جريدة صوت الحجاز بين الأديبين، وقد اصدر عبدالقدوس كتابه هذا ولعله أول كتبه فى مطلع شبابه وكان العواد قد فرض نفسه فى دنيا الأدب وذاع اسمه وصيته.

أمـا المعـارك الأخـرى فلقـد كانت مع الأستـاذ حمد الجاسر والأستاذ عبدالله بن خميس ولعلهـا ان لم تخني الـذاكـرة تتعلق بابحاث تاريخية وأثرية . . وعلى اى حال فليس من غرض هذه الـترجمـة الحكم بين عبـدالقدوس وغيره من الأدباء والعلماء وأنما اعطاء صورة عن حياته الأدبية والعلمية.

ولقد كان الرجل فيما أعلم موضوعيا فى هذه المعارك يترفع عما يسف من الكلام ويلتـزم أدب البحث ولكنـه يجهر بما يعتقد انه الصواب رحم الله الانصارى وعوادا وغفر لهما وامد الله فى حياة الأديبين الكبير ين حمد الجاسر وعبدالله بن خميس فهما من أعلام الأدب والعلم فى هذه البلاد.

الكلمـــة الأخـــيرة

وإذا كانت هنـاك كلمـة اخـيره تقـال فى آثار عبدالقدوس رحمه الله فلعل المنهل الـذى رعـاه عبدالقدوس شابا ورجلا وشيخا هو الموسوعة الحقيقية لمعارفه وتحقيقاته، وهي المرجع الضخم لادبه وعلمه، وهو كذلك من أهم المراجع لكثير من الأدباء والعلماء الأموات منهم والأحياء.

لقد وهب عبدالقدوس رحمه الله نفسه للأدب والعلم والتحقيق والبحث فقضى حيـاتـه كلهـا فى عمـل دائب مفيـد وتـرك لنـا هذا الـتراث الضخم من الأبحاث والتحقيقات سواء فى كتبه الخاصة أو فيما كان ينشره فى مجلته العظيمة المنهل خاصة وفى الصحف الأخرى عامة وهو بهذا الدأب يصور لنا حياة رجل العلم الذى وهب

حياته كلها للعلم النافع المفيد.

مرضه ووفاته

مرض عبـدالقـدوزس رحمه الله مرضا شديد تردد فيه على المستشفيات فى جدة والـريـاض ويبـدو ان العلة كانت قد استعصت على العـلاج وآذان مصباح حياته بالانطفاء فتوفى فى ليلة الثانى والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ١٤٠٣ هـ عن عمر يناهز الثمانين عاما ودفن بمكة المكرمة فى مقبرة المعلاة بعد ان صلي عليه صلاة الظهـر من يوم الثـلاثـاء الثـالث والعشـرين من جمادى الآخرة ، تغمده الله برحمته الـواسعـة وانـزله منازل رضوانه وتقبل منه عمله الطيب فى خدمة الأدب والعلم انه سميع الدعاء. .

● ●



عبدالله باشا باناجه



عبدالله باشا باناجه

معتدل القامة نحيف البدن حنطي اللون واسع العينين، اقنى الانف، مهيب المنظر يكسو الشيب لحيته وعارضيه وشاربه وحاجبيه، يرتدى الجبة والعمامة الالفي وتحتها الشاية وهى اللباس الخاص بالتجار فى ذلك الزمان.

ولد بمدينة جدة فى الفترة حوالي عام ألف ومائتين وسبعين للهجرة، وسافر بصحبة والده التاجر يوسف باناجة الذى نفي مع من نفي من تجار جدة الى جزيرة قبرص على اثر غزو الأسطول الانجليزى لميناء جدة اثر قيام الاهالي بقتل القنصل الانجليزى والقنصل الفرنسي وبعض الفرنجة فى جدة.

وتفصيل هذه الموقعة ان شائعة انطلقت فى مدينة جدة فى ذلك الزمان مفادها ان القنصل الانجليزى دعس العلم العثمانى بقدمه فى إحدى البواخر الراسية فى الميناء، واعتبر الأهالى ان هذا العمل الذى قام به القنصل الانجليزى اهانة للعَلَم الذى هو رمز الاسلام فقتلوه وقتلوا معه القنصل الافرنسي كما قتل فى هذه الحادثة بعض الافرنج المقيمين بجدة ونهبت دورهم.

استشاطت حكومة الانجليز غضبا لما حل بقنصلها وغيره من الفرنجة فارسلت بعض قطع اسطولها الى ميناء جدة، واطلقت بعض هذه القطع قنابلها على

المدينة فالحقت الخراب ببعض اجزائها، ولم تستطع القلعة البحرية مقابلة هذا الهجوم بما لديها من مدافع قديمة وأسلحة اكل عليها الدهر وشرب.

وقد رأت الدولة العثمانية ان من الحكمة تسوية هذه المسألة فاجرت تحقيقا فى الحادث الخطير وعاقبت القائمين به والمحرضين عليه بالقتل والنفي، وقد نفذ القتل فى عبدالله المحتسب الذى كان محتسب مدينة جدة ـ المحتسب هورئيس البلدية ـ وسعيد العامودي وغيرهم وكان من ضمن المنفين الشيخ يوسف باناجة والد المترجم (١).

وقد توفي الشيخ يوسف باناجه فى منفاه بجزيرة قبرص فعاد عبدالله باناجه مع أخيه عبدالرحمن ووالدتهما إلى جده، وكان اخوهما الاكبر محمد باناجه هو الذى يشرف على شئون العائلة منذ نفي والدهم من البلاد. ونشأ عبدالله باناجه فى جدة وتعلم أولا فى قبرص حينما كان والده منفيا بها وربما اتاح له هذا تعلُّم اللغة التركية هناك فقد كانت الجزيرة تحت حكم الاتراك وبها جالية تركية اسلامية كبيرة وعلى اي حال فقد نال من العلم ماكانت تسمح به ظروف ذلك الزمان، ولما بلغ مبلغ الشباب عظم الخلاف بينه وبين أخيه الاكبر محمد الذى هورئيس العائلة وكان جافي الطبع شديدا فى تصرفاته فلم يستطع عبدالله العيش مع اخيه هذا فهاجرإلى مدينة الاستانة ـ اسطنبول ـ عاصمة الخلافة العثمانية وهي فى اوج مجدها وازدهارها.

واشتغل عبدالله باناجه بتجارة المجوهرات من اللآلىء والاحجار الكريمة، وكان لهذه التجارة سوقها الرائج اذا جمع صاحبها بين حسن الاختياروجمال التنسيق وصاحب ذلك الكياسة وحسن السياسة.

ووجد عبدالله باناجه طريقه الى بلاط الخليفة وقصوره بما تحمله من نفيس الجواهر وكريم اللآلىء فاصبح مقربا الى البلاط ولم يمض طويل وقت حتى عيَّنه

---

١ ـ انظر تفاصيل القصة فى كتاب موسوعة تاريخ مدينة جدة ٩٤/٩٥ للاستاذ عبدالقدوس الانصارى.

السلطان عبدالحميد عضوا فى مجلس المبعوثان وانعم عليه بلقب الباشوية الرفيعة فى ذلك الزمان فاصبح اسمه ـ عبدالله باشا باناجه ـ وهو الوحيد فيما أعلم من أهل الحجاز الذى حصل على هذه الرتبة الرفيعة العالية بما لها من امتيازات واوسمة باستثناء بعض اشراف مكة المكرمة الذين منحت لهم رتبة الباشوية من السلطان فى ذلك الزمان.

بزغ نجم الفتى وطابت له الاقامة فى عاصمة الخلافة وتزوج بها واقتنى الضياع وطالت اقامته هناك حتى يئس اهله واخوته من رؤيته بينهم فى جدة مرة اخرى، ولكن للأقدار احكامها التى تغير ماقدر الناس لانفسهم وما ارادوا، مات محمد باناجه الاخ الاكبر، واصبح عبدالله هو رئيس العائلة فعاد الى وطنه مرة اخرى ليكون على رأس البيت الذى تركه شابا وكانت هذه العودة سببا فى كلما حققة بيت باناجه وماناله من شهرة وذيوع صيت، كانت العائلة تسكن فى بيت صغير فى منطقة سوق الندى وحول هذا البيت بيوت صغيرة اخرى متناثرة والى جانبها أرض خالية ترمى فيها النفايات. اشترى عبدالله باناجه باشا البيوت الصغيرة المحيطة بدار اسرته كما أشترى الأرض المهملة وهدم الجميع لينشيء مكانها بيت العائلة الكبير الموجود حاليا بسوق الندى وليبني حوله المخازن الخاصة بالبضائع وليكون سفله مكاتب للعمل التجارى، وعلوه للسكن وكان هناك بيت صغير متصل بمسجد الحنفي وهو من أقدم المساجد فى جدة، وملاصق لبيت باناجه فاشتراه الباشا ليجعل منه مقصورة للصلاة متصلة بالمسجد ومحجوزة عنه بشباك كبير من الحديد، وشيد فى نفس الوقت صالة فخمة والحقها بهذه المقصورة وكان فى تصرفه هذا مثالا للذكاء وبعد النظر.

كان آل باناجه يستعلمون المقصورة فى صلاتهم اليومية فإذا أذن الظهر والعصر تركوا مكاتبهم واجتمعوا فى هذه المقصورة يصلون بصلاة أمام المسجد وهم يشاهدون المصلين كما يشاهدهم المصلون كان هذا فى الايام العادية، اما فى يوم الجمعة فان الامر يختلف اختلافات تاما. لقد اصبحت هذه المقصورة ملتقى الولاة

والحكـام والاعيـان ، يفـد الـوالي الـتركي والقائمقام ومدير الشرطة وكبار الاعيان لصـلاة الجمعـة فى مقصـورة آل باناجه فإذا انقضت الصلاة انتقل المجتمعون الى الصـالـة الكبـيرة المؤثثة باجمل الاثاث للاستراحة وفيها تدار عليهم اكواب القهوة والشـاي وينطلق بخـور العـود، وتـدور الاحاديث التى تتعلق بأهم الاحداث كما تدور المجاملات وليس هذافحسب كانت، المقصورة مكانا امينا للشخصيات الهامة من الملوك والعظـماء الـذين يصلون الى جدة وتـدركهم الجمعـة بها ، ولقد شهدت كثيرا من الملوك الذين عاصرتهم يصلون الجمعة فى مقصورة آل باناجه .

الملك الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز.

السلطـان وحيـد الـدين آخـر سلاطـين آل عثـمان الـذى زار الحجاز بدعوة من الشـريف الحسـين بعـد خلعـه من العرش . الملك الشريف علي بن الحسين الذى خلف اباه الشريف الحسين على عرش الحجاز.

الملك الامام عبدالعزيز بن سعود ملك الحجاز وسلطان نجد بعد فتح الحجاز.

الملك سعود بن عبدالعزيز. . . الملك فاروق ملك مصر حين زيارته الأولى للحجاز.

السلطان القعيطي سلطان حضرموت حينما حضر للحج . وغيرهم من الحكام وأولى السلطان .

وفى الجمعـات التى يصلى فيهـا أحـد الملوك يستعـد آل باناجه اعظم استعداد لاستقبـال الضيـف الكبـير فيجهز المجلس ويرش الحوش الذى يدخل منه الموكب ويصطف الجنـد حول المنـزل وفى سوق النـدى المحيـط بالدار، فإذا اقبل الضيف

استقبله الـرسميـون ومعهم كبـير العـائلة وأهمّ افـرادها وانطلق امامه حملة المباخر ينطلق منها شذى العود . فإذا استقر المقام بالضيف الكبير قدمت له القهوة العربية واديـرت اكـوابهـا على الحـاضرين ورش الحاضرون بماء الورد ، ثم قدمت اكواب الشراب الحلو الذى يحتفظ به آل باناجه لهذه المناسبات وهو من أحسن الأشربة واجودها .

فإذا أذن للصلاة قام الجميع الى المقصورة لاداء الصلاة بعد الاستماع الى الخطبة فإذا انقضت الصلاة عاد المصلون الى المجلس مرة أخرى لتدار عليهم القهوة وأكواب الشاى بينما ينطلق الشذى العاطر من بخور العود وبعد الاستراحة يودع الضيف الكبير بكل مظاهر الاجلال والاكبار.

وعلى ذكر هذه المقصورة فان أول من بنى المقاصير للصلاة من الخلفاء هو الخليفة الاموي معاوية بن ابي سفيان رضى الله تعالى عنه وذلك بعد ان تعرض لمحاولة قتله من قبل الخوارج فى ١٧ رمضان سنة اربعين للهجرة. ذلك ان ثلاثة من الخوارج اجتمعوا واتفقوا فيما بينهم على ان كل الفتن العظيمة التى يعانى منها المسلمون سببها هو الخلاف بين علي ومعاوية وعمرو بن العاص فتعاهد الثلاثة على ان يقوم كل منهم بقتل واحد من هؤلاء، وقتل الامام علي رضوان الله تعالى عليه بيد الشقي عبدالرحمن بن ملجم وهو خارج الى المسجد ينادى لصلاة الفجر - الصلاة الصلاة.

ونجا عمرو بن العاص رضي الله عنه لانه مرض ليلتها فلم يخرج الى الصلاة واناب عنه من يصلي الفجر بالناس فقتله عمرو بن بكر التميمي الخارجى وهو يظنه عمروا. اما معاوية رضى الله عنه فقد اصاب السيف موضع جلوسه وكان جسيما فجرح ولكنه نجا من القتل وكان الذى ضربه بالسيف هو البرك بن عبدالله التميمي الخارجي. بعد هذه الحادثة اقام معاوية رضوان الله تعالى عليه مقصورة يصلى فيها وكلف من يقوم على حراستها اثناء الصلاة.

ولقد رأيت الملك عبدالعزيز يرحمه الله يصلى فى مقصورة آل باناجه وعلى باب المقصورة يقف عبد اسود طوال شاهرا سيفه ومن خلف جلالته يقوم الحرس شاهرين سيوفهم.

ومما تحتفظ به الذاكرة ان الشريف الحسين حينما وصل مع السلطان وحيد الدين الى دار آل باناجه لصلاة الجمعة كانا يستقلان عربة تجرها الخيول وكان الملك علي بن الحسين يصل الى المسجد وهو يمتطى السيارة. أما الملك عبدالعزيز رحمه الله

فقد شاهدته فى أول جمعة صلاهـا فى مدينة جدة خرج ماشيا من بيت نصيف الشهير تتقدمه مجموعة ضخمة من الرجال ربما يصل عددهم المائة ومن خلفه مجموعة اخرى بنفس العدد وهم يحملون اسلحتهم ، وعاد بنفس الموكب وكان طريقه من بيت نصيف مرورا بشارع قابل ثم بالسوق الكبير الى سوق الندى حيث يقع بيت آل باناجة وكان الحرس يملؤون الساحة الكبيرة للبيت والتى زينت ببوابة ضخمة وواسعة جدا من الخشب المتين القوى المنقوش وكان الناس يملؤون الطرقات والشوارع التى بها الموكب فى الذهاب والاياب .

نعود بعد هذا الاستطراد الى عبدالله باشا باناجه فنقول انه كما أسس هذا البيت فى مدينة جدة بمقصورته التى دخلت التاريخ كما اسلفنا عنها من حديثه اشترى فى مكة بيتًا بل قصرا عظيما آخر كان يقع فى مواجهة الحرم الشريف امام باب علي ، فى منطقة الصفا وكان ملحقا بهذا البيت بيت صغير آخر يطل على شارع القشاشيه أمام بيوت علي باشا التى كان تشغلها مدارس الفلاح بمكة المكرمة فى ذلك الزمان .

وقد ازيل بيت باناجه الكبير والبيت الآخر مع كافة البيوت التى كانت موجودة فى منطقة المسعى والقشاشيه وادخلت فى التوسعة السعودية العظيمة التى تمت للمسجد الحرام ، وكان هذا البيت فى منطقة المسعى قرب الصفا وقبل العلامة الخضراء التى يمر فيها الساعون بين الصفا والمروة .

كان هذا البيت ملكا للحكومة المصرية كما علمنا حتى قيل ان فيه ـ مهلكا ـ يرمى فيه من يراد اهلاكه والعياذ بالله .

حدثنى الاستاذ عبده صالح باناجه قال : كان فى الدور العلوي الكشك الكبير (١) وكان فى جانب منه باب مقفول لايفتح أبدا ، قال وكانوا يخوفوننا منه قائلين هذا الباب المهلك .يفتح الباب ثم يدفع فيه من يراد به الهلاك فيهوى الى حيث لايرى

---

١ ـ الكشك اصطلاح تركي يطلق على المجلس العظيم الذى يشرف من أعلى البيت .

بعد ذلك والعياذ بالله .

وسواء أصحت الرواية التى ذكرت للاستاذ عبده . أم لم تصح فلقد كان بيت

باناجة بيتا عظيما وقصرا منيفا هو الآخر دخل التاريخ فى زمنه ، فحينما حضر الخديوى عباس خديوى مصر للحج نزل فيه بمكة المكرمة وكان عبدالله باشا باناجه فى مصر فى ذلك الزمان عل ما سيأتى تفصيله بعد . وكذلك نزل فيه السلطان القعيطي حينما حضر للحج وكان نزوله فى جدة في بيت آل باناجه . ومما لاشك فيه ان الكثيرين من العظماء قد نزلوا فى بيتهم بمكة . وكان آل باناجه يتركونه مفتوحا طيلة العام ويوظفون من يقوم بالعناية به وخدمة النزلاء فيه وكانوا كما لست فى حاجة لان أقول ينزلون به اذا قدموا الى مكة كما ينزل به أصدقاؤهم وضيوفهم .

وكان أهم من هذا وذاك ان الناس فى مكة يعتبرونه مكانا صالحا للندوات الكبيرة والاجتماعات .

أقام فيه شباب مكة المكرمة وأدباؤها حفلة تكريمية للشاعر الأستاذ خير الدين الزركلي حينما حضر الى مكة فى اوائل العهد السعودي والقيت فيه القصائد والكلمات الترحيبية والقى فيها الأستاذ خير الدين قصيدة له مشهورة مطلعها .

حي الحجاز ونجدا ـ حيا بها مكرميه ، ونشرتها الصحف فى حينها .

كان هذا البيت مقرا لهذه الاجتماعات وامثالها مما لسنا بسبيل حصره ولكننا نكتفي بالاشارة اليه فى وقت لم يكن فى مكة كلها مكان مهيؤ لمثل ذلك فى مثل موقعه الفريد بجوار المسجد الحرام .

ان مالفت نظرى فى سيرة عبدالله باشا باناجه هى عصاميته العجيبة التى انتهت به من شاب مهاجر من بلده وهو مغاضب لاهله ليشق طريقه فى اعظم عواصم الدنيا فى زمانه حتى يصل الى المكانة المرموقة التى وصل اليها ثم يعود الى بلاده فينفق الكثير من ماله فى سبيل المجد الذى يرفع من مقامه ومن سمعة بلده .

لست أشك ان عبدالله باشا باناجه قد افاد من المجد والسمعة وربما جر عليه

هذا الكثير من المنافع باسباب صلته بالملوك والحكام وليس هذا بالامر الذى يخدش من قيمة العمل الذى اداه ما دام لم يستغل هذه الصلات فى الاضرار بالناس أو الاثراء على حسابهم بل ان هذه الصلاة مطلوبة وحسنة لانها مفيدة للناس فان امثال هؤلاء الرجال يكونون لسان من لايستطيع إيصال صوته الى الحكام والولاة وهم بهذا يستطيعون ان يرفعوا الظلم والحيف عن الناس او يجلبوا لهم الراحة والخير.

نعود مرة أخرى الى عبدالله باشا باناجه فنقول ـ حينما عاد عبدالله باناجه باشا الى جدة كان امير مكة هو الشريف عون باشا الرفيق وقد اتصلت صلة الباشا القادم من دار الخلافة بالشريف المعين من السلطان وظل عبدالله باشا باناجه على صلة حسنة بامراء مكة من الاشراف حتى ولي الملك الشريف الحسين بن علي فى عام **١٣٣٤** هـ فآثر الهجرة الى مصر، ولعله خشي على نفسه من الشريف لسابق صلته بالاتراك. ولكنه كان من الذكاء والالمعية بحيث دفع ابن اخيه احمد افندى باناجه ليعمل فى خدمة العهد الجديد وقد اختاره الشريف الحسين بن علي وزيرا لماليته وكان يطلق عليه الوزير الحضرمي وقد تحدث عنه المؤرخ الكبير أمين الريحاني فى مؤلفه القيم ـ ملوك العرب ـ حديثا شقيا.

هاجر عبدالله باشا الى مصر ولكنه كان رجلا ألمعيا يستطيع ان يهيء لنفسه مكانا فى أى بلد ينزل فيه أو هو كما قال الشيخ الافغاني ـ لايعدم الأسد أينما ذهب فريسته.

أقام عبدالله باشا بمصر فى بيت بشارع المدارس ثم اشترى منزلا فخماً بالعباسية وكانت المحل المختار لسكنى عظماء مصر وسراتها، فانتقل اليه، وكان هذا البيت مفتوحا لاستقبال اصدقاء آل باناجه القادمين من الحجاز للعلاج او للترويح عن النفس وكان فيه مكان مخصص للضيوف وفيه مأدبه عشاء كل ليلة ممدودة للحاضرين. وانتقلت الأسرة بكاملها الى مصر فى الفترة التى قامت فيها الحرب بين السلطان عبدالعزيز والهاشميين ثم عادت بعد ذلك الى الحجاز حينما

استقر الأمر فى الحجاز للملك عبدالعزيز رحمه الله .

كانت الحكومة المصرية قد صادرت بيت أحمد عرابي باشا الذى قام بالثورة على الانجليز والخديوى فى عهد الخديوى توفيق باشا ، وكان هذا البيت يقع فى ميدان الفلكى ، الذى يسمى كذلك ميدان الازهار واشترى الباشا بيت عرابي باشا من الحكومة المصرية وهدمه وشيد مكانه عمارة كبيرة شغل معظم ادوارها الاطباء ومعظم حوانيتها الصيادلة وغيرهم وكانت هذه العمارة تعتبر فى زمانها من احسن العقار فى موقعها ومردودها ، واشترى كذلك العمارات والعزب والفدادين على النيل وكانت من أجود الأراضي الزراعية .

كان الرجل محظوظا وكان المعيا صادق الفراسة والتقدير وطارت شهرته بين أرباب العقار وتجاره قالوا كان يخرج اصيل كل يوم بالعربة المطهمة التى تجرها الخيل للترويح والنزهه وشعر بالحاجة الى النزول فى مكان ما فترجل من العربة واخذ يمشى فى أرض فضاء ، ولم يشعر الا وبعض الناس قدموا اليه وعلى وجوههم آثار الارتباك . . كانو يريدون شراء عقار او ضياع فى المنطقة ، وحينما رأوا الباشا ادركوا انه حضر لنفس الغرض وانه سيضايقهم ويرفع عليهم الأسعار أو يحرمهم من الشراء ، فاشتروا انفسهم منه يطلبون منه التنازل مقابل الألوف من الجنيهات ، فتنازل وهكذا جاء الرزق اليه من حيث لم يحتسب .

كانت ممتلكات آل باناجة من العقار فى مصر عظيمة وكان ايرادها يبلغ أربعين ألف جنيه مصري سنويا ـ وكان الجنيه المصرى فى ذلك الزمان اغلى من الجنيه الذهب ـ وكان عقارهم فى جدة احسن العقار وانني انقل هنا ماكتبته فى كتابي ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز ـ عن عقار آل باناجه الذى آلت ملكيته الى الشيخ عبدالرحمن باناجة ـ شقيق عبدالله باشا باناجه .

وكانت أحسن الدور موقعا واجملها بناء تؤجر فى جدة على السفارات الاجنبية وكان للشيخ عبدالرحمن باناجه يرحمه الله نصيب الاسد فى هذه البيوت التى تستأجرها السفارات وكانت تسمى القنصليات فى ذلك الوقت لان درجة التمثيل

كانت على مستوى القنصلية ثم تحولت فيما بعد الى درجة الوزير المفوض، نقول كان آل باناجه يملكون معظم البيوت التى تقع فى باب جديد امام البحر ـ شارع الملك عبدالعزيز أمام فندق البحر الاحمر الى فندق قصر جدة حاليا ـ وكانت السفارة المصرية تسكن فى موضع عمارة النشار حاليا والى جانبها الدار التى لاتزال موجودة وقد اشتراها الشيخ عبدالرحمن الصيرفي وكان يسكنها السفير او الوزير الايطالي وقد بنيت هذه الدار خلال ستة شهور بعقد مع السفارة الايطالية والى جانبها كان هناك بيت آخر كان مقرا للقنصيلة الايطالية ثم حلت فيه السفارة السورية بعدما نالت سوريا استقلالها وهذا البيت هو الذي يقوم محله الآن فندق انترناشونال الذى بناه المرحوم الشيخ عبده باجبير بعد شرائه من آل باناجه ـ ثم جاء فيه مايأتى .

وكانت هناك بيوت صغيرة لآل باناجه كذلك كانت مقرا للمستر توتشل الذى سعى فى إحياء العمل فى منجم الذهب وأسس شركة التعدين الامريكية السعودية ثم اصبح مقرا للبنك الهولندى ثم للبنك العربى، . وقد اشتراه مع الدار المجاورة له ومايتبعها الشيخ أحمد عشماوي مؤسس شركة الأسواق السعودية كما ذكرنا قبل، هذه البيوت جميعها كانت ملكا لآل باناجة وكانت أجورها تتراوح بين مائتين وثلاثمائة جنيه ذهب سنوياً للبيت الواحد. وكان هذا يعتبر ايجارا عاليا يغبط عليه أصحابه، انتهى مانقلناه من كتابنا ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز.

ولعل مما يحسن ذكره ان عبدالله باشا باناجه لم ينجب طيلة حياته فآلت ملكية ثروة آل باناجة الى شقيقه وشريكة المرحوم الشيخ عبدالرحمن باناجه بعد وفاته ولقد كان عبدالله باشا باناجة رجلا ثاقب النظر بعيد التفكير يسابق الزمن فيختار احسن المواقع لانشاء عقاراته فهذه البيوت التى ذكرناها والتى كانت تسكنها القنصليات الاجنبية كانت مطلة على البحر فى مدينة جدة من ناحيتى الغرب والشمال، أسرع رحمه الله الى شرائها وتعميرها بحاسته الذكية فى الوقت الذى لم يكن يفكر الناس فى شرائها لانهم كانوا يعتبرون حارة اليمن فى ذلك الوقت افضل الاماكن

للاستغلال حيث يقطن وكلاء الاندنوسين والهنود وحيث تؤجر البيوت لسكن هؤلاء الحجاج فيستفيد أصحاب البيوت من هذه الأجور الموسمية الى جانب سكناهم طيلة العام، ولقد كانت البيوت فى حارة اليمن والشوارع فيها تتحول الى سوق للحجاج حيث يسكن الحجاج فى بيوت الوكلاء وذلك قبل انشاء مدينة حجاج البحر وتحويل الحجاج اليها لهذا فان حارة الشام كانت مخصصة للسكن الخاص وكذلك حارة المظلوم، وقبل ان نختم الحديث عن عقار آل باناجه لابد ان نذكر ان عبدالله باشا كان قد شيد بيتا بل قصرا فى مدينة الطائف على الطراز التركي وهوعلى شكل باخرة وقد ادركت الناس فى الطائف يسمونه الباخرة وهوفى منطقة السلامة قريبا من الثكنة العسكرية وله فناء واسع لابد وانه كان حديقة فى الماضي وله بعض الملحقات وعلمت ان الوالي التركي كان ينزل فيه اذا ذهب الى الطائف للاصطياف وربما كان هذا الوالي هو أحمد راتب باشا، وقد بقي هذا البيت الى ماقبل سنوات حيث آلت ملكيته الى صديقنا الشيخ صدقه كعكى . .

والبيت رائع الهندسة جميل البناء مرتفع السقوف، كثير النوافذ وقد صنعت سقوفه جميعها من الخشب المصقول وقد تناولنا فيه طعام الغذاء ذات صيف بدعوة من الشيخ صدقه وحينما اخبرني انه سيزال فى التوسعة التى ستتم فى مدينة الطائف كان اسفى عليه عظيما لانه كان معلما من معالم الطائف، ولعله قد ازيل فيما ازيل من المباني والآثار.

وعلى ذكر الوالي راتب باشا نقول انه كان آخر الولاة العثمانين فى عهد الخلافة العثمانية وحينما اجبر السلطان عبدالحميد على التنازل عن العرش غادر الحجاز، قالوا وكان أحمد الهزاز ـ والد صديقنا الشيخ عمر أحمد الهزاز يحقد على راتب باشا فذهب اليه وصفعه على وجهه انتقاما منه وتحقيرا له بعد ان اصبح لاحول له ولاطول، وسبحان المعز المذل الذى يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

هذا وقد توفي عبدالله باشا باناجة بمدينة القاهرة فى عام ١٣٤٤ للهجرة وقد تجاوز الثمانين عاما بعد مرض طويل، وآلت ملكية آل باناجه من التجارة والعقار

الى الشيخ عبدالرحمن باناجه كما ذكرنا قبل، وقد ادركت الشيخ عبدالرحمن باناجه فى الأربيعينات والخمسينات وهو رجل اشيب نحيف البدن شديد الشبه باخيه عبدالله باشا ولعله كان فى الثمانينات وظل يقوم على ادارة هذه التجارة الواسعة ويشرف على كل كبيرة وصغيرة فى امور العمل وفى امور العائلة الكبيرة التى يرأسها فقد وهبه الله الكثير من الاولاد والبنات وشاهد الاحفاد وربما ابناء الاحفاد، وكان بيت باناجه فى عهده يحتفظ بمجده وثرائه وبكلما خلفه اخوه عبدالله باشا رحمه الله فلقد كان الرجل حصيفا، وكان آل باناجه يعدون اعظم بيوت جدة التجارية ثراء ولعله كان اعظم بيوت المملكة كلها ثراء فى عهده.

وتوفى عبدالرحمن باناجه رحمه الله فى عام ١٣٥٧ هجرية وقام بالأمر ابناؤه محمد صالح ومحمد سعيد ومالبث ان توفى ابنه أحمد ثم لحقه ابنه الثانى محمد صالح وبدأت التغيرات الكبيرة تظهر فى الشئون التجارية بعد الحرب العالمية الثانية وظهرت طبقة جديدة من التجار خرجت عن الطور التقليدي الذى كان معروفاً للتجار القدماء واتصلت بالعالم الواسع، وكان حتما على كل تاجر ان يساير التطور الجديد ويتواكب معه، والا جرفه التيار واصبح مثله كما يقول الشاعر:

تقدمتني أُناس كان خطوهم   وراء خطوي لو امشي على مهلي

هاجر آخر كبار العائلة المرحوم محمد سعيد باناجة الى مصر مكتفيا بما يدره عقار اسرته الواسع هناك من دخل وبهجرته الى مصر انتهى امر البيت التجارى الكبير فى جدة، . واشتغل الجيل الجديد من آل باناجه باعمال مختلفة اتجه بعضهم الى أعمال خاصة صغيرة واتجه البعض الى الوظائف وتقسم العقار الكبير وبيع معظمه. وانطوت صفحة عظيمة من الثراء والجاه استمرت مايقرب من مائة عام.

ولكني المح الآن بسرور عظيم بوادر الحياة والنشاط تدب بين ابناء الجيل الحاضر من **هذه الأسرة الكريمة فقد رأيت وسمعت عن مؤسسات متعددة تحمل هذا الاسم** الطيب فى اماكن مختلفة من مدينة جدة واني لارجو ان يستعيد هذا الجيل من شباب الأسرة السمعة الطيبة والنجاح الذى حققه اجدادهم وآباؤهم من قبل.

وقبـل ان اختم الحـديث عن عبـدالله باشـا بانـاجه اذكر انه انشأ رباطا فى حارة الشـام بمـدينـة جدة لايـواء الارامـل والسيـدات اللاتي لاعائل لهن ولايزال هذا الـربـاط قائـما يؤدى مهمتـه الانسـانيـة منـذ عشرات السنين. ولعل ماكتبناه عن المقصورة العـائـدة لآل بانـاجـه والصالة التابعة لها مايدفع المختصين بشئون الأثار للاهتمام بها وتعميرها والمحافظة عليها باعتبارها من المعالم التاريخية لمدينة جدة.

رحم الله عبـدالله باشـا بانـاجـه رحمـة واسعة فلقد كان مثال الشاب العصامي الطموح، ولقد اسس لنفسه ولاسرته مجدا سلكه فى عداد اعلام الرجال.

● ●

• السيد عبيد عبدالله مدني •



السيد عبيد عبدالله مدني

طويـل القـامـة ممتلىء الجسم ابيض اللون تشـوبـه بياضة حمرة عرفته فى العهد السعودي يلبس العباءة العربية والعقال ، ويضع على عينيه نظارة طبية .

ولـد السيـد عبيـد مدني بالمـدينـة المنورة فى أواخر العهد العثماني للحجاز فى عام ١٣٢٤ للهجـرة وكـانت اسرته تتميز بالثراء والوجاهة ، ووالده السيد عبدالله مدني هو الذى أسس فى العهد العثماني أول فندق بالمدينة المنورة فكان المنزل المختار لكبار زوار المدينة المنورة ، كما كان يستقبل ضيوف الدولة باعتباره النزل الفريد من نوعه فى دار الهجرة على صاحبها أفضل الصلوات وأتم التسليم .

لمحة عن تاريخ الفنادق فى المدينة المنورة

وهذا الفندق الذى أسسه السيد عبدالله مدني هو الذى استأجره الشيخ عطا الياس مؤسس فنـادق التيسـير بمكـة وجـدة والمـدينـة خلال العهـد السعـودي فى أواخر الستينـات ، ويبـدو أن آل المـدني أوقفـوا استعـماله كفندق بعد نهاية الحكم العثماني وكـان يقـع فى باب المجيـدى ، وقـد ازيـل هذا الفنـدق فى التـوسعة التى اجريت للمسجـد النـوي الشـريف فى العهـد السعـودي ولقد كان الناس ينزلون فى بيوت الأدلاء الذين يقومون بمصاحبتهم فى زيارة المسجد النبوى الشريف والآثار بالمدينة

المنورة ويتولى هؤلاء الادلاء إنزال القادمين من الزوار فى بيوتهم واطعامهم والعناية بهم بدءاً من وصولهم إلى المدينة إلى حين ارتحالهم عنها، وكان الناس فى الحجاز يسمون هؤلاء الأدلاء المزورين نسبة الى الزيارة، وكانت معظم الاسر فى مكة وجدة لهم أدلاء معينون تستمر الصلة بهم وتتوارث جيلا بعد جيل.

كان هذا فى العهد الماضي قبل ان يسهل الاتصال بين مدن الحجاز وبين بعضها ثم بدأ العهد الفندقي فى المدينة المنورة كما ذكرنا بافتتاح فندق التيسير فى نفس مبنى الفندق الذى اسسه السيد عبدالله مدنى ثم اقدم الناس على افتتاح الفنادق الكثيرة فى العقود التالية حتى اصبحت المنطقة المحيطة بالمسجد النبوى الشريف مكتظة بالفنادق على اختلاف انواعها ودرجاتها، ونعود بعد هذا الاستطراد الى صاحب الترجمة فنقول:

تلقى السيد عبيد مدني دراسته الابتدائية حينما يفع فى المدرسة الفيصلية الهاشمية وحصل على شهادتها ثم التحق بالمدرسة الراقية التى افتتحت فى العهد الهاشمي لينتقل اليها الطلاب الحاصلون على الشهادة الابتدائية كمرحلة ثانية فى الدراسة ولكن هذه المدرسة الراقية لم يطل بقاؤ ها اذا لم يطل عمرها اكثر من بضعة شهور، ولقد كان فى مكة المكرمة فى العهد الهاشمي كذلك مدرسة تحمل هذا الاسم ويبدو انها كانت احسن حظا واطول عمرا من شقيقتها الصغرى فى بالمدينة المنورة .

انتقل السيد عبيد بعد ذلك الى الدراسة فى المسجد النبوى الشريف فى حلقة الشيخ محمد الطيب بن اسحق الانصارى فى عام ١٣٣٧ للهجرة وهوفى الرابعة عشرة من العمر وكان الشيخ محمد الطيب الانصارى يلقى الدروس المعتادة فى المسجد النبوي الشريف فى العلوم الدينية بما تستلزمه هذه الدراسة من علوم النحو واللغة، وكان الرجل الى جانب تضلعه فى علوم الدين واسع الاطلاع على روائع الشعر والأدب ، فاذا لمس من بعض طلابه الميل القوي الى الأدب أو البحث اخذ بيده لتنمية هذه الملكة فيه، وقد حدثنى المرحوم الشيخ ضياء الدين رجب وكان من

تلاميـذ الشيـخ الانصاري ان الشيخ الطيب كان يطلع على ماينظمه تلميذه ضياء الدين من الشعر وانه كان دائم التوجيه له، يبصره بمواقع الخطأ كما يبصره بمواقع الاجـادة، ولقـد لفت نظـرى ان كثـيرا ممن عرفت اسـماؤ هم من اعلام الرجال فى المدينة المنورة كانوا من تلاميذ الشيخ الطيب اذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الى جانب السيد عبيد مدني والشيخ ضياء الدين رجب رحمهما الله العلامة الصديق الاستـاذ عبـدالقـدوس الانصـارى صاحب ورئيس تحريـر مجلة المنهـل الغنيـة عن التعريف وفضيلة الشيخ محمد الحركان وزير العدل الاسبق وأمين عام رابطة العالم الاسلامي حاليا. والاستاذ عبدالحق نقشبندى وغيرهم، ولقد ترك الشيخ الطيب اثـره الطيب فى نفـوس طلابـه فكلهم تحدث عن هذا الاثـر فكـان منهم العلماء والقضـاة والادبـاء والشعـراء واخيرا فان الشيخ الطيب هو والد الدكتور عبدالرحمن الانصاري رئيس قسم الآثار بجامعة الملك سعود بالرياض.

ونعـود بهد هذا الاستطـراد عن الشيخ الطيب الانصارى الى السيد عبيد مدني رحمه الله، لنواصل الحديث عنه.

رائد الأدب الحديث بالمدينة المنورة

يصف الأستاذ عبدالقدوس الأنصارى السيد عبيد بأنه رائد الأدب الحديث فى المدينة المنورة (١) فى البحث الطويل الذى كتبه عنه فى مجلة المنهل والذى نوجزه فيما يلى:

كانت الحيـاة الادبيـة فى مدينـة الـرسـول صلوات الله وسلامه عليه حتى بداية الأربعينـات من القـرن الهجـرى الرابع عشر راكدة ركودا يشبه السبات، لقد الف النـاس ماتعـودوا عليـه من هذا الشعر الذى يحفل بالمحسنات البديعية، وذلك النثر الـذى تضيـع اغراضه فى متاهات السجع الرخيص وهكذا تضيع المعانى والمقاصد

---

(١) انظر الجزء ٢ من المجلد ١٩ من السنة الثانية والعشرين لمجلة المنهل الصادرة فى شهر ربيع الأول ١٣٧٨ هـ صفحة ١٧٣/١٨٢ وانظر ماكتبه الاستاذ عبد القدوس فى مجلة المنهل بعد وفاة السيد عبيد فى عام ١٣٩٦ هـ.

فى هذه المتاهـات والمبالغات، وكانت محاولة الخروج على هذا النمط تعتبر مغامرة تعرض صاحبها للمتاعب وربما الصقت به التهم، فالانسان عدو مايجهل.

وكـان السيـد عبيـد مدني رحمه الله قد تمكن من اللغة والنحو بما درسه من روائع الأدب القـديم شعـره ونثره سواء على يد شيخه الطيب الانصاري أو على يد صديق والـده الشيـخ محمـد العمري وكـان شاعـرا مجيـدا كما يصفـه الاستـاذ عبـدالقـدوس ويبـدو انـه كان على اطـلاع واسـع على هذه الـروائـع من الشعـر القديم، وكان هناك رافدا آخر اسهم فى تكوين الحاسة الأدبية لدى السيد عبيد، وهذا الرافد يتمثل فى المكتبة الحافلة التى ورثها عن والده السيد عبدالله مدني والتى كانت تضم بين جوانبهـا الكثـير من المؤلفـات الحـديثة فى ذلك العهد، مثل دائرة المعارف للاستاذ فريد وجدى، ومؤلفات الأديب المفتن مصطفى لطفي المنفلوطي صاحب النظـرات والعـبرات والفضيلة والبعث الى جانب دواوين شوقي وحـافظ وسامي البارودي وجميل صدقى الزهاوى من شعراء ذلك العصر المبرزين.

نهل الشـاب عبيـد من هذه المنـاهـل العـذبـة فتنسم ذهنـه منهـا نسيم الحـرية وانتعشت نفسـه بهذا الأريـج الطيب من عطـور الثقـافة والفن، شعرا رائعا، ونثرا رائقا، ومعاني جميلة واضحة لاتتعثر بين قوافي السجع ولاتتسربل بسرابيل الجناس والبـديـع، ولا يطغى اللفـظ على المعنى، واراد الشـاب عبيـد مدني ان يكتب كما يكتب هؤلاء الكتاب الذين قرأ ادبهم وان ينظم الشعر كما نظمه هؤلاء الشعراء، وبـدأت محاولاتـه على استحياء وحذر، الاستحياء من ان يكون مايكتب وماينظم لايصل الى الجودة التى ينشدها، والحذر من ان تلصق بهتهمة الفرمسونية والخروج عن المألوف، والفرمسونية هذه كما وصفها الأستاذ عبدالقدوس وكما ادركنا آثارها فى مطلع الشباب هى الانحراف عن جادة الدين، فقد ربط الجامدون بين كل تغيير فى اسلوب الكتـابـة والشعر وبين البعد عن الدين وهو سلاح كان يشهره الجامدون على الراغبين فى التجـديـد واراد الشـاب عبيـد ان يشرك صديقه وزميله فى حلقة الشيخ الانصارى فيما يقرأ ليكون هذا سبيلا الى اشراكه معه فيما يكتب وينظم،

وأسرَّ الى زميله عبدالقدوس بما يريد ولكن عبدالقدوس لم يتقبل هذه الدعوة بادىء بدء لانـه لم يكن قادرا على تقبـل هذا الجـديـد الذى لم تتفتح نفسه له، ولانه كان لايزال يعيش فيـها الف واعتاد،ولكن هذا الاحجام مالبث ان تحول الى تقبل على حذرثم الى استمتـاع بما يقـرأ ويستمـع، ثم الى اقدام فكان هو المصلي كما يصف نفسه فى ريادة الأدب الحديث بالمدينة المنورة وكان المجلي هو صاحب هذه الترجمة السيد عبيد مدني رحمه الله.

لم يكن فى المـدينـة حتى ذلـك الـوقت صحيفة واحدة تنقل الى الناس ماينتجه الادبـاء والشعـراء وكانت هناك الوسيلة الوحيدة التى درج عليها الناس قبل ظهور المطبعـة وهى تداول مايكتب بين النـاس فان كان النـاس بعجبـون بما يقـرأون كثر تداول هذا الاثـر وانتشـاره وانتشـر ذكـر صاحب هذا الاثر بين الناس وان كان هذا الاثـــر يتنـافـر مع ما الف النـاس كان هذا ادعى الى حرص النـاس على تداولـه والتشهـير بصـاحبـه، وربما انقسم الناس فى امره بين قادح ومادح وكل هذا مدعاة لانتشار هذا الجديد بين الناس.

ومـا تحتفظ به الـذاكـرة من ذلك العهد ان شاعرا مجهولا نظم قصيدة هجاء فى إحدى الشخصيات الشهيرة بمدينة جدة فانتشرت القصيدة وذاعت بعض ابياتها على كل لسـان مع انهـا كانت سقيمة اللفظ مختلة الاوزان، وهكذا كان ينتشر بين الناس كل جديد بالغا ما بلغ من السوء أو الاتقان.

وفى هذا الجـو الحـافـل بروائـع الفكـر والعلم بدأت بواكير الشاب السيد عبيد مدني الشعرية تتفتح كما بدأت افكاره وطموحاته تظهر فيما يكتب وبدأ أسمه يظهر فى المدينة المنورة كاديب جرىء وشاعر مجدد، ولقد استطاع السيد عبيد ان يتغلب على ماواجهـه من اعـتراض وانتقـادات بالصـبر والحكمـة وبما عرف عن اخلاقه الشخصية ولعل لمكانة اسرته الاجتماعية اعظم الاثر فى تجنبه المتاعب والمصاعب، ولسائل ان يسأل لماذا لم يظهر اثر السيد. عبيد مدني وغيره من ادباء المدينة المنورة ضمن الآثار التى ظهرت فى كتاب أدب الحجاز وكتاب المعرض الذى نشر فى عام

١٣٤٤ هـ ولقد اجاب الاستاذ عبد القدوس على هذا السؤال فقال ان ذلك العهد كان عهدا انعزاليا فقد كانت المدينة المنورة تعيش داخل اسوارها ولم يكن هناك

اتصال بين الأدباء فى كل من مكة المكرمة وجدة والطائف، وأن أول اتصال بين أدباء المدينة المنورة وأدباء مكة إنما تم فى عام ١٣٤٨هـ حينما قام بزيارة المدينة المنورة الشاعر والأديب المكي الأستاذ محمد عمر عرب رحمه الله ونستطيع أن نعلل هذا التأخر فى الاتصال فى العهد الهاشمي لأسباب أهمها صعوبة المواصلات بين المدينة المنورة ومكة وجدة فالمسافة بين البلدين مكة والمدينة تبلغ خمسمائة كيلومتر وكانت وسائل الانتقال بين البلدين هى الجمال والخيل والحمير، وكان أسرع هذه الوسائل يقطع الطريق بين البلدين فى أسبوع وكان الناس يخرجون فى مجموعات وكانت هذه المجموعات تسمى الركبان وأحدها ركب وكان الركب الواحد يضم المئات، وكان لمكة ركبها كما كان لجده ركبها وكان الركب يستعين ببعض الأدلاء من البادية على الأصح ببعض الحماة لضمان سلامته وعدم التعرض له بسوء وكان الركب الى ذلك يصطحب المنشدين من ذوى الأصوات الجميلة وكان هؤلاء المنشدون ينشدون القصائد، الخاصة بهذه المناسبات وأغلبها من المدائح النبوية المعروفة وما شابهها، كما كان الركب يقضى بعض الوقت فى أماكن معينة فى الطريق وخاصة فى بدر التى وقعت فيها أول معركة فاصلة فى الاسلام.

ولكني فى الواقع لا استطيع تعليل تأخر الاتصال بين ادباء المدينة المنورة وادباء مكة المكرمة وجدة فى العهد السعودي بعد ظهور السيارات واستعمالها للسفر بين البلدين وذلك ان الحركة الادبية الحديثة فى المدن الاخرى مكة وجدة والطائف ولدت قوية فى مطلع العهد السعودي وكان الفضل فى ظهورها للمرحوم الشيخ محمد سرور الصبان الذى قام برعاية الحركة الادبية ونشرها على الناس(١) ومن

---

(١) انظر ترجمة الشيخ محمد سرور الصبان فى كتابنا أعلام الحجاز وانظر الفصل الخاص بالآداب والفنون فى كتابنا ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز.

المؤكد ان الحركة الادبية فى مكة بدأت فى العهد الهاشمي واتيح لها الظهور والانتشار بين الناس فى مطلع العهد السعودي .

السيد عبيد عضو مجلس الشورى

عين السيد عبيد عضوا بالمجلس الاداري بالمدينة المنورة ثم مديرا لاوقاف المدينة المنورة ثم عين عضوا بمجلس الشورى بمكة المكرمة عن المدينة المنورة ولقد ادركت السيد عبيد مدني حينما انتقلت اقامته الى مكة المكرمة لتمثيل بلده فى مجلس الشورى ، وكان نظام المجلس يقضي ان تمثل كل مدينة بعضو أو اكثر فى المجلس وكان يتم اختيار العضو بالانتخاب ولعل الشيخ سعود دشيشه هو أول من مثل المدينة المنورة فى مجلس الشورى واليه يعود الفضل فى رفع رسم الكوشان الذى كان تتقاضاه الدولة قبل ظهور الزيت للسفر بين مكة والمدينة حينما خاطب الملك عبدالعزيز رحمه الله قائلا : ياطويل العمر لقد وحدت المملكة جميعها فلماذا يدفع المسافر من المدينة أو اليها ضريبة على السفر داخل مدن المملكة ، فتم رفع هذه الضريبة عن السفر بين مدن المملكة وبعضها على السعوديين (١)

وهكذا تم انتخاب السيد عبيد مدني عضوا بمجلس الشورى لتمثيل بلده فى المجلس ، وكان يسكن فى دار بمحلة اجياد قريبا من المسجد الحرام ، وكانت داره تغص بالقادمين من المدينة ، كما كان مقصد ذوي الحاجات منهم ممن لهم مطالب او مصالح فى دوائر حكومية ، وكان الرجل عظيم الحياء وكان الشيخ محمد على ملطاني رحمه الله صديقا للسيد عبيد فكان ينوب عنه فى قضاء بعض هذه الحاجات **وكان يوصل الى الشيخ محمد سرور رحمه الله بعض هذه المطالب وخاصة فيما يختص بطلبات الاركاب الى المدينة المنورة ، أو المساعدة من وزار المالية اوتعقيب** بعض المعاملات وما اليها ، وكان الشيخ محمد سرور رحمه الله يعرف مايتمتع به

---

١ - **انظر ماكتبناه** عن هذا الموضوع فى ترجمة السيد صالح شطا فى كتابنا اعلام الحجاز.

السيد عبيد مدني من الاصالة والوجاهة ويقدر فيه خلق الحياء الذى يحول بينه وبين ان يطلب لنفسه او لغيره شيئا فكانت هذه الطلبات التى يتقدم بها المرحوم الشيخ محمد على ملطاني نيابة عنه تحظى بالاجابة والقبول.

وفد مجلس الشورى الى الملك عبدالعزيز

وفى العهد الذى كان فيه السيد عبيد عضوا بمجلس الشورى قام وفد من اعضاء المجلس بزيارة المغفور له الملك عبدالعزيز فى الرياض، وكان جلالته فى روضة التنهات ووصل الوفد وكان السيد عبيد قد اعدّ قصيدة باسم وفد مجلس الشورى لالقائها امام جلالة الملك عبدالعزيز وقد القى السيد عبيد القصيدة وكان من ضمن ابياتها هذا البيت:

عبدالعزيز ومن اذا ذكر اسمه   وقف الجميع له وقام النادى

وما ان وصل السيد عبيد فى القائه الى هذا البيت حتى قام المجلس كلّه تحية للملك عبدالعزيز رحمه الله وكان لهذه الالتفاتة من السيد عبيد رحمه الله وقعها الطيب فى نفس الملك عبدالعزيز وفى نفوس كل من حضر ذلك المجلس الحافل، وقد نشرت هذه القصيدة حينها فى جريدة ام القرى وتحدث الناس عنها كثيرا فى ذلك الزمان، ولقد كان السيد عبيد رحمه الله ممثلا للمدينة المنورة حقاً لم يترك مناسبة تمر الا وهو يذكر المدينة المنورة وتطلعاتها واذكر انه القى كذلك امام الملك عبدالعزيز قصيدة دعاه فيه الى زيارة المدينة المنور بعد ان طال غياب جلالته عنها فقال: ومن حق المدينة ان تزارا: ومما يؤسف له ان الكثير من شعر السيد عبيد لم يطبع للاستشهاد به، ولكنا سنعود للحديث عنه حينما نتحدث عن السيد عبيد الشاعر، وقد ذكرنا ماوعته الذاكرة من هذا الشعر حينما كان السيد عبيد عضوا بالمجلس.

وقد آثر السيد عبيد العودة الى المدينة بعد ان طال شوقه اليها فتقدم باستقالته من المجلس ليعود الى مسقط رأسه فى طيبة التى احبها الحب كله.

معلمة تاريخ المدينة المنورة

كان السيـد عبيـد مهتما بالكتب يحرص على اقتنائها وقراءتها وكان اكثر ماشغل اهتمامه هو تاريخ المدينة المنورة البلد الذى ولد فيه ونشأ وامتلاء قلبه بحبه وحب كلما يمثله هذا البلد الطيب من القداسات والامجاد، لهذا فان الكتب التاريخية كانت من أبرز مايهتم به السيد عبيد رحمه الله وقد تحدث اصدقاؤه المقربون عن الكتاب الذى الفه السيد عبيد والذى سماه معلمة تاريخ المدينة المنورة.

يقـول الأستـاذ عبـدالقدوس الانصارى فى مقاله المنشور بمجلة المنهل فى تأبين السيـد عبيـد تحت عنـوان وفيـات الاعيـان الصـديق الكبـير الذى فقدناه: يقول الاستاذ عبدالقدوس مانصه: كثيرا ماكنا نتحدث ـ يقصد مع السيد عبيد رحمه الله ـ عن ضرورة طبع كتابه الفذ «معلمة تاريخ المدينة المنورة» الذى قضى جل عمره فى كتابته وتحقيقة وتزويده بأكبر قدر ممكن من المعارف عن تاريخ المدينة الشامل.. وقـد دون تلك المعـارف الثمينـة فى اجـزاء ضخـام حسنـة الـترتيب، جميلة البيان والتبـويب، كل جزء منهـا فى كتـاب مستقـل، ومن اجـداهـا نفعـا وابعـدها صيتا «تـواريـخ المـدينـة ومؤرخـوها» وكان رحمه الله يدخل الى مكتبته الخاصة ويخرج لنا اجزاء هذا الكتاب النفيس الذى ملىء علما وحكمة، فنقرأه ونتدارسه ونراجعه فإذا هو كنـز ثمـين فألحُّ عليه فى ضرورة القيام بنشره فيعد ويقول لي: لابد من مراجعة اخيرة لنصوصه وإكمال نواقصه ومن ثم نقدمه للطبع ان شاء الله».

انتهى مانقلنـاه عن الاستـاذ عبـدالقـدوس وهـو المؤرخ العـالم الأديب الـذى يتحدث عن خبرة بما اطلع عليه من اجزاء هذا الكتاب او هذه الموسوعة عن تاريخ المدينة المنورة.

ويقـول الأخ الأستـاذ السيـد علي حافـظ احـد مؤسسي جريـدة المدينة المنورة والأديب المعروف فى رثائه الذى نشر بالعدد ٣٨٣٣/٢٦/١١/١٣٩١ هـ بجريدة المدينة المنورة عن هذا الكتاب مايلى:

وعكف رحمه الله على تأليف تاريخ للمدينة عكف عليه يبحث ويدقق ويناقش

ويجمع المصادر من كل مكان مدة تزيد على عشر سنوات، ويبلغ الكتاب حوالي اثنى عشر مجلدا رأيت بعضها وكان يعتزم طبعه هذا العام.

والسيد علي مد الله في حياته صديق مقرب الى المرحوم السيد عبيد فهو كذلك يتحدث عن علم بما رأى.

ولا اكتم القارىء اني كنت اود ان اطلع على هذا الكتاب القيم ليكون ما اكتبه صادرا عن الانطباعات التى تحدثها القراءة فى نفسي وقد طلبت من الاخ الاستاذ السيد علي حافظ الذى تفضل بامدادى بكثير من المعلومات فى هذه الترجمة ان ييسر لي سبيل الاطلاع على مؤلفات السيد عبيد الشعرية والنثرية، واجلت الكتابة شهورا ولكن هذا المطلب لم يتحقق.

ان الكتاب كما يصفه الأستاذ عبدالقدوس الانصارى وكما كتب عنه الأستاذ السيد علي حافظ موسوعة ضخمة فى تاريخ دار الهجرة وقد مد الله فى عمر المؤلف فحشد فيها الكثير من التحقيقات حتى انه افرد فى هذه الموسوعة جزءا خاصا بالمؤرخين الذين كتبوا عن المدينة المنورة، والكتاب بهذا الوصف جدير بأن يأخذ مكانه بين أهم الكتب التى الفت عن دار الهجرة واني لارجو ان يتاح لهذا الاثر القيم ان يظهر الى النور بعد طول احتجاب فلعله يكون خير أثر يحفظ اسم صاحبه فى قادم الازمان.

السيد عبيد الشاعر

عرف السيد عبيد رحمه الله بالاجادة فى الشعر بعد ان دانت له مفردات اللغة وبعد ان استوعب ماقرأ من روائع الشعر قديمه وحديثه والقليل الذى نشر من شعره ينبيء عن أصالة جمعت بين جزالة اللفظ، وسمو المعنى ، وقد ذكر الاستاذ عبدالقدوس ان السيد رحمه الله جمع شعره فى ديوان كبير اسمه المدنيات الكبرى، كما ان له مجموعة اخرى اسمها المدنيات الصغرى، وقد استشهد الاستاذ عبدالقدوس بكثير من الشواهد من المدنيات الصغرى فى البحث المستفيض الذى كتبه عن السيد عبيد رحمه الله والذى نشر فى المنهل فى الجزء الثانى من المجلد التاسع

عشر فى ربيع الأول عام ١٣٧٨ هـ بعنوان أعلام العلم والأدب فى جزيرة العرب.
واود قبل كل شىء ان اذكر أن ما استطعت الحصول عليه من شعر السيد عبيد رحمه لايعبر تعبيرا كاملا عن شاعريته ولكنه يعطى القارىء صورة عن هذه الشاعرية لاتطفىء الغلة ولاتبل الصدى ولكنها على اى حال خير من لاشىء.

ولقد اضطررت للبحث عن النماذج التى ساوردها للقارىء الى الغوص فى بطون اجزاء مجلة المنهل التى كان يخصها المرحوم السيد عبيد بنشر آثاره ، كما نقلت بعض هذه النماذج من بحث الاستاذ عبدالقدوس الانصارى المنشور بمجلة المنهل والذى اشرت اليه آنفا.

واكرر القول ان هذا الذى اورده للقارىء لايعبر تعبيرا كاملا عن شاعرية الشاعر فأني اعلم ان له من القصائد الجياد الكثير الذى هو اجدر بالتقديم ولكن هذا هو مااستطعت الحصول اليه بعد البحث والجهد والذى رأيت ان اختم به هذه الترجمة التى طال امد بقائها لدىّ دون اتمام وبعد فهذه هي النماذج ولا اقول المختارات التى استطعت الحصول عليها من شعر السيد عبيد مدني الشاعر.

نفثة مصدور

نظم الشاعر قصيدة خلال الحرب الهاشمية السعودية جاء فيها:

هبوا بني الوطن المقدس ابدلوا	هذا الجمود بيقظة وثبات
وتضامنوا ان التضامن قوة	ترقى الشعوب بها ذرى الغايات

ومنها:

هذه المدينة اصبحت العوية	صماء بين زعانف وغواة
يستاقها النفر الرعاع ذليلة	لموارد الويلات والنكبات
الحكم فوضى والمطامع جمة	والشعب بينهما فريسة عات
حال تذوب لها الضمائر لوعة	والموت فيها اهون الحالات

وللشاعر قصيدة أخرى نظمها فى سنة ١٣٤٨ يتنبأ فيها بالنهضة العظيمة التى ستشهدها البلاد فى مستقبل الأيام وقد جاء فيها:

بشرى فانا فى بوادر نهضة ستحول الصعب الجموح ذليلا
ولسوف نشأوا الطير فى تحليقه ونقيم من أسرابنا الاسطولا
ونشق ملتطم الخضم بوارجا وبواخراً ونجرُّ فيه ذيولا
ويصدُّ وجه الشمس منا جحفل لجب تصمُّ به الفلاة صليلا
متدرب ان سأردكً مما لكا واذل تيجانا وفل رعيلا
ويجوب أرجاء الجزيرة كلها خط الحديد مهامها وتلولا
ويجلل الأرض اليفاع زراعة فتفيض فى عمالها التمويلا
ونعمم التعليم حتى لانرى فى كل انحاء البلاد جهولا
ونشيد دورا للصناعة جمة شتى الشكول ونخرج البترولا
ونقيم فينا للصحافة منبرا يضفي البيان على الشعوب سيولا
ونبث فى كبرى العواصم كلها وزراء لايألوننا تمثيلا
ونعيد للاسلام شرخ شبابه ونفك للشرق الأسير كبولا
ونسابق الأيام فى اقبالها ونكون للآتين أفضل جيلا
وينمق التاريخ ذكر نهوضنا غررا على صفحاته وحجولا

وكأني بالشاعر يرى بعين الغيب النهضة العظيمة التى تعيشها بلادنا العزيزة قبل اكثر من نصف قرن ولقد تحقق منها الكثير. ونسأله تعالى ان يرفع كابوس اليهود وان يطهر المسجد الأقصى وديار فلسطين ولبنان منهم حتى تتحقق امنية الشاعر كاملة.

فنعيد للاسلام شرخ شبابه ونفك للشرق الأسير كبولا

ولقد مد الله فى عمر الشاعر حتى رأى الكثير مما تنبأ به فى سنة ١٣٤٨ هـ وقد تحقق أو بدأت بوادر تحقيقه فى الظهور.

ولقد ابصر الشاعر مايدسه أعداء الاسلام للمسلمين فى بلادهم من دسائس تثير الآلام فى الصدور فقال فى سنة ١٣٥٥ هـ هذه الأبيات :

بين الماضى والحاضر

المسلمون غدوا وهم فى ارضهم ... غرباء بين زعانف وطغام
دسَّ العداة لهم فحال طموحهم ... وتنحَّت الآمال للآلام
ان الذى شرع الشرائع للهدى ... ضمن الخلود لشرعة الاسلام

وللشاعر مقطوعة عنوانها الفراق نظمها فى سنة ١٣٥٧ هـ يقول فيها :

ازف الرحيل فعجَّت الزفرات ... وتدفقت من وقعه العبرات
وتبودلت رسل القلوب واوضحت ... عنها وعن مكنونها الخلجات
وتجاويت كتب العيون وأعربت ... عما تريد بيانه النظرات
ساد السكوت فليس الا دمعة ... تجرى والا آهة مزجاة

وهذه المقطوعة تذكرنا بالأسلوب الذى كان يتبعه الشعراء قبل النهضة الأدبية الحديثة وقد أوردتها لانها المقطوعة العاطفية الوحيدة التى وجدتها للشاعر.

وهناك مقطوعة اخرى بعنوان (المناجاة) نظمها الشاعر فى عام ١٣٦٠ هـ وقد أُطلق الشاعر نفسه على سجيتها فجاءت هذه المناجاة صادرة من القلب :

دعوتك للجلى وقلبي خاشع ... ومالي الا أنت يارب سامع
فعندى أُمانٍ فى الحياة رحيبة ... ولي أمل فى ساحة المجد شاسع
وقد أُخفقت فيما أُردت مطامحي ... وعثَّت على جهدى الحثيث الذرائع
على أُنني لم آل جهدا ولم اقف ... ولم تثنني عما اعتزمت المدافع
وكم غمرة جاوزتها إِثر غمرة ... أُجالد فى اهوائها واصارع
أُعالجها بالعنف طورا وتارة ... أُحاولها مستدريا واخادع
ولكنها أعيت عليَّ فلم أُجد ... سواك وما لي غير جاهك نافع

ففضلك مرجو وعطفك وارف ولطفك ضافٍ واقتدارك واسع

وبما يدخل فى هذا المعنى هذه النفثة التى صدرت من الشاعر فى سنة ١٣٧٦هـ.

اذا التمس المكروب تفريج كربة من الناس لم اقصد سوى الله مرجعا
فحسبي به عونا وغوثا وعدة وملتجأ فى كل حين ومفزعا

كان الشاعر كما ذكرنا عضوا بمجلس الشورى بمكة المكرمة ممثلا لبلده المدينة المنورة وأدركه رمضان فى أحد الأعوام وهو وحيد فى غرفته بفندق التيسير، ولرمضان كما يعرف الناس فرحة عظيمة يتبادل فيها الناس التهاني ويجتمع فيه شمل الأسرة مهنئين مع اطلاق المدافع مؤذنة بحلول الشهر الكريم وتذكر الشاعر فى هذه الساعة التى انطلقت فيها البشائر بدخول رمضان عام ١٣٧٢ هـ داره بالمدينة المنورة وأولاده وأهله وأحبابه تذكر المدينة بكل ما فيها وما له بين جوانبها من العواطف الجياشة بالحب والوفاء فأطلق هذه الزفرات:

رمضانَ جاء فكان مبعث بهجة شاعت مظاهرها على السعداء
وتجاوبت فيه المشاعر غبطة من كل منعطف وكل فناء
وتبادل الناس التهانى فرحة والبشريات عزيزة الآلاء
اما انا فلقد قبعت بغرفتي فى فندق التيسير بالبطحاء
اشكو نواي ووحدتي وسآمتي وعصي آمالي ومعضل دائي

وفيها يقول:

قد كنت أضجر بالحياة وكنت فى بعض النعيم فكيف بالبأساء
أيام كان يحف بي ويحيطني أهلي وكنافي حمى العذراء

وللشاعر مقطوعات تتكون من بيتين سماها المثنيات ونشرت فى مجلة المنهل نقتطف منها النماذج الآتية وقد أشرنا الى الأعداد التى نشرتها وتواريخها، أما

النماذج التى لم يذكر تاريخها فهى منقولة عن البحث الذى كتبه الأستاذ عبدالقدوس الانصارى عن صاحب الترجمة والذى أشرنا اليه آنفا.

المثنيــــــــات

اذا ماشيد الانسان جاها على أنقاض عزته تداعى
وان نهل السعادة بالتدني اصرت قلبه العقبى التياعا

بشــرى

أقيل أو استقال فتلك بشرى وليس يهم أيهما الصحيح
وحسب الناس أن اليأس ولّى واقبل بعده الامل الفسيح
أي شعب كان معضول القوى فهو بالاحداث موصول الألم

ســـقوط فرنسا

هوت بعد التألق والصعود وأحنت رأس سؤ ددها العتيد
طواها هتلر وأتى عليها فناءت تحت هيكله الشديد

انا لا أقبل الخداع

لاتقل لي اذا رأيتك اهلا وتدس الخداع فى بردتيكا
أنا لا أقبل الخداع وادري بخبي الشكوك فى صفحتيكا

إارض عنهـــا

اذا لم ترضك الأيام فيما تشاء من المطالب فارض عنها
فان رضاك عنها سوف يفضي بنيلك كل ماتبغيه منها

سائر الى دور الرعاية

كفى بك بؤسا أن ترى العجز راحة وحسبك يأسا أن ترى السعى متعبا

فانت الى دور الرعاية سائر فتلقى بها أهلا ومأوى ومطلبا

المنهل المجلد (٤٠) ذو القعدة
وذو الحجة سنة ١٣٩٦ هـ

يصدق كل من يثني عليه مجاملة فيدخله الغرور
ويزعم ان ماقالوه نزر وماكتموا هو الشيء الكثير
من لايحركه المديح ولايضايقه الهجاء
فكأنه بل انه فى زحمة الدنيا هباء

المنهل المجلد (٣٨) ذو الحجة ١٣٩٦ هـ

وفـــــاء

كن كيف شئت تفننا ولجاجة واعمل كما تهوى أسىً وتنكرا
فانا انا من قد عرفت وداده لاانثني ابدا ولن اتغيرا

المجلد (٣٩) جمادى الثانية ورجب ١٣٩٨ هـ

ثق بالله

اذا صدر الدعاء من الحوايا يصاحبه الخشوع فقد أجيبا
فثق بالله معتمدا عليه لتكتسح النوائب والخطوبا

مفاجأة الحظوظ العاثرات

نعيش على طريق الذكريات ونأمل فى حدوث المعجزات
ونرقب كل آونة وأخرى مفاجأة الحظوظ العاثرات

المجلد (٣٤) المحرم وصفر ١٣٩٣ هـ

الإبن والأب

الإبن ينشىء للحياة ويبدع وأبوه يمشي للسياق ويسرع
شتان بينهما فهذا مقبل يتملق الدنيا وذاك مودع

ياندم الغفاة

أرى موت الـرفـاق على التـوالي نذيـرا للحـيـاة من المـهات
فمـن يفـهـم يزوده نهاه ومـن يجهـل فيـا ندم الـغـفـاة

المجلد (٣٣) شوال سنة ١٣٩٢ هـ

هذه هى النماذج التى استطعت الحصول عليها من شعر الشاعر السيد عبيد مدني رحمه الله وأرجو أن يكون فى نشر هذه الترجمة ما يحفز همة أبنائه الكرام الى نشر آثاره المطوية واهمها كتابه الضخم المدينة ومؤرخوها ومجموعة أشعاره المدنيات الكبرى والمدنيات الصغرى لتكون هى الأثر الباقى الذى يحفظ ذكره بين الشعراء والمؤرخين والتى تسهل مهمة الباحثين فيما تركه الأديب الراحل من الآثار والاشعار.

مرض السيد عبيد رحمه الله فى عام ١٣٩٦ هـ وسافر الى أمريكا للعلاج وابلَّ من مرضه وعزم على العودة الى المدينة المنورة وكتب بهذا الى صديقه الحميم السيد علي حافظ يقول:

«انني لم يبق معى أي مشاكل ولايوجد مايقلقني وصحتى تسركم وسأتوجه الى المدينة ونلتقي ان شاء الله»

أخذ السيد عبيد رحمه الله يعد عدته للسفر ولكنه تعثر فى حقيبته وأصيب بكسر فنقل الى المستشفى لاجراء عملية عاجلة له. ولكن هذه الاصابة البسيطة كانت هى النهاية فقد أسلم الروح وكانت وفاته فى أمريكا يوم الجمعة الثانى عشر من ذى القعدة سنة ١٣٩٦ هـ وهو فى الثالثة والسبعين من العمر.

رحمه الله رحمة واسعة وأحسن جزاءه فى جنات النعيم.

● السيد علوي بن عباس المالكي ●



السيد علوى بن عباس المالكي

مستدير الوجه ، أبيض اللون ، قصير القامة ، واسع العينين ، وسيم جسيم ، تزين وجهه لحية سوداء خفيف العارضين اقنى الانف ، يرتدى الجبة الحجازية ويعتم بعمامة بيضاء يغطى بها الرأس والاذنين ويلبس الملابس الواسعة وهو زيُّ العلماء المكيين ، وكان السيد علوى رحمه الله من اشهرهم واحبهم الى قلوب الناس واكثرهم ذيوع صيت .

ولد السيد علوى بمكة المكرمة فى ١٣٢٨ هـ وتلقى تعليمه أولا على يد والده العلامة السيد عباس بن عبدالعزيز المالكي الذى كان مديرا للمعارف بمكة المكرمة الذى الحقه بكتاب عمه حسن المالكي بزقاق الحجر، وحفظ القرآن الكريم وجوَّده حتى انه أمَّ المصلين فى صلاة التراويح فى العاشرة من عمره ثم التحق بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة ونال شهادتها العليا فى عام ١٣٤٦ هـ ، وكانت امنية والده ان يرى ابنه يتوسط حلقة الدرس فى المسجد الحرام فكان ابنه السيد علوى من المواظبين على تلقى الدروس فى المسجد الحرام على يد خيرة علماء عصره وهم جميعا من اساتذته فى الفلاح ومنهم الشيخ عبدالله حمدوه والشيخ عمر حمدان والشيخ عيسى رواس والشيخ يحي امان كما انتظم فى حلقات الدرس لدى الشيخ جمال المالكي والشيخ محمد على بن حسين المالكي والشيخ امين السويدى وغيرهم

من اعـلام المـدرسـين بالمسجـد الحرام حتى حصل على اجازة التدريس بالمسجد الحرام فى عام ١٣٤٧ هـ بالاضافة الى عمله مدرسا بمدرسة**الفلاح**،وكانت حلقته بالمسجـد الحـرام تغص بطـلاب العلم من كافـة الاقطار الاسلامية لما يتمتع به من العلم والفضل وكريم الاخلاق.

وقـد ادركتـه مدرسـا فى المسجـد الحـرام وفى مدرسـة الفـلاح بمكـة المكرمة فى النصف الثانى من الخمسينات وهو من اسرة تشتغل بالعلم ابا عن جد وولدا عن اب فابـوه هو السيـد عبـاس المـالكي كان من اعـلام البلد الحرام تقلب فى وظائف التعليم والقضاء فى العهدين الهاشمي والسعودى وانتدبه الشريف الحسين بن علي للسفــر الى الحبشة وبنـاء مسجـد للمسلمـين بها كما انتـدبـه الى بيت المقـدس للاشراف على اصلاحات فى المسجد الاقصى المبارك وفى قبة الصخرة، وكان الى جانب هذا وذاك من علماء مكة المكرمة وله حلقة درس بالمسجد الحرام وله مؤلفات دينية يتداولها الدارسون. وكان مديرا للمعارف فى العهد السعودى فى الاربعينات ثم ولي القضـاء فى مكـة المكـرمة، وعمه كما ذكرنا هو السيد حسن المالكي وكان له كتّابٌ لتعليم القـرآن الكـريم بمكـة المكـرمـة وفى هذا الكتاب جوّد للسيدعلوى القـرآن الكـريم وحفظـه حتى اصبـح امـاما للتراويح وهوفى العاشرة من عمره كما ذكـرنـا قبل. ونجله هو الاستاذ الشيخ السيد محمد علوى المالكي المدرس بالمسجد الحـرام والـذى خلف والـده الكـريم فى برنـامجه الاسبوعى فى اذاعة نداء الاسلام مساء كل جمعة مد الله فى عمره ونفع به وله المؤلفات الكثيرة فى العلوم الدينية وهو خير خلف لخير سلف، فهذه الاسرة الكريمة وهبت نفسها للعلم تتعلمه وتنشره بين الناس وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

عرفت السيد علوي رحمه الله فى النصف الثانى من الخمسينات فى مكة المكرمة كما ذكـرت استـاذا بمـدرسة الفلاح ومدرسا له حلقة يلتف حولها طلابه فى المسجد الحرام مابين العشاءين. وعرفته كذلك مأذونا يعقد الانكحة وكان اشهر مأذون فى مكـة المكـرمـة فى زمانه وظل كذلك الى ان توفاه الله، وكان جميل الصوت، حسن

الاداء لمراسم الـزواج التى يبـاشـرهـا وكـل اهـل مكـة يحبـون الـرجل حبا جما بل ويستبشرون بعقده لزواج اولادهم ، وكان هو الى ماحباه الله به من العلم والفقه فى الـدين لينّ الجـانب لطيف المعشر يملأ المجـالس التى يحضـرها انسا ويشيع فيها السـرور بما يرويـه من الطـرائف الكثـيرة التى صادفتـه فى عمله وبها يحفظه سماعا وقـراءة فلا يمـل جلسـاؤ ه الاستـماع اليه كل هذا فى ادب يحفظ مقامه ، فهو طالب علم قبل كل شيء وبعده ، ولكنه لايتزمت ولايتعالى وانما يدخل الى القلوب بلين الجـانب والحكمـة المشـوبـة بالطـريف من القـول ، فهـويمـزح ولايجرح ،ويتبسط ولايتبذل، وهو بهذا قد جمع لنفسه محبة الناس ومهابتهم فى وقت واحد .

ولقــد حدثنى ببعض الطـرائف التى مرت عليـه فى عقده للزواجـات فى مكـة المكـرمـة وسـاروى منها طرفتين مازلت اذكرهما لما فيهما من الغرابة قال ـ دعيت الى عقـد زواج فى مكـة المكـرمـة ـ وكـان هذا فى الستينات ـ وكان الزواج كبيراً اجتمع المدعوون فى بيت العريس وساروا فى موكب عظيم يتقدمهم حملة الاتاريك والمباخر ويصـاحب العـريس والمأذون المنشـدون المشهورون فى مكة المكرمة وسار العريس ومعـه المأذون السيـد علوى والمدعوون البـالـغ عددهم المئـات ووصلوا الى بيت العروس فى الشعب وخرج اهل العروس ومدعووهم يستقبلون الركب الكبير القادم وانشـد المنشـدون قصـائـدهم ثم تقدم العريس ومن رافقه من المدعوين الى صدر المكـان واديـرت عليهم القهوة بعد ان استقر بهم المجلس وبدأ السيد علوى رحمه الله فى قراءة خطبة الزواج المعتادة الى أن وصل الى الحدّ الذى يبرم فيه العقد، وكان العريس وابوه يجلسان الى يمين السيد علوى رحمه الله ، ووالد العروس يجلس الى شماله ، وكان امامهم بعض المدعوين وهنا وقعت المفاجأة العظيمة التى اذهلت الجميع .

اخـذ السيـد علوي بيد العريس وقال له زوجتك وانكحتك مخطوبتك فلانة .
فتقدم الرجل الجالس امام السيد علوى وقال بصوت يسمعه الجميع تمهل يامولانا فالتفت اليه السيـد علوى سائـلا ماذا هنـاك قال الـرجل : ان فلانا هذا واشار الى

والـد العـروس حضـر فى تاريـخ كذا الى المسجد الحرام واتخذ مكانه بجانبي لاداء صلاة المغـرب وقـال لي لقـد رزقت هذا اليـوم بنتا فقلت له انني اخطبها لابني هذا وكان ابنه حديث ولادة كذلك فقبل تزويجها من ابني وقرأنا الفاتحة على ذلك.

التفت السيـد علوى الى والـد العـروس وسأله، اصحيح مايقوله هذا الرجل، قال نعم، وتقـدم الـرجـل فى الحـال بصرة من النقـود وقـال هذا هو الصـداق قد احضـرتـه معي ، فاعقـد لابني هذا على العروس التى وافق ابوها على تزويجها له يوم ولادتها.

يقـول السيـد علوى، وكـان هذا الـزواج صحيحا بإقرار الابوين فعقدت لولد الـرجـل على العروس وكانت هذه الفتاة من نصيب الخطيب الأول، اما العريس الذى اقيم الفرح ونصبت الزينات من اجل زواجه فلم يتم له زواج ، وكما يقول المثل تكون فى فمك وتقسم لغيرك.

والحادثة الثانية التى رواها لي السيد علوى رحمه الله لاتبلغ فى طرافتها وغرابتها الحادثة الأولى ولكنها تستحق التسجيل.

قال دعيت لاقـامـة زواج كبـير فى مكـة المكـرمـة ووصلنا الى بيت العروس فى موكب كبـير لايقـل ضخـامـة عما وصفنـا فى الحـادثـة السابقة وحان موعد العقد، فسألت والد العروس ان كان يقبل تزويج هذا العريس من ابنته فاجاب بالموافقة . يقول السيد ولكن الله تعالى الهمني ان اسأله سؤالا لم اتعود ان اسأله من قبل قلت للرجل اهذه العروس ابنتك؟ قال نعم انها ابنتي؟ قلت هل هي من صلبك فظهر الضيق على وجه الرجل وقال انني ربيتها صغيرة فهي ابنتي قلت ولكن اين ابوها، قال ان ابـاهـا طلق امهـا وهى طفلة ترضـع فتزوجت الأم واحتضنت البنت طفلة

وتكفلت بها حتى بلغت مبلغ الـزواج وجـاءنى الكفء الذى يخطبها فوافقت على تزويجها، وهى لاتعرف أن لها أباً غيرى وتناديني قائلة يالبي، وانا اعدُّها بنتي وكأنها من صلبي، قال السيـد ولكن ابـوها الحقيقي احي هو؟ قال نعم، قال السيد لابد من حضوره فهو ولي امرها ولابد أن اسمع موافقته على الزواج، والا فلا زواج.

وارتبك والد العروس كما ارتبك العريس وأهله يقول السيد واوقفت العقد الى ان يحضر الاب .

قال السيد رحمه الله ، وارسلوا الى الاب وهورجل فقير يعمل في قهوة في الششة خارج مكة المكرمة كان نائما فايقظوه ، وابى ان يحضر معهم فما زالوا به حتى حضر، وجاء الرجل فإذا هو رجل ضعيف تلمس آثار الفقر في مظهره وكلامه ، قال السيد علوي. قلت للرجــل هل فلانة بنتــك؟ قال نعم ، قلت فان فلانــا واشــرت الى العريس قد خطبها من زوج امها وقد وافقت امها على تزويجها فهل تقبل تزويجها لهذا الفتى؟ قال الاب لا انني لن ازوجهــا له ولا لغــيره الآن . . ثم اردف لماذا لم يستشيروني في هذا الزواج من قبل؟

ونظر الى السيد علوى وكأنه يستمد منه العون والفتيا في وقت واحد قال السيد علوى قلت له انك وليٌّ الامر وبدون موافقتك ورضاك لن يتم زواج وادرك الرجل الفقير ان زمام الموقف قدأصبح في يده ،وأنه قادر على افشال هذا الزواج.وافساد كلما تم من استعداد فاصر على الرفض وادرك الاذكياء من الحاضرين ان موافقة الرجل مرهونة بارضائه ببعض المال ، فاخذوا الرجل الى داخل البيت وبدأت معه المساومة الصعبة التى انتهت بقبوله الفتى زوجا لابنته بعد ان قبض في يديه عشرين جنيها ذهبيا احصى تعدادها ونقدها ووضعها في صرة في حزامه الذى يعتمر به في وسطه . وعــاد الـرجـل متهللا الى مجلس العقـد ومعـه المفاوضون الذين تصبب العرق من جباههم خلال تلك المفاوضات .

وسأل السيد علوي الرجل : قل لي هل وافقت الآن على زواج ابنتك فلانه من عريسها هذا الحاضر بالمجلس قال الرجل نعم يامولانا فاخذ بيد العريس ووضعها في يد الاب وتم العقد وأصبحت الفتاة عروسا بعد ان كاد العرس ان يتوقف .

يقـول السيـد علوي رحمـه الله ، وفي اليوم التالى حضرت كالعادة وليمة الزواج فوجـدت الاب الحقيقي للعـروس وقد ارتدى ثوبا جديدا وظهرت عليه آثار النعمة فما ان رآني حتى اقبل علي مسلما وهو يردد ،ينصر دولتك ، ينصر دولتك .

يقـول السيـد علوى وقـد علمتنى هذه الحـادثـة ان اتأكـد قبل عقد الزواج من شخصية ولي الامر حتى لاتقع المحاذير والمفاجآت وحتى يكون العقد صحيحا من كافـة الوجوه، وقـد حضرت مرة عقد زواج كان السيد علوى يبرمه فى مكة المكرمة وكان والد العروس متوفيا وكان الخال هو الذى يقوم بمهمة تزويج العروس المتوفى ابوها، وقد طلب السيد علوي رحمه الله ان يسأل العروس نفسها عن قبولها للزواج ويتحـدث الى والـدتها ودخل الى داخل البيت ولكن مكوثه فى الداخل طال كثيرا وبعد لأيٍ حضر واتمَّ عقد الزواج، وكنت اجلس قريبا منه فنظر اليَّ رحمه الله وهو يبتسم وكـان يعـرف ان لي قرابـة قريبة بالعريس قال كاد الزواج ان يتوقف يارجل؟ قلت لماذا يامـولانـا. قال سألت الخـال اليس للعروس اخ اوعم قال اما عمها فقد توفى ولا اخ لها قلت وابنـاء عمـهـا قال انهم موجـودون؟ قلت واين هم؟ قال لم يحضـروا قال السيـد فادركت ان خلافـا وقـع بين العـروس وامها وابناء عمها قلت ولكن ابن العم احق بالولاية من الخال، قال السيد وكان الخال ذكيا فقال ان والد العروس اوصاني قبل موته ان ازوج ابنته هذه على فلان الذى خطبها من الاب فى حيـاتـه، ولكن العقـد لم يتم فى ذلك الوقت قلت وهل لديك من يشهد على ذلك فاحضر لي شاهدين رضيتهما وهكذا ابرمت العقد والا كنت توقفت.

هذه الطـرائف وامثـالهـا التى كان يرويها السيد فى اسلوبه اللطيف كان تجتذب قلوب سامعيـه وابصـارهم فكـانوا ينهلون من علمه الغزير، كما يستمتعون بطرائفه وعذب حديثه رحمه الله.

مؤلفات السيد علوى المالكي

كان السيد علوى رحمه الله يمتاز فى دروسه واحاديثه بالتأثير فى نفوس السامعين وسـواء اكـان ذلـك فى حلقـات دروسـه التى يعقدها فى حلقته بالمسجد الحرام، أو يلقيهـا على تلامـذتـه وطـلابه اويتحدث بها الى الجمهور فى الاذاعة والتليفزيون ولقد اتيح لي ان استمع الى السيد علوى رحمه الله متحدثا فى الاذاعة والتليفزيون

كما اتيح لي ان اجلس بعض الوقت مستمعا فى حلقته بالمسجد الحرام ولقد سعدت فعلا بالاطلاع على كثير من هذه الاحاديث مجموعة فى مجلد كبير ومعنونا باسم نفحات الاسلام من البلد الحرام قام بجمعها وترتيبها نجله الدكتور محمد علوى المالكي وعني بنشرها وطبعها الشيخ عبدالله ابراهيم الانصاري على نفقة الشئون الدينية بدولة قطر ولقد كان الشيخ عبدالله الانصارى المسئول عن الشئون الدينية بدولة قطر تلميذا للمرحوم السيد علوى وطالبا من طلاب العلم فى حلقته بالمسجد الحرام ولنترك المجال قليلا لفضيلته ليتحدث عن ذلك، يقول الشيخ عبدالله الانصاري فى مقدمة هذا الكتاب:

من بين هؤلاء الابطال عالم جليل كان سيدا لي ومربيا لروحى ، ومؤدبا لنفسي ، ولست وحدى نال من الخير الوفير والعلم والسعادة والبركة بل هم جمع غفير ، كنا نحلق حوله فى مهبط الوحي ومنزل الرحمات تجاه بيت الله الحرام فكم ادركنا من علمه ثمارا يانعة ، ونلنا من فضل تربيته آدابا سامية اذا شرع فى شرح حديث تتخيل امواجا من العلم ينساب من صدره اليك.

وقَّادُ ذهن اذا جالت قريحته   يكاد يقضي عليه من تلهبه

ذلك هو استاذى السيد علوي بن عباس المالكي المكي مدرس المسجد الحرام تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه واسكنه فسيح جناته وجمعنا به فى مقر رحمته

وهذا الكتاب يمثل دروس السيد علوى رحمه الله واحاديثه الدينية ومعالجته لبعض القضايا التى تعرض عليه وهى مجموعة فى مجلد ضخم يبلغ خمسمائةوثلاثين صحيفة، وللسيد علوى رحمه الله مؤلفات اخرى منها كتاب فتح القريب المجيب على تهذيب الترغيب والترهيب ، وكتاب الترغيب والترهيب هذا هو من الكتب التى كانت تدرس لنا فى مدارس الفلاح بجدة ونحن على مقاعد الدراسة والكتاب عبارة عن مجموعة من الاحاديث النبوية الشريفة جمعها مدرسو الفلاح ورتبوها فى كتاب بغرض تدريسه لتلاميذ الفلاح.

ولما كان السيد علوى رحمه الله قد درس السنة النبوية على أيدى اعلام العلماء

فى المسجد الحرام وعرف من اسرار هذا العلم ما ادرك معه وجوب الرجوع الى هذا الكتـاب بالتعـديـل والتهذيب فقد اقدم على هذا العمل وباشره فى كتابه هذا فتح القريب المجيب على تهذيب الترغيب والترهيب. ويقول السيد علوى فى مقدمة الكتاب :

وقـد اشتغلت به مدة مديـدة ، فرأيت انـه يحتـاج الى إصـلاح بحـذف بعض فصـولـه ، وابـدالهـا بفصـول اخـرى صحيحـة اوحسنـة لما فى الأولى من النكـارة والضعف ، وحذف بعض الاحاديث المكررة فى موضوع واحد وكل احاديثه مروية بصيغـة الجـزم ، كقـال مع ان نظر العلماء فى الحديث الضعيف انه لايروى بصيغة الجزم بل بصيغة الضعف كروي وحكي .

لقد حمله اخلاصه للعلم وامانته ، وللحديث النبوى الشريف ومكانته العظيمة من الدين على ان يقوم على تصحيح هذا الكتاب فشرع فى ذلك معتمدا فى النقل كما يقول على مؤلفات العلماء الموثوق بهم كالحافظ المنذرى، والامام النووى وابن حجـر الهيثمي وجميعهم من اعـلام العلماء فى هذا المجـال وقـد زين الكتاب بشرح واف لمعـاني الالفـاظ والاغـراض مستشهـدا فى ذلـك بالآيـات القـرآنية فى وضوح لايستعصى على فهم القارىء العادى والتلميذ المبتدىء، وبهذا ادى السيد علوى رحمـه الله امـانة العلم التى تقلدها، وجنب القارىء للكتاب سواء اكان تلميذا فى المـدرسـة أو قارئـا من عامـة القراء وجنَّبة مزالق الأخذ بالأحاديث المنكرة والضعيفة دون ان يثقل عليه بشرح الاصطلاحات التى يعرفها المتخصصون من العلماء .

ابانة الاحكام

هذا الكتـاب هو شرح واف لكتـاب الحافظ بن حجر بلوغ المرام وقد اشترك فى تأليف هذا الكتـاب مع السيـد علوى رحمه الله السيد حسن سليمان النورى كما هو مثبت فى الطبعة التى بين يدي من هذا الكتاب ويقول المؤلفان عن هذا الكتاب ان مؤلفه الحافظ بن حجر قد بذل جهده فيه فى جمع ادلة الاحكام الشرعية مع الاشارة

الى التوفيق بين الاحاديث المتعارضة وبيان رتبة الاحاديث وعزوها الى مخرجيها مما كان تبصرة للمبتدىء وتذكرة للمنتهي والكتاب مفصل تفصيلا وافيا والمجلد الأول خاص بالعبادات. وقد قسمت الى ابواب مفصلة تفصيلا دقيقا كاملا، يبتدىء فيه بذكر الحديث ثم شرح المعنى الاجمالى له ثم التحليل اللفظي لالفاظ الحديث

ويختتم البحث بفقه الحديث، والكتاب يشبع المواضيع التى يتعرض لها بحثا وتفصيلا وهو من اجل الكتب التى تفيد طلاب العلم والدارسين كما يرجع اليها طالب المعرفة، وقد اطلعت على مجلدين من الكتاب المذكور حتى الآن.

ان المطلع على مؤلفات السيد علوى رحمه الله يخرج منها بفوائد جمة، فهو أولا يشبع الموضوع الذى يتناوله بحثا فلا يترك جانبا من جوانبه الا وقد القى الاضواء عليه وبينه البيان الشافى الوافى وهو امر يدل على تمكن الرجل من الامور التى يعالجها والاحاطة التامة بالمباحث التى يتعرض لها فلا يترك صغيرة ولاكبيرة الا ويجليها.

الامر الثانى الذى يظهر للمتأمل فى هذه المؤلفات تمكّن الرجل من علوم الحديث الشريف وهو المكمل للكتاب الكريم، والشارح لما اجمله القرآن من الاحكام والمفصل لكيفياتها وجزئياتها.

ونكتفى بهذا القدر من الكلام عن مؤلفات السيد علوى رحمه الله فليس من غرض هذه الترجمة الاحاطة بكلما كتب وألّف وإنما المراد هو اعطاء فكرة عن اعمال الرجل وانجازاته ليستطيع القارىء رسم صورة مصغرة له فى ذهنه ان كان من لم يسعدهم الحظ بمعرفته ولقائه.

هذا وقد توفى السيد علوى مالكي رحمه الله فى منتصف ليلة الأربعاء فى الخامس والعشرين من شهر صفر عام ١٣٩١ هـ عن ثلاثة وستين عاما، اثر نوبة قلبية، رحم الله السيد علوى مالكي فقد وهب حياته كلها للعلم طالبا ومعلما وواعظا وداعيا الى الله وقد دفن فى مقبرة المعلاة بمكة المكرمة فى اليوم التالى وكانت لوفاته

رنة حزن واسى فى جميع انحاء البلاد رحمه الله تعالى واحسن جزاءه لقاء ما اسدى
الى العلم واهله انه سميع مجيب.

• •

الشيخ محمّد رحمة الله العثماني
مؤسس المدرسة الصولتية بمكة المكرمة

ولادته ونسبه

ولد العلامة الشيخ محمد رحمة الله بن خليل الرحمن العثمانى فى بلدة كيرانه التابعة لمدينة دلهى عاصمة الهند فى ذلك الزمان فى شهر جمادى الأولى عام **١٢٣٣** هجرية الموافق لعام ١٨١٨ للميلاد وهو سليل اسرة كريمة اشتهر افرادها فى تلك البلاد فكان منهم الامراء والحكام والرؤ ساء والعلماء والاطباء وينتهى نسبه الى ثالث الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، ولذلك اطلق على الاسرة لقب العثماني نسبة الى هذا النسب الكريم .

وكان أول من قدم من افراد هذه الاسرة الى الهند الشيخ عبدالرحمن الكاذروني الجد الاعلى للشيخ حيث كان قاضيا شرعيا للجيوش الاسلامية التى فتحت الهند على يد السلطان محمود الغزنوى .

تحصيله وتعليمه

تلقى الشيخ علومه الابتدائية فى بلدة كيرانه فتعلم القراءة والكتابة وبدأ فى حفظ الكتاب الكريم على يد كبار افراد أسرته المشهورين بالعلم والفضل ، ثم انتقل الى مدينة دلهي عاصمة الهند ليتلقى المزيد من العلم فالتحق بإحدى

المدارس الدينية هناك ودرس بها الكثير من العلوم كما قرأ الكثير من الكتب، ولكن شغفه بالعلم والرغبة فى الاستزادة من مناهله دفعه الى الارتحال الى مدينة لكنو بالهند وهى مدينة الثقافة والحضارة فى ذلك الزمان فتلقى العلم على يد افاضل العلماء هناك وتخصص فى آداب اللغة الفارسية وعلوم الطب.

ثم عاد بعد ذلك الى مسقط رأسه فى مدينة كيرانه واشتغل بالتعليم فاسس بها مدرسة تولى مهمة التدريس فيها بنفسه والتف حوله من الطلاب من كتب الله لهم التوفيق فكانوا بعد ذلك من العلماء العاملين فى الهند ومنهم العلامة الشيخ عبدالوهاب مؤسس أول مدرسة إسلامية بمدينة مدراس بالهند وقد عرفت هذه المدرسة باسم الباقيات الصالحات وقد تحولت هذه المدرسة فى الوقت الحاضر الى كلية تعد اكبر كلية فى مدينة مدراس الكبيرة فى جنوب الهند.

الحالة فى الهند

فى هذا الوقت الذى ولد فيه الشيخ ونشأ وبلغ مبلغ الرجال كانت الهند تعانى من ويلات الاستعمار البريطانى، فالامبراطورية المغولية الاسلامية التى مضى عليها مايقرب من اربعمائة عام كانت تلفظ انفاسها الاخيرة ليحل محلها الاستعمار الانجليزى الصليبي الغاشم، وكان الحكام من الهنود حكاما بالاسم لان مقدرات البلاد كلها قد اصبحت فى يد الحكام الانجليز الذين وفدوا الى البلاد تحت ستار شركة الهند الشرقية، واخذوا ينهبون خيرات البلاد نهبا منظما، يشترون الخامات الهندية بابخس الاثمان ليعاد تصديرها اليهم بعد صنعها فى مصانع انجلترا باغلى الاسعار، وكان الانجليز يعملون على ان تبقى الهند مزرعة يستغلون خيراتها ويحرمون اهلها من هذا الخير، وكانوا يستخدمون الوسائل الكثيرة والعنيفة لتبقى البلاد تحت سيطرتهم سادرة فى غفوة الجهالة فنصبوا انفسهم للقضاء على الروح المعنوية بشتى الوسائل.

والهند كما هو معلوم مليئة بالديانات المختلفة كما هى مملوءة بالاجناس المتباينة

واللغات الكثيرة وكان اصعب ما واجه المستعمرين فى الهند هو الاسلام ممثلا فى علماء المسلمين ومفكريهم .

وفى الوقت الذى نشط فيه الانجليز فى التبشير بالدين المسيحي بين الهنود كان الاسلام هو الشوكة التى تقف فى حلوقهم ، وكان علماء المسلمين هم العقبة الكأداء التى تتكسر عليها سهام كيدهم وشرورهم .

كان الاسلام بتعاليمه النقية السامية القائمة على صفاء العقيدة يجتذب القلوب ويدخل الى نفوس الناس فى يسر، وكانت العدالة الاسلامية بين الناس تعطي المثل الافضل فى مجتمع يقوم فيه نظام الطبقات الذى كان سائدا فى الهند فيخلق الطبقة المقدسة ثم ينتهي بطبقة اخرى الى حضيض الرجس والمهانة .

ولم يجد الانجليز بدا من محاربة المسلمين فى عقيدتهم فجردوا سيوف البغي ممثلة فى ارساليات التبشير التى جندت لها الكنيسة اكبر شياطينها ، فلم يكتفوا بمحاولة اجتذاب الوثنيين من السيخ الى المسيحية ولكنهم اخذوا يهاجمون الاسلام ويشككون فى صحة القرآن ، وفى نبوة محمد بن عبدالله عليه افضل الصلاة والتسليم ، وكانت هذه الحملة المسعورة يقودها القسيسون فيعقدون الاجتماعات فى الاماكن العامة حيث يبشرون بالمسيحية بعد ان يكونوا قد اوسعوا الاسلام تجريحا ونقدا وافتراء وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وكان الحاكمون من الانجليز يمهدون الطريق لهؤلاء المبشرين ويقفون بالمرصاد لكل من يتصدى لهم او يعترض عليهم .

وكان المسلمون ينظرون الى هذا البغي الذى تسانده الحراب الانجليزية والكثير منهم يقف دون حراك الا من الحسرة والعذاب ، وكان الموقف يتطلب شجاعة منقطعة النظير تستهدف الوقوف فى وجه هذا البغي بروح من الجهاد والاستشهاد وكان الموقف كذلك يتطلب الاعداد قبل مواجهة الاحداث .

ورأى الشيخ رحمة الله صاحب هذه الترجمة ان الواجب الديني يدعوه للجهاد فى سبيل الله دفاعا عن عقيدة الاسلام وذودا عن كرامة خاتم المرسلين محمد بن

عبدالله صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الانبياء والمرسلين.

وقرر ان يبدأ أولا بدراسة المسيحية والاطلاع على الانجيل اوعلى الاناجيل المختلفة ليكون على علم تام بما هوبسبيل الاقدام عليه. يقول فضيلة العلامة السيد ابو الحسن علي الحسني الندوى:

قام الشيخ رحمة الله وشمر عن ساق الجد والاجتهاد ونذر لله ان لايهدأحتى يدرس مصادر النصرانية ومراجعها دراسة عميقة دقيقة ويغوص فيها وينقب، وقد شحذ عزمه على ذلك قدوم القس الطائر الصيت فندر من انكلترا وقد قام بنشاط كبير وحماس زائد فى مناظرة علماء الهند، وقد تحداهم تحديا سافرا وقام بجولة فى مديريات الهند يخطب فى المجامع ويدعوا الى النصرانية وكانت المشكلة مشكلة اللغة، وكان الشيخ لايعرف اللغة الانجليزية وقد تخطى بحكم سنه المرحلة التى يستطيع فيها تعلم الانجليزية، وكان فندر لايعرف الا اللغة الانجليزية، وكان مشاركا فى اللغة العربية والفارسية.

يقول السيد الندوى فاين القنطرة التى تصل بينهما واين الرجل الذى يساعد الشيخ رحمة الله فى الاطلاع على المصادر الاجنبية والوثائق المسيحية التاريخية؟ ويواصل السيد الندوى كلامه فيقول:

هنالك قيض الله مسلما غيورا - ولله جنود السموات والأرض - وهو الدكتور محمد وزير خان الاكبر آبادى، الذى سافر الى لندن سنة ١٨٣٢ يدرس الطب الجديد وقد نال فيه شهادة عالية واتقن اللغة الانجليزية ودرس اللغة اليونانية، وعني بدراسة المسيحية من مصادرها الاصلية واقتناء كتبها واستصحب هذه المكتبة الثمينة الى الهند، فكان هذا الرجل عضد الشيخ الايمن فى هذا الجهاد العلمي الكبير الذى كان جهاد الساعة وواجب الوقت.

اكمل الشيخ رحمة الله مهمته فى الدراسة واخذ عدته وعتاده لخوض المعركة وقد استفحل امر فندر الذى رأى الجو خاليا فازداد جرأة وتحديا، ورأى الشيخ ان السبيل الوحيد لايقاف فندر هذا عند حده ان يتم الحوار معه فى لقاء عام يحضره الخاصة

من أهل الرأي واعيان البلاد وحكامها ليستمع الناس الى مايدورفى هذا الحوارمن الحجج التى تقرع الرأي بالرأي ليكون الناس على بينة فى نهاية المطاف بالحقيقة التى ينجلى عنها صراع الرأى بين الرجلين .

وكان فندر قد الف كتابا سماه ميزان الحق وترجمه الى اللغة الفارسية وملأه بالاباطيل والضلالات التى تهاجم الاسلام ونبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه واخذ يدل به بعد ان رأى ان الجو قد خلا امامه من المعترضين المناقشين .

اعد الشيخ عتاده وارسل الى فندر يطلب منه الحضور للمحاورة فى موعد ومكان يتفق عليهما ، وتحداه ان يظهر امام الجمهور من الناس بما فيهم علماء النصارى والمسلمون وكان شرط هذه المناظرة انه اذا انتصر فيها القس فندر دخل الشيخ رحمة الله فى دينه فاصبح مسيحيا ، واذا انتصر الشيخ رحمة الله دخل القس فندر فى دينه فاصبح مسلما .

كان التحدى صارخا واستعان الشيخ على اتمام المناظرة بكل من توسم فيه القدرة على التأثير على فندر هذا لاتمامها ، ولم ير فندر بعد ان وصلت الأمور الى هذا الحد من التحدى السافر بدأ من قبول المناظرة فقبلها راضيا اوكارها فالله اعلم بدخيلته ، واخيرا ابرم الامر وتحدد عقد المناظرة فى الحادى عشر من شهر رجب عام ١٢٧٠ هجرية الموافق للعاشر من ابريل سنة ١٨٥٤ للميلاد فى مدينة اكبر آباد اكره احدى مديريات الولاية الشمالية الرئيسية واحد مجالات النشاط التبشيرى فى الهند وفي حي من أحيائها يسمى حارة عبد المسيح .

بدأ الحفل فى الموعد المعين وتجمع الناس فحضر ولاة المديرية من حكام وقضاة وبعض كبار رجال الجيش من الانجليز كما حضر القس الشهير وليم كلين وعدد كبير من اعيان البلد ووجهائه كما حضر فريق كبير من ابناء البلاد من المسلمين والمسيحيين والسيخ .

وحضر الشيخ والى جانبه الدكتور محمد وزير خان يعاونه ويترجم له ، وكان موضوع المناظرة والبحث قد تحدد فى خمس نقاط :

١ ـ التحريف فى الكتاب المقدس ـ العهد القديم والجديد ـ
٢ ـ وقوع النسخ
٣ ـ التثليث
٤ ـ نبوة محمد
٥ ـ صدق القرآن وصحته.

ان الذى يتأمل فى النقاط التى سيدور فيها البحث يرى ان الشيخ رحمت الله اختار طريقة الهجوم بدلا من طريقة الدفاع ، فهوأولا سيتحدث عن ما وقع فى الانجيل من تحريف ونسخ ، كما سيتحدث عن التثليث الذى يؤمن به المسيحيون الاب والابن والروح القدس وهو مايتنافى مع صفاء عقيدة التوحيد التى تؤمن بآله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد، وبعد هذا يجرى البحث فى النبوة الخاتمة لمحمد ﴿ﷺ﴾ وفى صحة القرآن.

كان الشيخ رحمت الله قد استعد اعظم استعداد للمواضيع التى سيخوض بحورها ، يقول الدكتور الدسوقى :

وقد تناول ـ الشيخ ـ فى الكلام على العهدين العتيق والجديد كل باب من ابوابها واستشهد من كلام مؤرخيهم وعلمائهم ـ النصارى ـ على تبيان المطعون فيه من الأبواب والآيات وبينّ بالحجج الدامغة ان لايوجد لدى علمائهم فى كلتا الديانتين سند متصل لاى كتاب من كتب العهدين، ثم تناول بعد ذلك مافى كتب العهدين من الاختلاف والاغلاط.

وبينّ ان ادعاءهم بان هذه الكتب الموجودة بين ايدينا الهامية ادعاء باطل وساق برهانا على هذا البطلان سبعة عشر وجها لكثرة مابها من اغلاط وتحريف واختلافات عجز مفسروهم عن التوفيق بينها ، ثم ان الكاثوليك والبر وتستانت يختلفان فى الاعتراف ببعض هذه الكتب فما يعترف به الكاثوليك ينكره البر وتستانت والعكس بالعكس.

اما بالنسبة للتحريف فى كتب العهدين القديم والجديد فقد أثبت أن بعض

هذا التحريف كان عن عمد وكان هذا التحريف احيانا بالزيادة، واحيانا بالنقصان واحيانا بالتبديل اللفظي وساق على التحريف بالزيادة خمسة وأربعين شاهدا، كما ساق على التبديل اللفظي خمسة وثلاثين شاهداً وصدق الله العظيم إذ يقول «يحرفون الكلم عن مواضعه» أما التحريف بالنقص فقد أورد عليه الشيخ رحمت الله عشرين شاهداً كما أورد عدة مغالطات للمبشرين المسيحيين وفنَّدها ببراهين ساطعة واستدل على ذلك بأقوال المسيحيين الثقات من المفسرين والمؤرخين ليزيد حججه نصاعة وقوة.

يقول الدكتور الدسوقي:

وبلغت هذه الاستدلالات من اقوالهم الثلاثين قولا، مما يدل على سعة اطلاع وتتبع حريص لاقامة الحجة عليهم من كتبهم.

أما بالنسبة لاثبات النسخ فقد اثبت الشيخ بالادلة القاطعة نسخ بعض الاحكام فى الشريعتين الموسوية والمسيحية، ثم برهن على أن الاحكام العملية للتوراة نسختها شريعة عيسى عليه السلام، وان لفظ النسخ موجود فى كلام، قدِّيسيهم كما حاول المؤلف ان يثبت ان النسخ ليس وقفا على الدين الاسلامي ولكنه كان عند اليهود والنصارى كذلك.

نعود بعد هذا التفصيل عن مبلغ استعداد الشيخ رحمت الله للمناظرة الى المناظرة نفسها التى تمت فى بهوفسيح عام وجرى الاتفاق على تخصيص الجلستين الأولى للبحث فى موضوع النسخ وتحريف الانجيل وانبرى الشيخ رحمت الله يدلي بما اعده من الحجج عن هذا التحريف ولم يجد القسيس فندر بداً امام الحجج الدامغة التى اوردها الشيخ من الاعتراف هوومن معه من القسيسين بحصول التحريف فى الانجيل فى ثمانية مواضع، وكان هذا الاعتراف بمحضر من هذا الجمع الحاشد ونشرت الصحف وقائع الجلستين مما جعل القسيس فندر فى موقف المناظر المغلوب على امره فامتنع عن حضور الجلسة الثالثة، ولم يكتف بهذا فلقد ترك الهند كلها خفية بعد هذه الهزيمة التى مني بها كما منيت بها دعوته ودعوة

امثاله، وبهذا لم تحدث المناظرة الا فى المادة الأولى منها، ولقد بادر الشيخ الى طبع ما اعده من نصوص المناظرة فى كتاب «البحث الشريف فى أثبات النسخ والتحريف» .

أما بقية ابواب المناظرة فقد اوردها الشيخ فى مؤلفاته الأخرى التى سنتحدث عنها بعد واهمها كتابه ـ اظهار الحق ـ الذى ترجم الى اللغة العربية كما ترجم الى اللغات الانجليزية والفارسية .

يقول الشيخ محمد مسعود سليم حفيد الشيخ ـ ومدير المدرسة الصولتية بمكة المكرمة :

اشتد غضبهم ـ الانجليز ـ بعد هزيمتهم فى المناظرة فقد كانت مناظرة الشيخ رحمت الله مع المسيحيين بمثابة شرارة ايقظت في نفوس المسلمين روح المقاومة فتكونت فرق الجهاد فى عموم انحاء الهند وخاصة فى مدينة دلهي وتوابعها وانحائها، وكانت كلها مرتبطة عملا ومعنويا بالشيخ رحمت الله .

وبدأ الانجليز فى نصب المشانق للمسلمين وقتلهم بدون هوادة، واقاموا مذابح بشرية يندى لها جبين الانسانية ، وقد اعلن الانجليز اعدام الشيخ رحمت الله ، ومنح مكافأة قدرها الف روبية لكل من يدلهم عليه اويأتي به ، وصادروا املاكه ، واحاط الجيش الانجليزى ببيوت الشيخ مدة طويلة وكان الشيخ قد تنكر فى زيٍّ فلاح هندى فقير يعمل فى الأرض فلم يستطيعوا العثور عليه، ثم قرر الشيخ الهجرة الى مكة المكرمة فترك الهند مخلفا وراءه اهله واملاكه ومدرسته واقاربه واحبابه متنكرا وقضى فى طريقه الى مكة المكرمة مايقرب من عامين وهو يتنقل من بلد الى بلد يقطع البحار كما يقطع الصحارى والقفار حتى وصل الى مكة المكرمة عن طريق اليمن فى سنة ١٢٧٤ للهجرة .

فى مكة المكرمة

وصل الشيخ رحمت الله الى مكة المكرمة ولايعلم بشأنه احد من الناس وكان

شيخ علماء مكة المكرمة فى ذلك الزمان السيد أحمد زيني دحلان (١). كما كان اماما وخطيبا للمسجد الحرام، وكان للسيد الدحلان حلقة يلقي فيها دروسه على طلاب العلم فى المسجد الحرام، والتحق الشيخ رحمت الله فى هذه الحلقة يستمع الى الدروس مع طلاب العلم بعد صلاة الفجر من كل يوم ،وحدث ان وجه الشيخ رحمت الله الى السيد الدحلان سؤالا فقهيا فى احدى حلقات الدرس وبعد ان اجاب السيد الدحلان على السؤال تطور الامر الى مناقشة فقهية ادرك معها السيد الدحلان ان السائل ليس طالب علم وانما هو عالم متمكن فامسك بيده وطلب منه ان يحدثه عن حقيقة امره وان يفصح عن هويته واحواله قصَّ الشيخ رحمت الله على شيخ علماء مكة فى ايجاز قصته وما وقع له فى الهند والتجاءه اخيرا الى البيت الحرام يطلب فيه الامن والامان.

تأثر السيد الدحلان بما سمع من امر الشيخ رحمت الله حتى فاضت عيناه بالدموع ودعاه الى بيته واكرمه وجمع له علماء مكة المكرمة على مائدة كبيرة اقامها فى داره حيث عرَّف السيد الدحلان الشيخ رحمت الله الى علماء مكة المكرمة وتحدث الشيخ رحمت الله إلى الحاضرين بجلية امره وماوقع له مع القسيس فندر وما تلا ذلك من احداث حتى وصل الى حمى البيت العتيق.

رحب علماء مكة بالعالم المجاهد ونزل من قلوبهم المنزلة التى يستحقها من كان مثله مجاهدا فى اعلاء كلمة الاسلام وابطال الباطل واحقاق الحق، ومنحه شيخ علماء مكة المكرمة اجازة التدريس وعين له مكانا بالمسجد الحرام تعقد فيه حلقته للتدريس واصبح اسمه مسجلا فى السجل الرسمي لعلماء ومدرسي المسجد الحرام.

رحلة القسطنطينية

استقر المقام بالشيخ فى مكة المكرمة مدرسا فى المسجد الحرام الى ان استدعاه

---

١ ـ السيد أحمد زيني دحلان مؤلف كتاب الفتوحات الاسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية فى مجلدين كبيرين. ومؤلف كتاب خلاصة الكلام في امراء البلد الحرام.

السيد أحمد زيني دحلان يوما، ليخبره بما جَدَّ من أمور، كان القديس فندر الذى انهزم فى المناظرة المشهورة على يد الشيخ فى الهند قد وصل الى القسطنطينية مبعوثا من الكنيسة المسيحية للتبشير بها هناك، ويأبى مركب النقص الذى وقع لديه بعد هزيمته فى الهند الا ان يظهر فقلب الحقائق، وتباهى بما فعل فى الهند فقلب الحقائق وأشاع ان علماء المسلمين فى الهند لم يستطيعوا الثبات أمام ما أورده من براهين وحجج على النسخ فى القرآن وانهم غلبوا على امرهم فتحول الكثير من المسلمين الى النصرانية وتحولت المساجد الى كنائس والعياذ بالله وانتصرت النصرانية على الاسلام.

ولقد بلغ الى مسامع السلطان عبدالعزيز خان مايروجه هذا القس الفاجر من الاكاذيب والاباطيل فارسل رسالة عاجلة الى والي مكة المكرمة الشريف عبدالله ابن عون يطلب منه الاستفسار من الحجاج القادمين من الهند عن احوال الهند والأحداث الخطيرة التى وقعت بها وخاصة ماتم فى المناظرة بين الشيخ رحمت الله والقسيس فندر، وما ان تلقى والى مكة هذه الرسالة حتى اطلع عليها شيخ علماء مكة المكرمة وكان جوابه حاضرا أن الشيخ رحمت الله موجود عندنا فى مكة المكرمة وله حلقة يلقي فيها الدروس على طلابه فى المسجد الحرام واستقبل الشريف عبد الله بن عون بن عبدالله الشيخ رحمت الله وسمع منه قصته مع القسيس فندر مروية بلسانه وكتب إلى السلطان عبد العزيز بحقيقة الأمر فورد الأمر من السلطان بإرسال الشيخ إلى تركيا سريعا ضيفا خاصا للخليفة وكان ذلك فى سنة ١٨٦٤ ميلادية، أكرم السلطان وفادة الشيخ رحمت الله كثيرا واستمع إلى قصته ودعى إلى اجتماع حافل حضره كبار رجال دولة الخلافة وعلماء الدين وكلف السلطان الشيخ رحمت الله بالحديث إلى الحاضرين عن أحوال الهند وعن المناظرة الدينية التى تمت بينهم وبين القسيس الكاذب فندر وما تلاها من ثورة المسلمين فى الهند والأحداث التى تلت ذلك حتى اسنقر المقام بالشيخ فى رحاب البيت العتيق.

فندر يهرب من القسطنطينية

علم القسيس فنــدر بوصــول الشيخ رحمت الله الى القسطنطينيـة بطلب من الخليفة فاختفى وهرب من تركيا الى غير رجعة خشية ان يواجه بها يدحض اكاذيبه وافتراءاتـه وامـر السلطان بعد ماسمع من الشيخ مافعله القسيسون والمبشرون فى الهند امر بالقبض على القسيسين المبشرين واعوانهم ومصادرة كتبهم واغلاق مراكزهم .

بقي الشيخ رحمت الله فى القسطنطينية ضيفا مكرماً على السلطان ، وكان يقابله كثيرا عقب صلاة العشـاء مع رئيس الـوزراء خير الـدين باشا التونسي ، والشيخ أحمد اسعد المدني شيخ الاسلام ، وكبار رجال الدولة والمناصب الدينية ، وتقديرا من الخليفة لجهاد الشيخ انعم عليه بالخلعة السلطانية وبالوسام المجيدى ، وعين له مرتبا شهريا مقداره خمسمائة ريال مجيدى وعينه عضوا فى مجلس الوالي بمكة المكرمة .

كتاب اظهار الحق

طلب السلطان عبدالعزيز ورئيس وزرائه خير الدين باشا من الشيخ رحمت الله بعـد ان عرفـوا من امـره ماعـرفـوا تأليف كتـاب شامـل عن الاسـلام يحتوى على المبـاحث الجـوهـرية بين الديانتين الاسلامية والمسيحية مع ايراد نص المناظرة التى تمت بين الشيخ والقسيس فندر والنقاش الذى تم بينهما سواء فى الجلسات التى تمت بينهـما او المبـاحث التى اعـدها الشيخ ولم يجر النقاش فيها بعد غياب فندر ، وطلب السلطان من الشيخ ان يتفرغ لتأليف الكتاب المطلوب فى تركيا ، واستجاب الشيخ رحمت الله لطلب الخليفة فعكف على تأليف كتابه اظهار الحق وهو كتاب ضخم فى مجلدين عظيمــين استهـدف فيــه جلاء حقيقـة الاسـلام وابطـال مزاعم اليهـود والنصـارى ومفـترياتهم ودحضها بالحجة والبرهان واتم الشيخ كتابه فى ستة شهور وطبـع فى تركيـا تحت رعـايـة الخليفـة ووزع فى البلدان العربية والاسلامية كما تمت ترجمتـه الى اللغـات الانجليـزيـة والالمـانيـة والفـرنسية وقد اهتم السلطان بترجمة الكتاب الى اللغة التركية كذلك فظهرت الترجمة تحت عنوان ابراز الحق .

يقول الشيخ محمد مسعود مدير المدرسة الصولتية بمكة :

ولقد علقت جريدة لندن تايمز فى ذلك الوقت على هذا الكتاب قائلة :

لو داوم الناس على مطالعة هذا الكتاب لتوقف انتشار الدين المسيحي كليا ولابى الناس قبوله ورجعوا الى الاسلام .

ويواصل الشيخ محمد مسعود قائلا :

ولقد تم طبع هذا السفر الجليل عشرات المرات فى تركيا ومصر وسوريا ولبنان ، وقام القسيسون ورجال الهيئات التبشيرية بمصادرة نسخه واتلافها حتى لاتصل الى ايدى الناس فى البلاد العربية والطبعة المتداولة هى الاخيرة بتحقيق الدكتور عمر الدسوقي وهو مطبوع فى المغرب وفى لبنان .

وليس هذا الحال مع كتاب اظهار الحق فقط بل مع ترجماته الانجليزية والفرنسية والالمانية والتركية ايضا والجدير بالذكر ان الهيئات المختصة بالهند فى عهد الحكومة البريطانية منعت طبع وتداول مؤلفات الشيخ رحمت الله وانزال العقوبة بكل من يقوم بطبع ونشر مؤلفاته ، ولكن كتبه كما يقول الشيخ محمد مسعود ظلت محفوظة مصونة فى البيوت والمكتبات القديمة وفى صدرو العلماء ورجال الحق .

كما ان الترجمة الاوردية للكتاب والتى تحمل اسم من الانجيل الى القرآن طبعت ثلاث طبعات فى الباكستان وقام بترجمتها فضيلة الشيخ اكبر علي العثماني وحققها وعلق عليها فضيلة الاستاذ محمد تقي العثماني وهما من العلماء المشهورين فى الباكستان .

وهكذا تتوالى طبعات الكتاب باللغات المختلفة وكلما نفذت طبعة طبعت اخرى فكأن الكتاب بهذا الوصف حسنة جارية يتلقى مؤلفه ثوابها ونورها بعد ان فارق هذه الحياة الدنيا الى رحاب الله الواحد الغفار.

تأسيس أول مدرسة بمكة المكرمة

عاد الشيخ رحمت الله الى مكة المكرمة بعد ان اتم تأليف كتابه اظهار الحق ، واشتغل بالتدريس فى المسجد الحرام ، وكذلك فى داره لتلاميذه من ابناء مكة

المكرمة والمهاجرين اليها لطلب العلم .

ولقـد رأى الشيـخ بثـاقب بصيرته ان التعليم الذى يتم فى حلقات الدروس فى المسجد الحرام يقتصر على التعليم الديني ومايتعلق به من علوم اللغة والبيان، وان الحـاجـة تدعـو الى ادخـال مواد اخـرى لتعليمهـا لابناء المسلمين، وكان يرى ان المدرسة التى يتم تأسيسها على أسس برامج ومناهج دراسية معينة يمكن ان يجني منها المتعلم فوائد أخرى الى جانب دراسته الدينية .

كانت الحكومة العثمانية تبذل بسخاء لمدرسي المسجد الحرام ولعلماء مكة المكرمة ولكن البـلاد كانت خاليـة من المـدارس التى تجمـع بين علوم الدنيا والدين، فقام الشيخ رحمت الله بافتتاح اول مدرسة فى مكة المكرمة فى ربيع الأول من عام ١٢٨٥ للهجرة على نفقته الخاصة واتخذت المدرسة مقرا لها بدار احد امراء الهند المهاجرين المعروفة بدار السقيفة عند مطلع جبل هندى بالشامية. ولكن الدار كانت ضيقة ، فلم يتمكن الشيخ من تنظيم الدراسة فيها بالشكل الذى يتمنى ويريد .

المدرسة الصوليتيه

وفى عام ١٢٨٩ هـ قدمت لاداء فريضـة الحـج الاميـرة صولـة النسـاء احـدى امـيرات الهنـد، وكـانت تنوي بعد اداء الحج انشاء رباط بمكة المكرمة يكون وقفا للفقراء فاستشارت الشيخ رحمت الله فى الامر وهو المعروف امره والمنتشر ذكره، قال الشيخ رحمت الله لصولت النساء : ان مكة المكرمة تحتاج الى مدرسة يتعلم بها ابناء المسلمين،وحدثها عن مدرسته التى اسسها والتى تحتاج الى بناية اعظم تبنى لتكون مدرسة نظامية،،وافقت الاميرة صولت النساء على فكرة الشيخ وفوضت اليه امر بناء المدرسة على نفقتها. ويسر الله الامر فتم شراء الأرض فى حي الخندريسة بمحلة البـاب ووضع الشيخ رحمت الله حجر الأساس لأول مدرسة دينية نظامية فى رحاب البيت العتيق وتم فى صبـاح الأربعـاء ١٥ شعبـان ١٢٩٠ للهجـرة ابتداء الدراسة بالمـدسـة الصـوليتيـة التى جعـل الشيـخ اسمهـا مرتبطـا باسم اميرة الهند صولت النسـاء، وجـرى الاحتفـال بذلـك الحـدث بحضـوره علماء مكـة المكرمة وأعيانها



منظر جانبى لعمارة المدرسة الصولتية الثانية التى بها الدراسة الآن والتى انتهت عمارتها فى عام ١٣٤٥هـ .

وطلاب العلم فيها .

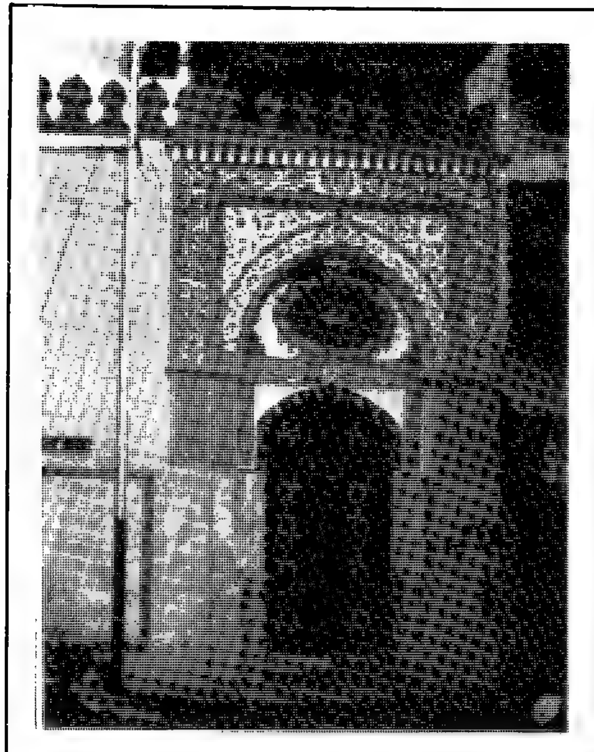
اصبحت المدرسة مركزا للطلاب من كل حدب ومنبعا للعلوم والمعارف ، وهى أول مدرسة نظامية على الاطلاق فى الجزيرة العربية تأسست على يد ذلك الرجل العظيم .

وتتكون المدرسة من ثلاثة مباني ـ المبنى الأول المدرسة التى بنيت على نفقة الاميرة الهندية صولت النساء . . والمبنى الثانى خصص لايواء خمسين طالبا وقد بنيت على نفقة محسن هندى مسلم اسمه مير واجد حسين من مدينة بتنه فى الهند وتم بناء هذا المبنى الذى سمى دار الاقامة فى عام ١٢٩٣ هجرية .

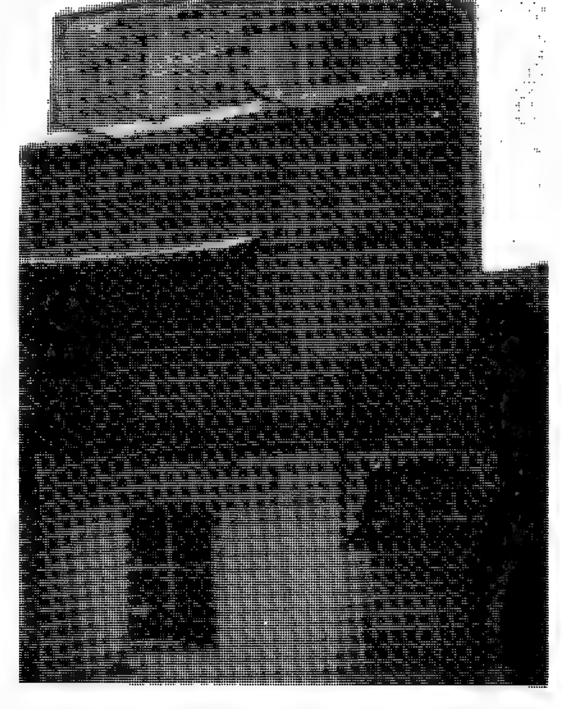
اما المبنى الثالث فهو المسجد وقد استعملت فيه الاحجار التى نتجت من هدم دار الكتب الملكية فى ساحة الحرم المكي الشريف وتفصيل الامر، ان دار الكتب الملكية كانت مبنية فى ساحة الحرم المكي بالقرب من بئر زمزم وكان وجود هذا المبنى يضايق المصلين وخاصة فى أيام الحج فرأى عثمان باشا نورى والي الحجاز ضرورة ازالته وكتب بذلك الى وزارة الاوقاف فى القسطنطينية واقامة مبنى آخر للمكتبة فى مكان آخر ولما عرض الامر على السلطان عبدالحميد خان وافق على ذلك وتم نقل المكتبة الى مبنى مجاور كما تم هدم المبنى الذى كان قائما فى ساحة الحرم . وتقدم الشيخ رحمت الله الى عثمان نورى باشا والي الحجاز بطلب شراء الاحجار المتخلفة عن هدم هذا المبنى لاستعمالها فى بناء مسجد للمدرسة الصوليتيه فوافق الوالي على هذا الطلب واشترى الشيخ رحمت الله هذه المخلفات واستغلها فى بناء المسجد الذى يسر الله بناءه على اجمل وجه بحضور بعض المهندسين الهنود فظهر المسجد بقبابه العالية تحفة معمارية اسلامية وتم بناء المسجد فى سنة ١٣٠٤ للهجرة .

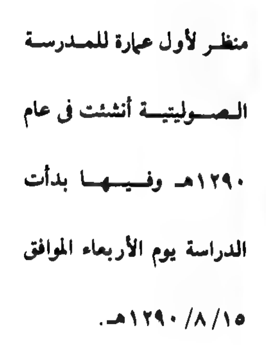
دسائس وعقبات

كانت المدرسة الصوليتيه منذ تأسيسها تقوم على تبرعات اثرياء المسلمين فى الهند وكان من ضمن اغراضها احتضان ابناء المهاجرين المسلمين وخاصة من مسلمي الهنود ليتلقوا بها علومهم الدينية والدنيوية بطريقة منظمة ليعودوا الى الهند فيعلموا ابناء المسلمين هناك ماتعلموه فى مكة المكرمة .



المدخل الجميل لمسجد المدرسة الصولتية المؤسس فى عام ١٣٠٢هـ وعليها أبيات شعرية رائعة للشاعر الشيخ محمد نظيف التركي.





منظر لأول عمارة للمدرسة الصولتية أنشئت فى عام ١٢٩٠هـ وفيها بدأت الدراسة يوم الأربعاء الموافق ١٥/٨/ ١٢٩٠هـ.

وكانت القنصلية الانجليزية فى جدة تعرف الكثير من ماضي الشيخ رحمت الله فى محاربة التبشير المسيحى واثره الكبير فى الثورة ضد الانجليز فى الهند تبث الدسائس ضد المدرسة ومؤسسها فتنشر الاراجيف عن الاغراض. من وجود هذه المؤسسة التى تقوم على نفقات الهنود من خارج الحجاز، ولقد تأثر والي الحجاز عثمان نورى باشا فى ذلك الزمن ببعض هذه الدسائس فكتب الى القسطنطينية محذرا من الشيخ رحمت الله ومدرسته وجاء الامر السلطاني على غير ماكان يتوقع الوالي فسافر الشيخ رحمت الله واستقبل فى الاستانة استقبالا عظيما وانعم عليه السلطان بلقب ركن الحرمين الشريفين وخلع عليه وقدمت له الهدايا والأموال السخية.

ولما قابل السلطان عبدالعزيز خان ابدى السلطان رغبته فى تقرير منحة مالية سنوية للمدرسة لمعاونتها على اداء رسالتها فاجابه الشيخ شاكرا لانعمه قائلا:

ان لجلالة السلطان فى أرض الحرم مشاريع عظيمة النفع ينفق عليها بسخاء ومشاريع لم تكتمل بعد وهذا كاف فى فضل السلطان.

وان مسلمي الهند يقومون بالانفاق على المدرسة راغبين الثواب من الله، وارجو جلالة السلطان ان لايحرمهم من هذا الثواب.

ويبدو ان ما كان يرد للمدرسة من تبرعات مسلمي الهند كان يسد متطلبات المدرسة، ودار الاقامة فلم يرغب الشيخ فى الحصول على المعونة السلطانية، ولعل لديه اسبابا اخرى للاعتذار(١)

تجديد الدراسة فى حلقة الشيخ رحمت الله

كانت حلقة الشيخ رحمت الله فى المسجد الحرام كما يصفها الأستاذ مسعود سليم رحمة الله مدير المدرسة الصوليتيه بمكة، لايقتصر التدريس فيها على العلوم الدينية كما هو الحال بالنسبة لحلقات الدروس بالمسجد الحرام فى ذلك الزمان.

---

(١) ٥٧/ ٦٠ أكبر مجاهد فى التاريخ للسيد محمد سليم بن محمد سعيد.

يقـول الاسـتـاذ محمـد مسعـود : فعزم على ادخال علوم وكتب جديدة وتعريف الطـلاب بما لم يعهـدوه فى محيـط العلم والتـدريس ، فشـرع فى تدريس المنطق والفلسفة الاسلامية وعلمي الكلام والمناظرة وعلم الهيئة واقليدس الهندسة ، وعلم الفلك ، وطلب لها الكتب من الهنـد ، وكـان يومـا مشهـودا فى تاريخ العلم بالحرم المكي الشـريف الـذى شرع فيـه العلامة الشيخ رحمت الله فى تدريس كتاب حجة الله البالغة ، ومقدمة ابن خلدون وما اشبه ذلك من الكتب فى العلوم آنفة الذكر.

فتهـافت عليـه جموع الطـلاب ، واصبحت حلقته منهلا عذبا اقبل عليه طلاب العلم والمعرفة وظل يقوم بالتدريس فترات طويلة ومتعددة فى الحرم الشريف وفى داره.

التلامذة والمتخرجون

لهذا فقـد تخرج على يديـه العـدد الكبـير من العلماء والقضاة وأهل الافتاء ممن يشار اليهم بالفضل والكمال فى تاريخ مكة.

وقـد اورد الشيـخ محمـد مسعـود اسماء الطـلاب الذين تخرجوا على يد الشيخ رحمت الله فكـان على رأسهم المـرحـوم الشـريف الحسـين بن علي ملك الحجـاز ومؤسس الدولة الهاشمية فى سنة ١٣٣٤ للهجرة فى مكة المكرمة.

ولقـد ضمن القـائمة التى اوردها الأستاذ محمد سليم مسعود القضاة ورجال الفتيا والعلماء والمدرسين بالمسجد الحرام نذكر منهم على سبيل المثال:

فضيلة الشيخ عبدالله سراج

قاضى القضـاة مفتى الاحنـاف وشيخ العلماء بمكة المكرمة ثم رئيس وزراء الاردن فى عهد الملك عبدالله بن الحسين ملك الاردن.

الشيخ أحمد أبو الخير مرداد

شيخ الخطباء والعلماء بمكة المكرمة والمدرس بالمسجد الحرام.

الشيخ عبدالرحمن الشيبي

سادن بيت الله الحرام والمدرس بالمسجد الحرام .

السيد عبدالله محمد الزواوى

مفتى الشافعية بمكة المكرمة والمدرس بالمسجد الحرام ورئيس مجلس الشورى.

السيد عابد حسين المالكي

مفتى المالكية والمدرس بالمسجد الحرام .

الشيخ عبدالله أحمد ابوالخير

مفتى الاحناف وقاضى المحكمة الشرعية والمدرس بالمسجد الحرام

الشيخ محمد علي سليمان مرداد

الامام والخطيب والمدرس بالمسجد الحرام .

الشيخ أمين محمد علي مرداد

إمام وخطيب المسجد الحرام ونائب رئيس محكمة مكة .

الشيخ أسعد أحمد دهان

قاضي المحكمة الشرعية الكبر ى بمكة وقاضى الطائف والمدرس بالمسجد الحرام

الشيخ أحمد أبو الخير عطار

صاحب التآليف الشهيرة فى الاسانيد

الشيخ عبدالرحمن حسن العجمي

قاضى محكمة الطائف والمدرس بالمسجد الحرام .

الشيخ عبدالله محمد الغازي

المدرس بالمسجد الحرام والمدرسة الصوليتيه ومؤرخ مكة المعروف

الشيخ عبدالستار الدهلوى الكتبى

المدرس بالمسجد الحرام وصاحب التآليف النافعة فى تاريخ علماء مكة المكرمة .

نكتفى بهذا القدر من الاسماء التى وردت فى هذه القائمة لقضاة مكة المكرمة وعلمائها ومدرسي المسجد الحرام بها لنورد بعض الاسماء للرجال الذين تخرجوا على يد الشيخ ثم قاموا بتأسيس المدارس فى الهند ونشر العلم بها .

الشيخ أحمد الدين جكوالي

مؤسس مدرسة مظهر العلوم بكراتشي

العلامة شرف الحق صديقي

المناظر المعروف وصاحب المؤلفات فى الرد على النصارى

الشيخ ضياء الدين عبدالوهاب المدراسى

مدير مدرسة الباقيات الصالحات فى ديلور بجنوب الهند.

الشيخ عبدالأول الجو تيورى

صاحب المؤلفات النافعة والشهير بمصلح بنغال

الشيخ عبدالرحمن الآله ابادى

شيخ القراء بالهند

الشيخ محمد هاشم اشعرى

مؤسس جمعية نهضة العلماء باندونيسيا

العلامة الشيخ محمد علي

مؤسسة مدرسة دار العلوم بالهند

الشيخ ابو الخير الفاروقي الهندى

المصلح والمربي الشهير ومن علماء الهند

ولقد كان كذلك بين تلاميذ الشيخ من قاموا بتأسيس المدارس فى مكة المكرمة ذاتها نذكر منهم الاسماء الآتية:

الشيخ عبدالخالق محمد حسين البنقالي

مؤسس مدرسة دار الفائزين بمكة المكرمة

الشيخ عبدالحق القارى

مؤسسة المدرسة الفخرية بمكة المكرمة

الشيخ محمد حسين الخياط

مؤسس المدرسة الخيرية بمكة المكرمة والمدرس بالمسجد الحرام

واود ان اذكر ان القائمة التى اوردها السيد محمد مسعود سليم تضم واحدا وخمسين أسما من العلماء والقضاة والمدرسين بالمسجد الحرام وممن تسلم بعضهم المراتب العالية وقد اكتفينا منهم بالاسماء التى اوردناها للدلالة على عظيم فضل الشيخ رحمت الله وماصنع الله من البركة على يديه ومن اراد الاستزادة فله ان يرجع الى المقدمة التى كتبها السيد محمد مسعود سليم رحمه الله والتى اورد فيها القائمة كاملة لكتاب اظهار الحق والذى استقينا من مقدماته جميع المعلومات الواردة فى هذه الترجمة وبالله التوفيق.

عودة الى المدرسة الصوليتية:

انتظمت الدراسة فى المدرسة الصوليتيه فى بداية المحرم من سنة ١٢٩١ هـ (١) ولاتزال المدرسة قائمة برسالتها منذ اكثر من مائة واثنتي عشرة عاما فى مكة المكرمة اخرجت المدرسة خلالها اجيالا من المتعلمين شغل الكثير منهم وظائف التدريس فى المدرسة نفسها وفى المسجد الحرام وفى مدارس مكة المكرمة، كما تولى بعضهم مناصب القضاة فى مكة وجدة والطائف وغيرها من مدن المملكة، وصدرت لبعضهم المؤلفات النافعة فى العلوم الشرعية خاصة، فكانت هذه المدرسة منارة من منارات العلم فى البلد الحرام شع نورها الى اقطار كثيرة.

ولقد سبقت المدرسة الصوليتيه جميع المدارس الاخرى فى الحجاز بعقود من السنين فمدارس الفلاح التى قامت النهضة التعليمية فى الحجاز على أكتافها تم تأسيسها فى عام ١٣٢٣ هـ بينما تم تأسيس المدرسة الصوليتية فى عام ١٢٩١ هـ واذا كانت مدارس الفلاح قد اخرجت الاجيال التى ساهمت فى نهضة البلاد من كافة جوانبها وشغل متخرجوها الاعمال الحكومية والتجارية والتعليمية بمختلف وجوهها فان المدرسة الصوليتية اخرجت الرجال المتخصصين فى العلوم الدينية ممن

---

١ ـ ٥٤ أكبر مجاهد في التاريخ تأليف محمد سليم بن محمد مسعود.

اقـامـوا حلقـات التدريس فى المسجد الحرام خاصة وتولوا وظائف القضاء الشرعي ولهذا فانا نستطيع القول بإن المدرسة الصوليتية كانت مدرسة متخصصة فى العلوم الدينية بينما كانت الفلاح مدارس عامة اخرجت المتعليمن فى كافة المجالات .

وقـد اورد السيـد محمـد سليم بن محمـد مسعـود اسـماء مائـة من المتخرجين فى المدرسة الصوليتية بينهم خمسة عشر قاضيا اذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر.

الشيخ أحمد بن عبدالله القارى

القـاضى بمكـة وجـدة وعضـو هيئـة رئاسة القضاء وعضو مجلس الشورى ومؤلف المجلة الشرعية الذى افردنا له ترجمة خاصة ضمن اعلام الحجاز.

الشيخ حسن سعيد اليماني

عضو هيئة رئاسة القضاة فى مكة المكرمة ثم قاضي القضاة فى مدينة سومطره ووالد معالى الشيخ أحمد زكي يماني .

الشيخ يحي امان

قاضى مكة المكرمة والمدرس فى المسجد الحرام .

الشيخ محمد نور كتبي

قاضى المدينة المنورة

الشيخ حامد القارى

قاضى الطائف

الشيخ سراج محمد نور ششه

قاضى تبوك

الشيخ بكر كمال

قاضى الطائف

الشيخ حسن محمد المشاط

عضو هيئة التمييز والمدرس في المدرسة الصوليتيه

كما أن من بينهم ثمانيـة متخـرجـين قامـوا بتأسيس المدارس الاسلامية في انحاء

مختلفة من انـدونوسيا وغيرها من البلاد الاسلامية ، والكثير منهم عمل في وظائف التدريس بالمسجد الحرام والمدرسة الصولتية نفسها وغيرها من المدارس في مكة المكرمة .

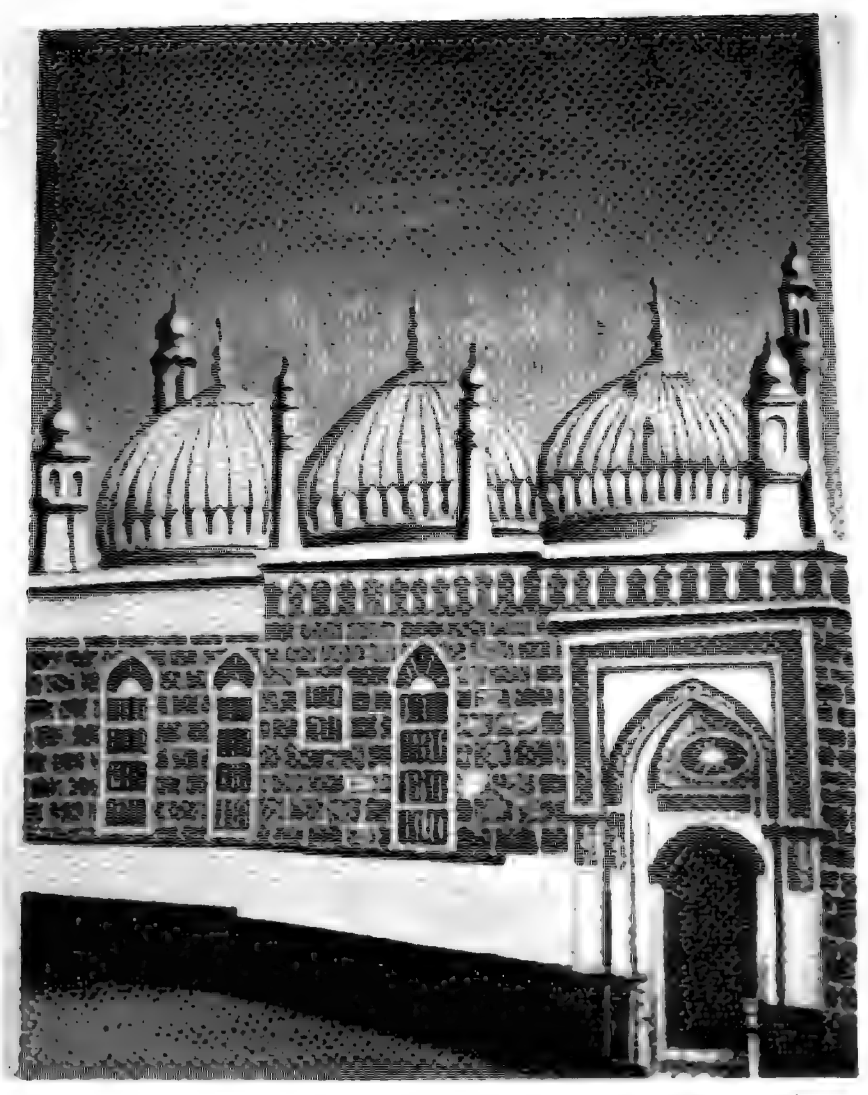
وهكـذا يظهر لنا بوضوح المنحى التخصصى الـذي اتجهت اليـه المـدرسـة الصوليتية فاخرجت لمكة المكرمة وللبلاد الاسلامية هؤلاء الرجال الذين كانوا فى زمنهم مصابيح علم وهداية .

وهنـا مسألـة يجب التنبيـه إليهـا وهى أن المـدرسة وحتى الجامعة على عظم اهميتها ليست وحدها العامل الاساسي فى نبوغ وظهور المبرزين .

إن المـدرسـة تعطى الطـالب الاساس الذي يبنى عليه علمه وهذا البناء يعتمد على الجهـد الفـردى للطـالب وعلى طمـوحـاتـه وتطلعاته واجتهاداته ، ولو كانت المدارس تخرج العباقرة والنوابغ لامتلأت الدنيا بالعباقرة والنابغين ، ولظهر النقص فى الأيدى العامله والطبقات المعتادة ممن يقومون بمختلف الاعمال العادية فى دنيا الناس .

واود كذلـك أن أشـير الى أن الطـريقـة التى كانت تتم بها الـدراسة فى الماضى وقبـل افتتـاح المدارس النظامية والتى كانت تعتمد اساسا على حلقات الدرس فى المسجد الحرام أو في المسجد النبوى الشريف أو المساجد الاخرى لم يكن الطلاب يعتمـدون فيهـا على استـاذ واحد وانما يتنقلون بين حلقات المشايخ ليتلقوا عن كل واحـد منهم علما تخصص فيـه ، وقـد تشتـد علاقـة الطـالب باستـاذه فيتلقى عنـه بالملازمة الطويلة الكثير من العلم فتكون نسبته اليه هى الغالبة .

إن العصر الذى نتحدث عنه كانت تتفشى فيه الامية ، وكان المتعلمون فيه هم الصفـوة القليلة النـادرة ، لهذا فان نظـرتنـا الى هؤلاء الـرجال الذين حاولوا تبديد ظلمات الجهـالـة فى تلك الازمـان تتسم بالاكبار والتقدير ، لان علمهم كان جهادا حقيقيـا فى نشـر العلم ، ولـما كانت نيـاتهم قد حسنت ونفـوسهم قد صفت فان الله



منظر القباب الجميلة لمسجد الصولتية على الطراز الاسلامى المغولى فى الهند بنيت على أيدى الصناع الهنود فى عام ١٣٠٢هـ ، وفى هذا المسجد ظل قسم تحفيظ القرآن الكريم زهاء ٧٥ سنة متوالية .

تعالى قد اتاح لهم التغلب على المصاعب التى وقفت فى طريقهم، وبارك لهم فى جهودهم حتى بعد وفاتهم فلا تزال هذه المدارس مفتوحه الابواب تؤدى رسالتها الطيبة فى نشر العلم بين الناس رغم اختلاف الاوقات وتطاول الزمن.

لقد رأينا أنه كان من أسباب تأسيس المدرسة الصولتيه بمكه اخراج علماء من

ابنـاء المهـاجـرين وخاصة من ابناء مسلمي الهند ليتعلموا القرآن الكريم وعلومه، والسنة النبويه الشريفة وعلومها ليعودوا الى بلادهم فينشروا هذا العلم بين الناس فى وسط طغت عليه فى ذلك الزمان سطوة المبشرين الذين يعملون جاهدين لصرف النـاس عن الاسـلام وادخـالهم في المسيحية، ولقد حققت المدرسة الصولتييه هذه الغـايـة أو بعضـا منهـا فرأينـا بين متخـرجيهـا من تلاميـذ مؤسسها من قاموا بفتح المدارس الاسلامية في بعض بلاد الهند واندنوسيا.

ولكن العمل الطيب كالعطر يفوح ريحه اينما حل فلا ينشق شذاه حامله فحسب وانما ينشق الناس من حوله هذا الشذى العاطر، كما تمر ببستان الورد فيحمل اليك الهـواء من حولـه الطيب والشـذى، وهكذا كانت المدرسة الصوليتيه نفحة عطرة فى رحـاب البيت العتيق اخـرجت لنـا العلماء والقضـاة والمدرسين، وكانوا مصدر خير وبركة لكل من تلقى العلم عنهم أو اتصلت اسبابه باسبابهم.

وهكذا يؤتى العمل الطيب أكله ثمرا جنيا طيبا بتوفيق الله وعونه.

مؤلفات الشيخ رحمت الله : -

أهم مؤلفات الشيخ رحمت الله هو كتاب اظهار الحق الذى سلف الحديث عنه والذى الفه بتكليف من السلطان العثماني عبدالعزيز خان وباشارة من رئيس وزرائه خير الدين باشا التونسي، وكان قد سبقهما الى هذا الطلب شيخ علماء مكه السيد أحمد زيني دحـلان وقد تضمن هذا الكتاب الرد الوافي على مفتريات النصارى ضد الاسلام ودحض مفترياتهم واثبات التحريف الذى وقع فى الانجيل، وابطال معتقداتهم فى التثليث وقـد ترجم الكتـاب الى لغـات كثـيرة واعيد طبعه مرات عديدة وآخر طبعة له هى الطبعة التى قامت بنشرها ادارة الشئون الدينية بدولة قطر واشرف على طبعة فضيلة الشيخ عبدالله الانصارى مدير الشئون الدينية هناك وقـام على تحقيقـه الـدكتور عمر الدسوقى وهي فى مجلدين كبيرين تزيد صفحاتها عن الالف ومائتي صفحـه وقـد توج الكتاب بمقدمات اربع كتبها كل من الشيخ عبـدالله الانصـارى والعـلامة السيد ابوالحسن على الحسني الندوى والسيد محمد

مسعود سليم رحمه الله مدير المدرسة الصولتية بمكة المكرمة والدكتور عمر الدسوقي استاذ الادب بجامعة القاهرة ومن هذه المقدمات استقينا جميع المعلومات الخاصة بالشيخ رحمت الله والتى اوردناها فى هذه الترجمة وقد صدر الكتاب فى ١٦ من ذى الحجة سنة ١٤٠٠هـ.

وقد اورد السيد محمد مسعود سليم قائمة بمؤلفات الشيخ رحمت الله باللغات المختلفة نوردها فيما يلى :-

١ ـ ازالة الشكوك مجلدان باللغة الاوردية.
٢ ـ اعجاز عيسوى باللغة الاوردية.
٣ ـ البروق اللامة باللغة العربية.
٤ ـ تقليب المطاعن باللغة العربية.
٥ ـ معدل اعوجاج الميزان باللغة الاوردية.
٦ ـ ازالة الاوهام باللغة الفارسية.
٧ ـ احسن الاحاديث فى ابطال التثليث باللغة العربية.
٨ ـ البحث الشريف فى اثبات النسخ والتحريف باللغة العربية.
٩ ـ معيار الحق.

وقد طبعت هذه المؤلفات جميعها فى الهند وهى فى الرد على الديانة المسيحية، وعاشر المؤلفات ومسك ختامها هو كتاب اظهار الحق الذى سبق الحديث عنه والذى يعتبر من أعظم المؤلفات فى بابه، وقد اثنى عليه كثير من علماء المسلمين منهم السيد رشيد رضا صاحب المنار والشيخ عبدالرحمن الجزيري عضو لجنة هيئة كبار العلماء فى مصر كما استشهد به واشاد بما فيه كثير من علماء المسلمين في الهند(١).

والمتأمل فى أعمال الشيخ رحمت الله وفى تاريخه يجد أن الرجل قد نذر نفسه اولا

---

١ ـ انظر صفحة ٩/٨ من كتاب اكبر مجاهد فى التاريخ.

لمحاربة دسائس المبشرين ودحض مفترياتهم على الاسلام، واثبات التحريف فى الكتب التى بين ايديهم، وابطال عقيدة التثليث التى يؤمنون بها والتى تتنافى مع صفاء عقيدة التوحيد، وبعد أن أستقر به المقام فى مكة تفرغ للتدريس فى المسجد الحرام ثم اختتم عمله الطيب احسن ختام بتأسيس المدرسة الصولتية فى رحاب البيت العتيق.

ان الدين كله لله، وإن الله تعالى ارسل رسله جميعا من عهد آدم برسالة واحدة فى مختلف الازمان تقوم على توحيده جلت ذاته وتقدست صفاته وعلى افراده بالالوهيه، وتنزهه عن الولادة والولدوتفرده بالعظمة الكاملة وامر عباده باخلاص العبادة له وحده وباتباع ماجاءت به رسله من شرائع تتعلق بعبادته جل جلاله، وبتنظيم الامور بين الناس ليعمر هذا الكون وليعيش الناس فى محبة وسلام، ولكن بعض من ضلت عقولهم وفسدت عقائدهم من أهل الديانات السابقة حرفوا فيما أوحى به الله الى انبيائه ورسله ولم يكتفوا بهذا التحريف فأخذوا ينشرون ضلالاتهم بين المسلمين، ونسوا انهم بهذا يحاربون الله تعالى فى الألوهية الواحدة وفى تعاليمه السامية.

ولاتزال هذه الضلالات تتخذ اشكالا شتى فى عالم اليوم مما تتفتق عنه أفكار شياطين الانس وتتستر تحت اسماء الشيوعية، والحرية الفكرية والدعوات العنصرية الى جانب الحقد الصليبي، والخبث اليهودى الذى بدأ يتحول الى سرطان فى عالمنا العربي.

ولن يستطيع المسلمون الوقوف فى وجه هذه التيارات الكافرة الضالة المضلة الا بالرجوع الى عقيدتهم الصافية يهتدون بهديها ويحتمون بها ويدافعون عنها فيظفروا بنصر الله الذى وعدهم به والذى انزله على نبيه واوليائه فى شتى العصور والازمان.

مرض الشيخ رحمت الله ووفاته

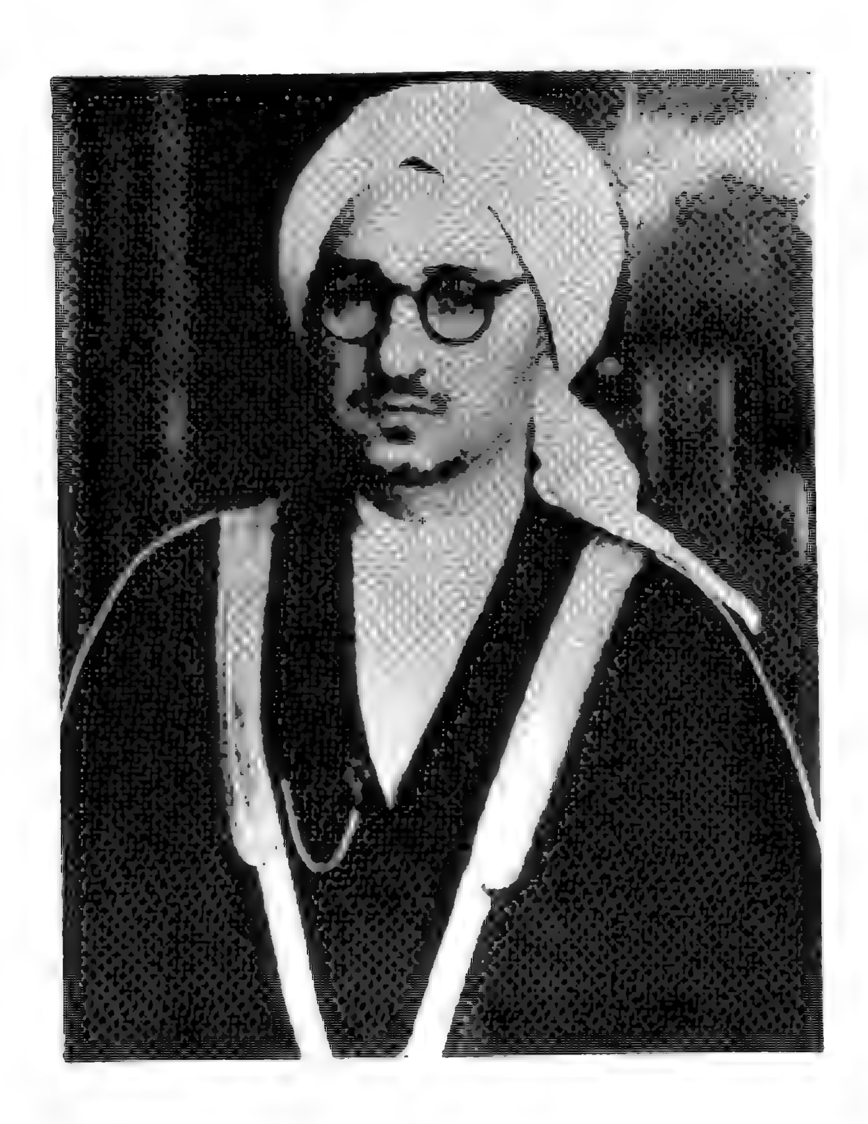
مرض الشيخ رحمت الله بعينيه وعلم السلطان عبدالحميد خان بمرض الشيخ

فطلب حضـوره الى القسطنطينيـة ليعـالـج تحت رعـاية السلطان وسافر الى هناك ونصحـه الاطبـاء المختصـون باجـراء عملية ازالة الماء من العين وكانت العملية فى ذلك الزمان من العمليات الخطيرة ولكن الشيخ رغب عن اجراء العملية وعاد الى مكة المكـرمـة ولكن المـرض اشتـد فى عينيـه فاجريت له العملية فى مكة ولم تكلل بالنجاح واصبح الشيخ بعد ذلك عاجزاً عن القراءة فكان يملي رسائله على حفيده الذى استقدمه من الهند ليكون تحت رعايته كما يقرأ له هذا الحفيد الرسائل الواردة ومـايـرغب الشيـخ فى الاطـلاع عليه، ولم ينجب الشيخ رحمت الله ذرية ولكنه ترك خلفه الكثير من الأبناء الروحيين الذين نهلوا من موارد علمه وفضله.

وفى الثانى والعشرين من شهر رمضان من عام ١٣٠٨ للهجرة الموافق الاول من شهر مايو عام ١٨٩١ للميلاد لبى الشيخ رحمت الله نداء ربه فدفن فى مكة المكرمة فى مقـبرة المعـلاة بعـد حيـاة حافلة بالجهـاد بالجنَان والبيـان فى سبيل الدفاع عن العقيدة الاسلامية ونشرها بين الناس رحمه الله واحسن جزاءه فى جنات الخلد.

هذا ولايـزال احفـاد الشيـخ رحمت الله يقومون على هذا الصرح العلمي الذى اسســه جدهم الاكـبر فى مكة المكرمة يتبع الخلف منهم آثار السلف ويحفظون هذه الشعلة المضيئه فى بلد الله الحرام فجزاهم الله خير الجزاء.

الشيخ محمد طاهر الكردي



الشيخ محمد طاهر الكردي

قصير القامة معتدل الجسم ، ناتئى الجبهة تشوب بياضه صفرة خفيفة ، تزين وجهه لحية سوداء حليق شعر العارضين في عينيه حول خفيف تستره نظارة للقراءة ، يرتدى الجبة الحجازية ويعتم بعمامة تستر الرأس والاذنين وهو بهذا يتخذ سيماء العلماء المكيين .

ولد بمكة المكرمة فى عام ١٣٢١ للهجرة وتلقى تعليمه بمدرسه الفلاح بمكة وتخرج منها فى عام ١٣٣٩هـ وفى عام ١٣٤٠هـ سافر بصحبة والده الشيخ عبدالقادر الكردي الى القاهرة حيث التحق بالازهر الشريف ويقول الشيخ طاهر فى ترجمته التى كتبها عن نفسه فاشتغل هناك بالعلوم الدينية والعربية كما اشتغل بتعلم الخطوط العربية بانواعها ومايتعلق بها من الرسم والزخرفة والتذهيب بعد أن التحق بمدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية ، ولما عاد من القاهرة اشتغل بتعليم الخط العربى بالمدارس ولذلك يعرف بالخطاط انتهى ماكتبه الشيخ طاهر عن نفسه نقلا عن كتابه التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم .

عرفت الشيخ طاهر الكردي فى النصف الثانى من الخمسينات بمكة المكرمة ، وكان صديقا حميما لعمى الشيخ عبدالله مغربى رحمه الله وكنت اعرف انه اشتهر بجمال الخط ، وكان يحضر الى متجر عمي والى داره بصورة يومية تقريبا ، كما كان

يصاحبه الى الحج كل عام، وكان مظهر الشيخ طاهر متزمتا متوقرا ولكنه اذا خلا باصحابه تحول الى شخص آخر كثير الدعابة والمرح.

وكان الشيخ طاهر قد عاد من القاهرة بعد أن أكمل دراسته فى الأزهر الشريف ولكنه لم يعمل فقد كانت الاعمال شحيحة والوظائف محدودة والركود يسود الحالة الاقتصادية.

مصحف مكة المكرمة

وفى أواخر الخمسينات أو أوائل الستينات حضر الشيخ محمد طاهر الكردى الى مكتب المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان بالطائف وطلب مقابلة الشيخ محمد سرور ليتحدث اليه فى امر ما، فطلبت منه الانتظار قليلا حتى حضر الشيخ فقدمته اليه، وقلت فيما قلته انه بارع فى الخط براعة فائقة.

قال الشيخ طاهر للشيخ محمد سرور: انني عزمت علي كتابة القرآن الكريم بخط يدي، وأريد أن اقدم هذا المصحف اذا انتهيت منه الى جلالة الملك عبدالعزيز.

قال الشيخ محمد سرور: إنها فكرة حسنة ولكن لي رأيا فى الموضوع أقوله لك. انك لو قدمت هذا المصحف المخطوط بعد اتمامه الى جلالة الملك عبدالعزيز فسيكون له الوقع الحسن لدى جلالته وسيكافئك عليه مكافأة حسنة، ولكن الفكرة ان هذا المصحف سيبقى مخطوطا فى خزانة الملك عبدالعزيز امدا طويلا، ولديك هنا شركة تأسست حديثا لتقوم بشئون الطباعة والنشر واشار الشيخ محمد سرور الى كاتب هذه الترجمة، فلماذا لاتتفق مع هذه الشركة على شراء هذا المصحف الذى تنوى كتابته لتقوم هذه الشركة بطبعه ونشره بين الناس؟.

وأبديت موافقتى على الفكرة كما ابدى الشيخ طاهر رحمه الله ترحيبه بها وواعدته الاجتماع فى داري بعد الغروب.

وكنت انا والمرحوم الصديق عبدالله باحمدين قد اشترينا مطبعة الشركة العربية للطبع والنشر وموجودات الشركة من الورق وما اليه بعد أن تعرضت للخسارة

شهـورا عديـدة، وبحثت الموضوع مع المرحوم الشيخ عبدالله باحمدين واتفق الرأى على أن كتـابـة المصحف ستكـون بدايـة لعمل عظيم فهو اول مصحف يكتب فى مكـة المكـرمـة، ويطبـع فيهـا وينشـر منهـا، حيث نزل القرآن أول مانزل فى مهبط الوحي في مكة المكرمة.

وحضـر الشيـخ طاهـر اليَّ بعـد الغـروب وتم الاتفـاق بيني وبينـه على كتـابـة المصحف الشـريف، وكـان الاختلاف الوحيد بيننا هو أنه حدد المدة اللازمة لاتمام كتابة المصحف فى حدود عامين، وكنت انا متعجلا ارغب اتمام هذا العمل خلال عام واحد، ولما رأى الشيخ طاهر رحمه الله الحاحي قال لي إن هذا عمل بالغ الدقة، وإنني لا استطيـع الاقـدام عليـه الا وانـا فى حالة نفسية متهيئة له التهيأ الكامل ثم اردف قد ابـدأ بالكتـابـه واستمـر فيهـا اياما أو أسابيع ولكن قد يطرأ مايمنعني عن الامسـاك بالقلم ايـامـا واسـابيـع اخـرى، فدعني اتصـرف بما يمليه عليَّ مزاجي ولاتنس ان الخـط عمـل فني، مثل الرسم، والشعر والكتابة، والفنان لايقدم على ممارسة فنه الا اذا تهيأت له الاسباب النفسية اولا، وكنت اعرف انما يقوله الاستاذ طاهر صحيح كل الصحه فوافقت عليه.

هذا وقد طلب الشيخ طاهر ورقا معينا واقلاما واحبارا معينة، وكان الزمن زمن حرب ولكن الله تعالى يسر الامر فوجدنا كلما طلبه في مكة المكرمة.

وبدأ العمل واتفقنا أن يكون المصحف موافقا للرسم العثماني، ومضت الشهور وكنت كلما رأيت الشيخ طاهر سألته ماذا فعل؟ فيجيب انه مستمر في عمله، وكان قد أحضـر لي بعض الصفحـات من أوائـل ما كتب واطلعني عليهـا، ثم عاد بعـد اسـابيـع واطلعني على نفس هذه الصفحـات وقـد كتبت مرة اخرى بخط أحسن وقال ان هذا هو الفارق بالنسبة لمزاج الخطاط حينما يكتب.

ولا أريد الاطالة على القارىء فقد انتهى الشيخ طاهر من كتابة القرآن الكريم بعـدمـا يقـرب من ثلاثـة أعـوام، وقبل الانتهاء كنا قد تقدمنا الى الحكومة نطلب تأليف لجنـة لتصحيـح المصحف الـذى قام بكتـابتـه الشيـخ طاهر رحمه الله فألفت

الحكومة لجنة كبيرة مكونه من الشيخ عبدالظاهر ابوالسمح امام المسجد الحرام فى ذلك الوقت والشيخ صالح حجازى شيخ القراء بمكة المكرمة، والمرحومين السيد محمد شطا والسيد ابراهيم النورى منّ وزارة المعارف، وقد باشرت اللجنةّ عملها، وللتاريخ فان الشخص الوحيد من بين اعضاء هذه اللجنةّ الذى تفرغ للمراجعة والتصحيح واعطى هذا العمل جهده وكامل اهتمامه هو المرحوم السيد ابراهيم النورى من وزارة المعارف، وحينما عرضنا عليه مكافأة مقابل هذا الجهد اعتذر عن قبولها فاعتبرناه مساهما فى الشركة التى تألفت لهذا الغرض بنسبة معينة وقد الفنا شركة خاصة لطبع القرآن ونشره فى مكة المكرمة اسميناها شركة مصحف مكة المكرمة واستوردنا لها مطبعة خاصة من امريكا ولاتزال الشركة تحمل هذا الاسم حتى اليوم.

اوشك العمل فى كتابة المصحف على الانتهاء كما اوشك التصحيح ان ينتهى وذات يوم اتصل بى المرحوم الشيخ عبدالله باحمدين تلفوينا وطلب مني الحضور الى مكة المكرمة حيث يجرى عرض المصحف على صاحب السمو الملكي الامير فيصل النائب العام لجلالة الملك المعظم لاول مرة، وذهبنا لمقابلة سموه فى قصره بالمعابدة فى ظاهر مكة وتقدم السيد ابراهيم النوري رحمه الله بتقديم نسخة المصحف الى سمو الامير فيصل وكنا المرحوم عبدالله باحمدين وأنا نقف معه، وابدى سموه اعجابه وقال انه عمل عظيم، ثم اقترح سموه ان يعرض هذا المصحف على جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز وقال: انني سأتحدث الى رئيس الحرس الملكي واظن ان اسمه كان ابراهيم جودت ليدخلكم على جلالة الملك عبدالعزيز.

عدت الى جدة وبعد عدة ايام ابلغني المرحوم الشيخ عبدالله باحمدين انهم دعوا على عجل للحضور الى القصر وانهم عرضوا المصحف على جلالة الملك عبدالعزيز فسر جلالته به كثيرا، واثنىّ على القائمين بالامر، ونفح كلا منهم مبلغا من المال تعبيرا عن تقدير جلالته واعجابه.

كانت الحرب العالمية الثانية تقترب من نهايتها، وكنت مضطرا لظروف صحية عائلية أن اسافر الى مصر وابقى بها بضعة شهور، وكنت حريصا أن أصطحب المصحف معي لعمل اكليشيهات له من النحاس والزنك توطئة لطبعه، ولم يكن عمل الاكليشهات متوفرا فى البلاد فى ذلك الزمان، وضعت المسودة المخطوطة للمصحف فى حقيبة خاصة حملتها معي الى مصر، وكان لابد من أخذ رخصة من الازهر الشريف بطبع المصحف ليكون معتمدا فى جميع البلاد الاسلامية فى ذلك الوقت.

اتصلت فى مصر بصديقنا الاستاذ صادق سعيد بازرعة واسرته من كبار التجار الحضارمة الذين اقاموا السنوات الطوال فى مصر واصبحوا مصريين بحكم الاقامة الطويلة لأبائهم وبحكم الميلاد لهم ولابنائهم وكانت الاسرة تعمل فى تجارة الصابون البنّ والبهارات التى يستوردونها من فلسطين وعدن وافريقيا والهند وكانت لهم وكالة كبيرة في الجمّالية كما كانوا يتمتعون بسمعة عالية فى الوسط التجارى في مصر. قال صديقنا الاستاذ صادق بازرعة هذه المسألة لايصلح لها الا السيد محمد عرفة شيخ المسجد الحسينى، كان ذلك في رمضان وجامع سيدنا الحسين قريب من وكالة بازرعة فذهبنا وادينا صلاة العصر وشرحنا الموضوع للسيد محمد عرفة، وكان يحضر للحج وكنت اراه في مكة المكرمة، وهورجل يجمع بين وقار العلم وحدة الذكاء وكانت صلاته بطبقات المجتمع المختلفة قوية ومتينة، فتجد فى غرفته الملحقة بالجامع الحسينى العِلْية من الناس من الباشوات والبكوات الى عامة الناس واوساطهم، استدعى السيد محمد عرفه ابنه وكان موظفا بوزارة الاوقاف وقال له اريدك ان تحضر لي غدا الشيخ محمد علي الضباع شيخ المقارىء المصرية ليصلي العصر هنا، والتفت الي قائلا وستصلي العصر معنا هنا ياحاج.. فشكرته واجتمعنا فى صلاة العصر فى اليوم الثاني، الشيخ الضباع وأنا وصادق سعيد بازرعه، واخبر السيد عرفة الشيخ الضباع بالغرض الذى دعاه من أجله، واوصاه بنا خيرا، واتفقنا مع الشيخ الضباع على الاجر الخاص بالتصحيح كما جرى

الاتفـاق مع المصنـع الـذى يعمـل الاكليشيهات حيث ترسل الصفحات التى يتم تصحيحهـا من الشيـخ الضبـاع الى المصنـع فاذا تم عمـل الزنكات طبعت عليها نماذج وارسلت للشيـخ مرة اخـرى ليعيـد تصحيحها ، وتستمر هذه العملية الى أن يتم عليهـا التصحيـح النهـائى للمصحف مع اتمام صنع الاكلشيهـات ، ثـم تصدر الرخصه من مشيخة المقارىء المصرية بالطبع . مكثت بضعة شهور فى مصر وأنـا اتـردد اسبـوعيـا وبعض الاحيان في كل ثلاثة ايام على الشيخ الضباع في بيته بالجيـزة وعلى المصنـع الذي يصنع الاكليشهات فى شارع عبدالعزيـز وكان صاحب المصنع ارمنيا شهيرا بصناعة الحفر وقد جعلنا الأكليشهات بحجمين احدهما المقاس المتوسط العادي والثانى المقاس الصغير وتم التصحيح النهائى أخيرا بعد أن كادت اطارات السيارة الصغيرة الهيلمان التي تقلني الى الجيزة وتعيدني منها كادت اطاراتها تذوب من كثرة الغدوُّ والرواح ، وكانت السيارات كما كانت الاطارات عزيزه في ايام الحرب العالمية الثانية وغالية الاثمان . انتهت الاكليشهات وبدأت أفكر في الطريقة التي يمكن بها تصديرها من القاهرة الى الحجاز وكانت القيود على التصدير بالغة الشدة وادركت انني لو اتبعت الطرق المعتادة لتعبت بالغ التعب دون نتائج مفيدة .

وفى ذلـك الـوقت بالـذات وصـل جلالـة المغفـور له الملك عبدالعزيز فى زيارته الـرسميـة الى مصـر وكـان بصحبتـه معـالى الشيـخ عبـدالله السليمان وزير المالية الاسبق ، وكـذلـك المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان ورأيت أن الله تعالى قد هيأ الاسباب بهذه الزيارة الملكية لتصدير اكلشيهات المصحف دون عناء شرحت الامر لمعالي الشيخ محمد سرور رحمه الله فقال لي أكتب ماتريد من الكتب بالتوصية على هذا الامـر وهـاتهـا لتـوقيعها ، كان الشيخ محمد سرور الصبان تربطه صلة صداقة عظيمـة بالسيـاسى المصـرى المعروف ابراهيم عبدالهادى باشا وكان وزيرا من ابرز وزراء الوفد فى ذلك العهد ، وكتبت الكتاب المطلوب لابراهيم باشا بلسان الشيخ محمـد سرور اشـرح له الوضعية ، كما كتبت كتابا آخر بنفس المعنى الى مكرم عبيد باشا وزير المالية ، وكان هو الوزير المختص الذى تتبعه الجمارك والتراخيص الخاصة

بالتصدير، وذهبت اولا الى ابراهيم عبدالهادى باشا واخذ سكرتيره الرسالة ودخل بها الى الوزير.

وعـاد ليتصـل امـامي تلفـونيـا بسكـرتير وزير المالية وكان اسمه الاستاذ حسن الاعـور ويـوصيـه بلسان الباشا بالاهتمام بالامر، وقابلت الاستاذ حسن الاعور في وزارة الماليه وسلمته كتاب الشيخ محمد سرور، فعاد ليتصل امامي بصندوق النقد الـذي كان يقـع في ميدان الاوبرا ويبلغهم توصية مكرم باشا وزير الماليه بعمل كل التسهيلات لتصدير الاكلشيهات الخاصة بالقرآن الكريم.

حصلت على الترخيص المطلوب في مدى ثلاثة ايام ولولم يهيىء الله الاسباب بزيـارة المغفـور له جلالـة الملك عبدالعزيز وحضور معالى الشيخ محمد سرور لربما استغرق الحصول على الترخيص الشهور الطوال.

انـه القـرآن الكـريم، وانـه تيسـير الله تعالى للقائمين على نشره بين الناس، وحينـما كنت افكـر في اجـراءات التصـديـر خطر لي أن اختصر الوقت وضعت الاكلشيهـات في حقيبـة خاصـة وارسلت هذه الحقيبـة ضمن حقائب الشيخ محمد سرور الـذى كان من القـائمـين على ترتيب شئـون الرحلة الملكيـة الى مصـر، ووصلت الحقيبـة الى مكـة بسـلام واصبحت الاكلشيهـات جاهـزة للطبع، وكان المـرحـوم عبـدالله باحمدين قد سافر الى امريكا وتعاقد لشركة المصحف على شراء المطبعة الاولى التى سيطبع عليها القرآن الكريم في مكة المكرمة.

ووصلت المطبعة، وحدث ان السيد ابراهيم النورى رحمه الله احيل الى المعاش بنـاءا على طلبـه فوجـدنـا انه اصلح الناس للقيام على ادارة شركة مصحف مكة المكرمة وهو الذى بذل جهدا مشكورا في تصحيح النسخة الخطية التى كتبها الشيخ طاهر كردى.

وهكـذا سلمت مقـاليـد الشركة الى السيد ابراهيم النورى رحمه الله بعد أن تم تأسيس الشـركـة بصـورة قانـونية، وكانت باكورة اعمالها طبع القرآن الكريم ونشره لاول مره فى مكة المكرمة بعد أن تمت كتابته فيها، وهذه السابقة التاريخية العظيمة

هى التى اختص بها الله الشيخ محمد طاهر الكردى لانه كان الخطاط الذى كتب القرآن الكريم في مكة المكرمة وهيأ الله تعالى لهذه النسخة التى كتبها أن تطبع فى مكة المكرمة وتنشر منها لا في مكة وحدها ولا فى المملكة العربية السعودية فحسب، وانما في سائر بلاد الاسلام، فمصحف مكة المكرمة اصبح يطلب فى جميع البلاد الاسلامية من اندنوسيا وباكستان والشرق الأقصى كله، الى افريقيا كلها.

إن الشيخ طاهر كردى رجل محظوظ فالمصاحف التى كتبت فى مكة المكرمة كثيرة وبعضها محفوظ فى مكتبات مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكثير منها اجمل خطا من المصحف الذى كتبه الشيخ طاهر الكردى ولكن الله تعالى اذا اراد أمرا هيأ له الاسباب. . وقد هيأ الله للمصحف الذى خطه الشيخ طاهر الكردى اسباب الذيوع والانتشار فتأسست له شركة خاصة قام اصحابها على اعداده للنشر واتخذوا الاسباب الكفيلة بهذا النشر حتى تم لهم الامر بعد الجهد والنصب.

ولقد مضى على تأسيس شركة مصحف مكة المكرمة مايقرب من اربعين عاما وهى توالى نشر الكتاب الكريم من مكة المكرمة وتستورد له المطابع الواحدة تلو الاخرى مسايرة تطور الطباعة في العصر الحديث، ولعلي لا اذيع سرا حينما اذكر ان شركة مصحف مكة المكرمة، لم تكتف بالمصحف الذى كتبه الشيخ طاهر الكردى وانما عمدت الى طبع مصاحف اخرى بخط اجمل كثيرا من خط الشيخ طاهر رحمه الله، كما استكتبت خطاطاشهيرا بجمال الخط واتقانه لكتابة مصحف لها، ولكن المصحف الذى كتبه الشيخ طاهر لايزال يحتل مكانه فى قلوب الناس، ويكفي ان نذكر ان شركة مصحف مكة قد قامت بطبع كمية من المصحف الذى كتبه الشيخ طاهر في حجم كبير جدا وجلدته تجليدا فاخرا وكانت هذه الطبعة ولاتزال تقدم هدية لجميع الملوك والرؤساء وكبار الزوار المسلمين القادمين الى المملكة كما انه يقدم من ضمن الهدايا الممتازة لكبار المسئولين السعوديين في زيارتهم للبلاد الاسلامية.

طاهــر كــردى الخطـاط

ومادمنا بصدد الحديث عن حسن كتابة الشيخ طاهر الكردى وجودة خطه فلابد أن نتحدث عن جانب آخر من جوانب شخصيته الكثيرة الجوانب فالرجل كان ممن تلقـوا تعليمهم فى الازهـر الشـريف، ثم التحق بمـدرسـة تحسين الخطوط العربية الملكيـة وتتلمـذ على كبار الخطاطين فيها، حتى اتقن الخط بانواعه المختلفة وحينما عاد الى المملكة كان مدرسا للخط بمدارسها، بل الاستاذ الاول للخط فيها، وله كراريس مطبـوعـة كما يظهـر ذلك من ثبت مؤلفاته التي كانت توزع على التلاميذ من ضمن الكتب المـدرسيـة لينسجوا على منوالها فى تعلمهم لفن الخط، ولقد بلغ من اتقان الشيـخ طاهـر لفنون الخـط انـه كان يكتب بعض قصار السـور مثل سورة الاخـلاص على حبـة من الارز وقـد اهداني بعض هذه الحبات من الارز المكتوب عليهـا بعض قصـار الســور، وقـد فقـدت ضمن مافقد من اوراقي ولكن صديقنا الشيخ محمد نور جمجوم رجل الاعمال المعروف لايزال يحتفظ بحبة من الارز بكتابة طاهـر الكـردى رحمـه الله وقـد اطلعني عليهـا في هذه الايـام ولعل عمرها يزيد عن الاربعين عاما.

وللشيخ طاهر رحمه الله لوحات فنية من كتاباته ولحسن الخط انه صورها في كتابه الكبـير التـاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، والذى سنتحدث عنه بعد واكتفى هنـا بذكـر مانشـر من مؤلفـاته فى فن الخط نقلا عن ثبت مؤلفاته المنشورة في كتابه ادبيات الشاى والقهوة والدخان :ـ

١ ـ تاريخ الخط العربي وآدابه.

٢ ـ الهندسة المدرسية ـ ويقول الشيخ طاهر أنه كان مقررا في مدارس المملكة.

٣ ـ رسالة في الدفاع عن الكتابة العربية في الحروف والحركات .

٤ ـ كراسة الحرمين في تعليم خط الرقعة ـ سبعة أجزاء .

٥ ـ حسن الدعابة فيما ورد في الخط وادوات الكتابة .

٦ ـ مجموعة الحرمين في تعليم خط النسخ ـ جزء واحد .

٧ ـ لوحة فنيه جميلة فيها صور الكعبة المشرفة لاشهر بناياتها .

٨ ـ لوحات فى الخطوط العربية .

٩ ـ نفحة الحرمين في تعليم خطي النسخ والثلث .

واذا تأملنا في اسماء هذه المؤلفات وجدنا أن الرجل عالم خط اذا صح هذا التعبير .

الخطاطـون الذيـن ادركتهـم

وعلى ذكـر الخـط اود أن اذكـر أن الناس في الحجاز في النصف الاول من القرن الهجـرى الـرابـع عشـر وبعد خروج الاجيال الاولى من المتعلمين فى مدارس مكة المكـرمـة وجدة والمدينة كانوا يهتمون بالخط واتقانه وذلك قبل ظهور الآلآت الكاتبة العربية ، وكان لهذا الخط اساتذته الذين يتقنون انواعه واذكر ان المرحوم الشيخ حمزة عجاج وهو من متخرجى الفلاح كان يحضر الى مدرسة الفلاح بجدة ويعلمنا الخط فى السنـة الثـانيـة الابتـدائية فى اوائل الاربعينات ولم يكن موظفا بالمدرسة وانما كان يعمل فى احدى الداوائر الحكومية او البيوت التجارية ولعله كان يؤ دى هذه الخدمة لمدرسـة الفـلاح دون مقـابـل نظـرا لصلة الصهـارة التى تربطـه بآل جمجوم وكلاء مدارس الفلاح فى ذلك الزمان، وماذاك الا لما كان يمتاز به من حسن الخط واتقانه .

كما اذكـر ان الاستـاذ ابراهيم توفيق كاتب عدل جدة الأسبق يرحمه الله كان من أجمـل تلاميـذ مدرسـة الفـلاح خطـا وقد احتاجت المدرسة اليه فلم يكمل دراسته وتحول من تلميذ بالمدرسة الى استاذ يعلم التلاميذ الخط ، بعدما كان يقتعد مكانه بينهم تلميذا من التلاميذ .

أهل مكه يرسلون اولادهم الى الخطاط

وكـان معـروفـا أن أهـل مكة المكرمة يرسلون اولادهـم الى الخطاط لتعلم الخط واتقانه وذلك جنبا الى جنب مع تعليمهم القرآن الكريم ومبادىء العلوم، وكانت مكـاتب الخطـاطـين في باب السلام قبل ادخاله فى توسعة المسجد الحرام فى العهد السعودى حيث كان باب السلام مركزا للكتبة وباعة الكتب وكان بعض الخطاطين يجلسون كذلك فى المسجد الحرام لهذه الغاية.

الشيخ سليمان الغزاوى وتاج الغزاوى

وكان الشيخ سليمان الغزاوى رحمه الله اشهر خطاط فى الحجاز كله وقد ادركته فى الاربعينـات حينـما انتقـل هو وأخـوه الشيـخ تاج الغـزاوى الى جدة خلال الحرب السعـوديـة الهاشمية باسرتيهما، وكان الشيخ سليمان رجلا اشيب رقيق البدن ولكنه كان فى هذه السن يحتفظ باجادته بل وبابداعه فى الخط، وكان باب البنط فى جده وبـاب مكـة قد حليـا بآيـات قرآنية مكتوبة بخط الشيخ سليمان الغزاوي يرحمه الله ولازلت اذكـر الآية الكريمة التى تقـابل القادم الى جدة من البحر والداخل من البـاب الـوحيـد الى المـدينـة وهو باب البنط «ادخلوها بسلام آمنين» وتحتها توقيعه بخـط واضـح، وهى من أجمـل مارأيت من الخطـوط، ولقد اشتغل الشيخ سليمان الغزاوى بتعليم الخط فى مدرسة الفلاح بمكة وحين انتقل الى جدة كما اسلفنا كان كذلـك يعلم تلاميـذ الفـلاح بها، ولقـد كان من نصيبى أن أكـون تلميذا لاخيه الشيـخ تاج غزاوي الـذى كان كذلـك معلما للخط فى مدارس الفلاح بمكة وحينما حضـر الى جدة باشـر تعليم الخـط فيهـا، ويبـدو ان الشيخ سليمان اختص بتعليم الصفوف العليا فى المدرسة واختص الشيخ تاج بالصفوف الاولى فيها. رحمهما الله جميعا.

الشيخ عبدالله متبولي

واذكر من الخطاطين الجيدين في مدينة جدة المرحوم الشيخ عبدالله متبولي إوالد الاستاذ عبدالمجيد متبولي من اوائل طلبة البعثات السعودية من مدينة جدة، وكان الشيخ عبدالله متبولي يعمل كاتبا لدى آل أجبير وكانوا من أكبر تجار مدينة جدة فى اوائل الأربعينات وكان جارا لدكاكين والدي وأعمامي في منطقة باب مكة حيث لايزال بيت المتبولي علما لفن البناء القديم في تلك المنطقة يزورها الأجانب ويصورونه، وكان الشيخ عبدالله متبولي بحكم هذا الجوار يعلمني وأخي الخط وكان شديدا يخافه تلاميذه، وكان التجار بصورة خاصة يحرصون على أن تكون دفاتر حساباتهم ورسائلهم التجارية مكتوبة بخط جميل للغاية فكان الناس يحرصون على اتقان الخط وتجويده.

الدوائر الحكومية

وكانت الدوائر الحكومية تهتم باسناد تحرير رسائلها الى كتاب اشتهروا بجودة الخط وجماله وكان فى كل دائرة قسم يدعى ـ قلم التحرير ـ واذكر ان قائممقامية جدة كان يدير قلم التحرير فيها المرحوم الشيخ على طه رضوان ـ الذى اصبح فيما بعد مساعدا لقائم مقام جدة ـ والشيخ محمود ابار الذى انتقل من قائم مقامية جدة الى ديوان النيابة العامة بمكة المكرمة، كما كان في قلم تحرير مالية جدة المرحوم الشيخ حسن ابوالعز وهو كذلك من اصحاب الخطوط الجميلة وهكذا فان الدوائر الحكومية كانت تعتبر الرّسائل التى تصدر عنها هى الوجه المعبر الذى يجب ان يتصف بالجودة والاتقان.

أدوات الكتابة

ولم تكن اقلام الحبر السائل والناشف قد وصلت الى البلاد فكان الناس

يعتمدون على اقلام البوص ويَبرُونَ هذه الاقلام بحيث تصبح للقلم سِنَّةٌ صغيرة مفشوخـة وكلما كان القلم حسن الـبراية والحـبر جيدا كلما ساعد هذا على اتقان الكتـابـة وحسنهـا، امـا الاحبـار فكـانت ترد فى شكـل مسحـوق اسـود ويُحلُّ هذا المسحوق بالماء ويوضع فيه خرقة من القماش الخفيف تسمى الزِّيَّة، حتى اذا غمس القلم في الدواة لم يخرج به من الحبر مايلوث الورق أو يد الكاتب.

الحبر نيشـان الكاتـب

وعلى أى حال فقد كان وجود الحبر فى ثياب الكاتب أو آثاره في يده لاتعتبر عيبا وكان هناك مثل متداول يقول ـ الحبر نيشان الكاتب.

التراب هـو النشـاف

ولما كان الحبر سائلا فانهم كانوا يستعملون فى تجفيفه التراب ويضعونه فى علبة صغيرة فيها خروق كثيرة بحيث يخرج منها هذا التراب الذى يجفف الحبر ولايفسد جمال الخط.

وكانوا يتفننون في اقتناء اصناف ادوات الكتابه وخاصه الدواة والاقلام، وبعض هذه الـدوايـات ـ مفـرد دواة ـ كان من البلور الخـالص الجميـل. وبظهـور الألات الكـاتبـة واقـلام الحـبر النـاشفـة والسـائلة انتهى عهد اتقان الخطوط وتحسينها بل وانتهى عهـد اتقـان الأمـلاء لان مراقبـة الخـط كانت تتبـع مراقبـة الكتـابة نفسها وسلامتها من الاخطاء الاملائية.

تاريخ الخط العربي وآدابـه

وسنتحـدث هنا قليلا عن كتابهتاريخ الخط العربي وآدابهوهو أهم مؤلفات الشيخ طاهـر الكـردى في فن الخـط وقـد طبـع الطبعـة الاولى في شهـر محرم من سنة سبع وخمسـين وثـلاثـمائـة و[illegible]، ثم اعـادت الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون طبعه مرة أخرى فى هذا العام ١٤٠٢هـ وحسننا فعلت فان الكتاب يكاد ان يكون

موسوعة عن الخط العربي وكلما يتعلق به.

تحدث فيه المؤلف عن نشأة الخط وتطوره مدعما ذلك بالصور والمراجع التى استقى منها المعلومات التى توصل اليها، ومن أطرف ماأورده المؤلف فى هذا الشأن أن التعبير بالكتابة بدأ بطريقة التصوير قبل الكتابة بالحروف المعروفة وكانت الكتابة الصورية تقوم على الرمز ويقول المؤلف فى شرح ذلك، ومثال الكتابة الصورية انك اذا اردت تدوين واقعة حرب مثلا فترسم ارضا ذات اغراس والى جانبها صور النقود وما اشبه ذلك وهذا ماجرى عليه اكثر الامم التى كانت قديما في مصر واشور وغيرها، ولما اتسعت عمارتهم اصطلحوا على بعض الرسوم للدلالة على معان كلية ليس لها صورة فى الخارج.

وقد أثبت المؤلف صور هذه الرسومات التى اصطلح عليها (١) وقد تحدث المؤلف عن الخطوط فى اللغات الهندية وماتفرع عنها من الخط الآرامي والسنسكريتي والسرياني كما تحدث عن الخط الهيروغلوفي موضحا كلما يكتبه في هذا المجال بصور لهذه الخطوط وترجمة للحروف والكلمات الى اللغة العربية.

كما تحدث عن الخط الاشورى والكلداني وأول المكتشفين لهذه الخطوط وأثبت صورا للصخور التي تحمل هذه الخطوط من المسند الارامي وانواع الخطوط المختلفة.

كما وضع سلسلة تبين تطور الخط العربى من بدء ظهوره حتى وصوله الينا بشكله الحاضر وهو يبدأ كالاتى :-

الخط المصرى - الفينيقي - الارامي - المسند - الصفوى - الثمودي - اللحياني - الحميري - الكندي - النبطي - الحيرى - الانباري - الحجازى - (٢).

ثم يتحدث المؤلف عن اللغات التى تكتب في الوقت الحاضر بالخط العربي

---

١ - انظر صفحة ٣٠ تاريخ الخط العربي وآدابه.

٢ - انظر صفحة ٤٨ تاريخ الخط العربي وآدابه.

وقد عدداثنتي عشرة لغة تندرج كلها تحت اسم اللغات التركية وسبع لغات تندرج تحت اسم اللغات الهندية واربع لغات تندرج تحت اسم اللغات الفارسية، وسبع لغات تندرج تحت اسم اللغات الافريقية.

ولاشك أن بعض هذه اللغات التى أشار اليها المؤلف وخاصة في تركيا الحديثة قد غيروا كتابتهم الى الحروف اللاتينية منذ عهد مصطفى كمال بعد انتهاء دولة الخلافة العثمانية في اعقاب الحرب العالمية الأولى واعلان الجمهورية التركية الأولى ولكن يبقى بعد ذلك ان عدد من يكتبون بالحروف العربية في العالم كبيرا.

وقد قدر المؤلف في كتابه المطبوع قبل مايقرب من نصف قرن عدد من يكتبون من غير العرب بالحروف العربية باكثر من مائتين وخمسين مليونا من البشر فليت شعرى ماهو مقدار من يكتبون بها في الوقت الحاضر من العرب وغيرهم ،ان التعداد يصل فيها أظن الى خمسمائة مليون من البشر.

ثم تحدث المؤلف عن كتابة الرسائل فى عهد النبى صلوات الله وسلامه عليه واورد اسماء كتابه ونقش خاتمه الذى كانت تختم به رسائله كما تحدث بمثل ذلك عن الخلفاء الاربعة وغيرهم من خلفاء المسلمين، وتحدث كذلك عن المشهورين من الخطاطين في أيام الامويين والعباسيين ثم تحدث عن بدء ظهور التشكيل في الخط وتطوره، كما تحدث عن المواد التى كانت تستعمل في الكتابه من الجلد والقراطيس وانواع الاقلام واسمائها، وانواع الخطوط المعروفة من النسخ والرقعة والثلث الكوفي والديواني وما الى ذلك، واثبت نماذج جميلة لكل هذه الخطوط بعضها بقلم المؤلف والكثير منها بقلم الخطاطين المشهورين الذين ينسب اليهم هذا الفن.

ثم تحدث المؤلف عمن اشتهر بالكتابة على الحبوب والبيض ولقد ذكرت ان الشيخ طاهر الكردى كان ممن يتقن الكتابة على الحبوب فى صدر هذا البحث، ثم تحدث عن الآثار والكتابات التى عليها والنقود والعملات التى ظهرت في عهود الخلفاء الراشدين وماتلاهم واورد صورا فوتوغرافيه للنقود في عهد الخلفاء الراشدين وعهد صلاح الدين وعهد هارون الرشيد وفي عهد الدولة الفاطمية، كما

أورد جداول باسماء الخطاطين المشهورين مرتبة على الحروف الهجائية.

ومن امتع فصول الكتاب الفصل الخاص بتراجم السلاطين الخطاطين وقد ذكر من بينهم الخليفة المستظهر بالله والخليفة المسترشد بالله وهما من خلفاء الدولة العباسية ثم سلاطين آل عثمان ثم سلاطين المسلمين الآخرين في شتى بقاع العالم الاسلامي، وأردف ذلك بتراجم الوزراء والباشوات من الخطاطين ثم بتراجم العلماء الخطاطين.

ثم تحدث عن النساء اللواتي اشتهرن بجودة الخط واتقانه. وذكر فيما ذكره أن أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب تعلمت الكتابة من الشفاء بنت عبدالله العدوية التى تعلمت الكتابة من معاوية ويزيد ابنا ابي سفيان رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

كما اورد المؤلف تراجم للخطاطين القدماء والمحدثين وسجلا باسمائهم والكتاب مزين بكثير من لوحات الخطوط الجميلة للخطاطين المختلفين وهويقع في أكثر من خمسمائة وخمسين صفحة وتزيد تعداد اللوحات والصور المثبته فيه على مائة وخمسين لوحة وصورة.

انه ليس كتابا عن الخط العربي وآدابه ولكنه يكاد ان يكون موسوعة تختص بالخط والكتابة ومايتفرع عنها وهو عمل عظيم جاء نتيجة لجهود متواصلة وابحاث تتصف بالدأب والمثابرة وهو مرجع من أهم المراجع فى هذا الفن العظيم.

طاهر كردى المؤلف

نعود بعد الاستطراد الطويل عن الخط الذى جرنا اليه الشيخ طاهر الكردى الخطاط لنتحدث عن جانب آخر من جوانب شخصيته المتعددة الجوانب فلقد كان الرجل مؤلفا مكثرا وقد اثبت في كتابه ادبيات الشاى والقهوة اسماء اثنين وعشرين كتابا مطبوعا عدا الكتب المخطوطة واهمها التفسير المكي وهو في اربع مجلدات وغيرها مما لم يذكر شيئا عنه، وقد اوردنا اسماء مؤلفاته الخاصة بالخط ونثبت هنا

أسماء المؤلفات الأخرى التى وردت فى هذا الثبت وهى المؤلفات المطبوعة :

١ ـ تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه.
٢ ـ ارشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة.
٣ ـ مقام ابراهيم عليه السلام.
٤ ـ منظومة فى صفة أشهر بنايات الكعبة المشرفة.
٥ ـ تحفة العباد في حقوق الزوجين والوالد والأولاد.
٦ ـ دعاء عرفه.
٧ ـ تعليق مختصر على تاريخ مكه للقطبي.
٨ ـ صورة حجر مقام ابراهيم عليه السلام.
٩ ـ التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم.
١٠ ـ النسب الطاهر الشريف.
١١ ـ الأدعية المختارة.
١٢ ـ تبرك الصحابة بآثار رسول الله ﴿ﷺ﴾.
١٣ ـ أدبيات الشاهي والقهوة والدخان.

ولقد ذكر الشيخ طاهر أن مؤلفاته تبلغ اثنين وأربعين مؤلفا طبع نصفها تقريبا ونستطيع أن نقسم هذه المؤلفات حسب أسمائها إلى الأقسام الآتيه :ـ

أ ـ كتب تاريخية وهى الصفة الغالبة على المؤلف.

ب ـ كتب دينية.

جـ ـ كتب فنيه وهى التى تتعلق بالخط وفنونه.

د ـ كتب ادبية طريفة.

ولقد تحدثنا عن الخط وما يتعلق به بما يكفي للتعريف بشخصية الشيخ طاهر رحمه الله فى هذه الناحية.

طاهر كردى المـؤرخ

ونتحـــدث الآن عن طاهــر كردى المؤرخ فان المستعـرض لاسـماء كتبـه يجد أن المؤلفات التاريخية هى الصفة الغالبة على الرجل، ولعل تعمقه فى هذه الناحية هو الـذى ساعـده على تأليف الكتب الـدينيـة وطالما أن أهم كتبه الدينية وهو التفسير المكى لم يظهـر الى النـور بعـد فان الحـديث عن هذه الناحية من شخصية المؤلف لايعتبر كاملا وحسبنا الاشارة اليها.

لقـد تفضـل الصـديق أحمـد مجاهد فبعث الي الأربعة اجزاء التى ظهرت على نفقته من أهم كتب الشيخ طاهر التاريخية وهو كتابه المسمى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم

والكتـاب موسـوعـة ضخمة عن مكة المكرمة وهو فى اربعة اجزاء كل جزء يزيد عن الثلاثمائة صفحة من القطع الكبير الذى يساوى ضعفى حجم الكتب الكبيرة المعتادة، وهو يحتوى على صور كثيرة كما تتسم المعلومات التى اوردها المؤلف عن كل المواضيع التى عالجها بالشمول والاحاطة مستعينا فى ذلك بما ورد فى مؤلفات المؤرخين السابقين الذين ذكر اسماءهم وتراجمهم وتحدث عنهم ومدعما مايصل اليه من اراء بالكتب الكثيرة التى رجع اليها والتى ذكر اسماءها ومواضع الاستشهاد منها.

وأهم من هذا وذاك أن المؤلف أتيـح له مالم يتـح لغيره من المؤلفين فلقد عاصر الاصـلاح الـذى تم للكعبـة المعظمة فى عام ١٣٧٧هـ كما عاصر التوسعة العظيمة للمسجد الحرام فى العهد السعودى والتى بدأت فى عام ١٣٧٥هـ ولم يكن المؤلف معـاصـرا لهذه الأحـداث التاريخية فحسب فما أكثر من عاصرها وانما كان عضوا فى اللجـان الـرسميـة التى تألفت لهذه الاصـلاحـات وذلك لسابق اهتمامه بالمباحث التـاريخيـة المتعلقـة بالمسجـد الحـرام فلقد ألَّف قبل هذه الأحداث كتابا عن تاريخ

مقام ابراهيم عليه السلام وحصل على اذن بفتح مقام ابراهيم ليطلع بنفسه على المقـام من الـداخـل والف رسـالـة وافية فى صفة المقام وذرعه واقوال المؤرخين عنه وموضعه وكلما يتعلق به .

هذه الاهتـمامـات للمؤلـف كما ذكـرنا هيأت الفرصه لاختياره عضوا فى الهيئات الرسمية الخاصة اولا باصلاح الخراب الذى حدث في الكعبة المشرفة كما ذكرنا ثم فى الهيئـة التى الفت للتـوسعـة العظيمة للمسجد الحرام فيما بعد، وقد أتاح له هذا الاختيـار ان يطلع على الكثـير من المعلومـاتّ الـدقيقـة التى لم تتـح لغـيره من المؤرخين، فهويقدم لنا وصفا دقيقا للآثار الدينية والمعمارية فى المسجد الحرام مزودة بالمقاسات الدقيقة والصور الشمسية وذلك بعد استعراض المراحل التاريخية التى مر بها الأثـر المـذكـور اذا صح هذا التعبير، بل أننا نجده بالنسبة لمقام الخليل ابراهيم على سبيل المثال يقدم لنا وصفا يوميا دقيقا للكيفية التى سار عليها العمل فى نقل المقـام من موضعـه السابق الى الموضع الحالي بعد أن وضع فى الصندوق الزجاجي الحـالي ويتحـدث عن المـوضـوع بتفصيـل يشمـل جميع التطورات التى صاحبت الفكرة من بدء تنفيذها الى حين اتمامها .

إن كتـاب التـاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريـم هوموسوعة تاريخية وهامة لمكة المكـرمـة وللمسجـد الحـرام بما حواه من الكعبة المعظمة ومقام ابراهيم وكلما يتعلق بالمسجـد الحـرام وأمـاكن المنـاسـك وهـويضم كلما أورده المؤرخـون السابقون ثم يضيف اليه الجديد فى عصر المؤلف وهوبهذه المثابة مرجع شامل عظيم القيمة لمن أراد التحقيق والبحث .

*****

النقص الهام فى الكتـاب

ولكن الكتـاب يخلو من الحـوادث السيـاسيـة خلوا تامـا ، يخلو من ذكـر الخلفاء الـذين حكمـوا البلد الأمـين والعهـود السياسية المختلفة التى مرت عليه والحروب التى نشبت فيـه وهـو بهذا يفقـد الصفـة التـاريخية التى يقوم عليها اسم الكتاب أو على الاقـل يفقـد جزءا هامـا من هذه الصفـة لخلوه من الحـوادث السيـاسية التى تتعلق بمكة المكرمة موضوع الكتاب .

عذر ساذج

ولقد ادرك المؤلف خلو كتابه من هذه الحوادث فاعتذر عن ذلك اعتذارا ساذجا اذا صح هذا التعبير فلقد جاء فى الجزء الاول من كتابه فى خطبة الكتاب بالحرف الواحد :ـ

(والسبب الـذى من أجله تركت ذكـر حوادث الحـروب بمكـة هو أن ذلـك يعرضنى الى ذكر مساوىء من سبقنى بالايمان من اموات المسلمين وهم قد قدموا الى ماعملوا ، وقد قال ﴿ﷺ﴾ اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم ، وايضا لابـد اذا ذكـرت ماوقـع بين فلان وفـلان اقـع فى غيبتهم والغيبـة حرام للاحيـاء والامـوات ، قال الله تعـالى ولا يغتب بعضكم بعضـا ، ثم إن ذكـر الحـروب من اختصـاص المؤرخـين السياسيين وأنا لااعرف فى السياسة شيئا منذ الصغر فالحمد الذى عافانى منها لاشتغل بما هو انفع واصلح لمثلي ، ففي الصحيحين ، كل ميسر لما خلق له وللتـين قوم وللجميـز اقـوام فالسياسة مطلوبة بل واجبة لكن على طبقة خاصة هى طبقة الملوك والوزراء والامراء الذين بيدهم الحل والعقد انتهى ماكتبه المؤلف بنصه (١) .

---

١) راجع صفحة ١٢و١٣ الجزء الاول من التاريخ القويم .

وردنـا على ذلـك هو أن ذكـر الحـوادث والحـروب التى وقعت بمكـة المكـرمـة لاتقتضى من المؤلف أن ينـال القـائمـين بها بالغيبـة والتعـريض ، والمؤرخ امـام الحـوادث التى ينقلها ويسجلها ازاء طريقين ان يذكر الحوادث منسوبة إلى مصادرها ويكتفى بذلـك ، أو يذكـر الحـوادث ويعلق عليهـا أو ينقـل تعليقات من سبقه من المؤرخـين عليهـا فإذا كان في هذه الحـوادث مايسبب الحـرج للمؤلف كأن يكـون اختلاف الرأى فيها وفى اسبابها كبيرا ، ولم يفتح الله عليه بشيء يجعله يرجح الرأى الصائب أو الاكثر صوابا ففى وسعه الاكتفاء بذكر الحوادث والامساك عن التعليق عليها ، تاركا للقارىء اتخاذ الحكم الذى تهديه اليه قراءته للحوادث واسبابها ، وإن كان المؤلف ممن اوتي الشجاعة لابداء الراي الصائب فله ان يسجله ويتحمل تبعاته .

أمـا تجنب ذكـر الحـوادث تفاديا لهذا الحرج أو للسبب الذى ذكره مؤلف كتاب التـاريـخ القـويم لمكـه وبيت الله الكـريم فهـو كما ذكرت من الاسباب التى تخرج الكتاب عن الصفهْ التى اراد المؤلف أن تكون لكتابه .

إن الحـــوادث السيـاسيـة والحـروب هي مادة التـاريـخ إذا صح هذا التعبـير ، فالحروب هي التي غيرت وتغير وجه العالم وكلما كانت الحروب كبيرة وواسعة كلما كان التغيير اشمل واعم .

ترى لو لم تخرج الجيوش الاسلامية من الجزيرة العربية فى صدر الاسلام فتديل من عرش الاكـاسـرة فى فارس والعـراق ، وتديل دولة الروم فى الشام وفى مصر ماذا كان حال هذه البـلاد ، وهـل اصبحت العـراق والشـام ومصـر والاردن وفلسطـين ولبنان بلادا عربية اسلامية؟ .

ولانـريـد الاكثـار من سرد الامثلة ولكني اكتفى بان اقـول ان الحـرب العـالميـة الاولى جلبت الاستعـمار للبـلاد العـربيـة كلهـا والحـرب العـالميـة الثانية اخرجت الاستعـمار من البـلاد العـربيـة كلهـا ، ومن كثير من البلدان فى آسيـا وافـريقيـا ، فالحروب ليست شرا مطلقا وانما قد ينتج منها الخير الكثير .

والحروب اذا كانت دفاعا عن عقيدة أو وطن فهي حروب مقدسة مفروضة على الناس،والقتل اذا كان دفاعا عن عرض أو مال فهو قتال شريف كريم ولاغبار عليه، نستطيع أن نقول أن كتاب الشيخ طاهر الكردى يمكن ان يكون اسمه الصحيح بعد ان خلا من اهم عناصر التاريخ وهى الحوادث السياسية والحروب يمكن ان يكون اسمه، التاريخ القويم لآثار مكة والبيت الكريم، ولو أن المؤلف سماه كذلك لما كان هناك مجال للاعتراض عليه بحال من الاحوال.

وبعد فان الكتاب كما ذكرت يحتل مكانة قيمة بين الكتب التى تؤرخ للبلد الكريم وللبيت الحرام وهو مرجع هام لهذه الآثار المقدسة وتطوراتها التاريخية وهو يمتاز بالاحاطة والشمول والدقة المبينة على المشاهدة والبحث وهو جهد مشكور للمؤلف رحمه الله تعالى يسلكه فى عداد المؤرخين لآثار مكة المكرمة والبيت الحرام فجزاه الله عن ذلك خير الجزاء.

مؤلفاته الأخرى

إن الشيخ طاهر كردى رجل متعدد الجوانب وقد تحدثنا عن اهم جوانبه فى هذه الصفحات ولقد اطلعت على كتاب مطبوع له اسمه ادبيات الشاى والقهوة والدخان وعجبت كيف يتفرغ الرجل للتأليف فى هذه الامور فالكتاب يذكر تاريخ الشاي والقهوة وماقيل فيهما من الشعر وكيف يصنع الشاي وادواته ومااالى ذلك، ولاشك ان جمع هذه الطرائف فيه كثير من الجهد ولكن الشيخ طاهر الكردى هو الشيخ طاهر الكردى الذى استطاع ان يعبر عن جانب آخر من جوانب شخصيته الاجتماعية التى ذكرتها فى صدر هذه الصفحات.

وهناك ناحية اخرى فى الرجل هى الناحية الشعرية فكتابة التاريخ القويم يتضمن أرجوزة نظمها فى تاريخ بناء الكعبة المعظمة وأراجيز اخرى فى مواضيع تتعلق بكتابه هذا، واذا كان لابد من التعليق عليها فأقول ان هذه الأراجيز تشبه أراجيز المتون التى كنا نحفظها كأرجوزة ابن مالك فى النحو والخريدة فى التوحيد،

والتى كانت تفرض علينا فى المدارس وهى كلام منظوم لايمت الى الشعر بادنى صلة والشيخ طاهر رحمه الله إنما يعبر عن ناحية أخرى من نواحى شخصيته المتعددة الجوانب كما سبق أن ذكرنا، فلنأخذه كما أراد الله له أن يكون، هناك الكتب الدينية التى ألفها الشيخ طاهر الكردى وأهمها كما ذكرت هو كتاب التفسير المكي فى أربعة أجزاء وهذا الكتاب لايزال مخطوطا ولم يتح لى الاطلاع عليه ولهذا لا استطيع الحديث عنه، وحبذا لو عنيت بالبحث عنه وعن مؤلفات الشيخ طاهر الاخرى احدى الجهات المعنية فى بلادنا بنشر الكتب كالنوادي الادبية وغيرها وعهدت الى المختصين بالموضوعات التى تعالجها هذه المؤلفات بدراستها ونشر مايستحق النشر منها افادة للناس واحياءا لذكرى الرجل الذى قضى حياته منكبا على التأليف.

بقية التاريخ القويم

لقد ذكرت انني اطلعت على اربعة اجزاء من كتابه القيم الجامع، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم والذى تحدثت عنه، بما فيه الكفاية فى الصفحات السابقة والكتاب كما يظهر لم يتم ولقد ذكر المؤلف أن الجزء الخامس يتحدث عن الحج وهذا الجزء لم يطبع بعد ولست ادرى إن كان لدى صديقنا الشيخ احمد مجاهد

الذى طبع الاجزاء الاربعة على نفقته جزاه الله عن العلم واهله خير الجزاء، لست ادرى إن كان هذا الجزء الخامس وربما غيره مما يكمل به الكتاب موجود لدى صديقنا الشيخ احمد مجاهد وهو يعتزم اصدار هذه البقية اكمالا للمكرمة العظيمة

التى قام بها أم إن هذه الكتب لاتزال ضمن مخطوطات الشيخ طاهر رحمه الله، وعلى أى حال فان نشر مابقي من كتاب التاريخ القويم فيه من الفائدة مايكمل العمل الطيب الذى بدأ به الرجل والذى يعتبر مع كتابته للمصحف الكريم من أجل الاعمال التى اداها والتى تسلكه فى عداد الاعلام من الرجال.

وقد توفى الشيخ طاهر الكردي فى ليلة الاثنين بتاريخ ٢٣ ربيع الثاني من عام

١٤٠٠هـ بمستشفى بخش بجـدة، ونقـل فى اليـوم التالى الى مكة المكرمة، رحمه الله وأحسن جزاءه لقاء مابذل من الجهد فى كتابة كتابه الكريم والعناية بتاريخ البلد الامين وبيت الله الحرام انه لايضيع أجر من أحسن عمـلا .

● ●

مصادر الكتاب

مصادر الكتاب

موسوعة تاريخ مدينة جدة

للاستاذ عبدالقدوس الانصارى

مجلة الاحكام الشرعية

للشيخ احمد القاري ، بتحقيق الدكتور عبدالوهاب ابوسليمان والدكتور محمد ابراهيم أحمد علي .

اعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة

للمؤلف .

نفثات من اقلام الشباب الحجازى .

للاساتذة هاشم الزواوى . وعبدالسلام الساسي ، وعلي حسين فدعق .

فى ظلال الصراحة .

للاستاذ عبدالسلام الساسي

نظرات فى الادب المقارن

للاستاذ عبدالسلام الساسي

الشعراء الثلاثة .

للاستاذ عبدالسلام الساسي

شعراء الحجاز فى العصر الحديث

للاستاذ عبدالسلام الساسي

الموسوعة الادبية (ثلاثة اجزاء) .

جمع عبدالسلام الساسي .

نفحات الاسلام من البلد الحرام
للسيد علوى عباسى المالكي .
فتح القريب المجيب على تهذيب
الترغيب والترهيب
للسيد علوى عباس المالكي .
ابانة الاحكام .
للسيد علوى المالكي والسيد حسن سليمان النورى
ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز.
فى القرن الرابع عشر للهجرة
للمؤلف .
رسائل الى ابنتى شيرين .
لحمزة شحاته .
رفات عقل
للاستاذ حمزة شحاته، اعداد الاستاذ عبدالحميد مشخص .
المجموعة الشعرية المخطوطة .
للاستاذ حمزة شحاته .
تاريخ عمارة المسجد الحرام .
للشيخ حسن عبدالله باسلامه .
تاريخ الكعبة المعظمة .
للشيخ حسين عبدالله باسلامه .
المسجد الحرام (ثلاثة مجلدات) .
اصدرتها وزارة المالية والاقتصاد الوطني تحتوى على التقرير الشامل لمشروع
التوسعة السعودية للمسجد الحرام
الباب الجديد للكعبة المشرفة .
الكتيب المصور الذى اصدرته وزارة الحجّ والاوقاف للباب الذهبي الجديد

الذى وضع للكعبة المشرفة .

مجلة المنهل .

اعداد متفرقة من المجلة الشهرية التى يصدرها الاستاذ عبدالقدوس الانصارى .

اظهار الحق (مجلدين) للشيخ رحمه الله بن خليل العثماني الكيلانى .

أكبر مجاهد فى التاريخ .

للشيخ محمد سليم بن محمد سعيد .

تطور الصحافة فى المملكة العربية السعودية .

للاستاذ عثمان حافظ .

آثار المدينة المنورة .

لعبدالقدوس الانصارى

وفاء الوفاء

للسمهودى

المماليك للدكتور السيد الباز العريفي

تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين .

للسيوطى

قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام

للدكتور أحمد مختار العبادى .

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم

محمد طاهر الكردى

ادبيات الشاى والقهوى والدخان .

محمد طاهر الكردى

تاريخ الخط العربي وآدابه

محمد طاهر الكردى

كتب صدرت للمؤلف

البعـــث

روايـة طويلة صدرت الطبعـة الأولى منهـا فى عام ١٣٦٤ هـ وأعيـد طبعهـا مع قصص أخرى فى سنة ١٤٠٣ هـ.

حبات من عنقود

مجموعة من الاحاديث القصيرة صدرت عام ١٣٨٧ هـ.

لعنة هذا الزمن.

مجموعة مقالات تتعلق بالأحداث العربية والاسلامية صدرت سنة ١٣٨٧ هـ.

أعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة، تراجـم لثلاثين من أعلام الرجال فى الحجاز صدر عام ١٤٠١ هـ.

ملامـح الحيـاة الاجتـماعيـة فى الحجـاز فى القـرن الـرابع عشر الهجرى من مختلف جوانبها صدر فى سنة ١٤٠١ هـ.

تصوير للحياة الاجتماعية خلال النصف الثانى من القرن الرابع عشر الهجرى.

أبوبكر الصديق خليفة رسول الله.

الكتاب الأول فى سلسلة أعلام الصحابة صدر فى سنة ١٤٠٣ هـ.

عمر بن الخطاب أمير المؤمنين.

الكتاب الثاني فى سلسلة أعلام الصحابة صدر فى سنة ١٤٠٣ هـ.

فهرس الموضوعات

• •



تمت الطباعة بمطابع

دار العلم للطباعة والنشر

جدة - خلف شارع الصحافة

مجمع مؤسسة المدينة للصحافة

هاتف ٦٦١٢١٠ - ص ب ٨٠٧ برقيا المسيرة - تلكس [illegible] ٤٣٥٠

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م